البداية والنهاية

الإمام الحافظ

المفسر المحدث الفقيه المؤرخ عماد الدين إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي الشافعي

الشهير بابن كثير

(701 - 774) هـ

طبعة مضبوطة، موزعة الفقرات، مخرجة الأحاديث والنصوص، معنونة وواضحة بأشياء لم تذكر في السابق، مقابلة على عدد من النسخ المطبوعة، مفهرسة الآيات والأحاديث والتراجم والموضوعات

اعتنى به

حسان عبد المنان

بيت الأفكار الدولية

سـهرت في ليلـي واستنعسـوا وهـل يسـتوي السـاهر والنـاعس؟

قال: وكان يقـول: تولـون اليهـود والنصارى، فيسبون نبيكـم في يـوم عيدكم، ثم يصبحون، يجلسون إلى جانبكم؟ ثم يقول: الا هل بلغت؟

قال: وكان يتشيع، ثم سُعي في منعه مـن الوعـظ، ثـم أذن لـه، ولكـن ظهر للناس أمر العبادي،وكان كثير من الناس يميلون إليه،وقد كان السلطان مسعود يعظمه، ويحضر مجلسه،فلما مـات السـلطان مسـعود ذلّ الغزنـوي بعده، وأهين إهانة بالغة، فمرض، ومات في المحرّم من هذه السنة.

قال ابن الجوزي: وبلغني أنه كان يعرق في نزعه، ثم يفيق وهـو يقـول: رضى وتسليم. ولما مات دفن في رباطه الذي كان فيه.

■ محمود بن إسماعيل بن قادوس أبـو الفتح الدمياطي، كـاتب الإنشـا بالديار المصرية، وهو شيخ القـاضي الفـاضل، وكـان يسـميه ذا البلاغتـين، وذكره العماد الكاتب في «الخريدة». وأثنى عليـه ومـن شـعره فيمـن يكـرر التكبير في أول الصلاة:

وفـاتر النِّيـة عِنّينهـا مـع كـثرة الرعـدة والهـزّة

يكـبِّر السـبعين في مـرة كأنـه يصلـي علـى جـرة

■ (ابن الحوراني).

الشيخ أبو البيان نبا بن محمد المعروف بابن الحوراني، الفقيـه، الزاهـد، العابد، الناسك، الخاشع قدس الله روحه، قرأ القرآن، وكتاب التنبيـه علـى مذهب الشافعي، وكان حسن المعرفة باللغة، كثير المطالعة، ولـه كـلام يؤثـر عنه، ورأيت له كتابا بخطه، فيه النظـائم الـتي لـه، يقولهـا أصحابـه وأتباعـه، بلهجة غريبة، وقد كان من نشأته إلى أن توفي على طريقة صالحة، وقد زاره الملك نور الدين محمود في رباطه داخل درب الحجـر، ووقـف عليـه شـيئا، وكانت وفاته يوم الثلاثاء، الثالث ربيع الأول، من هذه السنة، ودفن بمقـابر باب الصغير، وكـان يـوم جنازتـه يومـا مشـهودا. وقـد ذكرتـه في طبقـات الشافعية، رحمه الله.

■ عبد الغافر بن إسماعيل بن عبد الغافر بن محمـد بـن عبـد الغـافر بـن أحمد بن سعيد، الفارسي الحافظ، تفقه بإمام الحرمـين، وسمـع الكثـير علـى جده لأمه، أبي القاسم القشيري، ورحل إلى البلاد، وأسمع الكثير وصنـف المفهم في غريب مسلم، وغيره، وولي خطابة نيسابور، وكان فاضلا، بارعـاً، دينا، حافظا.

ثم دخلت سنة ثنتين وخمسين وخمسمائة

استهلت هذه السنة، ومحمـد شـاه بـن محمـود محـاصر بغـداد، والعامـة والجند من جهة الخليفة المقتفي يقاتلون أشد القتال، والجمعة لا تقـام لعـذر القتال، والفتنة كبيرة، ثم يسر الله، بذهاب السلطان، كما تقدم ذكر ذلك في السنة التي قبلها، وقد بسط ذلك ابن الجوزي في هذه السنة، فطول.

وفيها كانت زلزلة عظيمة بالشام، هلك بسببها خلق كثـير، لا يعلمهـم إلا الله، وتهدم أكثر حلب، وحماه، وشيزر، وحمـص، وكفرطـاب، وحصـن الأكراد، واللاذقية، والمعرة، وأفامية وأنطاكية، وطرابلس.

قال ابن الجوزي: وأما شيزر، فلـم يسـلم منهـا إلا امـرأة وخـادم لهـا، وهلك الباقون، وأما كفرطـاب فلـم يسـلم مـن أهلهـا أحـد، وأمـا أفاميـة فساخت قلعتها، وتل جران انقسم نصفين، فأبدى نواويس، وبيوتا كثيرة في وسطه. قال: وهلك من مدائن الفرنج شيء كثير وتهدم أسـوار أكـثر مـدن الشام، حتى أن مكتبا في مدينة حماه انهدم على من فيه من الصغار، فهلكوا عن آخرهم، فلم يأت أحد يسأل عن أحد منهـم. وقـد ذكـر هـذا الفصـل الشيخ أبو شامة، في كتاب الروضتين [١/٢٦١ - ٢٦٨] مستقصى، وذكر مـا قاله الشعراء من القصائد في ذلك.

وفيها ملك السلطان محمود بن زنكي حصن شيزر، بعد حصار شديد، وأخذ مدينة بعلبك، وكان بها الضحاك البقاعي، وقد قيل، إن ذلك كان في سنة خمسين، كما تقدم، فالله أعلم.

وفيها مـرض نـور الديـن، فمـرض الشـام بمرضـه، ثـم عـوفي، ففـرح المسلمون فرحا شديدا، واستولى أخوه قطب الدين مودود، صاحب الموصل على جزيرة ابن عمر.

وفيها عمل الخليفة بابا للكعبة مصفحـا بـالذهب، وأخـذ بابهـا الأول، فجعله لنفسه تابوتا.

وفيها أغارت الإسماعيلية على حجاج خراسان، فلم يبقوا منهم علـى أحد، لا زاهدٍ ولا عالم.

وفيها كان غلاء شديد بخراسان، حتى أكلوا الحشـرات، وذبـح إنسـان منهم رجلا علويا، فطبخه، وباعه في السوق، فحين ظهر عليه قتل.

وذكر أبو شامة أن فتح بانياس كان في هذه السنة، على يد نور الديـن بنفسه، وقـد كـان معين الدولـة سـلمها إلى الفرنـج، صلحـاً عـن دمشـق، فعوضهم بها، وقيل ملكها، وغنم شيئا كثيرا.

وفيها قـدم الشـيخ أبـو الوقـت عبـد الأول بـن عيسـى بـن شـعيب السجزي، فسُمع عليه البخاري،في دار الوزير ببغداد.

وحج بالناس قايماز.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن محمد بن عمر بن محمد بـن أحمـد بـن إسماعيل، أبـو الليـث النسفي من أهـل سمرقنـد، سمـع الحديـث وتفقـه ووعـظ، وكـان حسـن السمت، قدم بغداد، فوعظ الناس، ثم عاد إلى بلده، فقتلـه قطـاع الطريـق، رحمه الله تعالى.

■ أحمد بن بختيار بن علي بن محمـد، أبـو العبـاس، المندائي، الواسطي، قاضيها، سمع الحديث، وكانت له معرفة تامة بالأدب واللغة، وصنف كتبـا في التاريخ، وغير ذلك، وكـان ثقـة، صدوقـا، تـوفي ببغـداد، وصلـي عليـه بالنظامية.

السلطان

■ سنجر بـن ملكشـاه بـن ألـب أرسـلان بـن داود بـن ميكـائيل بـن سلجوق، أبو الحارث، واسمه أحمد، ولقب بسنجر، مولده في رجـب، سنة تسع وسبعين وأربعمائة، وأقام في الملك نيفا وستين سنة، من ذلك استقلالاً إحدى وأربعين سنة، وقد أسره الغز، نحوا من خمس سنين، ثم هرب منهم، وعاد إلى ملكه بمرو، ثم كانت وفاته في ربيع الأول من هذه السنة، ودفن في قبة بناها، سماها دار الآخرة، رحمه الله.

■ محمد بن عبد اللطيف بن محمد بن ثابت، أبو بكر الخجندي، الفقيه، الشافعي، ولي تدريس النظامية ببغداد، وكان ينـاظر حسـنا، ويعـظ النـاس، وحوله السيوف مسللة.

قال ابن الجوزي: ولم يكن ماهرا في الوعظ، وكانت حاله أشبه بالوزراء من العلماء، وتقدم عند السلاطين، حتى كـانوا يصـدرون عـن رأيـه، تـوفي

بأصبهان فجأة في هذه السنة.

■ **محمد بن المبارك بن محمد بن الخل أبو الحسن بن أبي البقاء**، سمع الحديث، وتفقه على الشاشي، ودرس، وأفتى، وتوفي في محرم هذه السنة، وتوفي أخوه الشيخ أبو الحسين بن الخل الشاعر في ذي القعدة منها.

■ **يحيى بن عيسى بن إدريس أبو البركات الأنباري الواعظ**، قرأ القرآن، وسمع الحديث، وتفقه، ووعظ الناس على طريقة الصالحين، وكان يبكي من أول صعوده إلى حين نزوله، وكان زاهدا، عابدا ورعا، آمرا بالمعروف، ناهيا عن المنكر، ورزق أولادا صالحين، سماهم بأسماء الخلفاء الأربعة، أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وحفظهم القرآن كلهم وختّم خلقا كثيرا، وكان هو وزوجته يصومان الدهر، ويقومان الليل، ولا يفطران إلا بعد العشاء، وكانت له كرامات، ومنامات صالحة، ولما مات قالت زوجته: اللّهم لا تحيني بعده، فماتت بعده بخمسة عشر يوما، وكانت من الصالحات، رحمهما اللّه تعالى.

ثم دخلت سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة

فيها كثر فساد التركمان، من أصحاب ابن برجم الإيوائي، فجهز إليهم الخليفة منكورس المسترشدي في جيش كثيف، فالتقوا معهم، فهزموهم أقبح هزيمة، وجاؤوا بالأسارى والرؤوس إلى بغداد.

وفيها كانت وقعة عظيمة بين السلطان محمود وبين الغز، فكسروه وقتلوا من أصحابه وغيره خلقاً كثيراً ونهبوا البلاد، وأقاموا بمرو، ثم طلبوه إليهم، فخاف على نفسه، فأرسل ولده بين يديه، فأكرموه، ثم قدم السلطان عليهم، فاجتمعوا عليه، وعظموه.

وفيها وقعت فتنة كبيرة بمرو بين فقيه الشافعية المؤيد بن الحسين، وبين نقيب العلويين بها أبي القاسم زيد بن الحسن، فقتل بينهم خلق كثير، وأحرقت المدارس، والمساجد والأسواق، وانهزم المؤيد الشافعي إلى بعض القلاع.

وفيها ولد الناصر لدين اللّه أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر اللّه.

وفيها خرج المقتفي نحو الأنبار متصيدا، وعبر الفرات، وزار الحسين، ومضى إلى واسط، وعاد إلى بغداد، ولم يكن معه الوزير.

وفيها كسر جيش مصر الفرنج، بأرض عسقلان، كسرة فظيعة صحبة الملك الصالح أبي الغارات، فارس الدين طلائع بن رزيك، وامتدحه الشعراء.

وفيها قدم الملك نور الدين من حلب إلى دمشق، وقد شفي من المرض، ففرح به المسلمون، وخرج إلى قتال الفرنج، فانهزم جيشه، وبقي هو في شرذمة قليلة من أصحابه،في لُجّة العدو، فرموهم بالسهام الكثيرة، ثم خافوا، أن يكون وقوفه في هذه الشرذمة القليلة، خديعة، لمجيء كمين إليهم، ففروا منهزمين، وللّه الحمد.

وحجّ بالناس فيها قايماز الأرجواني.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **عبد الأول بن عيسى بن شعيب بن إبراهيم بن إسحاق، أبو الوقت السجزي الصوفي الهروي**، راوي البخاري، ومسند الدارمي، والمنتخب من مسند عبد بن حميد، قدم بغداد، فسمع عليه الناس هذه الكتب، وكان من خيار المشايخ، وأحسنهم سمتا، وأصبرهم على قراءة الحديث.

قال ابن الجوزي: أخبرني أبو عبد اللّه محمد بن الحسين التكريتي الصوفي، قال: أسندته إلى فمات، وكان آخر ما تكلم به أن قال: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٧].

■ **نصر بن منصور بن الحسين بن أحمد بن عبد الخالق العطار، أبو القاسم الحراني**، كان كثير المال، يعمل من صدقاته المعروف الكثير من أنواع القربات الحسنة، ويكثر تلاوة القرآن، ويحافظ على الصلوات في الجماعة، ورئيت له منامات صالحة، وقارب الثمانين، رحمه اللّه

■ **يحيى بن سلامة بن الحسين بن محمد أبو الفضل الشافعي، الحصكفي** نسبة إلى حصن كيفا، كان إماما في علوم كثيرة، من الفقه، والآداب، ناظما ناثرا، غير أنه كان ينسب إلى الغلو في التشيع وقد أورد له ابن الجوزي قطعة من نظمه، فمن ذلك قوله في جملة قصيدة له.

تقاسموا يوم الوداع كبدي ... فليس لي منذ تولوا كبد
على الجفون رحلوا وفي الحشا ... تَنَكّلوا وماء عيني وردوا
فادمعي مسفوحة وكبدي ... مقروحة وغُلّتي ما تبرد
وصبوتي دائمة ومقلتي ... دامية ونومها مشرد
تيمني منهم غزال أغيد ... يا حبذا ذاك الغزال الأغيد
حمامه مجرد وصرحه ... ممرد وخده مورد
وصدغه فوق احمرار خده ... مبلبل معقرب مجعد
كأنما نكهته وريقه ... مسك وخمر والثنايا برد
يُقعده عند القيام ردفه ... وفي الحشا منه المقيم المقعد
له قوام كقضيب بانة ... يهتز قصداً ليس فيه أود

وهي طويلة جداً، ثم خرج من هذا التغزل إلى مدح أهل البيت والأئمة الاثنى عشر رحمهم اللّه تعالى، ونَفَعنا بهم، حيث يقول:

وسائلي عن حب أهل البيت هل ... أُقر إعلاناً به أم أجحد؟
هيهات ممزوج بلحمي ودمي ... حبهم وهو الهدى والرشد
حيدرة والحسنان بعده ... ثم علي وابنه محمد
وجعفر الصادق وابن جعفر ... موسى ويتلوه علي السيد
أعني الرضى ثم ابنه محمد ... ثم علي وابنه المسدد
والحسن التالي ويتلو تلوه ... محمد بن الحسن المفتقد
فإنهم أئمتي وسادتي ... وإن لحاني معشر وفندوا
أئمة أكرم بهم أئمة ... أسماؤهم مسرودة تطّرد
هم حجج اللّه على عباده ... وهم إليه منهج ومقصد
قوم لهم فضل ومجد باذخ ... يعرفه المشرك والموحد
قوم لهم في كل أرض مشهد ... لا بل لهم في كل قلب مشهد
قوم منى والمشعران لهم ... والمروتان لهم والمسجد
قوم لهم مكة والأبطح والخـ ... ـيف وجمع والبقيع الغرقد

ثم ذكر مقتل الحسين بالطّفّ إلى أن قال:

يا أهل بيت المصطفى يا عدتي ... ومن على حبهم أعتمد

أنتم إلى اللّه غداً وسيلتي ... وكيف أخشى وبكم أعتضد
وليكم في الخلد حي خالد ... والضد في نار لظى مخلد
ولست أهواكم ببغضي غيركم ... إني إذاً أشقى بكم لا أسعد
فلا يظنن رافضي أنني ... وافقته أو خارجي مفسد
محمد والخلفاء بعده ... أفضل خلق اللّه فيما أجد
هم أسسوا قواعد الدين لنا ... وهم بنوا أركانه وشيدوا
ومن يخن أحمد في أصحابه ... فخصمه يوم المعاد أحمد
هذا اعتقادي فالزموه تفلحوا ... هذا طريقي فاسلكوه تهتدوا
والشافعي مذهبي مذهبه ... لأنه في قوله مؤيد
أتبعه في الأصل والفرع معاً ... فليتبعني الطالب المسترشد
إني بإذن اللّه ناج سابق ... إذا ونى الظالم والمقتصد

وله أيضاً:

إذا قل مالي لم تجدني ضارعاً ... كثير الأسى مغرى بعض الأنامل
ولا بطراً إن جدد اللّه نعمة ... ولو أن ما أوتي جميع الأنام لي

توفي رحمه اللّه في ربيع الأول من هذه السنة بميافارقين.

ثم دخلت سنة أربع وخمسين وخمسمائة

فيها مرض الخليفة المقتفي مرضا شديدا، ثم عوفي منه فزينت له بغداد أياما، وتصدق بصدقات كثيرة.

وفيها استعاد عبد المؤمن مدينة المهدية من أيدي الفرنج، وقد كانوا أخذوها من المسلمين،في سنة ثلاث وأربعين.

وفيها قاتل عبد المؤمن خلقاً كثيراً ببلاد الغرب، حتى صارت عظام القتلى هناك كالتل العظيم فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي صفر منها، سقط برد بالعراق كبار، زنة البردة قريب من خمسة أرطال، ومنها ما هو تسعة أرطال بالبغدادي، فهلك بذلك شيء كثير من الغلات، وخرج الخليفة إلى واسط، فاجتاز بسوقها، ورأى جامعها، وسقط عن فرسه فشج جبينه، ثم عوفي.

وفي ربيع الآخر، زادت دجلة زيادة عظيمة، فغرقت بسبب ذلك محال كثيرة من بغداد، حتى صار أكثر الدور بها تلولا، وغرقت تربة الإمام أحمد، وتخسّفت هنالك القبور، وطفت الموتى على وجه الماء. قاله ابن الجوزي.

وفي هذه السنة، كثر المرض والموت.

وفيها أقبل ملك الروم في جحافل كثيرة، قاصدا بلاد الشام، فرده اللّه خائبا خاسئا، وذلك لضيق حالهم من الميرة، وأسر المسلمون ابن أخته، وللّه الحمد والمنة.

وحج بالناس في هذه السنة قايماز الأرجواني.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ أحمد بن معالي بن بركة الحربي، تفقه بأبي الخطاب الكلوذاني الحنبلي، وبرع، وناظر، ودرس، وأفتى، ثم صار بعد ذلك شافعيا، ثم عاد حنبليا، ووعظ ببغداد، وتوفي في هذه السنة، وذلك أنه دخلت به دابته في مكان ضيق، فدخل قربوس سرجه في صدره، فمات رحمه اللّه.

السلطان محمد شاه بن محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان: لما رجع من محاصرة بغداد إلى همذان أصابه مرض السل، فلم ينجع منه، بل توفي في ذي الحجة من هذه السنة، وقبل وفاته بأيام، أمر أن يعرض عليه جميع ما يملكه، ويقدر عليه، وهو جالس في المنظرة، فركب الجيش بكماله، وأحضرت أمواله كلها، ومماليكه، حتى جواريه، وحظاياه، فجعل يبكي ويقول: هذه العساكر، لا يدفعون عني مثقال ذرة من أمر ربي، ولا يزيدون في عمري لحظة. ثم ندم، وتأسف، على ما كان منه إلى الخليفة المقتفي، وأهل بغداد، وحصارهم، وأذيتهم، ثم قال: وهذه الخزائن، والأموال، والجواهر، لو قبلهم ملك الموت مني فداء، لجدت بذلك جميعه له، وهذه الحظايا، والجواري الحسان، والمماليك، لو قبلهم فداء مني لكنت بذلك سمحا له. ثم قال ﴿مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٨، ٢٩] ثم فرق شيئا كثيرا من ذلك، من تلك الحواصل، والأموال، وتوفي عن ولد صغير، واجتمعت العساكر، والأمراء على عمه سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه، وكان مسجونا بالموصل، فأفرج عنه، وانعقدت له السلطنة، وخطب له على منابر تلك البلاد، سوى بغداد، والعراق. واللّه سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة خمس وخمسين وخمسمائة

فيها كانت وفاة الخليفة المقتفي بأمر اللّه أبي عبد اللّه محمد بن المستظهر باللّه، وأمه نسيم، المدعوّة ست السادة، سمراء من خيار الجواري، مرض بالتراقي وقيل بدُمّل خرج في حلقه، فمات ليلة الأحد، ثاني ربيع الأول منها، عن ست وستين سنة، إلا ثمانية وعشرين يوما، ودفن بدار الخلافة، ثم نقل إلى الترب، وكانت خلافته أربعا وعشرين سنة وثلاثة أشهر وستة عشر يوماوكان شهما،شجاعا،مقداما،مباشر الأمور بنفسه، ويشاهد الحروب، ويبذل الأموال الكثيرة لأصحابه الأخبار،وهو أول من استبد بالعراق منفردا عن السلطان، من أول أيام الديلم إلى أيامه، وتمكن في الخلافة،وحكم على العسكر،والأمراء،وقد وافق أباه في أشياء: من ذلك مرضه بالتراقي،وموته في ربيع الأول،وتقدم موت السلطان محمد شاه قبله بثلاثة أشهر،وكذلك المستظهر، مات قبله محمد بثلاثة وبعد غرق بغداد بسنة مات القائم،وكذلك هذا.

قال عفيف الناسخ: رأيت في المنام قائلا يقول: إذا اجتمعت ثلاث خاءات مات المقتفي يعني خمسا وخمسين وخمسمائة.

خلافة المستنجد باللّه أبي المظفر يوسف بن المقتفي

لما توفي أبوه كما ذكرنا بويع بالخلافة،في صبيحة يوم الأحد، ثاني ربيع الأول، من هذه السنة، بايعه أشراف بني العباس، ثم الوزير، والقضاة، والعلماء، والأمراء، وعمره يومئذ خمس وأربعون سنة، وكان رجلا صالحا، وكان ولي عهد أبيه من مدة متطاولة، ثم عمل عزاء أبيه، ولما ذكر اسمه يوم الجمعة في الخطبة نثرت الدراهم والدنانير على الناس، وفرح المسلمون به بعد أبيه، وأقر الوزير ابن هبيرة على منصبه، ووعده بذلك إلى الممات، وعزل قاضي القضاة ابن الدامغاني، وولي مكانه أبا جعفر بن عبد الواحد الثقفي، وكان شيخا كبيرا، له سماع بالحديث، وباشر الحكم بالكوفة، ثم توفي في ذي الحجة منها فولي مكانه ابنه جعفر.

وفي شوال من هذه السنة اتفق الأتراك بباب همذان على خلع سليمان شاه، وخطبوا لأرسلان شاه بن طغرل.

وفيها توفي

■ **الفائز بنصر الله الفاطمي** صاحب مصر: وهو أبو القاسم عيسى بن إسماعيل الظافر، وكانت وفاته في صفر منها، وعمره يومئذ إحدى عشرة سنة، ومدة ولايته من ذلك ست سنين وشهران، وكان مدبر دولته أبو الغارات. ثم قام بعده العاضد آخر خلفائهم، وهو أبو محمد عبد الله بن يوسف بن الحافظ، ولم يكن أبوه خليفة، وكان يومئذ قد ناهز الاحتلام، فقام بتدبير مملكته الملك الصالح طلائع بن رزيك الوزير، أخذ له البيعة، وزوجه بابنته، وجهزها بجهاز عظيم، وقد عمرت بعد زوجها العاضد، ورأت زوال دولة الفاطميين، على يد الملك صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي، في سنة أربع وستين، كما سيأتي مفصّلاً إن شاء الله تعالى.

وفيها كانت وفاة السلطان الكبير صاحب غزنة:

■ **خسرو شاه بن بهرام شاه بن مسعود بن إبراهيم بن مسعود بن محمود بن سبكتكين**، من بيت ملك، ورياسة باذخة، يرثونها كابرا عن كابر، وكان من سادات الملوك، وأحسنهم سيرة، يحب العلم وأهله، وكانت وفاته في رجب من هذه السنة، وقام من بعده ولده ملكشاه، فسار إليه علاء الدين الحسين بن الغور، فحاصر غزنة مدة، فلم يقدر عليها، فرجع خائبا.

وفيها مات

■ **ملكشاه بن السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان** السلجوقي بأصبهان مسموما، يقال إن الوزير عون الدين بن هبيرة دس إليه من سقاه إياه، والله أعلم.

وفيها مات أمير الحاج

■ **قايماز بن عبد الله الأرجواني**: سقط عن فرسه وهو يلعب بالكرة بميدان الخليفة، فسال دماغه من أذنه، فمات من ساعته، رحمه الله، وقد كان من خيار الأمراء، فتأسف الناس عليه، وحضر جنازته خلق كثير، مات في شعبان من هذه السنة، فحج بالناس فيها الأمير أرغش، مُقْطَع الكوفة.

وحج في هذه السنة الأمير الكبير شيركوه بن شاذي، مقدم عساكر الملك نور الدين محمود بن زنكي، وتصدق بأموال كثيرة.

وفيها استعفى القاضي زكي الدين أبو الحسن علي بن محمد بن يحيى القرشي من القضاء بدمشق، فأعفاه نور الدين، وولى مكانه القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري، وكان من خيار القضاة، وأكثرهم صدقة، وله صدقات جارية بعده، وكان عالما بارعاً، وإليه ينسب الشباك الكمالي، الذي يجلس فيه الحكام بعد صلاة الجمعة، من المشهد الغربي بالجامع الأموي، والله أعلم.

وممن توفي فيها من الأعيان

الأمير مجاهد الدين:

■ **بُزّان بن مامين الكردي**، أحد مقدمي جيش الشام قبل الملك نور الدين وبعده، وقد ناب في مدينة صرخد مدة، وكان شهما، شجاعا، كثير البر والصدقات والصلات، وهو واقف المدرسة المجاهدية، بالقرب من النورية، وله أيضا المدرسة المجاهدية، التي داخل باب الفراديس البراني، وبها قبره. وله السبع المجاهدي، داخل باب الزيادة من الجامع، بمقصورة الخضر، كانت وفاته بداره في صفر من هذه السنة، فحمل إلى الجامع، وصلي عليه، ثم أعيد إلى مدرسته، ودفن بها، داخل باب الفراديس، وتأسف الناس عليه رحمه الله ورضي الله عنه.

الشيخ

■ **عدي بن مسافر بن إسماعيل بن موسى بن مروان بن الحسن بن مروان الهكاري**، شيخ الطائفة العدوية، أصله من البقاع، غربي دمشق، من قرية بيت فار، ثم رحل إلى بغداد، فاجتمع فيها بالشيخ عبد القادر والشيخ حماد الدباس، والشيخ عقيل المنبجي، وأبي الوفا الحلواني، وأبي النجيب السهروردي، وغيرهم، ثم انفرد عن الناس، وتخلى بجبل الهكارية، وبنى له هناك زاوية، واعتقد فيه أهل تلك الناحية اعتقادا بليغا، حتى إن منهم من يغلو غلوا كثيرا منكرا. ثم كانت وفاته في هذه السنة بزاويته وله تسعون سنة.

■ **عبد الواحد بن أحمد بن محمد بن حمزة، أبو جعفر الثقفي**، قاضي قضاة بغداد، وليها بعد عزل أبي الحسن بن الدامغاني، في أول هذه السنة، وكان قاضيا بالكوفة قبل ذلك، ثم كانت وفاته في ذي الحجة من هذه السنة، وقد ناهز الثمانين، وولي بعده ولده جعفر.

■ **الفائز صاحب مصر وقيماز** تقدما في الحوادث.

الخليفة

■ **المقتفي أبو عبد الله محمد بن أبي العباس أحمد المستظهر**، تقدمت ترجمته عند وفاته.

■ **محمد بن يحيى بن علي بن مسلم أبو عبد الله الزبيدي**، مولده بمدينة زبيد باليمن، سنة ثمانين، وقدم بغداد سنة تسع وخمسمائة، فوعظ، وكانت له معرفة بالنحو، والأدب، وكان صبورا على الفقر، لا يشكو حاله إلى أحد، وكانت له أحوال صالحة، رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ست وخمسين وخمسمائة

فيها قتل السلطان سليمان شاه بن محمد بن ملكشاه، وكان عنده تهور، وقلة مبالاة بالدين، يدمن شرب الخمر حتى في رمضان، فثار عليه مدبر مملكته كردبازو الخادم، فقتله، وبايع بعده السلطان أرسلان شاه بن طغرل بن محمد ابن ملكشاه.

وفيها قتل **الملك الصالح فارس الدين، أبو الغارات، طلائع بن رزيك الأرمني**، وزير العاضد صاحب مصر، ووالد زوجته، وكان قد حجر على العاضد لصغره، واستحوذ على الأمور فقتلته الحاشية، ووزر بعده ولده رزيك، ولقب بالعادل، وقد كان أبوه الصالح كريما أديبا، يحب أهل العلم، ويحسن إليهم، كان من خيار الملوك والوزراء، وقد امتدحه غير واحد من الشعراء.

قال ابن خلكان: كان أولا متوليا بمنية بني الخصيب، ثم آل به الحال إلى أن وزر للفائز، وذهبت له وزارة عباس في سنة تسع وأربعين، ثم لما هلك في هذه السنة قام في الوزارة بعده ولده العادل رزيك بن طلائع، فلم يزل فيها حتى انتزعها منه شاور، كما سيأتي. قال: والصالح هذا هو باني الجامع عند باب زويلة ظاهر القاهرة. قال: ومن العجائب أنه ولي الوزارة في تاسع عشر شهر، وقتل في تاسع عشر شهر. ونقل من دار الوزارة إلى القرافة في تاسع عشر شهر آخر وزالت دولتهم في تاسع عشر شهر آخر. قال: ومن شعره ما رواه عنه الواعظ زين الدين علي بن نجا الحنبلي، وهو

قوله:

مشيبك قد نَضَا صِبْغَ الشباب　　وحل الباز في وكر الغراب
تنام ومقلة الحدثان يقظى　　وما ناب النوائب عنك ناب
وكيف بقاء عمرك وهو كنز　　وقد أنفقت منه بلا حساب

وقوله:

كم ذا يرينا الدهر من أحداثه　　عبراً وفينا الصد والإعراض
ننسى الممات وليس يجري ذكره　　فينا فتذكرنا به الأمراض

ومن شعره الجيد أيضاً قوله:

أبى اللّه إلا أن يدين لنا الدهر　　ويخدمنا في ملكنا العز والنصر
علمنا بأن المال تفنى الوفه　　ويبقى لنا من بعده الأجر والذّكر
خلطنا الندى بالبأس حتى كأننا　　سحاب لديه البرق والرعد والقطرُ

وله أيضاً وهو مما نظمه قبل موته بثلاث ليال:

نحن في غفلة ونوم وللمو　　ت عيون يقظانة لا تنام
قد رحلنا إلى الحمام سنيناً　　ليت شعري متى يكون الحمام؟

ثم قتله غلمان العاضد في النهار، غيلة، وله إحدى وستون سنة، وخلع على ولده العادل بالوزارة، ورثاه عمارة التميمي بقصائد حسان، ولما نقل إلى تربته بالقرافة، سار العاضد معه، حتى وصل إلى قبره في التابوت.

قال القاضي بن خلكان: فعمل الفقيه عمارة في ذلك قصيدة طويلة فأجاد فيها فمن ذلك في صفة التابوت قوله:

وكأنه تابوت موسى أودعت　　في جانبيه سكينة ووقار

وفيها أوقعت بنو خفاجة، بأهل الكوفة، وقعة عظيمة فقتلوا من أهل الكوفة خلقا، منهم الأمير قيصر، وجرحوا أمير الحاج أرغش جراحات، فنهض إليهم وزير الخلافة عون الدين بن هبيرة، في جيش فتبعهم، حتى أوغل خلفهم في البرية،في جيش كثيف، فبعثوا يطلبون العفو.

وفيها ولي مكة الشريف عيسى بن قاسم بن أبي هاشم، وقيل قاسم بن أبي فليتة بن قاسم بن أبي هاشم.

وفيها أمر الخليفة المستنجد بإزالة الدكاكين التي تضيق الطرقات، وأن لا يجلس أحد من الباعة في عَرْصة الطرقات، لئلا يضر ذلك بالمارة.

وفيها وقع رخص عظيم ببغداد جدا.

وفيها فتحت المدرسة التي بناها ابن الشمحل في المأمونية، ودرس فيها أبو حكيم إبراهيم بن دينار النهرواني الحنبلي، وقد توفي من آخر هذه السنة، ودرس بعده فيها أبو الفرج بن الجوزي، وقد كان عنده معيدا، ونزل له عن تدريس آخر بباب الأزج عند موته.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ حمزة بن علي بن طلحة: أبو الفتوح الحاجب، وكان خصيصا عند المسترشد والمقتفي أيضاً، وقد بنى مدرسة إلى جانب داره، وحج، فرجع متزهدا، فلزم بيته معظما نحوا من عشرين سنة، وكانت وفاته في هذه السنة وقد امتدحه بعضهم فقال:

يا عضد الإسلام يا من سمت　　إلى العلا همته الفاخرة
كانت لك الدنيا فلم ترضها　　ملكا فأخلدت إلى الآخرة

ثم دخلت سنة سبع وخمسين وخمسمائة

فيها دخلت الكرج بلاد المسلمين، فقتلوا خلقا من الرجال، وأسروا من الذراري أمماً، فاجتمع لحربهم ملوك تلك الناحية: إيلدكز صاحب أذربيجان، وابن سكمان صاحب خلاط، وابن آق سنقر صاحب مراغة، وساروا إلى بلادهم في السنة الآتية، فنهبوها، وأسروا ذراريهم، والتقوا معهم، فكسروهم كسرة فظيعة منكرة، مكثوا يقتلون فيهم ويأسرون ثلاثة أيام.

وفي رجب أعيد يوسف الدمشقي إلى تدريس النظامية، بعد عزل ابن نظام الملك، بسبب أن امرأة ادعت أنه تزوجها، فأنكر، ثم اعترف، فعزل عن التدريس.

وفيها كملت المدرسة التي بناها الوزير ابن هبيرة بباب البصرة، ورتب فيها مدرسا، وفقيها.

وحج بالناس أمير الكوفة أرغش.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ شجاع شيخ الحنفية: بمشهد أبي حنيفة، كان جيد الكلام في النظر، أخذ عنه الحنفية ودفن عند المشهد.

■ صدقة بن وزير الواسطي: دخل بغداد، ووعظ بها، وأظهر تقشفا، وكان يميل إلى التشيع وعلم الكلام، ومع هذا كله راج على العوام، وبعض الأمراء، وحصل له فتوح كثيرة، ابتنى منه رباطا، ودفن فيه، سامحه اللّه تعالى.

■ زمرد خاتون: بنت جاولي، أخت الملك دُقاق بن تتش لأمه، وهي بانية الخاتونية، ظاهر دمشق، عند قرية صنعاء، بمكان يقال له تل الثعالب، غربي دمشق، على جانب الشرق القبلي، بصنعاء الشام، وهي قرية معروفة قديما، وأوقفتها على الشيخ برهان الدين علي بن محمد البلخي الحنفي، المتقدم ذكره، وكانت زوجة الملك بوري بن طغتكين، فولدت له ابنيه شمس الملوك إسماعيل المذكور، وقد ملك بعد أبيه، وسار سيرته، ومالأ الفرنج على المسلمين، وهمَّ بتسليم البلد والأموال إليهم، فقتلوه، وتملك أخوه، وذلك بعد مراجعتها، ومساعدتها، وقد كانت قرأت القرآن، وسمعت الحديث، وكانت حنفية المذهب، تحب العلماء، والصالحين، وقد تزوجها الأتابكي زنكي صاحب حلب، طمعا في أن يأخذ بسببها دمشق، فلم يظفر بذلك، بل ذهبت إليه إلى حلب، ثم عادت إلى دمشق بعد وفاته، وقد دخلت بغداد، وسارت من هناك إلى الحجاز، وجاورت بمكة سنة، ثم جاءت فأقامت بالمدينة النبوية، حتى ماتت بها، ودفنت بالبقيع في هذه السنة، وقد كانت كثيرة البر، والصدقات، والصلاة، والصوم.

قال السبط: ولم تمت حتى قل ما بيدها، وكانت تغربل القمح، والشعير، وتتقوت بأجرته. وهذا من تمام الخير، والسعادة، وحسن الخاتمة، رحمها اللّه تعالى، واللّه أعلم.

ثم دخلت سنة ثمان وخمسين وخمسمائة

فيها مات صاحب المغرب، عبد المؤمن بن علي تلميذ ابن تومرت، وخليفته من بعده، في الملك بمدينة سلا حضره ابنه يوسف، وحمل أباه إلى مراكش، في صفة أنه مريض، فلما وصلها أظهر موته، فعزاه الناس، وبايعوه على الملك من بعد أبيه، ولقبوه أمير المؤمنين، وقد كان عبد المؤمن هذا حازما شجاعا، جوادا، معظما للشريعة، وكان من لا يحافظ على الصلوات في زمانه يقتل، ولكن كان سفاكا للدماء، حتى على الذنب الصغير، فأمره إلى الله، يحكم فيه بما يشاء.

وفيها قتل الملك سيف الدين محمد بن علاء الدين الغوري قتله الغز، وكان عادلا.

وفيها كبست الفرنج نور الدين، وجيشه، فانهزم المسلمون، لا يلوي احد على أحد، ونهض الملك نور الدين، فركب فرسه، والشبحة في رجله، فنزل رجل كردي فقطعها، فسار نور الدين فنجا، وأدركت الفرنج ذلك الكردي، فقتلوه، رحمه الله، فأحسن نور الدين إلى ذريته، وكان لا ينسى ذلك له.

وفيها أمر الخليفة بإجلاء بني أسد عن الحلة، وقتل من تخلف منهم؛ وذلك لإفسادهم، ومكاتبتهم السلطان محمد شاه، وتحريضهم له على حصار بغداد، فقتل من بني أسد أربعة آلاف، وخرج الباقون منها، وتسلم نواب الخليفة الحلة المزيدية.

وحج بالناس في هذه السنة الأمير أرغش.

وممن توفي فيها من الأعيان

السلطان الكبير أبو محمد

■ عبد المؤمن بن علي: القيسي الكومي تلميذ ابن التومرت، كان أبوه يعمل في الطين فاعلاً، فحين وقع نظر ابن التومرت عليه، أحبه، وتفرس فيه أنه سعيد، فاستصحبه، فعظم شأنه، والتفت عليه العساكر، التي جمعها ابن التومرت، من المصامدة، وغيرهم، وحاربوا صاحب مراكش علي بن يوسف بن تاشفين، ملك الملثمين، واستحوذ عبد المؤمن على وهران، وتلمسان، وفاس، وسلا وسبتة، ثم حاصر مراكش، أحد عشر شهرا، فافتتحها في سنة ثنتين وأربعين وخمسمائة، وتمهدت له الممالك هنالك، وصفا له الوقت، وكان عاقلا، حازماً وقورا، شكلا، حسنا، محبا للخير، توفي في هذه السنة، ومكث في الملك ثلاثا وثلاثين سنة، وكان يسمي نفسه أمير المؤمنين، رحمه الله.

■ طلحة بن علي بن طراد، أبو أحمد الزينبي، نقيب النقباء، مات فجأة، رحمه الله وولي النقابة من بعده، ولده أبو الحسن علي، وكان أسرد، فعزل، وصودر في هذه السنة.

■ محمد بن عبد الكريم بن إبراهيم، بن عبد الكريم أبو عبد الله المعروف بابن الأنباري، كاتب الإنشاء ببغداد، كان شيخا، حسنا ظريفا، وانفرد بصناعة الإنشاء، وبعث رسولا إلى الملك سنجر وغيره، وخدم الملوك، والخلفاء، وقارب التسعين، ومن شعره قوله:

يا من هجرت فما تبالي ... هل ترجع دولة الوصال
ما أطمع يا عذاب قلبي ... أن ينعم في هواك بالي
الطرف كما عهدت باك ... والجسم كما تريد بال
ما ضرك أن تعلليني ... بالوصل بموعد المحال
أهواك وأنت حظ غيري ... يا قاتلتي فما احتيالي
أيام هنائي فيك سود ... ما أشبههن بالليالي
العذل فيك يعذلوني ... عن حبك ما لهم وما لي
يا ملزمي السلو عنها ... الصب أنا وأنت سالي
والقول بتركها صواب ... ما أحسنه لو استوى لي
طلقت تجلدي ثلاثاً ... والصبوة بعد في خيالي

ثم دخلت سنة تسع وخمسين وخمسمائة

فيها قدم شاور بن مجير الدين، أبو شجاع السعدي، الملقب بأمير الجيوش، وهو إذ ذاك وزير الديار المصرية، بعد آل رزيك، لما قتل الناصر رزيك بن طلائع، وقام في الوزارة بعده، واستفحل أمره فيها، فثار عليه أمير يقال له الضرغام بن سوار، وجمع له جموعا كثيرة، واستظهر عليه، وقتل ولديه: طيّاً، وسليمان، وأسر الثالث، وهو الكامل بن شاور، فسجنه، ولم يقتله، ليد كانت لأبيه عنده، واستوزر ضرغام بعده، ولقب بالمنصور، فخرج شاور من الديار المصرية، هاربا من العاضد ومن ضرغام، ملتجئا إلى نور الدين محمود، فأمر له نور الدين بجوسق الميدان الأخضر، فأحسن ضيافته وكرامته، وأنزله بالجوسق المذكور، وطلب منه شاور عسكرا، ليكونوا معه، ليفتح بهم الديار المصرية، وليكون لنور الدين ثلث مغلها، فأرسل معه جيشا عليه أسد الدين شيركوه بن شادي، فلما دخلوا بلاد مصر، خرج إليهم الجيش الذي بها، فاقتتلوا أشد القتال، فهزمهم أسد الدين، وقتل منهم خلقا، وقتل ضرغام بن سوار، وطيف برأسه في البلاد، واستقر أمر شاور في الوزارة، وتمهد حاله، ثم اصطلح العاضد وشاور على أسد الدين، ورجع شاور عما كان عاهد عليه نور الدين، وأمر أسد الدين بالرجوع، فلم يقبل منه، وعاث في البلاد، وأخذ أموالا كثيرة، وافتتح بلدانا كثيرة، من الشرقية، وغيرها، فاستغاث شاور عليهم بملك الفرنج الذي بعسقلان، واسمه مري، فأقبل إليه في خلق كثير، فتحول أسد الدين إلى بلبيس، وقد حصنها، وشحنها بالعدد، والآلات، وغير ذلك، فحصروه فيها ثمانية أشهر، وامتنع أسد الدين وأصحابه أشد الامتناع، فبينما هم على ذلك، إذ جاءت الأخبار، بأن الملك نور الدين قد اغتنم غيبة الفرنج، فسار بالعساكر إلى بلادهم، فقتل منهم خلقا كثيرا، وفتح حارم، وقتل من الفرنج بها خلقا، وسار إلى بانياس، فضعف أمر الفرنج بديار مصر عند ذلك، وطلبوا من أسد الدين الصلح، فأجابهم إلى ذلك، وقبض من شاور ستين ألف دينار، وخرج أسد الدين وجيشه، فساروا إلى الشام في ذي الحجة.

وقعة حارم

كان فتح حارم في رمضان من هذه السنة، وذلك أن نور الدين استغاث بعساكر المسلمين، فجاؤوه من كل فج عميق، ليأخذ بثأره من الفرنج، فالتقى معهم بتلّ حارم، فكسرهم كسرة فظيعة، وأسر البرنس صاحب أنطاكية، والقومص صاحب طرابلس، والدوك مقدّم الروم، وابن جوسليق، وقتل منهم عشرة آلاف، وقيل عشرين ألفا.

وفي ذي الحجة منها، فتح نور الدين مدينة بانياس، وقيل إنه إنما فتحها في سنة ستين، فالله أعلم. وكان معه أخوه نصر الدين أمير أميران، فأصابه سهم في إحدى عينيه، فأذهبها، فقال له الملك نور الدين: لو نظرت لما أعد الله لك من الأجر في الآخرة، لأحببت أن تذهب الأخرى. وقال لابن معين الدين أنر: إنه اليوم بردت جلدة والدك من نار جهنم؛ لأنه كان سلمها للفرنج، صلحاً عن دمشق.

وفي شهر ذي الحجة، احترق قصر جيرون حريقا عظيما، فحضر في تلك الليلة الأمراء، منهم أسد الدين شيركوه، بعد رجوعه من مصر، وسعى سعيا عظيما في إطفاء هذه النار، وصون حوزة الجامع منها جزاه الله خيراً وأثابه دار القرار.

ومن توفي فيها من الأعيان

جمال الدين: وزير صاحب الموصل.

■ **محمد بن علي بن أبي منصور، أبو جعفر الأصبهاني**، الملقب بالجواد، وزير قطب الدين مودد بن زنكي، كان كثير الصدقة والبر، وقد أثر آثارا حسنة، بمكة، والمدينة، من ذلك أنه ساق عينا إلى عرفات، وعمل هناك مصانع، وبنى مسجد عرفات، ودرجه، وأكمل أبواب الحرم، وبني مسجد الخيف وبنى الحجر، وزخرف الكعبة وذهّبها وعملها بالرخام، وبنى على المدينة النبوية سورا، وبنى جسرا على دجلة، عند جزيرة ابن عمر، بالحجر المنحوت، والحديد، والرصاص. وبنى الربط الكثيرة، وكان يتصدق كل يوم على بابه بمائة دينار، ويفتدي من الأسارى في كل سنة بعشرة آلاف دينار. ولا تزال صدقاته وافدة إلى الفقهاء، والفقراء، حيث كانوا من بغداد، وغيرها من البلاد. وقد حبس في سنة ثمان وخمسين، فذكر ابن الساعي في تاريخه، عن شخص كان معه في السجن، أنه نزل إليه طائر أبيض، قبل موته، فلم يزل عنده وهو يذكر الله عز وجل، حتى توفي في شعبان من هذه السنة، ثم طار عنه، ودفن في رباط بناه لنفسه بالموصل، وقد كان بينه وبين أسد الدين شيركوه بن شاذي مؤاخاة وعهد، أيهما مات قبل الآخر، أن يحمله إلى المدينة النبوية، فاستأجر له أيد الدين شيركوه رجالاً فنقلوه إلى المدينة، فما مروا به على بلدة إلا صلوا عليه، وترحموا عليه وأثنوا خيرا فصلوا عليه بالموصل، وتكريت، وبغداد والحلة، والكوفة، وفيد ومكة، وطيف به حول الكعبة، ثم حمل إلى المدينة النبوية، فدفن بها،في رباط بناه، شرقي مسجد النبي ﷺ.

قال ابن الجوزي وابن الساعي: ليس بينه وبين حرم النبي ﷺ وقبره سوى خمسة عشر ذراعاً.

قال ابن الساعي: ولما صلّوا عليه بالحلة، صعد شاب نشزا فأنشد:

سرى نعشه فوق الرقاب وطالما ... سرى جوده فوق الركاب ونائله

يمر على الوادي فتثني رماله ... عليه وبالنادي فتثني أراملـه

ومن توفي فيها بعد الخمسين:

■ **ابن الخازن الكاتب: أحمد بن محمد بن الفضل بن عبد الخالق أبو الفضل المعروف بابن الخازن الكاتب البغدادي الشاعر.** كان يكتب جيدا فائقا، اعتنى بكتابة الختمات، وأكثر ابنه أبو الفتح نصر الله من كتابة المقامات، وجمع لأبيه ديوان شعر، أورد منه ابن خلكان قطعة كبيرة.

ثم دخلت سنة ستين وخمسمائة

في صفر منها، وقعت بأصبهان فتنة عظيمة بين الفقهاء، بسبب المذاهب، دامت أياما، وقتل فيها خلق كثير.

وفيها كان حريق عظيم ببغداد، فاحترقت محال كثيرة جدا.

وذكر ابن الجوزي أن في هذه السنة ولدت امرأة ببغداد أربع بنات في بطن واحد.

وحج بالناس في هذه السنة الأمير أرغش الكبير أثابه الله تعالى.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **عمر بن بهليقا: الطحان الذي جدد جامع العقيبة ببغداد**، واستأذن الخليفة في إقامة الجمعة فيه، فأذن له في ذلك، وكان قد اشترى ما حوله من القبور، فأضاف ذلك إليه، ونبش الموتى منها، فقيض الله له من نبشه من قبره بعد دفنه، جزاء وفاقا وما ربك بظلام للعبيد.

■ **محمد بن عبد الله بن العباس بن عبد الحميد: أبو عبد الله الحراني**، كان آخر من بقي من الشهود المقبولين عند أبي الحسن الدامغاني، وقد سمع الحديث، وكان لطيفا ظريفا، جمع كتابا سماه روضة الأدباء، فيه تنف حسنة.

قال ابن الجوزي: زرته يوما، فأطلت الجلوس عنده، فقلت: أقوم فقد ثقلت، فأنشدني:

لئن سمينت إبرامـا وثقلا ... زيارات رفعت بهن قدري

فما أبرمت إلا حبل ودي ... ولا ثقلت إلا ظهر شكري

■ **مرجان الخادم**: كان يقرأ القرآن، وتفقه لمذهب الشافعي، وكان يتعصب على الحنابلة، ويكرههم، ويعادي الوزير ابن هبيرة وابن الجوزي معاداة شديدة، ويقول لابن الجوزي: مقصودي قلع المذهب. ولما توفي ابن هبيرة في هذه السنة قوي أمره على ابن الجوزي، وخافه ابن الجوزي، فلما توفي في هذه السنة فرح ابن الجوزي فرحا شديدا، وكانت وفاته في ذي القعدة منها.

■ **ابن الظميد الطبيب، الماهر، الحاذق**، اسمه هبة الله بن صاعد: كانت وفاته في هذه السنة عن خمس وتسعين سنة، وكان موسعا عليه في الدنيا، وله عند الناس وجاهة كبيرة، وقد توفي قبحه الله على دينه، ودفن بالبيعة العتيقة، لا رحمه الله إن كان مات نصرانيا، فإنه كان يزعم أنه أسلم، ثم مات على دينه.

الوزير

■ **ابن هبيرة: يحيى بن محمد بن هبيرة، أبو المظفر الوزير للخلافة المعظمة**، مصنف كتاب الإفصاح، وقد قرأ القراءات، وسمع الحديث، وكانت له معرفة جيدة بالنحو، واللغة والعروض، وتفقه على مذهب الإمام أحمد، وصنف كتبا جيدة مفيدة، من ذلك الإفصاح في مجلدات، شرح فيه الحديث، وتكلم على مذاهب العلماء، وكان على مذهب السلف في الاعتقاد، وقد كان فقيرا لا مال له، ثم تعرض للخدمة، فتقدم إلى أن وزر للمقتفي، ثم لابنه المستنجد، وكان من خيار الوزراء وأحسنهم سيرة، وأبعدهم عن الظلم، وكان لا يلبس الحرير، وكان المقتفي يقول: ما وزر لبني العباس مثله. وكذلك ابنه المستنجد، وكان المستنجد معجبا به، قال مرجان الخادم: سمعت أمير المؤمنين الخليفة المستنجد ينشد لابن هبيرة وهو

بين يديه من شعره مادحاً:

صف نعمتان خصتاك وعمتا ... فذكرهما حتى القيامة يذكر
وجودك والدنيا إليك فقيرة ... وجودك والمعروف في الناس ينكر
فلو رام يا يحيى مكانك جعفر ... ويحيى لكفا عنه يحيى وجعفر
ولم أر من ينوي لك السوء يا أبا الـ ... مظفر إلا كنت أنت المظفر

وقد كان يبالغ في إقامة الدولة العباسية، وحسم مادة الملوك السلجوقية عنهم بكل ممكن، حتى استقرت الخلافة في العراق كله؛ ليس للملوك معهم حكم بالكلية، ولله الحمد والمنة. وكان يعقد في داره للعلماء مجلسا للمناظرة، يبحثون فيه، ويتناظرون عنده، يستفيد منهم، ويستفيدون منه، فاتفق يوما أنه كلم رجلا من الفقهاء، كلمة فيها بشاعة، قال له: يا حمار. ثم ندم، فقال: أريد أن تقول لي، كما قلت لك. فامتنع ذلك الرجل، فصالحه على مائتي دينار. مات فجأة، يقال إنه سمه طبيب، فسم ذلك الطبيب بعد ستة أشهر، وكان الطبيب يقول: سممته، فسممت. مات يوم الأحد، الثاني عشر من جمادى الأولى من هذه السنة، عن إحدى وستين سنة، وغسله ابن الجوزي، وحضر جنازته خلق كثير، وجم غفير جدا، وغلقت الأسواق، وتباكى الناس عليه، ودفن بالمدرسة التي أنشأها بباب البصرة، رحمه الله. وقد رثاه الشعراء بمراثٍ كثيرة.

وأبو القاسم.

■ عمر بن محمد بن أحمد بن عكرمة البزريُّ الجزريُّ، شيخ الشافعية بها، وكان يلقبُ زين الدين جمال الإسلام، دخل بغداد، فأخذ عن إلكيا الهرّاسيِّ، والغزّاليِّ، والشّاشيِّ صاحب «المستظهري»، وجمع كتاباً على «المهذّب»، وذكر فيه إشكالات ما سواه، وأسماء رجاله ولغته، وهو في مجلد، على ما ذكره ابن خلكان، ورحلت إليه الطلبة من كلِّ ناحية، وكان أحفظ الناس في وقته لمذهب الشافعي. توفي في هذه السنة.

ثم دخلت سنة إحدى وستين وخمسمائة

فيها فتح الملك نور الدين محمود بن زنكي حصن المنيطرة من الشام وقتل عنده خلق كثير من الفرنج، وغنم أموالا جزيلة.

وفيها هرب عز الدين بن الوزير ابن هبيرة من السجن، ومعه مملوك تركي، فنودي عليه في البلد من رده فله مائة دينار، ومن وجد عنده هدمت داره، وصلب على بابها، وذبحت أولاده بين يديه، فدلهم رجل من الأعراب عليه، فأخذ من بستان، فضرب ضربا شديدا، منكراً وأعيد إلى السجن، وضيق عليه.

وفيها أظهر الروافض سب الصحابة، وتظاهروا بأشياء منكرة، ولم يكونوا يتمكنون منها،في هذه الأعصار المتقدمة، خوفا من ابن هبيرة، ووقع بين العوام كلام، فيما يتعلق بخلق القرآن.

وحج بالناس أرغش.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ الحسن بن العباس بن أبي الطيب بن رستم، أبو عبد الله الأصبهاني، كان من كبار عباد الله الصالحين والبكائين، قال: حضرت يوما مجلس ابن ماشاذه، وهو يتكلم على الناس، فرأيت رب العزة في تلك الليلة، وهو يقول لي: وقفت على مبتدع، وسمعت كلامه؟ لأحرمنك النظر في الدنيا. قال فأصبح لا يبصر، وعيناه مفتوحتان، كأنه بصير.

■ عبد العزيز بن الحسين بن الجباب الأغلبي السعدي القاضي، أبو المعالي المصري، المعروف بالجليس، لأنه كان يجالس صاحب مصر، وقد ذكره العماد في (الخريدة: ١/١٨٩، ١٩٠)، وقال: وله فضل مشهور، وشعر مأثور. فمن ذلك قوله:

ومن عجب أن السيوف لديهم ... تحيض دماء والسيوف ذكور
وأعجب من ذا أنها في أكفهم ... تأجج نارا والأكف بحور

الشيخ

■ عبد القادر الجيلي، عبد القادر بن أبي صالح أبو محمد الجيلي، ولد سنة سبعين وأربعمائة، ودخل بغداد، فسمع الحديث، وتفقه على أبي سعيد المخرمي الحنبلي، وكان قد بني مدرسة، ففوضها إلى الشيخ عبد القادر، فكان يتكلم على الناس بها، ويعظهم، وينتفع به الناس انتفاعاً كثيراً، وكان له سمت حسن، وصمت، من غير الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وكان فيه زهد كثير، وله أحوال صالحة، ومكاشفات، ولأتباعه، وأصحابه فيه مقالات، ويذكرون عنه أقوالا، وأفعالا، ومكاشفات، أكثرها مغالاة، وقد كان صالحا، ورعا، وقد صنف كتاب الغُنية، وفتوح الغيب، وفيهما أشياء حسنة، ولكن ذكر فيهما أحاديث ضعيفة وموضوعة، وبالجملة كان من سادات المشايخ، الكبار قدس الله روحه ونور ضريحه، كانت وفاته ليلة السبت ثامن شهر ربيع الآخر من هذه السنة وله تسعون سنة، ودفن بالمدرسة التي كانت له.

ثم دخلت سنة ثنتين وستين وخمسمائة

فيها أقبلت الفرنج في جحافل كثيرة، إلى الديار المصرية، وساعدهم المصريون، فتصرفوا في بعض البلاد، فبلغ ذلك أسد الدين شيركوه، فاستأذن الملك نور الدين في العود إليها، وكان كثير الحنق على الوزير شاور، فأذن له، فسار إليها في ربيع الآخر، ومعه ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب، وقد وقع في النفوس أنه سيملك الديار المصرية، وفي ذلك يقول عرقلة المسمى بحسان الشاعر.

أقول والأتراك قد أزمعت ... مصر إلى حرب الأعاريب
رب كما ملكها يوسف ... الصديق من أولاد يعقوب
يملكها في عصرنا يوسف الصادق ... من أولاد أيوب
من لم يزل ضراب هام العدا ... حقا وضراب العراقيب

ولما بلغ الوزير شاور قدم أسد الدين والجيش معه، بعث إلى الفرنج، فجاؤوا من كل فج عميق، ولما بلغ أسد الدين ذلك من شأنهم، وإنما معه ألفا فارس،فاستشار من معه من الأمراء،فكلهم أشار عليه بالرجوع إلى الملك نور الدين، لكثرة الفرنج، إلا أميرا واحدا يقال له شرف الدين بزغش، فإنه قال: من خاف القتل، والأسر، فليقعد في بيته، عند زوجته، ومن أكل من أموال الناس، فلا يسلم بلادهم إلى العدو. وقال مثل ذلك ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن نجم الدين أيوب بن شاذي، فعزم الله لهم، فساروا نحو الفرنج، فاقتتلوا هم وإياهم قتالا عظيما، فكسروا الفرنج وهزموهم، وقتلوا منهم وقتلوا منهم خلقا كثيراً لا يعلمهم إلا الله عز

وجل، ولله الحمد والمنة على كل حال.

فتح الإسكندرية على يد أسد الدين شيركوه

ثم أشار أسد الدين شيركوه بعد أن كسر الفرنج والمصريين إلى الإسكندرية فملكها، وجبى أموالها، واستناب عليها ابن أخيه صلاح الدين يوسف، وعاد إلى الصعيد، فملكه، وجمع منه أموالا جزيلة جدا.

ثم إن الفرنج والمصريين اجتمعوا على حصار الإسكندرية ثلاثة أشهر، ليتزعوها من يد الملك صلاح الدين، وذلك في غيبة عمه في الصعيد، وامتنع بها صلاح الدين ومن معه أشد الامتناع، ولكن ضاقت عليهم الأقوات، وضاق عليهم الحال جدا، فسار إليهم أسد الدين شيركوه أيده الله، فصالحه شاور الوزير عن الإسكندرية، بخمسين ألف دينار، فأجابه إلى ذلك، وخرج صلاح الدين منها، وسلمها إلى المصريين، وعاد إلى الشام في منتصف شوال وذي القعدة، وقرر شاور للفرنج على مصر في كل عام مائة ألف دينار، وأن يكون لهم شحنة بالقاهرة، وعاد الفرنج إلى بلادهم، بعد أن كان الملك نور الدين محمود بن زنكي قد أعقبهم في بلادهم، وفتح من بلادهم حصونا كثيرة، وقتل منهم خلقا من الرجال، وأسر جما غفيرا من النساء والأطفال، وغنم شيئا كثيرا من الأمتعة، والأموال، ولله الحمد. وكان معه أخوه قطب الدين مودود، فأطلق له الرقة، فسار، فتسلمها.

وفي هذه السنة،في شعبان منها، كان قدوم العماد الكاتب من بغداد إلى دمشق، وهو أبو حامد محمد بن محمد الأصبهاني، صاحب الفتح القدسي، والبرق الشامي، والخريدة، وغير ذلك من المصنفات، فأنزله قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري بالمدرسة النورية الشافعية، داخل باب الفرج، فنسبت إليه، لسكناه بها، فيقال لها العمادية، ثم ولي تدريسها،في سنة سبع وستين، بعد الشيخ الفقيه ابن عبد، وأول من جاء للسلام عليه، نجم الدين أيوب، كانت له به معرفة من تكريت، فامتدحه العماد، بقصيدة ذكرها الشيخ شهاب الدين أبو شامة، وكان أسد الدين شيركوه وصلاح الدين يوسف بمصر، فبشره فيها، بولاية صلاح الدين الديار المصرية، حيث يقول:

ويستقر بمصر يوسف وبه ... تقر بعد التنائي عين يعقوب
ويلتقي يوسف فيها بإخوته ... والله يجمعهم من غير تثريب

ثم ولي العماد كتابة الإنشاء، للملك نور الدين محمود.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ أرغش أمير الحاج سنين متعددة: كان مقدما على العساكر، خرج من بغداد لقتال شملة التركماني، فسقط عن فرسه، فمات.

■ أبو المعالي الكاتب: محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن حمدون، صاحب التذكرة الحمدونية، وقد ولي ديوان الزمام مدة، وكانت وفاته في ذي القعدة، ودفن بمقابر قريش.

■ الرشيد الصوفي كان يجلس بين يدي العبادي على الكرسي، كانت له شيبة، حسنة وسمت ووقار، وكان يُدمن حضور السماعات، فاتفق أنه مات، وهو يرقص،في بعض السماعات سامحه الله تعالى.

ثم دخلت سنة ثلاث وستين وخمسمائة

في صفر منها، وصل شرف الدين أبو جعفر بن البلدي، من واسط، إلى بغداد، فخرج الجيش لتلقيه، والنقيبان، والقاضي، ومشى الناس بين يديه، إلى الديوان، فجلس في دست الوزارة، وقرئ عهده، وكان يوماً مشهوداً ولقب بالوزير، شرف الدين، جلال الإسلام، معز الدولة، سيد الوزراء، صدر الشرق، والغرب.

وفيها أفسدت خفاجة في البلاد، ونهبوا القرى، فجهز إليهم جيش من بغداد، فهربوا في البراري فانحسر الجيش عنهم، خوفا من العطش، فكروا على الجيش، فقتلوا منهم خلقا، وأسروا آخرين، وكان قد أسر الجيش منهم خلقا، فصلبوا على الأسوار.

وفي شوال منها وصلت امرأة الملك نور الدين محمود بن زنكي إلى بغداد، تريد الحج من هناك، وهي الست عصمت الدين خاتون بنت معين الدين أنر، فتلقاها الجيش وفيهم صندل الخادم، وحملت لها الإقامات، وأكرمت غاية الإكرام.

وفيها مات قاضي قضاة بغداد جعفر بن عبد الواحد الثقفي، فشغر البلد عن حاكم ثلاثة وعشرين يوما، حتى ولي روح بن الحديثي قاضي القضاة في رابع رجب.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **جعفر بن عبد الواحد:** أبو البركات الثقفي، قاضي القضاة ببغداد بعد أبيه، ولد سنة تسع عشرة وخمسمائة، وكانت وفاته، في هذا العام، وسبب وفاته أنه طلب منه مال، وكلمه الوزير ابن البلدي كلاما خشنا، فخاف، فرمى الدم، ومات. رحمه الله.

■ **أبو سعد السمعاني: عبد الكريم بن محمد بن منصور،** أبو سعد السمعاني، رحل إلى بغداد، فسمع بها، وذيل على تاريخها، للخطيب البغدادي، وقد ناقشه ابن الجوزي في المنتظم [١٧٩/١٨]، وذكر عنه، أنه كان يتعصب على أهل مذهبه، ويطعن في جماعة منهم، وأنه يترجم بعبارة عامية، مثل قوله عن بعض الشيخات، إنها كانت عفيفة. وعن الشاعر المشهور بالحيص بيص، إنه كانت له أخت، يقال لها دخل خرج، وغير ذلك.

■ **عبد القاهر بن محمد بن عبد الله بن عمويه أبو النجيب السهروردي،** كان يذكر أنه من سلالة أبي بكر الصديق، ﷺ، سمع الحديث، وتفقه، وأفتى، ودرس بالنظامية، وابتنى لنفسه مدرسة، ورباطا، وكان مع ذلك متصوفا، يعظ الناس، ودفن بمدرسته.

■ **محمد بن عبد الحميد بن أبي الحسن أبو الفتح الرازي،** المعروف بالعلاء العالم، وهو من أهل سمرقند، وكان من الفحول في المناظرة، وله طريقة في الخلاف والجدل، يقال لها التعليقة العالمية.

قال ابن الجوزي: وقد ورد بغداد، وحضر مجلسي.

وقال أبو سعد بن السمعاني: كان يدمن شرب الخمر. وقال: وكان يقول: ليس في الدنيا أطيب من كتاب أطالعه، وباطية من الخمر، أشرب منها.

قال ابن الجوزي: ثم بلغني عنه، أنه أقلع عن شرب الخمر، والمناظرة، وأقبل على النسك، والخير رحمه الله.

■ يوسف بن عبد الله بن بندار الدمشقي، مدرس النظامية ببغداد، تفقه على أسعد الميهني، وبرع في المناظرة، وكان يتعصب للأشعرية، وقد بعث رسولا في هذه السنة، إلى شملة التركماني، فمات في تلك البلاد رحمه الله.

ثم دخلت سنة أربع وستين وخمسمائة

فيها كان فتح مصر، على يد الأمير أسد الدين شيركوه، وفيها طغت الفرنج بالديار المصرية، وذلك لما جعل لهم شحنة بها، وتحكموا في أموالها، وسكنها أكثر شجعانها ولم يبق شيء من أن يستحوذوا عليها، ويخرجوا منها أهلها من المسلمين، فعند ذلك ركب أمداد الفرنج من كل ناحية وساروا صحبة مرى ملك عسقلان،في جحافل هائلة، فأول ما أخذوا مدينة بلبيس، فقتلوا من أهلها خلقا، وأسروا آخرين، ونزلوا بها، وتركوا فيها أثقالهم، وجعلوها موئلا ومعقلا لهم، ثم ساروا، فنزلوا على القاهرة، من ناحية باب البرقية، فأمر الوزير شاور الناس أن يحرقوا مصر، وأن ينتقل الناس منها إلى القاهرة، فنهبوا البلد، وذهب للناس أموال كثيرة جدا، وبقيت النار تعمل في مصر أربعة وخمسين يوما، فعند ذلك، أرسل الخليفة العاضد يستغيث بنور الدين، وبعث إليه بشعور نسائه يقول: أدركني، واستنقذ نسائي من أيدي الفرنج. والتزم له بثلث خراج مصر، على أن يكون أسد الدين، مقيما بها عندهم، والتزم له بإقطاعات زائدة على الثلث، فشرع نور الدين،في تجهيز الجيوش إلى مصر، فلما استشعر الوزير شاور بوصول المسلمين، أرسل إلى ملك الفرنج، يقول له: قد عرفت محبتي ومودتي، ولكن العاضد، والمسلمين، لا يوافقونني على تسليم البلد. وصالحهم، ليرجعوا عن البلد بألف ألف دينار، وعجل لهم من ذلك بمئة ألف دينار، فانشمروا راجعين إلى بلادهم، خوفا من وصول الملك نور الدين، وطمعا في العودة إليها مرة ثانية، ﴿ومكروا، ومكر الله، والله خير الماكرين﴾. [آل عمران: ٥٤].

ثم شرع الوزير شاور في مطالبة الناس بالذهب الذي صالح به الفرنج، وتحصيله، وضيق على الناس، مع ما نالهم من الحريق، والخوف، فجبر الله مصابهم، وأحسنَ مآبهم واستدعى الملك نور الدين الأمير أسد الدين من حمص إلى حلب، فساق في يوم واحد، من حمص بعد أن صلى الصبح، ثم دخل منزله، فأصاب فيه شيئا من الزاد، ثم ركب وقت طلوع الشمس، فدخل حلب على السلطان نور الدين من آخر ذلك اليوم، ويقال إن هذا لم يتفق لغيره، إلا للصحابة، فسر بذلك نور الدين، وتفاءل به فقدمه على العساكر، وأنعم عليه بمائتي ألف دينار، وأضاف إليه من الأمراء الأعيان جماعة، كل منهم يبتغي بمسيره ذلك رضى الرحمن، والجهاد في سبيله، وكان من جملة الأمراء ابن أخيه صلاح الدين يوسف بن أيوب بن شاذي، ولم يكن منشرحاً لخروجه هذا، بل كان كارها له، وقد قال الله تعالى: ﴿وَعَسَى أَن تَكْرَهُواْ شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَى أَن تُحِبُّواْ شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وأضاف إليه ستة آلاف من التركمان،وسار هو وإياه من حلب، إلى دمشق، فجهزه من دمشق إلى الديار المصرية، وجلوا الفرنج، قد انشمروا عن القاهرة، راجعين إلى بلادهم، بالصفقة الخاسرة، وكان وصوله إليها في سابع ربيع الآخر، فدخل الأمير أسد الدين، على العاضد،في ذلك اليوم، فخلع عليه خلعة سنية، فلبسها،وعاد إلى مخيمه بظاهر البلد،وفرح المسلمون بقدومه، وأجريت عليهم الجرايات، وحملت إليهم التحف والكرامات، وخرج وجوه الناس إلى مخيم أسد الدين، وكان فيمن جاء إليه المخيم، الخليفة العاضد،متنكرا، فأسر إليه أمورا مهمة، منها قتل الوزير شاور، وقرر معه ذلك، وأعظم أمر الأمير أسد الدين بمصر، ولكن شرع بماطل، بما كان التزمه للملك نور الدين، وهو مع ذلك يتردد إلى أسد الدين، ويركب معه، وعزم على عمل ضيافة له، فنهاه أصحابه عن الحضور، خوفا عليه من غائلته، وشاوروه في قتل شاور، فلم يمكنهم الأمير أسد الدين من ذلك، فلما كان في بعض الأيام، جاء شاور إلى منزل أسد الدين، فوجدوه قد ذهب لزيارة قبر الشافعي، وإذا ابن أخيه صلاح الدين هنالك، فأمر صلاح الدين يوسف بالقبض على الوزير شاور، ولم يمكنه قتله، إلا بعد مشاورة عمه أسد الدين، وانهزم أصحابه، فأعلموا العاضد، لعله يبعث بنقذه، فأرسل العاضد إلى الأمير أسد الدين يطلب منه رأسه، فقتل شاور، وأرسلوا برأسه إلى العاضد،في سابع عشر ربيع الآخر، ففرح المسلمون بذلك وأمر أسد الدين بنهب دار شاور، فنهبت، ودخل أسد الدين على العاضد، فاستوزره، وخلع عليه خلعة عظيمة، ولقبه الملك المنصور، فسكن دار شاور، وعظم شأنه هنالك.

وقال ابن أبي طَيِّ: ولما بلغ نور الدين خبر فتح مصر فرح بذلك، وقصدته الشعراء بالتهنئة، غير أنه لم ينشرح، لكون أسد الدين صار وزيرا للعاضد، وكذلك لما انتهت الوزارة، إلى ابن أخيه صلاح الدين، فشرع نور الدين في إعمال الحيلة في إزالة ذلك، فلم يتمكن، ولا قدر عليه، ولا سيما، حين بلغه، أن صلاح الدين، استحوذ على خزائن العاضد، كما سيأتي بيانه، إن شاء الله، والله أعلم.

وأرسل أسد الدين إلى القصر يطلب كاتبا، فأرسلوا إليه بالقاضي الفاضل، ورجاء أن يقبل منه إذا قال وأفاض فيما كانوا يؤملون، وبعث أسد الدين العمال في الأعمال، وأقطع الإقطاعات، وولى الولايات، وفرح بنفسه أياما معدودات، فأدركه حمامه في يوم السبت، الثاني والعشرين، من جمادى الآخرة، من هذه السنة، وكانت ولايته شهرين وخمسة أيام، فلما توفي أسد الدين رحمه الله أشار الأمراء الشاميون على العاضد بتولية صلاح الدين يوسف الوزارة بعد عمه، فولاه العاضد الوزارة، وخلع عليه خلعة سنية، ولقبه الملك الناصر.

صفة الخلعة التي لبسها صلاح الدين يومئذ فيما ذكره الشيخ شهاب الدين في الروضتين، [٤٣٩/١] عمامة بيضاء تنيسي بطرف ذهب، وثوب دبيقي، بطراز ذهب، وجبة، بطراز ذهب، وطيلسان مطرز بذهب، وعقد جوهر بعشرة آلاف دينار، وسيف محلى بخمسة آلاف دينار، وحجر بثمانية آلاف دينار، وعليها طوق ذهب، وسرفسار ذهب مجوهر، وفي رأسها ماتتا حبة جوهر وفي قوائمها أربعة عقود، وفي رأسها قصبة ذهب، فيها تندة بيضاء، بأعلام بيض، ومع الخلعة عدة بقج، وخيل، وأشياء أخر، ومنشور الوزارة، ملفوف في ثوب، أطلس أبيض، وكان ذلك في يوم الاثنين، الخامس والعشرين من جمادى الآخرة، من هذه السنة، فكان يوما مشهودا، وسار الجيش بكماله في خدمته، لم يتخلف عنه سوى عين الدولة الياروقي، وقال: لا أخدم يوسف بعد نور الدين. ثم سار بجيشه إلى الشام، فلامه نور الدين على ذلك، وأقام الملك صلاح الدين بمصر، بصفة نائب للملك نور الدين، يخطب له على المنابر بالديار المصرية، ويكاتبه بالأمير الأسفهسلار صلاح الدين، ويتواضع له صلاح الدين في الكتب والعلامة، لكن قد التفت عليه القلوب، وخضعت له النفوس، واضطهد العاضد في أيامه، غاية الاضطهاد، وارتفع قدر صلاح الدين بين العباد في تلك البلاد، وزاد

في إقطاعات الذين معه، فأحبوه، واحترموه، وخدموه، وكتب إليه نور الدين يعنفه على قبول الوزارة بدون مرسومة وأمره أن يقيم حساب الديار المصرية، فلم يلتفت صلاح الدين إلى ذلك، وجعل نور الدين يقول في غضون ذلك: ملك ابن أيوب. وأرسل صلاح الدين إلى الملك نور الدين يطلب منه أهله، وإخوته، وقرابته، فأرسلهم إليه، وشرط عليهم السمع والطاعة له، فاستقر أمره بمصر، وتوطأت دولته بذلك، وكمل أمره، وتمكن سلطانه، وقويت أركانه.

وقد قال بعض الشعراء في قتل صلاح الدين لشاور الوزير:

هنيئاً لمصر حور يوسف ملكها بأمر من الرحمن قد كان موقوتا
وما كان فيها قتل يوسف شاورا بقاتل إلا قتل داود جالوتا

قال أبو شامة [الروضتين: ١/٤٥٥]: وقتل العاضد في هذه السنة أولاد شاور وهم شجاع الملقب بالكامل والطاري الملقب بالمعظم، وأخوهما الآخر الملقب بفارس المسلمين، وطيف برؤوسهم ببلاد مصر.

ذكر قتل الطواشي مؤتمن الخلافة، وأصحابه، على يد الملك صلاح الدين

وذلك أنه كتب من دار الخلافة بمصر إلى الفرنج، ليقدموا إلى الديار المصرية، ليخرجوا منها الجيوش الشامية، والعساكر النورية وكان الذي نفذ الكتاب إليهم الخادم، مؤتمن الخلافة، مقدم العساكر بالقصر، وكان حبشيا، وكان قد أرسله مع إنسان أمن إليه، فصادفه في بعض الطريق من أنكر حاله، فحمله إلى الملك صلاح الدين، فقرره، فأخرج الكتاب، ففهم صلاح الدين الحال، فكتمه، واستشعر، مؤتمن الخلافة الخادم، أن صلاح الدين قد اطلع على الأمر، فلازم القصر مدة طويلة، خوفا على نفسه، ثم عَنَّ له في بعض الأيام أن خرج إلى الصيد، فأرسل الملك صلاح الدين إليه من قبض عليه، وقتله، وحمل رأسه إليه، ثم عزل جميع الخدام الذين يلون خدمة القصر، واستناب على القصر عوضهم بهاء الدين قراقوش، وأمره أن يطالعه بجميع الأمور، صغارها، وكبارها.

وقعة السودان

وذلك أنه لما قتل الطواشي، مؤتمن الخلافة الخادم الحبشي، وعزل بقية الخدام، غضبوا لذلك، واجتمعوا قريبا من خمسين ألفاً، فاقتتلوا، هم وجيش الملك الناصر صلاح الدين، بين القصرين، فقتل خلق كثير من الفريقين، وكان العاضد ينظر من القصر إلى المعركة، وقد قذف الجيش الشامي من القصر بحجارة، وجاءهم منه سهام، فقيل كان ذلك بأمر العاضد، وقيل لم يكن بأمره.

ثم إن أخا الناصر، شمس الدولة تورانشاه وكان حاضرا للحرب، قد بعثه نور الدين إلى أخيه، ليشد أزره أمر بإحراق منظرة العاضد، ففتح الباب ونودي إن أمير المؤمنين يأمركم أن تخرجوا هؤلاء السودان من بين أظهركم، ومن بلادكم فقوي الشاميون، وضعف جأش السودان جدا، وأرسل الملك الناصر إلى محلّتهم، المعروفة بالمنصورة، التي فيها دورهم، واهلوهم وأولادهم، بباب زويلة فأحرقها، فولوا عند ذلك مدبرين، وركبهم السيف، فقتل منهم خلقا كثيرا، ثم طلبوا الأمان من الملك صلاح الدين فأجابهم إلى ذلك، وأخرجهم إلى الجيزة، ثم خرج إليهم شمس الدولة تورانشاه، أخو الملك صلاح الدين الجزيرة، فقتل أكثرهم أيضا، ولم يبق منهم إلا القليل، ﴿فتلك بيوتهم خاوية، بما ظلموا﴾ [النمل: ٥٢].

وفيها افتتح الملك نور الدين بن محمود بن زنكي، قلعة جعبر، وانتزعها من يد صاحبها، شهاب الدين مالك بن علي بن مالك العقيلي، وكانت في أيديهم من أيام السلطان ملكشاه.

وفيها احترق جامع حلب، فجدده نور الدين.

وفيها مات ياروق، الذي تنسب إليه المحلة، بظاهر حلب.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **سعد الله بن نصر بن سعيد الدجاجي: أبو الحسن الواعظ الحنبلي**، ولد في سنة ثمانين وأربعمائة، وسمع الحديث، وتفقه، ووعظ، وكان لطيف الوعظ، وقد أثنى عليه ابن الجوزي في ذلك، وذكر أنه سئل مرة، عن أحاديث الصفات، فنهى عن التعرض لذلك، وأنشد:

أبى العاتب الغضبان يا نفس أن وأنت التي صيرت طاعته فرضا
فلا تهجري من لا تطيقين هجره وإن همّ بالهجران خديك والأرضا

وذكر ابن الجوزي عنه، أنه قال: خفت مرة من الخليفة، فهتف بي هاتف في المنام وقال لي: اكتب:

ادفع بصبرك حادث الأيام وترج لطف الواحد العلام
لا تيأسنَّ وإن تضايق كربها ورماك ريب صروفها بسهام
فله تعالى بين ذلك فرجة تخفى على الأبصار والأوهام
كم من نجا من بين أطراف القنا وفريسة سلمت من الضرغام

توفي في شعبان من هذه السنة عن أربع وثمانين سنة، ودفن إلى جانب رباط الزوزني ثم نقل إلى مقبرة الإمام أحمد.

■ **شاور بن مجير أبو شجاع السعدي الملقب أمير الجيوش**، وزير الديار المصرية أيام العاضد، وهو الذي انتزع الوزارة من أيدي رزيك، وهو أول من استكتب القاضي الفاضل، استدعى به من إسكندرية، من باب السدرة، فحظي عنه، وانحصر منه الكتاب بالقصر، ولما رأوا من فضله وفضيلته. وقد امتدحه الشعراء، منهم عمارة اليمني، حيث يقول:

ضجر الحديد من الحديد وشاور في نصر آل محمد لم يضجر
حلف الزمان ليأتين بمثله حنثت يمينك يا زمان فكفر

ولم يزل أمره قائما، إلى أن ثار عليه الأمير ضرغام بن سوار، فالتجأ إلى نور الدين، فأرسل معه الأمير أسد الدين شيركوه، فنصروه على عدوه، فنكث عهده، فلم يزل أسد الدين حنقا عليه، حتى كان قتله في هذه السنة وعلى يدي ابن أخيه صلاح الدين يوسف ضرب عنقه بين يديه الأمير جُرديك في السابع عشر من ربيع الآخر، واستوزر بعده أسد الدين، فلم تطل مدته بعده، إلا شهرين وخمسة أيام.

قال ابن خلكان: هو أبو شجاع شاور بن مجير الدين بن نزار بن عشائر بن شاس بن مغيث بن حبيب بن الحارث بن ربيعة بن يخنس بن أبي ذؤيب عبد الله، وهو والد حليمة السعدية، كذا قال وفيما قال نظر، لقصر هذا النسب، لبعد المدة، والله أعلم.

■ **شيركوه بن شاذي: أسد الدين الكردي الروادي**، وهم أشرف شعوب الأكراد، وهو من قرية يقال لها دوين، من أعمال أذربيجان، خدم

هو، وأخوه نجم الدين أيوب وكان الأكبر الأمير مجاهد الدين بهروز الخادم شحنة العراق، فاستناب نجم الدين أيوب على قلعة تكريت، فاتفق أن دخلها عماد الدين زنكي، هاربا من قراجا الساقي، فأحسنا إليه، وخدماه، ثم اتفق أن قتل رجلا من العامة، فأخرجهما بهروز من القلعة، فصارا إلى زنكي بحلب، فأحسن إليهما، ثم حظيا عند ولده نور الدين محمود، فاستناب أيوب على بعلبك، وأقره ولده نور الدين، وصار أسد الدين عند نور الدين أكبر أمرائه، وأخصهم عنده، وكان قد أقطعه الرحبة، وحمص، مع ما له عنده من الإقطاعات، وذلك لشهامته، وشجاعته، وصرامته، وجهاده في الفرنج،في أيام معلودات، ووقعات معتبرات، ولا سيما يوم فتح دمشق، وأعجب من ذلك ما فعله بديار مصر، بلْ اللّه بالرحمة ثراه، وجعل الجنة مأواه.

وكانت وفاته يوم السبت، فجأة، بخانوق حصل له، وذلك في الثاني والعشرين، من جمادى الآخرة، من هذه السنة، رحمه اللّه.

قال أبو شامة: وإليه تنسب الخانقاة الأسدية، داخل باب الجابية بدرب الهاشميين بالشرق القبلي. ثم آل الأمر من بعده إلى ابن أخيه صلاح الدين يوسف، ثم استوسق له الملك وأطاعته الممالك هنالك وللّه الحمد.

■ محمد بن عبد الباقي بن أحمد بن سلمان المعروف بابن البطي، سمع الحديث الكثير، وأسمع، ورحل إليه، وقارب التسعين رحمه اللّه.

محمد

■ الفارقي: أبو عبد اللّه الواعظ، يقال إنه كان يحفظ نهج البلاغة، ويعبر ألفاظه، وكان فصيحا، بليغا، يكتب كلامه، ويروي عنه كتاب، يعرف بالحكم الفارقية.

و■ معمر بن عبد الواحد بن رجاء أبو أحمد الأصبهاني، أحد الحفاظ، الوعاظ، روى عن أصحاب أبي نعيم، وكانت له معرفة جيدة بالحديث، توفي وهو ذاهب إلى الحج بالبادية، رحمه اللّه.

ثم دخلت سنة خمس وستين وخمسمائة

في صفر منها، حاصرت الفرنج مدينة دمياط من بلاد مصر، خمسين يوما، بحيث ضيقوا على أهلها، وقتلوا منهم خلقاً في أمم لا يحصون كثرة قد تجمعوا من البر، والبحر، رجاء أن يملكوا الديار المصرية، وخوفا من استيلاء المسلمين على القدس، فكتب صلاح الدين، إلى الملك نور الدين، يستنجده عليهم، ويطلب منه أن يرسل إليه بإمداد من الجيوش، فإنه إن خرج من مصر، خلفه أهلها بسوء، وإن غفل عن الفرنج، أخذوا دمياط، وجعلوها معقلا لهم، يتقوون بها على أخذ مصر. فارسل إليه نور الدين ببعوث كثيرة، يتبع بعضها بعضا.

ثم إن نور الدين، اغتنم غيبة الفرنج، عن بلادهم، فصمد إليهم في جيوش كثيرة، فجاس خلال ديارهم، وغنم من أموالهم، وقتل، وسبى شيئا كثيرا، وكان من جملة من أرسل إلى صلاح الدين أبوه الأمير نجم الدين أيوب في جيش من تلك الجيوش، ومعه بقية أولاده، فتلقاه الجيش من مصر، في رجب وخرج العاضد لتلقيه، إكراما لولده صلاح الدين، وأقطعه الإسكندرية، ودمياط، وكذلك لبقية أولاده، وقد أمد العاضد صلاح الدين،في هذه الكائنة، بألف ألف دينار، حتى انفصلت الفرنج عن دمياط، وأجلت الفرنج عن دمياط لأنه بلغهم أن نور الدين قد غزا بلادهم، وقتل خلقا من رجالهم، وسبى كثيرا من نسائهم، وأطفالهم، وغنم مالا جزيلا، فجزاه اللّه عن الإسلام خيرا.

ثم سار نور الدين في جمادى الآخرة إلى الكرك، فحاصرها وكانت من أمنع البلاد فكاد أن يفتحها، ولكن بلغه أن مقدمين من الفرنج قد أقبلا نحو دمشق، فخاف أن يلتف عليهما الفرنج، فترك الحصار وأقبل إلى دمشق فحصنها، ولما أجلت الفرنج عن دمياط، فرح نور الدين والمسلمون فرحا شديدا، وأنشد الشعراء كل منهم في ذلك قصيدا، وقد كان الملك نور الدين شديد الاهتمام، قوي الاغتمام بذلك، حتى إنه قرأ عليه بعض طلبة الحديث، جزءا فيه حديث مسلسل بالتبسم، فطلب منه أن يتبسم، ليصل التسلسل، فامتنع من ذلك، وقال: إني لأستحي من اللّه، أن يراني متبسما، والمسلمون يحاصرهم الفرنج، بثغر دمياط.

وقد ذكر الشيخ أبو شامة [الروضتين: ٤٥٩/١] أن إمام مسجد أبي الدرداء بالقلعة المنصورة، رأى في تلك الليلة التي أجلى فيها الفرنج عن دمياط، رسول اللّه ﷺ وهو يقول له: سلم على نور الدين، وبشره بأن الفرنج قد رحلوا عن دمياط، فقلت يا رسول اللّه، بأي علامة؟ فقال: بعلامة ما سجد يوم تل حارم، وقال في سجوده: اللّهم انصر دينك، ولا تنصر محموداً ومن هو محمود الكلب حتى يُنصر؟ فلما صلى نور الدين عنده الصبح، بشره بذلك، وأخبره بالعلامة وكشفوا تلك العلامة فإذا هي هي.

قال العماد الكاتب: وفي هذه السنة، عمر الملك نور الدين جامع داريا، وعمر مشهد الشيخ أبي سليمان الداراني بها، وشتى بدمشق.

وفيها حاصر نور الدين الكرك أربعة أيام، وفارقه من هناك نجم الدين أيوب، والد صلاح الدين، متوجها إلى ابنه بمصر، وقد وصاه الملك نور الدين، أن يأمر ابنه صلاح الدين أن يخطب بمصر للخليفة المستنجد باللّه العباسي، وذلك أن الخليفة بعث يعاتبه في ذلك.

وفيها قدم الفرنج من السواحل، ليمنعوا الكرك، مع قريب بن الرقيق، وابن هنفرى، وكانا أشجع فرسان الفرنج، فقصدهما نور الدين ليقابلهما، فحادا عن طريقه.

وفيها كانت زلزلة عظيمة بالشام، والجزيرة، وعمت أكثر الأرض، فتهدمت أسوار كثيرة بالشام، وسقطت دور كثيرة على أهلها، ولا سيما بدمشق وحمص، وحماة، وحلب، وبعلبك، سقطت أسوارها، وأكثر قلعتها، فجدد نور الدين عمارة أكثر ما وقع بهذه الزلزلة.

وفيها توفي:

الملك قطب الدين

■ مودود بن زنكي: أخو نور الدين محمود صاحب الموصل، وله من العمر أربعون سنة، ومدة ملكه منها إحدى وعشرون سنة،وكان من خيار الملوك،محببا إلى الرعية، عطوفا عليهم، محسنا إليهم،حسن الشكل. وتملك من بعده ولده سيف الدين غازي بن الست خاتون،بنت تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق أصحاب ماردين،وكان مدبر مملكته والمتحكم فيها فخر الدين عبد المسيح، وكان ظالما، غاشما.

وفيها كانت حروب كثيرة بين ملوك الغرب بجزيرة الأندلس، وكذلك كانت حروب كثيرة، بين ملوك الشرق أيضا.

وحج بالناس في هذه السنة، وفيما قبلها، الأمير ارغش الكبير، ولم ار أحدا من أكابر الأعيان توفي فيها.

ثم دخلت سنة ست وستين وخمسمائة

فيها كانت وفاة المستنجد، وخلافة ابنه المستضيء، وذلك أن الخليفة المستنجد كان قد مرض في أول هذه السنة، ثم عوفي، فيما يبدو للناس، فعملت ضيافة عظيمة بسبب ذلك، وفرح الناس بذلك، ثم أدخله الطبيب إلى الحمام وبه ضعف شديد، فمات في الحمام، رحمه الله ويقال: إن ذلك كان بإشارة بعض الدولة على الطبيب، استعجالا لموته، توفي يوم السبت، بعد الظهر ثامن ربيع الآخر، عن ثمان وأربعين سنة، وكانت مدة خلافته إحدى عشرة سنة وشهرا، وكان من خيار الخلفاء، وأعدلهم، وأرفقهم بالرعايا، وضع عنهم المكوس والضرائب، ولم يترك بالعراق مكسا، وقد شفع إليه بعض أصحابه في رجل شرير، فبذل فيه عشرة آلاف دينار، فقال له الخليفة: أنا أعطيك عشرة آلاف دينار، وائتني بمثله، لأريح المسلمين من شره، وكان المستنجد أسمر، طويل اللحية، وهو الثاني والثلاثين من العباسيين، وذلك في الجمل لام باء، ولهذا قال فيه بعض الأدباء:

أصبحت «لب» بني العباس كلهم　　إن عددت بحساب الجمل الخلفا

وكان أماراً بالمعروف، نهّاء عن المنكر رحمه الله، وقد رأى في المنام رسول الله ﷺ، غير مرة فكانت آخرهن قبل أن يلي بأربعة أيام وهو يقول له «قل اللّهم اهدني فيمن هديت، وعافني فيمن عافيت»، دعاء القنوت بتمامه [د (٤٦٤)، ت (٤٦٤)، س (١٧٤٤، ١٧٤٥)، ج (١١٧٨)] .

وصلي عليه يوم الأحد، قبل الظهر، ودفن بدار الخلافة، ثم نقل إلى الترب من الرصافة، رحمه الله تعالى.

خلافة المستضيء

وهو أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد بن المقتفي، وأمه أرمنية، تدعى غضة، وكان مولده في شعبان، سنة ست وثلاثين وخمسمائة. بويع بالخلافة يوم مات أبوه، بكرة الأحد، تاسع ربيع الآخر، وبايعه الناس، ولم يل الخلافة أحد اسمه الحسن بعد الحسن بن علي غير هذا، ووافقه في الكنية أيضا، وخلع يومئذ على الناس أكثر من ألف خلعة، وكان يوما مشهودا، وولى قضاء قضاة بغداد لروح بن الحديثي، يوم الجمعة، رابع عشر ربيع الآخر، وخلع على الوزير خلعة عظيمة، وهو الأستاذ عضد الدين، وضربت على بابه نوبه في ثلاثة أوقات، الفجر، والمغرب، والعشاء، وأمر سبعة عشر أميرا من المماليك، وأذن للوعاظ فتكلموا بعد ما كانوا قد منعوا مدة طويلة، لما كان يحدث بسبب ذلك من الشرور الطويلة، ثم كثر احتجاجه، ومما نظمه العماد الكاتب حين جاءتهم البشارة بخلافة المستضيء وهم بأرض الموصل:

قد أضاء الزمان بالمستضي　　وارث البرد وابن عم النبي
جاء بالحق والشريعة والعدل　　فيا مرحباً بهذا المجي
فهنيئاً لأهل بغداد فازوا　　بعد بؤس بكل عيش هني
ومُضيٌّ إن كان في الزمن المظ　　لم فالعود في الزمان المضي

وفيها سار الملك نور الدين، محمود بن زنكي إلى الرقة، فأخذها، وكذلك نصيبين، والخابور، وسنجار، وسلمها إلى زوج ابنة ابن أخيه عماد الدين زنكي بن مودود، ثم سار إلى الموصل، فأقام بها أربعة وعشرين يوما، وأقرها على ابن أخيه سيف الدين غازي بن قطب الدين مودود مع الجزيرة، وزوجه ابنته الأخرى، وأمر بعمارة جامعها، وتوسعته، ووقف على تأسيسه بنفسه، وجعل له خطيبا، ومدرسا للفقه، وولى التدريس للفقيه أبي بكر الزوقاني، تلميذ محمد بن يحيى تلميذ الغزالي، وكتب له منشورا بذلك، ووقف على الجامع، قرية من قرى الموصل، وذلك كله بإشارة الشيخ الصالح العابد عمر الملاء، وقد كانت له زاوية، يقصد فيها، وله في كل سنة دعوة في شهر المولد، يحضر فيها عنده الملوك، والأمراء، والعلماء، والوزراء، ويحتفل بذلك، وقد كان الملك نور الدين صاحبه، وكان يستشيره في أموره، وممن يعتمده في مهماته، وهو الذي أشار عليه،في مدة مقامه في الموصل، بجميع ما فعله من الخيرات، فلهذا، حصل بقدومه لأهل الموصل كل مسرة، واندفعت عنهم كل مضرة، وأخرج من بين أظهرهم، الظالم، الغاشم، فخر الدين عبد المسيح، وسماه عبد الله، وأخذه معه إلى دمشق، فأقطعه إقطاعا حسنا، وقد كان عبد المسيح هذا نصرانيا، فأظهر الإسلام، وكان يقال إن له كنيسة في جوف داره، وكان سيئ السيرة، خبيث السريرة في حق العلماء، والمسلمين خاصة، ولما دخل نور الدين الموصل، كان الذي استأمن له نور الدين الشيخ عمر الملاء، وحين دخل نور الدين الموصل، خرج إليه ابن أخيه، فوقف بين يديه، فأحسن إليه وأكرمه، وألبسه خلعة جاءته من الخليفة، فدخل فيها إلى البلد،في أبهة عظيمة، ولم يدخل نور الدين الموصل حتى قوي الشتاء، فأقام بها، كما ذكرنا أربعة وعشرين يوماً فلما كان في آخر ليلة من إقامته بها، رأى رسول الله ﷺ في المنام يقول له: طابت لك بلدك، وتركت الجهاد، وقتال أعداء الله؟ فنهض من فوره إلى السفر، وما أصبح إلا وهو سائر إلى الشام، واستقضى الشيخ شرف الدين ابن أبي عصرون، وكان معه على سنجار، ونصيبين، والخابور، فاستناب فيها ابن أبي عصرون نوابا وأصحابا.

وفيها عزل الملك صلاح الدين يوسف قضاة مصر، لأنهم كانوا شيعة، وولى قضاء القضاة بها لصدر الدين عبد الملك بن درباس الماراني الشافعي، فاستناب في سائر المعاملات قضاة شافعية، وبنى مدرسة للشافعية، وأخرى للمالكية، واشترى ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه دارا، كانت تعرف بمنازل العز، وجعلها مدرسة للشافعية، وأوقف عليها الروضة، وغيرها. وعمر الملك صلاح الدين أسوار البلد، وكذلك أسوار إسكندرية، وأحسن إلى الرعايا إحسانا كثيرا، وركب فأغار على بلاد الفرنج، بنواحي عسقلان، وغزة، وخرب قلعة كانت لهم على أيلة، وقتل خلقا كثيرا من مقاتلتهم، وتلقى أهله وهم قادمون من الشام، واجتمع شمله بهم بعد فرقة طويلة.

وفيها قطع صلاح الدين الأذان بحي على خير العمل، من ديار مصر كلها، وشرع في تمهيد الخطبة لبني العباس على المنابر.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **طاهر بن محمد بن طاهر**: أبو زرعة المقدسي الأصل، الرازي المولد، الهمذاني الدار، ولد سنة إحدى وثمانين وأربعمائة، وأسمعه والده الحافظ محمد بن طاهر الكثير، ومما كان يرويه مسند الشافعي، وكانت وفاته بهمذان يوم الأربعاء، سابع ربيع الآخر، وقد قارب التسعين.

يوسف القاضي:

■ **أبو الحجاج بن الحلال**، صاحب ديوان الإنشاء بالديار المصرية، وهو شيخ القاضي الفاضل في هذا الفن، اشتغل عليه فيه، وبرع، حتى قدر أنه صار مكانه، حين ضعف الشيخ عن القيام بأعباء الوظيفة، لكبره، فكان

القاضي الفاضل يقوم به وبأهله حتى مات، ثم كان بعد موته، كثير الإحسان إلى أهله، رحمهم الله.

يوسف الخليفة:

■ المستجد بالله بن المقتفي بن المستظهر، تقدم ذكر وفاته، وترجمته في الحوادث، وقد توفي بعده عمه أبو نصر بن المستظهر بأشهر، ولم يبق بعده أحد من ولد المستظهر، وكانت وفاته يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من ذي القعدة منها.

ثم دخلت سنة سبع وستين وخمسمائة

فيها كانت وفاة العاضد صاحب مصر في أول جمعة منها، أمر الملك صلاح الدين بإقامة الخطبة لبني العباس بمصر وأعمالها في الجمعة الثانية بالقاهرة، وكان ذلك يوما مشهودا، ولما انتهى الخبر إلى الملك نور الدين بالشام، أرسل إلى الخليفة يعلمه بذلك، مع ابن أبي عصرون وهو شهاب الدين أبي المعالي، بالشام فزينت بغداد، وغلقت الأسواق، وعملت القباب، وفرح المسلمون فرحا شديداً، وكانت الخطبة قد قطعت لبني العباس من ديار مصر سنة تسع وخمسين وثلاثمائة في خلافة المطيع العباسي، حين تغلب الفاطميون على مصر، أيام المعز الفاطمي، باني القاهرة، إلى هذا الأوان، وذلك مائتا سنة وثمان سنين.

قال ابن الجوزي: وقد ألفت في ذلك كتابا سميته النصر على مصر.

موت العاضد آخر الخلفاء العبيديين

والعاضد في اللغة القاطع «لا يعضد شجرها» [خ (١٨٣٢)، م (١٣٥٤)]: فبه قطعت دولتهم. واسمه عبد الله، ويكنى بأبي محمد بن يوسف الحافظ بن محمد بن المستنصر بن الظاهر بن الحاكم بن العزيز بن المعز بن المنصور بن القائم بن المهدي أول ملوكهم، وكان مولد العاضد في سنة ست وأربعين، فعاش إحدى وعشرين سنة، وكانت سيرته مذمومة، وكان شيعيا خبيثا، لو أمكنه قتل كل من قدر عليه من أهل السنة، واتفق أنه لما استقر أمر الملك صلاح الدين، رسم بالخطبة لبني العباس، عن مرسوم الملك نور الدين، له بذلك لمعاتبة الخليفة المستنجد إياه قبل وفاته، وكان المستنجد إذ ذاك مدنفا مريضا، فلما مات، تولى بعده ولده، فكانت الخطبة بمصر له، ثم إن العاضد مرض، فكانت وفاته في يوم عاشوراء، فحضر الملك صلاح الدين جنازته، وشهد عزاه، وبكى عليه، وتأسف، وظهر منه حزن كثير عليه، وقد كان مطيعا له، فيما يأمره به، وكان العاضد كريما، جوادا، ممدّحاً ساعه الله.

ولما مات، استحوذ الملك صلاح الدين على القصر بما فيه، وأخرج منه أهل العاضد، إلى دار، أفردها لهم، وأجرى عليهم الأرزاق، والنفقات الهنية، والعيشة الرضية، عوضا عما فاتهم من الخلافة، وكان صلاح يتندم على إقامة الخطبة لبني العباس بمصر قبل وفاة العاضد، وهلا صبر بها إلى بعد وفاته، ولكن كان ذلك قدرا مقدوراً وفي الكتاب مسطوراً. ومما نظمه العماد الكاتب في ذلك.

توفي العاضد الدعي فما ... يفتح ذو بدعة بمصر فما
وعصر فرعونها انقضى وغدا ... يوسفها في الأمور محتكما
وانطفأت جمرة الغواة وقد ... باخ من الشرك كل ما اضطرما
وصار شمل الصلاح ملتئماً ... بها وعقد السداد منتظما
لما غدا معلناً شعار بني الـ ... ـعباس حقاً والباطل اكتتما
وبات داعي التوحيد متصراً ... ومن دعاة الإشراك منتقما
وظل أهل الضلال في ظلل ... داجية من غيابة وعمى
وارتكس الجاهلون في ظلم ... لما أضاءت منابر العلما
وعاد بالمستضيء ممتهداً ... بناء حق قد كان منهدما
واعتلّت الدولة التي اضطهدت ... وانتصر الدين بعدما اهتضما
واهتز عطف الإسلام من جَذَل ... وافتر ثغر الإسلام وابتسما
واستبشرت أوجه الهدى فرحاً ... فليقرع الكفر سنه ندما
عاد حريم الأعداء منتهك الـ ... ـحمى وفيءُ الطغاة مقتسماً
قصور أهل القصور أخربها ... عامر بيت من الكمال سما
أزعج يعند السكوت ساكنها ... ومات ذلا وأنفه رغما

ومما قيل من الشعر ببغداد يبشر الخليفة المستضيء بأمر الله بالخطبة له بمصر:

ليهنك يا مولاي فتح تتابعت ... إليك به خوص الركائب توجف
أخذت به مصراً وقد حال دونها ... من الشرك بأس في لها الحق يُقذف
فعادت بحمد الله باسم إمامنا ... تتيه على كل البلاد وتشرف
ولا غرو إن ذلت ليوسف مصرُه ... وكانت إلى عليائه تتشوف
تملكها من قبضة الكفر يوسف ... وخلصها من عصبة الرفض يوسف
يشابهه خلقاً وخُلقاً وعفة ... وكل عن الرحمن في الأرض يخلف
كشفتَ بها عن آل هاشم سبة ... وعاراً أبى إلا بسيفك يكشف

وقد ذكرها الشيخ شهاب الدين أبو شامة في الروضتين [٥٠١/١]، وهي أطول من هذه، وذكر أن أبا الفضائل الحسين بن محمد بن تركان حاجب ابن هبيرة أنشدها للخليفة المستنجد قبل موته، عند تأول منام رآه، بعض الناس للخليفة في هذا المعنى وأراد بيوسف الثاني المستنجد، وهكذا ذكر ابن الجوزي: أنها أنشدت في حياة المستنجد، ولم يخطب بها إلا لابنه المستضيء، فجرى المقال باسم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب.

وقد أرسل الخليفة المستضيء بأمر الله إلى الملك نور الدين، خلعة سَنِيّة سُنِّية وكذلك للملك صلاح الدين إلى الديار المصرية، ومعها أعلام سود، ولواء معقود، ففرقت على الجوامع بالشام وبمصر فلله الحمد على ما منح من العز والنصر.

قال ابن أبي طي في كتابه [الروضتين: ٥٠٦/١]: ولما تفرغ صلاح الدين من توطيد المملكة، وإقامة الخطبة العباسية والتعزية بانقضاء الدولة العبيدية الزاعمة أنها فاطمية استعرض حواصل القصرين، فوجد فيهما من الحواصل، والأمتعة، والآلات، والملابس، والمفارش، شيئا باهرا، وأمرا هائلا، من ذلك سبعمائة بيتمة من الجوهر، وقضيب زمرد، طوله أكثر من شبر، وسمكه نحو الإبهام، وحبل من ياقوت، وإبريق عظيم من الحجر المانع، وطبل للقولنج، إذا ضرب عليه أحد، يحصل له خروج ريح من دبره، وينصرف عنه ما يجده من القولنج، فاتفق أن بعض أمراء الأكراد،

أخذه في يده، ولم يدر ما شأنه، فضرب عليه، فحبق أي ضرط فألقاه من يده على الأرض، فكسره، فبطل أمره. وأما القضيب الزمرد، فإن صلاح الدين كسره ثلاث فلق، فقسمه بين نسائه، وقسم بين الأمراء شيئا كثيرا من قطع البلخش والياقوت، والذهب، والفضة، والأثاث، والأمتعة، وغير ذلك، ثم باع ما فضل عن ذلك، وجمع عليه أعيان التجار، فاستمر البيع فيما بقي هنالك، من الأثاث، والأمتعة، نحوا من عشر سنين، وأرسل إلى الخليفة ببغداد، من ذلك، هدايا سنية، نفيسة، وكذلك إلى الملك نور الدين، أرسل إليه من ذلك جانبا كثيرا، صالحا، ولم يدخر لنفسه شيئا، مما حصل له من الأموال، بل كان يعطي ذلك من حوله من الأمراء، والوزراء والملوك والأصحاب رحمه الله، فكان مما أرسله إلى نور الدين، ثلاث قطع بلخش، زنة الواحدة إحدى وثلاثون مثقالا، والأخرى ثمانية عشر مثقالا، والثالثة دونهما مع لآلىء كثيرة، وستون ألف دينار، وعطر لم يسمع بمثله، ومن ذلك حمارة، عَتابية وفيل عظيم جدا، فأرسلت الحمارة إلى الخليفة،في جملة هدايا وتحف هائلة.

قال ابن أبي طي: ووجد خزانة كتب ليس لها في مدائن الإسلام نظير، تشتمل على ألفي ألف مجلد.

قال: ومن عجائب ذلك، أنه كان بها ألف ومائتان وعشرون نسخة من تاريخ الطبري. وكذا قال العماد الكاتب: وكانت الكتب قريبة من مائة وعشرين ألف مجلد.

وقال ابن الأثير: كان فيها من الكتب بالخطوط المنسوبة مائة ألف مجلد، وقد تسلمها القاضي الفاضل، فأخذ منها شيئا كثيرا مما اختاره وانتخبه.

قال: وقسم القصر الشمالي، بين الأمراء، فسكنوه، وأسكن أباه نجم الدين أيوب،في قصر عظيم على الخليج، يقال له اللولؤة، الذي فيه بستان الكافوري، وسكن أكثر الأمراء،في دور من كان ينتمي إلى الفاطميين، ولا يلقى أحد من الأتراك، أحدا من أولئك الذين كانوا بها، من الأكابر، إلا شلحوا ثيابه، ونهبوا داره، حتى تمزق كثير منهم في البلاد، وتفرقوا شذر مذر، وصاروا أيادي سبا.

وقد كانت مدة ملك الفاطميين مائتين وثمانين سنة وكسرا، فصاروا كأمس الذاهب، كأن لم يغنوا فيها.

وكان أول من ملك منهم المهدي، وكان من سلمية حدادا اسمه سعيد، وكان يهوديا، فدخل بلاد المغرب، وتسمى بعبيد اللّه، وادعى أنه شريف علوي فاطمي، وقال عن نفسه إنه المهدي، كما ذكر ذلك غير واحد من العلماء، والأئمة، بعد الأربعمائة، كما قد بسطنا ذلك، فيما تقدم.

والمقصود أن هذا الدعي المدّعي الكذاب، راج له ما افتراه في تلك البلاد، ووازره جماعة من جهلة العُبّاد، وصارت له دولة وصولة، ثم تمكن إلى أن بنى مدينة سماها المهدية نسبة إليه، وصار ملكا مطاعا، يظهر الرفض، وينطوي على الكفر المحض.

ثم كان من بعده ابنه القائم ثم ابنه المنصور ثم ابنه المعز وهو أول من دخل ديار مصر منهم، وبنيت له القاهرة ثم ابنه العزيز ثم ابنه الحاكم ثم ابنه الظاهر ثم ابنه المستنصر ثم ابنه المستعلي ثم ابنه الآمر ثم ابن عمه الحافظ ثم ابنه الظافر ثم الفائز ثم العاضد وهو آخرهم، فجملتهم أربعة عشر ملكا، ومدتهم مائتان ونيف وثمانون سنة، وكذلك عدة خلفاء بني أمية أربعة عشر أيضا، ولكن كانت مدتهم نيفا وتسعين سنة، وقد نظمت أسماء هؤلاء، بأرجوزة تابعة لأرجوزة بني العباس، عند انقضاء دولتهم ببغداد، في سنة ست وخمسين وستمائة، كما سيأتي. وقد كان الفاطميون أغنى الخلفاء، وأكثرهم مالا، وكانوا من أعتى الخلفاء، وأجبرهم، وأظلمهم، وأنجس الملوك سيرة، وأخبثهم سريرة، ظهرت في دولتهم البدع، والمنكرات، وكثر أهل الفساد، وقل عندهم الصالحون من العلماء والعباد، وكثر بأرض الشام النصيرية، والدرزية، والحشيشية، وتغلب الفرنج على سواحل الشام بكماله، حتى أخذوا القدس الشريفة، ونابلس، وعجلون، والغور، وبلاد غزة، وعسقلان، وكرك الشوبك، وطبرية، وبانياس، وصور، وعثليث وعكا، وصيدا، وبيروت، وصفد، وطرابلس، وأنطاكية، وجميع ما والى ذلك، إلى بلاد آياس وسيس، واستحوذوا على بلاد آمد، والرها، ورأس العين، وبلاد شتى غير ذلك، وقتلوا من المسلمين خلقا، وأمما لا يحصيهم إلا اللّه، وسبوا ذراري المسلمين، من النساء والولدان، ما لا يحد ولا يوصف، وكل هذه البلاد كانت الصحابة قد فتحوها، وصارت دار إسلام، وأخذوا من أموال المسلمين ما لا يحد ولا يوصف، وكادوا أن يتغلبوا على دمشق، ولكن اللّه صانها اللّه بعنايته وسلّمها برعاتيه، وحين زالت أيامهم، وانتقض إبرامهم أعاد اللّه عز وجل هذه البلاد كلها على أهلها من السادة المسلمين، ورد اللّه الكفرة خائبين وأركسهم بما كسبوا في هذه الدنيا ويوم الدين، وقد قال حسّان الشاعر المدعو بعرقلة.

أصبح الملك بعد آل علي ... مشرفاً بالملوك من آل شاذي
وغدا الشرق يحمد الغرب للقوم ومصر تزهو على بغداد
ما حووها إلا بعزم وحزم ... وصليل الفولاذ في الفولاذ
لا كفرعون والعزيز ومن ... كان بها كالخصيب والأستاذ

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة رحمه اللّه: يعني بالأستاذ كافور الإخشيدي، وقوله آل علي يعني الفاطميين، على زعمهم، ولم يكونوا فاطميين، وإنما كانوا أدعياء ينسبون إلى عبيد، وكان اسمه سعيدا، وكان يهودياً حداداً بسلمية، ثم ذكر ما ذكرناه من كلام الأئمة فيهم، وطعنهم في نسبهم.

قال: وقد استقصيت الكلام في مختصر تاريخ دمشق، في ترجمة عبد الرحيم بن إلياس، ثم ذكر في الروضتين [٥١٤/١]،في هذا الموضع، أشياء كثيرة في غُبُون ما مشقته من سيرتهم في السنين المتقدمة مما يسدُّ الأسماع وينفّر الطباع.

قال أبو شامة: وقد أفردت كتابا سميته كُشف ما كان عليه بنو عبيد من الكفر الكذب والمكر والكيد وقد صنف العلماء في الرد عليهم، كتبا كثيرة، من أجل ما وضع في ذلك كتاب القاضي أبي بكر الباقلاني، الذي سماه كشف الأسرار وهتك الأستار وما أحسن ما قاله بعض الشعراء،في بني أيوب، يمدحهم على ما فعلوه بديار مصر:

السّتُم مُزيلي دولة الكفر من بني ... عبيد بمصر إنّ هذا هو الفضل
زنادقة شيعية باطنية ... مجوس وما في الصالحين لهم أصل
يرون كفرا يظهرون تشيعا ... ليستروا شيئاً وعَمّهم الجهل

وفي هذه السنة أسقط الملك صلاح الدين عن أهل مصر المكوس، والضرائب، وقرئ المنشور بذلك على رؤوس الأشهاد، يوم الجمعة، بعد الصلاة، ثالث صفر.

وفيها وقعت نفرة بين نور الدين والملك الناصر صلاح الدين، وذلك أن نور الدين غزا في هذه السنة، بلاد الفرنج،في السواحل، فأحل بهم بأسا شديدا، وقرر في أنفسهم منه نقمة ووعيدا، ثم عزم على محاصرة الكرك،

وكتب إلى صلاح الدين أن يلتقيه بالعساكر المصرية إلى بلاد الكرك، ليجتمعا هنالك، ويتفقا على المصالح التي يعود نفعها على المسلمين، فتوهم من ذلك صلاح الدين، وخاف أن يكون لهذا الأمر غائلة يزول بها ما حصل له، من التمكين، ولكنه مع ذلك ركب في جيشه من مصر، لأجل امتثال المرسوم، فسار أياما، ثم كر راجعا معتلا بقلة الظهر، والخوف على اختلال الأمور، إذا بعد عن مصر، واشتغل عنها، وأرسل يعتذر بذلك إلى السلطان الملك العادل نور الدين. فوقع في نفسه منه، واشتد غضبه عليه،وعزم على الدخول إلى مصر، وانتزاعها من صلاح الدين،وتوليتها غيره، ولما بلغ هذا الخبر صلاح الدين، ضاق بذلك ذرعه،وذكر ذلك بحضرة الأمراء والكبراء، فبادر ابن أخيه تقي الدين عمر، وقال: واللّه لو قصدنا نور الدين لنقاتلنه. فشتمه الأمير نجم الدين أيوب، والد صلاح الدين، وأسكته، ثم قال لابنه: اسمع ما أقول لك، واللّه ما ههنا أحد أشفق عليك مني، ومن خالك هذا يعني شهاب الدين الحارمي ولو رأينا الملك نور الدين، لبادرنا إليه، ولقبلنا الأرض بين يديه، وكذلك بقية هؤلاء الأمراء، ولو كتب إلي أن أبعثك إليه مع نجاب لفعلت، ثم أمر من هنالك بالانصراف والذهاب، فلما خلا بابنه قال: أما لك عقل؟ تذكر مثل هذا بحضرة هؤلاء، فيقول عمر مثل هذا الكلام، فتقره عليه، فلا يبقى عند نور الدين، أهم من قصدك، وقتالك، وخراب ديارنا، وأعمارنا، ولو قد رأى الجيش كلهم نور الدين، لم يبق معك واحد منهم، ولذهبوا كلهم إليه، ولكن ابعث إليه، وترفق له، وتواضع عنده، وقل له: وأي حاجة إلى مجيء مولانا؟ ابعث إلي بنجاب حتى أجيء معه، إلى بين يديك. فبعث وإليه بذلك، فلما سمع نور الدين مثل هذا الكلام، لان قلبه له، وانصرفت همته عنه، واشتغل بغيره، وكان أمر اللّه قدرا مقدورا.

وفيها اتخذ نور الدين الحمام الهوادي، وذلك لامتداد مملكته، واتساعها، فإنه ملك من حد النوبة إلى همذان، لا يتخللها إلا بلاد الفرنج، لعنهم اللّه، وكلهم تحت قهره، وهدنته، فلذلك اتخذ في كل قلعة، وحصن، الحمام التي تحمل الرسائل إلى إلى الآفاق،في أسرع مدة، وأيسر عدة، وما أحسن ما قال فيهن القاضي الفاضل: الحمام ملائكة الملوك. وقد أطنب في ذلك العماد الكاتب، وأطرب، وأعجب، وأغرب رحمه اللّه تعالى.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ عبد اللّه بن أحمد بن أحمد بن أحمد أبو محمد بن الخشاب، قرأ القرآن، وسمع الحديث، واشتغل بالنحو واللغة، حتى ساد أهل زمانه فيهما، وشرح الجمل لعبد القاهر الجرجاني، وكان رجلا صالحا، متطوعا، وهذا نادر في النحاة، وكانت وفاته في شعبان من هذه السنة، ودفن قريبا من الإمام أحمد، ورئي في المنام. فقيل له: ما فعل اللّه بك؟ فقال: غفر لي، وأدخلني الجنة، إلا أنه أعرض عني، وعن جماعة من العلماء، تركوا العمل، واشتغلوا بالقول.

قال القاضي ابن خلكان: كان مطرحا للكلفة،في مأكله، وملبسه، وكان لا يبالي بمن شرق أو غرب.

■ محمد بن محمد بن محمد: أبو المظفر البروي، قرأ الفقه على محمد بن يحيى تلميذ الغزالي، وناظر، ووعظ ببغداد، وكان يظهر مذهب الأشعري، ويتكلم في الحنابلة، مات في رمضان منها.

■ ناصر بن الحُوَيي الصوفي: كان يمشي في طلب الحديث حافيا، توفي ببغداد رحمه اللّه.

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: وفيها توفي:

■ نصر اللّه بن عبد اللّه أبو الفتوح: الإسكندري، المعروف بابن قلاقس، الشاعر بعيذاب، توفي عن خمس وثلاثين سنة.

والشيخ أبو بكر

■ يحيى بن سعدون القرطبي، نزيل الموصل، المقرئ، النحوي رحمه اللّه.

قال: وفيها ولد العزيز، والظاهر، ابنا صلاح الدين، والمنصور محمد بن تقي الدين عمر.

ثم دخلت سنة ثمان وستين وخمسمائة

فيها أرسل الملك نور الدين، إلى الملك صلاح الدين وكان الرسول الموفق خالد بن القيسراني ليقيم له حساب الديار المصرية، وذلك لأن نور الدين استقل الهدية التي أرسل بها إليه، من خزائن العاضد، ومقصوده أن يقرر له على الديار المصرية خراجا منها في كل عام.

وفيها حاصر الملك صلاح الدين الكرك، والشوبك، فضيق على أهلها، وخرب أماكن كثيرة من معاملاتها، ولكن لم يظفر بها عامه ذلك.

وفيها اجتمعت الفرنج بالشام، لقصد مدينة زرع، فوصلوا إلى سمكين، فبرز إليهم نور الدين، فهربوا منه إلى الفوار، ثم إلى السواد، ثم إلى الشلالة، فبعث سرية إلى طبرية، فعاثوا هنالك، وسبوا، وقتلوا، وغنموا، وعادوا سالمين، ورجع الفرنج خائبين لعنهم اللّه أجمعين، وقد امتدحه العماد الكاتب بقصيدة طنّانة في هذه الغزوة.

فتح بلاد النوبة

وفيها أرسل السلطان صلاح الدين، أخاه شمس الدولة تورانشاه، إلى بلاد النوبة، فافتتحها، واستحوذ على معقلها، وهو حصن يقال له إبريم، ولما رآها بلداً قليلة الجدوى لا يفي خراجها بكلفتها، استخلف على الحصن المذكور رجلا من الأكراد، يقال له إبراهيم، فجعله مقدما مقررا بحصن إبريم، وانضاف إليه جماعة من الأكراد البطالين، فكثرت أموالهم، وحسنت أحوالهم هنالك، وشنوا الغارات، وحصلوا على الغنائم والمسرّات، و لله الحمد الذي بنعمته تتم الصالحات.

وفيها كانت وفاة الأمير نجم الدين أيوب، والد صلاح الدين، سقط عن فرسه فمات، وسنأتي على ترجمته في الوفيات.

وفيها سار الملك نور الدين، إلى بلاد عز الدين قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان السلجوقي ملك الروم، وافتقد في طريقه بلاده وأصلح ما وجده فيها من الخلل. ثم سار، فافتتح مرعش وبهسنا وعمل في كل منهما بالحسنى.

قال العماد: وفيها وصل الفقيه الإمام الكبير قطب الدين النيسابوري، وهو فقيه عصره، ونسيج وحده، فسر به نور الدين، وأنزله بحلب، بمدرسة باب العراق، ثم أتى به إلى دمشق، فدرس بزاوية الجامع الغربية، المعروفة بالشيخ نصر المقدسي، ونزل بمدرسة الجاروخية، وشرع نور الدين في إنشاء مدرسة كبيرة للشافعية، فأدركه الأجل قبل ذلك.

قال أبو شامة: هي العادلية الكبيرة، التي عمرها بعد ذلك الملك العادل أبو بكر بن أيوب.

وفيها رجع شهاب الدين بن أبي عصرون من بغداد، حين سار بالهناء بالخطبة العباسية بالديار المصرية، ومعه توقيع من الخلافة بإقطاع درب هارون وصريفين لنور الدين، وقد كانتا قديما لأبيه عماد الدين زنكي، فأراد نور الدين أن يبني ببغداد مدرسة، على دجلة، ويجعل هذين المكانين وقفا عليها فعاقه القدر عن ذلك.

وفيها وقعت بناحية خوارزم حروب كثيرة بين سلطان شاه وبين أعدائه، تقصّاها ابن الأثير وابن الساعي.

وفيها هزم ملك الأرمن مليح بن ليون بعساكر الروم، وغنم منهم شيئا كثيرا، وبعث إلى نور الدين بأموال كثيرة، وثلاثين رأسا من رؤوس كبارهم، فأرسلها نور الدين إلى الخليفة المستضيء.

وفيها بعث صلاح الدين سرية صحبه قراقوش، مملوك تقي الدين عمر بن شاهنشاه، إلى بلاد إفريقية، فملكوا طائفة كثيرة منها، من ذلك مدينة طرابلس الغرب، وعدة مدن معها.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **إيلدكز التركي الأتابكي**: صاحب أذربيجان، وغيرها، كان مملوكا للكمال السُميرمي، وزير السلطان محمود، حظي إيلدكز هذا عند السلطان ثم علا أمره، وتمكن، حتى ملك بلاد أذربيجان، وبلاد الجبل، وغيرها، وكان عادلا، منصفا شجاعا، محسنا إلى الرعية، توفي بهمذان.

الأمير نجم الدين أبو الشكر

■ **أيوب بن شاذي**: والد الملوك بني أيوب الكردي الروادي وهم خيار الأكراد الدويني نسبة إلى دوين شمالي بلاد أذربيجان مما يلي الكرخ، ومنهم من يقول أيوب بن شاذي بن مروان، زاد بعضهم بعد مروان بن يعقوب، والذي عليه جمهورهم أنه لا يعرف بعد شاذي أحد في نسبهم، وأغرب بعضهم، فزعم أنهم من سلالة مروان بن محمد الجعدي آخر خلفاء بني أمية، وهذا ليس بصحيح، والذي نسب إليه ادعاء هذا هو الملك أبو الفداء إسماعيل بن طغتكين بن أيوب بن شادي ويعرف بابن سيف الإسلام، وقد ملك اليمن بعد أبيه، فتعاظم في نفسه، وادعى الخلافة، وتلقب بالإمام الهادي بنور الله المعز لدين الله أمير المؤمنين، وزعم أنه أموي، ومدحه الشعراء، وأطروه ولهجوا بذلك، وقال هو في ذلك أيضاً:

وأنا الهادي الخليفة والذي ... أدرس رقاب الغلب بالضمر الجُرد
ولا بد من بغداد أطوي ربوعها ... وأنشرها نشر السماسر للبُرد
وأنصب أعلامي على شرفاتها ... وأحيي بها ما كان أسسه جدي
ويخطب لي فيها على كل منبر ... وأظهر دين الله في الغور والنجد

وهذا الادعاء ليس بصحيح، ولا أصل له يعتمد عليه، ولا مستند يستند إليه.

والمقصود أن الأمير نجم الدين، كان أسن من أخيه أسد الدين شيركوه، ولد بأرض الموصل، كان الأمير نجم الدين شجاعا، خدم الملك محمد بن ملكشاه، فرأى فيه شهامة، وأمانة، فولاه قلعة تكريت، فحكم فيها، فعدل، وكان من أكرم الناس، ثم أقطعها الملك مسعود، لمجاهد الدين بهروز، شحنة العراق، فاستمر فيها، فاجتاز به في بعض الأحيان، الملك عماد الدين زنكي منهزما، من قراجا الساقي، فآواه، وخدمه خدمة بالغة تامة، وداوى جراحه، وأقام عنده مدة خمسة عشر يوما، ثم ارتحل إلى بلده الموصل، ثم اتفق أن نجم الدين أيوب عاقب، رجلا نصرانيا، فقتله، وقيل إنما قتله أخوه أسد الدين شيركوه.

وهذا بخلاف الذي ذكره القاضي ابن خلكان، فإنه قال: رجعت جارية من بعض الخدم، فذكرت له، أنه تعرض لها اسفهسلار، الذي بباب القلعة، فخرج إليه أسد الدين، شيركوه فطعنه بحربة، فقتله، فحبسه أخوه نجم الدين، أيوب وكتب إلى مجاهد الدين بهروز، يخبره بصورة الحال، فكتب إليه يقول: إن أباكما كانت له عليّ خدمة، وكان قد استنابه في هذه القلعة، قبل ابنه نجم الدين أيوب، وإني أكره أن أسوءكما، ولكن انتقلا منها. فأخرجهما بهروز من قلعته. وفي ليلة خروجه منها، ولد له الملك الناصر صلاح الدين يوسف. قال: فتشاءمت به لفقدي بلدي، ووطني. فقال لي بعض الناس: قد نرى ما أنت فيه، من التشاؤم بهذا المولود، فما يؤمنك أن يكون هذا المولود ملكا عظيما له صيت كبير؟ فكان كما قال، فاتصلا بخدمة الملك عماد الدين زنكي، ثم كانا عند ابنه نور الدين محمود الملك العادل وتقدما عنده، وارتفعت منزلتهما، وعظما، فاستنابه نور الدين ببعلبك، ولما تسلم بعلبك، أقام مدة طويلة، وولد له فيها أكثر أولاده، ثم كان من أمره ما ذكرناه في دخوله الديار المصرية وصيرورة الأمير نجم الدين إلى ابنه بها في سنة أربع وستين ثم اتفق أنه في ذي الحجة سقط عن فرسه فمات بعد ثمانية أيام،في اليوم السابع والعشرين من ذي الحجة، من هذه السنة، وكان ابنه صلاح الدين محاصراً للكرك والشوبك غائبا عنه، فلما وصله الخبر تألم لعدم من حضوره، وأرسل يتحرق، ويتحزن، وأنشد يقول:

وتخطفه يد الردى في غيبتي ... هبني حضرت، فكنت ماذا أصنع؟

وقد كان نجم الدين أيوب كثير الصلاة، والصدقة، والصيام، كريم النفس، جوادا، ممدحاً.

قال ابن خلكان: وله خانقاه بالديار المصرية، ومسجد، وقناة، خارج باب النصر من القاهرة، وقفها في سنة ست وستين.

قلت: وله بدمشق خانقاه أيضا، تعرف بالنجمية، وقد استنابه ابنه على الديار المصرية، حين خرج إلى الكرك، وحكمه في الخزائن، وكان من أكرم الناس، وقد امتدحه الشعراء، كالعماد الكاتب وعرقلة وعمارة اليمني وغير واحد، ورثوه حين مات بمراث كثيره، وقد ذكر ذلك مستقصى الشيخ أبو شامة،في الروضتين [٥٤٠/١]، ودفن مع أخيه أسد الدين، بدار الإمارة، ثم نقلا إلى المدينة النبوية،في سنة ثمانين، فدفنا بتربة الوزير جمال الدين الموصلي، الذي كان مؤاخيا لأسد الدين شيركوه.

قال شهاب الدين أبو شامة: وفي هذه السنة توفي ملك النحاة.

■ **الحسن بن صافي يزدن التركي**: كان من أكابر أمراء بغداد، المتحكمين في الدولة، ولكنه كان رافضيا خبيثا، متعصبا للروافض، وكانوا في خفارته وجاهه، حتى أراح الله المسلمين منه،في هذه السنة،في ذي الحجة منها، ودفن بداره، ثم نقل إلى مقابر قريش، ولله الحمد والمنة.

وحين مات، فرح أهل السنة بموته، فرحا شديدا، وأظهروا الشكر لله، فلا تجد أحدا منهم، إلا يحمد الله، فغضب الشيعة من ذلك، ونشأت بينهم فتنة بسبب ذلك. وذكر ابن الساعي في تاريخه، أنه كان في صغره شابا،حسنا، مليحا، معشوقا، للأكابر من الناس. قال: ولشيخنا أبي اليمن الكندي فيه، وقد رمدت عينه:

بكل صباح لي وكل عشية ... وقوف على أبوابكم وسلام
وقد قيل لي يشكو سقاما بعينه ... فها نحن منها نشتكي ونضام

ثم دخلت سنة تسع وستين وخمسمائة

قال ابن الجوزي في المنتظم [٢٠٤/١٨]: إنه سقط عندهم ببغداد برد كبار، كالنارنج، ومنه ما وزنه سبعة أرطال، ثم أعقب ذلك سيل عظيم، وزيادة عظيمة بدجلة، لم يعهد مثلها أصلا، فخربت أشياء كثيرة من العمران والقرى، والمزارع، حتى القبور، وخرج الناس إلى الصحراء، وكثر الضجيج، والابتهال إلى الله، حتى فرج الله عز وجل، وتناقصت زيادة الماء، بحمد الله ومنه:

قال: وأما الموصل، فإنه كان بها نحو ما كان ببغداد، وانهدم بالماء نحو من ألفي دار، واستهدم بسببه مثل ذلك، وهلك تحت الهدم خلق كثير، وكذلك الفرات زادت زيادة عظيمة أيضاً، فهلك بسببها شيء كثير من القرى، وغلت الأسعار بالعراق في هذه السنة،في الزروع، والثمار، ووقع الوباء في الغنم، وأصيب شيء كثير ممن أكل منها بالعراق، وغيرها.

قال ابن الساعي: وفي رمضان منها، توالت الأمطار بديار بكر، والموصل، أربعين يوما وليلة، لم يروا الشمس فيها سوى مرتين، لحظتين يسيرتين، فتهدمت بيوت كثيرة، ومساكن على أهلها، وزادت الدجلة بسبب ذلك، زيادة عظيمة، وغرق كثير من مساكن بغداد، والموصل، ثم تناقص الماء بإذن الله عز وجل.

قال ابن الجوزي: وفي رجب، وصل ابن الهروي من عند نور الدين، ومعه ثياب مصرية، وحمارة ملونة، جلدها مخطط، مثل الثوب العتابي.

قال: عزل ابن الشاشي من تدريس النظامية، ووليها أبو الخير القزويني.

قال: وفي جمادى الآخرة، اعتقل المجير الفقيه،ونسب إلى الزندقة، والانحلال، وترك الصلاة، والصوم، ثم تعصّب له أناس. وزكوه، فأخرج، وذكر أنه وعظ بالحريمة ذات يوم، فاجتمع عنده قريب من ثلاثين ألفا.

قال ابن الساعي: وفيها سقط أبو العباس أحمد بن أمير المؤمنين المستضيء، من قبة شاهقة، إلى الأرض، فسلم، ولكن نبت يده اليمنى، وساعده اليسرى، وانسلخ شيء من أنفه، وكان معه خادم أسود، يقال له نجاح، فلما رأى سيده قد سقط، ألقى هو نفسه أيضا خلفه، وقال: لا حاجة لي فيه الحياة بعده، فسلم أيضا، فلما صارت الخلافة إلى أبي العباس الناصر وهو هذا الذي سقط لم ينسها لنجاح هذا، فحكمه في الدولة، وأحسن إليه، وقد كانا صغيرين لما سقطا.

وفيها سار الملك نور الدين نحو بلاد الروم، وفي خدمته الجيش، وملك الأرمن وصاحب ملطية، وخلق من الملوك والأمراء، وافتتح عدة من حصونهم ولله الحمد، وحاصر قلعة الروم، فصالحه صاحبها بخمسين ألف دينار جزية، ثم عاد إلى حلب، وقد وجد النجاح في كل ما طلب، ثم عاد إلى دمشق مؤيداً منصوراً مسرورا مجبورا.

وفي هذه السنة كان فتح بلاد اليمن للملك صلاح الدين يوسف بن أيوب، وكان سبب ذلك، أن صلاح الدين بلغه أن بها رجلا يقال له عبد النبي بن مهدي، وقد تغلب عليها، ودعا إلى نفسه، وتسمى بالإمام، وزعم أنه سيملك الأرض كلها، وقد كان أخوه علي بن مهدي، قد تغلب قبله عليها، وانتزعها من أيدي أهل زبيد، ومات سنة ستين، فملكها بعده أخوه هذا، وكل منهما كان سيئ السيرة، والسريرة، فعزم صلاح الدين، لكثرة جيشه، وقوته، على إرسال سرية إليه، وكان أخوه الأكبر شمس الدولة شجاعا، مهيبا، بطلا، وكان ممن يجالس عمارة اليمني الشاعر، وكان عمارة ينعت له بلاد اليمن، وحسنها، وكثرة خيرها، فحداه ذلك على أن خرج في تلك السرية،في رجب من هذه السنة، فورد مكة، فاعتمر بها، ثم سار منها إلى زبيد، فخرج إليه عبد النبي، فقاتله، فهزم تورانشاه جيشه، وأسره وأسر زوجته الحرة، وكانت ذات أموال جزيلة، فاستقرها على أشياء نفيسة، وذخائر جليلة، ونهب الجيش زبيد، ثم توجه إلى عدن، فقاتله ياسر ملكها، فهزمه، تورانشاه وأسره، وأخذ البلد بيسير من الحصار، ومنع الجيش من نهبها، وقال: ما جئنا لنخرب البلاد، وإنما جئنا لعمارتها وملكها. ثم سار في الناس سيرة حسنة، عادلة، فأحبوه، ثم تسلم بقية الحصون، والمعاقل، والمخاليف، واستوسق له ملك اليمن بمخافيره، وألقى إليه بأفلاذ كبده، ومطاميره، وخطب فيها للخليفة العباسي المستضيء، وقتل الدعي المسمى بعبد النبي، وصفت اليمن من أكدارها، وعادت إلى ما سبق من مضمارها، وكتب بذلك إلى أخيه الملك الناصر صلاح الدين يخبره بما فتح الله عليه، وأحسن إليه، فكتب الملك صلاح الدين بذلك؛ إلى نور الدين فأرسل نور الدين بذلك إلى الخليفة، يبشره بفتح اليمن، والخطبة بها له.

وفيها خرج الموفق خالد بن القيسراني من الديار المصرية، وقد أقام بها الملك الناصر، حساب الديار المصرية، وما خرج من الحواصل، حسب ما رسم به الملك نور الدين كما تقدم، وقد كاد صلاح الدين، لما جاءته الرسالة بذلك، يظهر شق العصا ويواجه بالمخالفة والإباء لكنه عاد إلى طباعه الحسنة، وأظهر الطاعة المستحسنة، وأمر بكتابة الحساب، وتحرير الكتاب والجواب، فبادر إلى ذلك جماعة الدواوين، والحساب، والكتاب، وبعث مع ابن القيسراني بهدية سنية، وتحف هائلة هنية. فمن ذلك خمس ختمات شريفات، مغطات بخطوط مستويات، ومائة عقد من الجواهر النفيسات، خارجا عن قطع البلخش، واليواقيت، والفصوص، والثياب الفاخرات، والأواني، والأباريق، والصحاف الذهبيات، والفضيات، والخيول المسومات، والغلمان، والجواري الحسان، والحسنات، ومن الذهب عشرة صناديق، مقفلات، مختومات، مما لا يدرى كم عدة ما فيها، من مئين ألوف ومئات، من الذهب المصري المعد للنفقات. فلما فصلت العير من الديار المصرية، لم تصل إلى الشام، حتى كان وفاة الملك نور الدين رحمه الله، رب الأرضين والسماوات، فأرسل صلاح الدين من ردها عليه وأعادها إليه، ويقال إن منها ما عدي عليه، وعلم بذلك حين وضعت بين يديه.

مقتل

■ **عمارة بن أبي الحسن بن زيدان الحكمي من قحطان**، أبو محمد الملقب بنجم الدين اليمني، الفقيه، الشاعر، الشافعي، وسبب قتله، أنه اجتمع جماعة من رؤوس الدولة الفاطمية، الذين كانوا فيها حكاما، فاتفقوا فيما بينهم أن يعيدوا الدولة الفاطمية، فكتبوا إلى الفرنج، يستدعونهم إليهم، وعينوا خليفة من ذرية الفاطميين، ووزيرا وأمراء، وذلك في غيبة السلطان ببلاد الكرك، ثم اتفق مجيئة فحرض عمارة اليمني، شمس الدولة توران شاه، على المسير إلى اليمن، ليضعف بذلك الجيش عن مقاومة الفرنج إذا قدموا لنصرة الفاطميين، فخرج توران شاه، ولم يخرج معه عمارة اليمني، بل أقام بالقاهرة، يفيض في هذا الحديث، ويداخل المتكلمين فيه، ويصافيهم، وكان من أكابر الدعاة إليه، والمحرضين عليه هذا، وقد أدخلوا معهم فيه بعض من ينسب إلى صلاح الدين، وذلك من قلة عقلهم وكثرة جهلهم، فخانهم أحوج ما كانوا إليه، وهو الشيخ زين الدين علي بن نجا الواعظ، جاء إلى السلطان فأخبره بما تمالأ القوم عليه وبما انتهى أمرهم إليه، فأطلق له السلطان أموالا جزيلة، وأفاض عليه حللا جميلة، ثم استدعاهم السلطان

واحدا واحدا فقررهم، فأقروا له بذلك، فاعتقلهم، ثم استفتى الفقهاء في أمرهم، فأفتوه بقتلهم وتبديد شملهم فعند ذلك، أمر بصلب رؤوسهم، وأعيانهم، دون أتباعهم، وغلمانهم، وأمر بنفي من بقي من جيش العبيديين إلى أقصى البلاد، وأفرد ذرية العاضد، وأهل بيته في دار، فلا يصل إليهم إصلاح، ولا إفساد، وأجرى عليهم ما يليق بهم من الأرزاق، والثياب، وكان عمارة معاديا للقاضي الفاضل، فلما أُحضر عمارة بين يدي السلطان قام القاضي الفاضل فاجتمع بالسلطان، ليشفع فيه عنده، فتوهم عمارة أنه يتكلم فيه، فقال: يا مولانا السلطان لا تسمع منه. فغضب القاضي الفاضل، وخرج من القصر، فقال له السلطان: إنه إنما كان قد شفع فيك. فندم ندما عظيما. ولما ذهب به ليصلب اجتاز بدار القاضي، فطلبه، فتغيب عنه، فأنشد عند ذلك:

عبد الرحيم قد احتجب … إن الخلاص هو العجب

قال ابن أبي طي: وكان الذين صُلبوا:

■ **المفضّل بن كامل القاضي**، وهو أبو القاسم هبة الله بن عبد الله بن كامل قاضي قضاة الديار المصرية زمن الفاطميين، ويلقب بفخر الأمناء، وكان أول من صلب فيما قاله العماد الكاتب، وقد كان ينسب إلى فضيلة وأدب، وله شعر رائق، فمن ذلك قوله في غلام رفّاء.

يا رافيا خرق كل ثوب … ويا رشاً حبه اعتقادي

عسى بكف الوصال ترفو … ما مزق الهجر من فؤادي

و■ **ابن عبد القوي داعي الدعاة**، وكان يعلم بدفائن القصر، فعوقب ليُعلم عليها، فامتنع من ذلك، فمات، واندرست.

و■ **العويرس** وهو ناظر الديوان، وتولى مع ذلك القضاء.

و■ **شُبرما** وهو كاتب السر.

و■ **عبد الصمد القشة**، وهو أحد أمراء المصريين.

و■ **نجاح الحمامي**، ورجل منجم نصراني أرمني كان قد بشرهم بأن هذا الأمر يتم بعلم النجوم.

و■ **عمارة اليمني الشاعر**: وقد كان شاعرا، مطبقا بليغا فصيحا، لا يلحق شأوه في هذا الشأن، وله ديوان شعر مشهور، وقد ذكرته في طبقات الشافعية، لأنه كان يشتغل بمذهب الشافعي، وله تصنيف في الفرائض، وكتاب الوزراء الفاطميين، وكتاب جمع فيه سيرة نفيسة، التي كان يعتقدها عوام مصر، وقد كان أديبا، فاضلا، فقيها، غير أنه كان ينسب إلى موالاة الفاطميين، وله فيهم، وفي وزرائهم، وأمرائهم، مدائح كثيرة جدا، وأقل ما كان ينسب إلى الرفض، وقد اتهم بالزندقة، والكفر المحض، وذكر العماد في الخريدة [قسم الشعراء: ٣/١٠٤]، أنه قال في قصيدته، التي يقول في أولها:

العِلْمُ مُذْ كَانَ مُحْتَاجٌ إلى العَلَمِ … وشَفْرَةُ السَّيْفِ تَسْتَغْنِي عَنِ القَلَمِ

وهي طويلة جدا، فيها كفر وزندقة كثيرة. قال فيها:

قَدْ كَانَ أَوَّلُ هذا الدِّينِ مِنْ رَجُلٍ … سَعَى إِلَى أَنْ دَعَوْهُ سَيِّدَ الأُمَمِ

قال العماد: فأفتى أهل العلم من أهل مصر، بقتله، وحرضوا السلطان على المثلة به، وبمثله. قال: ويجوز أن يكون هذا البيت، معمولا عليه، والله أعلم.

وقد أورد ابن الساعي، شيئاً من رقيق شعره فمن ذلك قوله، يمدح بعض الملوك:

ملك إذا أنا قابلتُ بِشْرَ جَبِينِهِ … فَارَقْتُهُ والبِشْرُ فَوْقَ جَبِينِي

وإذا لَثَمْتُ يَمِينَهُ وخَرَجْتُ مِنْ … أَبْوَابِهِ لَثَمَ الْمُلُوكُ يَمِينِي

ومن ذلك قوله يتغزل:

لِي في هَوَى الرَّشَإِ العُذْرِيِّ أعْذَارُ … لَمْ يَبْقَ لِي مُذْ أقرَّ الدَّمْعُ إِنْكَارُ

لِي في القُدُودِ وفي لَثْمِ الخُدودِ وفي … ضَمِّ النُّهُودِ لُبَانَاتٌ وأوْطَارُ

هذا اخْتِيارِي فَوَافِقْ إِنْ رَضِيتَ بِهِ … وإلا فَدَعْنِي لِمَا أَهْوَى وأَخْتَارُ

ومما أنشده الشيخ تاج الدين الكندي في عمارة اليمني حين صلب:

عمارةُ في الإسْلامِ أَبْدَى خيانةً … وبَايَعَ فِيهَا بِيعَةً وصَلِيبَا

وأَمْسَى شَرِيكَ الشِّرْكِ في بُغْضِ احمد … وأَصْبَحَ في حُبِّ الصَّلِيبِ صَلِيبَا

وكان خبيثَ الملتقى إن عجمته … تجدْ منه عوداً في النفاق صليباً

سَيَلْقَى غَداً ما كَانَ يَسْعَى لأجله … ويُسْقَى صَدِيداً في لَظَى وصَلِيبَا

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: فالأول صليب النصارى، والثاني بمعنى مصلوب. والثالث بمعنى القوي، والرابع ودك العظام.

ولما صلب الملك الناصر هؤلاء يوم السبت، الثاني من شهر رمضان، من هذه السنة، بين القصرين من القاهرة، كتب إلى الملك نور الدين، يعلمه بما وقع منهم، وما أوقع بهم، من الخزي، والنكال.

قال العماد: فوصل الكتاب بذلك الأمر يوم توفي الملك نور الدين، رحمه الله تعالى. وكذلك قتل صلاح الدين رجلا من أهل الإسكندرية، يقال له قديد القفاص كان قد افتتن به الناس، وجعلوا له جزءا من أكسابهم، حتى النساء من أموالهن، فأحيط به، فأراد الخلاص، ولات حين مناص، فقتل أسوة بمن سلف، ولقد كان بئس الخلف ومما وجد من شعر عمارة، يرثي العاضد، ودولته، وأيامه.

أَسَفِي عَلَى زَمَنِ الإمَامِ العَاضِدِ … أَسَفَ العَقِيمِ عَلَى فِرَاقِ الوَاحِدِ

جالَستُ مِن وُزَرائِهِ وصحِبتُ مِنْ … أمرائِهِ أهلَ الثناءِ الماجِدِ

لَهْفِي عَلَى حُجُرَاتِ قَصْرِكَ إذ خَلَتْ … يَا ابنَ النَّبِيِّ مِنِ ازْدِحَامِ الوَافِدِ

وَعَلَى انْفِرَادِكَ مِنْ عَسَاكِرِكَ الذي … كَانُوا كَأَمْوَاجِ الخِضَمِّ الرَّاكِدِ

قَلِدتَ مُؤْتَمَنَ الخِلافَةِ أَمْرَهُمْ … فَكَبَا وقَصَّرَ عَنْ صَلاحِ الفَاسِدِ

فَعَسَى اللَّيالي أَنْ تَرُدَّ عَلَيْكُمْ … مَا عَوَّدَتْكُمْ مِنْ جَمِيلِ عَوَائِدِ

وله في قصيدة:

يا عَاذِلِي في هَوَى أَبْنَاءِ فَاطِمَةٍ … لَكَ المَلامَةُ إنْ قَصَّرْتَ في عَذْلِي

بِاللَّهِ زُرْ سَاحَةَ القَصْرَيْنِ وَابْكِ مَعِي … عَلَيْهِمَا لا عَلَى صِفِّينَ والجَمَلِ

وقُلْ لأهْلِيهِمَا واللَّهِ مَا الْتَحَمَتْ … فِيكُمْ قُرُوحِي ولا جُرْحِي بِمُنْدَمِلِ

مَاذا تَرَى كَانَتِ الإفْرَنْجُ فَاعِلَةً … في نَسْلِ آلِ أَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلِي

وقد أورد له الشيخ أبو شامة، في الروضتين، أشعارا كثيرة، من مدائحه في الخلفاء الفاطميين، وكذا ابن خلكان.

■ **ابن قرقول إبراهيم بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن باديس بن القائد الحمزي أبو إسحاق بن قرقول الأندلسي**: صاحب كتاب مطالع الأنوار، الذي وضعه على مثال كتاب مشارق الأنوار، للقاضي عياض، وكان من علماء بلاده، وفضلائهم المشهورين، مات فجأة بعد صلاة الجمعة، سادس شوال من هذه السنة عن أربع وستين سنة، قاله ابن

خلكان، والله سبحانه وتعالى أعلم.

فصل في وفاة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بن آق سنقر التركي السلجوقي في هذه السنة رحمه الله وذكر شيء من سيرته العادلة وأيامه الكاملة

■ (نور الدين بن زنكي).

هو الملك العادل، نور الدين أبو القاسم محمود بن الملك الأتابك قسيم الدولة، عماد الدين، أبي سعيد زنكي، الملقب بالشهيد، ابن الملك آق سنقر الأتابك، الملقب بقسيم الدولة، التركي، السلجوقي، مولاهم، ولد وقت طلوع الشمس، من يوم الأحد، السابع عشر من شوال سنة إحدى عشرة وخمسمائة بحلب، ونشأ في كفالة والده صاحب حلب، والموصل، وغيرهما من البلدان، الكثيرة الكبيرة. وتعلم القرآن، والفروسية، والرمي، وكان شهما، شجاعا، ذا همة عالية، وقصد صالح، وحرمة وافرة، وديانة متينة، فلما قتل أبوه سنة إحدى وأربعين، وهو محاصر جعبر، كما ذكرنا، صار الملك بحلب إلى ابنه نور الدين هذا، وأعطى أخوه سيف الدين غازي الموصل، كما تقدم، ثم افتتح الملك نور الدين دمشق في سنة تسع وأربعين، فأحسن إلى أهلها، وبنى لهم المدارس، والمساجد، والربط، ووسع لهم الطرق على المارة، وبنى عليها الرصافات، ووسع الأسواق، ووضع المكوس بدار الغنم، والبطيخ، والعرصة، وغير ذلك.

وكان حنفي المذهب، يحب العلماء والفقراء، ويكرمهم، ويحترمهم، ويحسن إليهم، وكان يقوم في أحكامه بالعدلة، الحسنة، واتباع الشرع المطهر، ويعقد مجالس العدل، ويتولاها بنفسه، ويجتمع إليه في ذلك القاضي، والفقهاء، والمفتون من سائر المذاهب، ويجلس في يوم الثلاثاء بالمسجد المعلق، الذي بالكشك، ليصل إليه كل أحد من المسلمين، وأهل الذمة، حتى يساريهم، وأحاط السور على حارة اليهود، وكان خرابا، وأغلق باب كيسان، وفتح باب الفرج، ولم يكن قبله هناك باب بالكلية، وأظهر ببلاده السنة، وأمات البدعة، وأمر بالتأذين بحي على الصلاة، حي على الفلاح، ولم يكن يؤذن بهما في دولتي أبيه وجده، وإنما كان يؤذن بحي على خير العمل، لأن شعار الروافض، كان ظاهرا بها، وأقام الحدود، وفتح الحصون، وكسر الفرنج غير مرة واستنقذ من أيديهم معاقل كثيرة، من الحصون المنيعة، التي كانوا قد استحوذوا عليها، من بلاد المسلمين، كما تقدم بسط ذلك، في السنين المتقدمة في أيامه، وأقطع الأمراء العرب إقطاعات لئلا يتعرضوا للحجيج، وبنى بدمشق مارستاناً حسناً، لم يبن في الشام قبله مثله، ولا بعده أيضا، ووقف وقفا، على من يعلم الأيتام الخط والقرآن، وجعل لهم نفقة، وكسوة، وعلى من يكرم الأيتام وعلى المجاورين بالحرمين، وله أوقاف دارة على جميع أبواب الخير، وعلى الأرامل، والمحاويج وكان الجامع دائرا، فولى نظره القاضي كمال الدين محمد بن عبد الله الشهرزوري الموصلي، الذي قدم به، فولاه قضاء قضاة دمشق فأصلح أموره، وفتح المشاهد الأربعة، وقد كانت حواصل الجامع بها، من حين احترق، في سنة إحدى وستين وأربعمائة، وأضاف إلى أوقاف الجامع المعلومة، الأوقاف التي لا يعرف واقفوها، ولا يعرف شروطهم فيها، وجعلها قلما واحداً، وسماه مال المصالح، ورتب عليه لذوي الحاجات الفقراء، والمساكين والأرامل والأيتام وما أشبه ذلك.

وقد كان الملك نور الدين، حسن الخط، كثير المطالعة للكتب الدينية، متبعا للآثار النبوية، محافظا على الصلوات في الجماعات، كثير التلاوة، محبا لفعل الخيرات، عفيف البطن، والفرج، مقتصدا في الإنفاق على نفسه، وعياله، في المطعم، والملبس، حتى قيل: إنه كان أدنى الفقراء في زمانه، أعلى نفقة منه، من غير اكتناز، ولا استئثار بالدنيا، ولم تسمع منه كلمة فحش قط، في غضب، ولا رضى، صموتاً وقوراً.

قال ابن الأثير: لم يكن من ملوك الإسلام بعد عمر بن عبد العزيز مثل الملك نور الدين، ولا أكثر تحرياً، للعدل والإنصاف منه، وكانت له دكاكين بحمص قد اشتراها مما يخصه من المغانم، فكان يقتات منها، وزاد امرأته من كراها على نفقتها عليها، واستفتى العلماء في مقدار ما يحل له من بيت المال، فكان يتناوله، ولا يزيد عليه شيئا ولو مات جوعا، وكان يكثر اللعب بالكرة، فعاتبه رجل من كبار الصالحين في ذلك، فقال: إنما الأعمال بالنيات، وإنما أريد بذلك تمرين الخيل على الكر والفر، وتعليمها ذلك، ونحن لا نترك الجهاد. وكان لا يلبس الحرير، وكان يأكل من كسب يده، بسيفه ورمحه.

وركب يوما مع بعض أصحابه، والشمس في ظهورهما، والظل بين أيديهما، لا يدركانه، ثم رجعا، فصار الظل وراءهما، فساق الملك نور الدين وجعل يلتفت، وظله يتبعه، ثم قال لصاحبه: قد شبهت ما نحن فيه بالدنيا، تهرب ممن يطلبها، وتطلب من يهرب منها. وقد أنشد بعضهم في هذا المعنى:

مَثَلُ الرِّزْقِ الَّذِي تَطْلُبُهُ ... مَثَلُ الظِّلِّ الَّذِي يَمْشِي مَعَكْ
أَنْتَ لا تُدْرِكُهُ مُتَّبِعاً ... فَإِذَا وَلَّيْتَ عَنْهُ تَبِعَكْ

وكان فقيها على مذهب أبي حنيفة، وسمع الحديث، وأسمعه، وكان يكثر الصلاة بالليل، من وقت السحر إلى أن يركب:

جَمَعَ الشَّجَاعَةَ وَالْخُشُوعَ لَدَيْهِ ... مَا أَحْسَنَ الْمِحْرَابَ فِي الْمِحْرَابِ

وكذلك كانت زوجته، عصمت الدين خاتون، بنت الأتابك معين الدين أنر تكثر قيام الليل، فنامت ذات ليلة عن وردها، فأصبحت وهي غضبى، فسألها نور الدين عن أمرها، فذكرت نومها الذي فوت عليها وردها، فأمر نور الدين عن ذلك بضرب طبلخانة في القلعة وقت السحر، لتوقظ النائم ذلك الوقت، لقيام الليل، وأعطى الضارب على الطبلخانة أجرا جزيلا، وجراية كثيرة.

فَأَلْبَسَ اللَّهُ هَاتِيكَ الْعِظَامَ وَإِنْ ... بَلِينَ نُحْتَ الثَّرَى عَفْواً وَغُفْرَاناً
سَقَى ثَرَى أَوْدَعُوهُ رَحْمَةً مَلأَتْ ... مَثْوَى قُبُورِهِمُ رَوْحاً وَرَيْحَاناً

وذكر ابن الأثير، أن الملك نور الدين بينما هو ذات يوم يلعب بالكرة، إذ رأى رجلا يحدث آخر، ويومئ، إلى نور الدين فبعث الحاجب ليسأله ما شأنه! فإذا هو رجل معه رسول من جهة الحاكم، وهو يزعم أن له على نور الدين حقا، يريد أن يحاكمه عند القاضي، فلما رجع الحاجب إلى نور الدين وأعلمه بذلك، ألقى الجوكان من يده، وأقبل مع خصمه، ماشيا إلى القاضي كمال الدين الشهرزوري، وأرسل نور الدين إلى القاضي، أن لا تعاملني إلا معاملة الخصوم، فحين وصلا، وقف نور الدين مع خصمه، بين يدي القاضي حتى انفصلت الخصومة والحكومة، ولم يثبت للرجل على نور الدين حق، بل ثبت الحق للسلطان على الرجل، فلما تبين ذلك قال السلطان: إنما جئت معه، لئلا يتخلف أحد عن الحضور إلى الشرع إذا

دعي إليه، فإنما نحن شحنكية بين يديه، وأنا أعلم، أنه لا حق للرجل عندي، ومع هذا أشهدكم، أني قد ملكته ذلك الذي ادعى به، ووهبته له.

وأرسل القاضي تاج الدين رسولا من جهته يقال له سويد ليحضر الملك نور الدين إلى مجلس الحكم لسماع دعوى من رجل عليه فبلغ سويد الرساله إلى الحاجب فدخل عليه وهو يضحك ويقول: ليقم المولى إلى القاضي لسماع دعوى وكأنه يستهزئ بذلك، فقال له الملك: وما لك تستهزئ بذلك؟ ثم قال: ائتوني بفرسي فنهض وهو يقول: ﴿إنما كان قول المؤمنين إذ دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا﴾ [النور: ٥١]. وذهب إلى الحاكم وكان يوماً مطراً كثير الوحل رحمه الله تعالى.

قال ابن الأثير: وهو أول من ابتنى دارا للعدل، وكان يجلس فيها في الأسبوع مرتين، وقيل أربع مرات، وقيل خمس. ويحضر القاضي، والفقهاء من سائر المذاهب، ولا يحجبه يومئذ حاجب، ولا غيره، بل يصل إليه القوي والضعيف، فكان يكلم الناس، ويستفهمهم، ويخاطبهم بنفسه، فيكشف المظالم، وينصف المظلوم من الظالم، وكان سبب ذلك، أن أسد الدين شيركوه بن شاذي كان قد عظم شأنه عند نور الدين، حتى صار كأنه شريكه في المملكة، واقتنى الأملاك، والأموال، والمزارع، والقرى، وكان ربما ظلم نوابه جيرانه في الأراضي، وكان القاضي كمال الدين ينصف كل من استعداه على جميع الأمراء، إلا أسد الدين هذا، فلما ابتنى نور الدين دار العدل، تقدم أسد الدين إلى نوابه أن لا يَدّعوا لأحد عنده ظلامة، وإن كان عظيماً، فإن زوال ما له عنده أحب إليه أن يراه نور الدين بعين ظالم، أو يوقفه مع خصم من العامة، ففعلوا ذلك، فلما جلس نور الدين بدار العدل مدة متطاولة، ولم ير أحداً يستعدي على أسد الدين، سأل القاضي عن ذلك، فأعلمه بصورة الحال، فسجد نور الدين عند ذلك شكرا لله، وقال: الحمد لله الذي أصحابنا، ينصفون من أنفسهم.

وأما شجاعته فكان يقال: إنه لم ير على ظهر فرس أحسن ولا أثبت منه، وكان حسن اللعب بالكرة، وكان ربما ضربها، ثم يسوق وراءها، ويأخذها من الهواء بيده، ثم يرميها إلى آخر الميدان، ولم ير جوكانه يعلو على رأسه، ولا يرى الجوكان في يده، لأن الكم ساتر لها، ولكنه استهانة بلعب الكرة.

وكان شجاعا، صبورا في الحرب، يضرب به المثل في ذلك، وكان يقول: قد تعرضت للشهادة غير مرة، فلم يتفق لي ذلك.

وقال له يوما الفقيه قطب الدين النيسابوري: بالله يا مولانا السلطان، لا تخاطر بنفسك، فإنك لو قتلت، قتل جميع من معك، وأخذت البلاد، فقال له: اسكت يا قطب الدين، من هو محمود؟ من كان يحفظ الدين والبلاد قبلي، غير الله الذي لا إله إلا هو؟ قال فبكى من كان حاضرا، رحمه الله.

وقد أسر بنفسه، في بعض الغزوات بعض ملوك الفرنج، فاستشار الأمراء فيه، هل يقتله، أو يأخذ ما يبذل له من المال في الفداء، فاختلفوا عليه، ثم حسن في رأيه إطلاقه، وأخذ الفداء فحين جهّز بَعْثَ الفداء مات ببلده، فأعجب ذلك نور الدين وأصحابه. وابتنى نور الدين من ذلك المال البيمارستان الذي بني بدمشق، وهو أحسن ما بني من البمارستانات بالبلاد ومن شرطه أنه على الفقراء والمساكين وإذا لم يوجد بعض الأدوية التي يعز وجودها إلا فيه فلا يمنع منه الأغنياء ومن جاء مستوصفاً فلا يمنع من شرابه ولهذا جاء إليه نور الدين وشرب من شرابه رحمه الله.

قلت: ويقول بعض الناس: إنه لم تخمد منه النار منذ بني إلى زماننا هذا، فالله اعلم.

وقد بنى الخانات الكثيرة في الطرقات، والأبراج، ورتب الخفر في الأماكن المخوفة، وجعل فيها الحمام الهوادي، التي تطلعه على الأخبار في أسرع مدة، وبنى الربط، والخانقاهات، وكان يجمع الفقهاء عنده للبحث والمشايخ والصوفية للزيارة ويكرمهم ويعظمهم، وكان يحب الصالحين، وقد نال بعض الأمراء عنده من بعض العلماء وهو قطب الدين النيسابوري، فقال له نور الدين: ويحك، إن كان ما تقول حقا، فله من الحسنات الكثيرة، الماحية لذلك، ما ليس عندك، مما يكفر عنه سيئات ما ذكرت، إن كنت صادقا، على أني والله لا أصدقك، وإن عدت ذكرته، أو أحداً غيره بسوء لأذبّنّك. قال فكف عنه، ولم يذكره بعد ذلك.

وقد ابتنى بدمشق دارا لسماع الحديث، وإسماعه.

قال ابن الأثير: وهو أول من بنى دار حديث، وقد كان مهيبا، وقورا، شديد الهيبة في قلوب أمرائه لا يتجاسر أحد أن يجلس بين يديه إلا بإذنه، ولم يكن أحد من الأمراء يجلس بلا إذن، سوى الأمير نجم الدين أيوب، وأما أسد الدين شيركوه، ومجد الدين بن الداية، نائب حلب، وغيرهما من الأكابر، فكانوا يقفون بين يديه، ومع هذا كان إذا دخل أحد من الفقهاء، والفقراء، قام له، ومشى خطوات، وأجلسه معه على سجادته وشرع يحادثه في وقار وسكون، وإذا أعطى أحداً منهم شيئا مستكثراً، يقول: هؤلاء لهم في بيت المال حق أضعاف ما أُعطيهم فإذا رضوا منا ببعض حقهم، فلهم المنة علينا.

وقد سُمع عليه جزء حديث وفيه فخرج رسول الله ﷺ متقلدا السيف فجعل يتعجب من تغيير عادات الناس، وكيف يربط الأجناد السيوف في أوساطهم، ولا يفعلون هذا، ثم أمر الجند بأن لا يحملوا السيوف إلا متقلديها، ثم خرج هو في اليوم الثاني إلى الموكب وهو متقلد السيف، وجميع الجيش كذلك، يريد بذلك الاقتداء برسول الله ﷺ، فرحمه الله.

وقص عليه وزيره موفق الدين خالد بن محمد بن نصر القيسراني الشاعر، أنه رأى في منامه، أنه يغسل ثياب الملك نور الدين، فأمره أن يكتب مناشير بوضع المكوس، والضرائب عن البلاد، وقال له: هذا تأويل رؤياك.

وكتب إلى الناس ليكون منهم في حل مما كان أخذ منهم، ويقول: إنما صرف ذلك، في قتال أعدائكم، من الكفرة، قبحهم الله ولعنهم.

وكتب بذلك إلى سائر ممالكه، وبلدان سلطانه، وأمر الوعاظ أن يستحلوا له من التجار لنور الدين وكان يقول في سجوده: اللهم ارحم العشار، المكاس، وقيل: إن برهان الدين البلخي، أنكر على الملك نور الدين، في استعانته في الحروب، بأموال المكوس، وقال له مرة: كيف تنصرون وفي عساكركم، الخمور، والطبول، والزمور؟ ويقال: إن سبب وضعه المكوس عن الناس، أن الواعظ أبا عثمان المنتجب، ابن أبي محمد الواسطي وكان من الصالحين الكبار، أنشد نور الدين:

مثل وقوفك أيها المغرور	يوم القيامة والسماء تمور
إن قيل نور الدين رحت مسلماً	فاحذر بأن تسعى وما لك نور
أنهيت عن شرب الخمور وأنت من	كأس المظالم طافح مخمور
عطلت كاسات المدام تعففا	وعليك كاسات الحرام تدور
ماذا تقول إذا نقلت إلى البلى	فرداً وجاءك منكر ونكير؟

ماذا تقول إذا وقفت بموقف فردا ... ذليلا والحساب عسير
وتعلقت فيك الخصوم وأنت في ... يوم الحساب مسحّب مجرور
وتفرقت عنك الجنود وأنت في ... ضيق اللحود موسد مقبور
وودت أنك ما وليت ولاية ... يوماً ولا قال الأنام أمير
بقيت بعد العز رهن حفيرة ... في عالم الموتى وأنت حقير
وحشرت عريانا حزيناً باكياً ... قلقا وما لك في الأنام مجير
أرضيت أن تحيا وقلبك دارس ... عافي الخراب وجسمك المعمور
أرضيت أن يحظى سواك بقربه ... أبدا وأنت مبعد مهجور
مهد لنفسك حجة تنجو بها ... يوم المعاد لعلّك المعذور

فلما سمع نور الدين هذه الأبيات، بكى بكاء شديدا، وأمر بوضع المكوس والضرائب في سائر بلاده.

وكتب إليه الشيخ عمر الملاء من الموصل وكان قد أمر الولاة، والأمراء بها، أن لا يفصلوا بها أمرا، حتى يعلموه، فما أمرهم به من شيء امتثلوه، وكان من الصالحين الزاهدين، وكان نور الدين يستقرض منه في كل رمضان ما يفطر عليه، وكان يرسل إليه، بفتيت، ورقاق، فيفطر عليه - كتب إليه: إن المفسدين قد كثروا، ويحتاج إلى نوع سياسة، ومثل هذا لا يجيء إلا بقتل، وصلب، وضرب، وإذا أخذ مال إنسان في البرية، من يجيء فيشهد له؟ فكتب إليه الملك نور الدين على ظهر كتابه: إن اللّه خلق الخلق، وشرع لهم شريعة، وهو أعلم بما يصلحهم، ولو علم أن في الشريعة زيادة في المصلحة، لشرعها ، فما لنا حاجة إلى الزيادة على ما شرعه اللّه تعالى، فمن زاد، فقد زعم أن الشريعة ناقصة، فهو يكملها بزيادته، وهذا من الجرأة على اللّه، وعلى ما شرعه والعقول المظلمة لا تهتدي، واللّه سبحانه يهدينا وإياك إلى صراط مستقيم. فلما وصل الكتاب إلى الشيخ عمر الملا، جمع الناس بالموصل، وقرأ عليهم الكتاب، وجعل يقول: انظروا إلى كتاب الزاهد إلى الملك، وكتاب الملك إلى الزاهد.

وجاء إليه أخو الشيخ أبي البيان، يستعديه على رجل، أنه يسبه، ويرميه، بأنه مُراء متنامس وجعل يبالغ في الشكاية عليه، فقال له السلطان: أليس اللّه تعالى يقول: ﴿وإذا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] فسكت الشيخ، ولم يحر جوابا. وقال الفقيه أبو الفتح الأشتري - معيد النظامية ببغداد، وكان قد جمع سيرة مختصرة لنور الدين، قال: وكان نور الدين محافظا على الصلوات في أوقاتها في جماعة، بتمام شروطها، والقيام بها، بأركانها، والطمأنينة في ركوعها، وسجودها، وكان كثير الصلاة بالليل، كثير الابتهال في الدعاء، والتضرع إلى اللّه عز وجل في أموره كلها.

قال: وبلغنا عن جماعة من الصوفية، ممن يعتمد على قولهم، أنهم دخلوا بلاد القدس للزيارة، أيام الفرنج. فسمع الكفار يقولون ابن القسيم يعنون نور الدين له مع اللّه سر، فإنه ما يظفر علينا بكثرة جنده، وجيشه، وإنما يظفر علينا وينصر بالدعاء، وصلاة الليل، فإنه يصلي بالليل، ويرفع يده إلى اللّه، ويدعو، فإنه يستجيب له، ويعطيه سؤله، وما يردُّ يده خائباً فيظفر علينا. قال: فهذا كلام الكفار في حقه. رحمه اللّه.

وحكى الشيخ أبو شامة، أن نور الدين وقف بستان الميدان، سوى الغيضة التي تليه، نصفه على تطييب جامع دمشق، والنصف الآخر يقسم أحد عشر جزءاً، جزآن منها على تطييب المدرسة التي أنشأها للحنفية، والتسعة أجزاء الباقية على تطييب المساجد التسعة، وهي مسجد الصالحين بجبل قاسيون، وجامع القلعة، ومسجد عطية، ومسجد ابن لبيد بالفسقار، ومسجد الرماحين المعلق، والمسجد العباسي، والمسجد المعلق بالصاغة، ومسجد دار البطيخ المعلق، والمسجد الذي جدده نور الدين، جوار بيعة اليهود، لكل من هذه المساجد، جزء من إحدى عشر جزءاً من النصف.

ومناقبه، ومآثره كثيرة جدا. وقد ذكرنا نبذة من ذلك يستدل بها على ما عداها.

وقد ذكر الشيخ شهاب الدين في أول الروضتين [٩/١] كثيرا من محاسنه، وذكر ما مدح به من القصائد، وقد أوردنا في غبون دولته طرفاً صالحاً من عدله وقصده الصالح وذكرنا أنه لما فتح أسد الدين الديار المصرية ثم مات، ثم تولى صلاح الدين، هم بعزله عنها، واستنابة غيره فيها غير مرة، ولكن يعوقه عن ذلك القدر ويصده، اقتراب أجله وفراغ عمله، فلما كان في هذه السنة أعني سنة تسع وستين وخمسمائة وهي آخر مدته، أضمر على الدخول إلى الديار المصرية، وصمم عليه، وأرسل إلى عساكر بلاد الموصل، وغيرها، ليكونوا ببلاد الشام، ويركب هو في جمهور جيشه إلى مصر، وقد خاف منه الملك صلاح الدين خوفا شديدا، فلما كان يوم عيد الفطر، من هذه السنة، وهو في الميدان الأخضر القبلي، وصلى به الخطيب فيه صلاة عيد الفطر، وكان ذلك نهار الأحد، ورمى القبق في الميدان الأخضر الشمالي، والقدر يقول له: هذا آخر أعيادك، ومد في ذلك اليوم سماطا حافلا، وأمر بانتهابه، وطهر ولده الملك الصالح إسماعيل في هذا اليوم، وزينت له البلد، وضربت البشائر للعيد والختان، ثم ركب في يوم الاثنين، في الموكب على العادة، ثم لعب بالكرة في يومه ذلك اليوم، فحصل له غيظ من بعض الأمراء ولم يكن ذلك من سجيته فبادر إلى القلعة، وهو كذلك في غاية الغضب، وحصل له انزعاج، ودخل في حيرة سوء المزاج، واشتغل بنفسه، وإزعاجه، وتنكرت عليه جميع حواسه، وطباعه، واحتبس أسبوعا عن الناس، والناس في شغل عنه، بما هم فيه من اللعب والانشراح، بالزينة التي نصبوها لأجل طهور ولده، فهذا يجود بروحه، وهذا يروح بجوده، سرورا بذلك، فانعكست تلك الأفراح بالأتراح، ونسخ الجد ذلك المزاح، وحصلت للملك خوانيق في حلقه، منعته من أداء النطق، وهذا شأن أوجاع الحنق، وكان قد أشير عليه بالفصد، فلم يفعل، وكان أمر اللّه قدرا مقدورا وكان ذلك في الكتاب مسطوراً.

فلما كان يوم الأربعاء، الحادي عشر من شوال من هذه السنة، قبض إلى رحمة اللّه تعالى، عن ثمان وخمسين سنة، مكث منها في الملك ثمان وعشرين سنة، رحمه اللّه، وصلي عليه بجامع القلعة ودفن بها ثم حول إلى تربة بنيت له بباب المدرسة التي أنشأها للحنفية رحمه اللّه ويل بالرحمة ثراه وجعل الجنة مأواه.

وقد رثاه الشعراء بمراث كثيرة، قد أوردها أبو شامه في الروضتين [٥٨١/١]، وما أحسن ما قاله العماد:

عجبت من الموت كيف اهتدى ... إلى ملك في سجايا ملك
وكيف ثوى الفلك المستدير ... في الأرض وسط الفلك

وقال حسان الشاعر الملقب بالعرقلة في مدرسة نور الدين حين دفن فيها رحمه اللّه تعالى:

ومدرسة سيدرس كل شيء ... وتبقى في حمى علم ونسك

تضوع ذكرها شرقا وغربا ... بنور الدين محمود بن زنكي
يقول وقوله حق وصدق ... بغير كناية وبغير شك
دمشق في المدائن بيت ملكي ... وهذي في المدارس بيت ملكي

صفة نور الدين رحمه الله تعالى

كان طويل القامة، أسمر اللون، حلو العينين، واسع الجبين، حسن الصورة، تركي الشكل، ليس له لحية، إلا في حنكه، مهيبا متواضعا، عليه جلالة ونور الإسلام وتعظيم قواعد الشرع رحمه الله:

فصل

لما مات نور الدين، في شوال، من هذه السنة، بويع من بعده بالملك لولده الملك الصالح إسماعيل، وكان صغيرا، وجعل أتابكه الأمير شمس الدين بن مقدم، فاختلف الأمراء، وحادت الآراء، وظهرت الشرور، وكثرت الخمور، وانتشرت الفواحش، وظهرت، حتى إن ابن أخيه سيف الدين غازي بن مودود، صاحب الموصل، لما تحقق موت عمه وكان محصورا منه نادى مناديه بالبلد، بالمسامحة باللعب، واللهو، والشُّرب، والطرب، ومع المنادي دُفٌّ، وقدح ومزمار الشيطان، فإنا لله وإنا إليه راجعون. وقد كان ابن أخيه هذا، وغيره من الملوك، والأمراء، الذين له حكم عليهم، لا يستطيع أحد منهم أن يفعل شيئا من المناكر والفواحش، فلما مات، مرج أمرهم، وعاثوا في الأرض فسادا، وتحقق حينئذ قول الشاعر:

ألا فاسقني خمرا وقل لي هي الخمر ... ولا تسقني سرا إذا أمكن الجهر

وطمعت الأعداء من كل جانب في المسلمين، وعزم الفرنج على قصد دمشق، وانتزاعها من أيدي المسلمين، فبرز إليهم ابن مقدم الأتابك، فواقعهم عند بانياس، فضعف عن مقاومتهم، فهادنهم مدة، ودفع إليهم أموالا جزيلة، عجلها لهم، ولولا أنه خوفهم بقدوم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب لما هادنوه. ولما بلغ ذلك السلطان الملك صلاح الدين، كتب إلى الأمراء، وخاصة ابن مقدم، يلومهم على ما صنعوا من المهادنة، ودفع الأموال إلى الفرنج، وهم أقل، وأذل، وأخبرهم أنه عزم على قصد البلاد الشامية، ليحفظها من الفرنج، فردوا إليه كتابا فيه غلظة، وكلام فيه بشاعة، فلم يلتفت إليهم، ومن شدة خوفهم منه كتبوا إلى سيف الدين غازي صاحب الموصل ليملكوه عليهم، ليدفعوا به الملك الناصر صلاح الدين صاحب مصر، فلم يفعل؛ لأنه خاف أن يكون مكيدة منهم له، وذلك أنه كان قد هرب منه الطواشي، سعد الدولة كمشتكين، الذي كان قد جعله عنده الملك نور الدين عينا عليه، وحافظا له، من تعاطي ما لا يليق من الفواحش، والخمر، واللعب، واللهو. فلما مات نور الدين، ونادى في الموصل تلك المناداة القبيحة، خاف منه الطواشي المذكور أن يمسكه، فهرب منه سرا، فلما تحقق غازي موت عمه، بعث في إثر هذا الخادم، فلحقه، فاستحوذ على حواصله، ودخل الطواشي حلب، ثم سار إلى دمشق فاتفق مع الأمراء على أن يأخذوا أستاذه الملك الصالح إسماعيل إلى حلب،، فيربيه هنالك، وتكون دمشق مسلمة إلى الأتابك شمس الدولة بن مقدم، والقلعة إلى الطواشي جمال الدين ريحان.

فلما سار الملك الصالح من دمشق، خرج معه الكبراء، والأمراء من دمشق، إلى حلب وذلك في الثالث والعشرين من ذي الحجة، من هذه السنة، وحين وصلوا حلب جلس الصبي على سرير ملكها، واحتاطوا على بني الداية، شمس الدين علي بن الداية، أخو مجد الدين، الذي كان رضيع نور الدين، وإخوته الثلاثة، وقد كان شمس الدين علي بن الداية، يظن أن ابن نور الدين يسلم إليه فيربيه؛ لأنه أحق الناس بذلك، فخيبوا ظنه، وسجنوه وإخوته في الجب، فكتب الملك صلاح الدين إلى الأمراء يلومهم على ما فعلوا، من نقل الولد، من دمشق إلى حلب، ومن حبسهم بني الداية، وهم من خيار الأمراء، ورؤوس الكبراء، ولم لا يسلمون الولد إلى مجد الدين بن الداية، الذي هو أحظى عند نور الدين، وعند الناس منهم. فكتبوا إليه، يسيئون عليه الأدب، وكل ذلك يزيده حنقا عليهم، ويحرضه على القدوم بجيشه إليهم، ولكنه في هذا الوقت، في شغل شاغل، لما دهمه ببلاد مصر من الأمر الهائل، كما سيأتي بيانه، إن شاء الله تعالى، في أول السنة الآتية.

وممن توفي فيها من الأعيان والمشاهير

■ **الحسن بن أحمد بن الحسن بن أحمد بن محمد العطار،أبو العلاء الهمذاني الحافظ**، سمع الكثير، ورحل إلى بلدان كثيرة، واجتمع بالمشايخ، وقدم بغداد، وحصل الكتب الكثيرة، واشتغل بعلم القراءات واللغة، حتى صار أوحد زمانه في علمي الكتاب والسنة، وصنف الكتب الكثيرة المفيدة، وكان على طريقة السلف مرضي الطريقة عابدا زاهدا، صحيح الاعتقاد، حسن السمت، له ببلده المكانة، والقبول التام، وكانت وفاته ليلة الخميس، الحادي عشر من جمادى الآخرة، من هذه السنة، وقد جاوز الثمانين بأربعة أشهر وأيام.

قال ابن الجوزي: وقد بلغني، أنه رئي في المنام، أنه في مدينة جميع جدرانها كتب، وحوله كتب لا تُحَدُّ، وهو مشتغل بمطالعتها، فقيل له: ما هذا؟ فقال: سألت الله أن يشغلني بما كنت أشتغل به في الدنيا فأعطاني.

■ **الأهوازي**: خازن كتب مشهد أبي حنيفة ببغداد، توفي فجأة، في ربيع الأول، من هذه السنة وكذلك توفي أبوه وأخوه فجأة كان مات رحمهم الله تعالى.

■ **محمود بن زنكي بن آق سنقر: السلطان الملك العادل نور الدين**، صاحب بلاد الشام، وغيرها من البلدان الكثيرة وقد تقدم في ذكر الحوادث، رحمه الله.

قال ابن الجوزي: انتزع نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله تعالى من أيدي الكفار، نيفاً وخمسين مدينة، وقد كان يكاتبني، وأكاتبه، قال: ولما حضرته الوفاة، أخذ العهد على الأمراء، من بعده لولده - يعني الصالح إسماعيل - وجدد العهد مع صاحب طرابلس، أن لا يغير على الشام، في المدة التي كان ماذه عليها، وذلك، أنه كان قد أسره، في بعض غزواته، وأسر معه جماعة من أهل دولته، فافتدى نفسه منه، بثلاثمائة ألف دينار، وخمسمائة حصان، وخمسمائة زردية، ومثلها أتراس، وقنطوريات، وخمسمائة أسير من المسلمين، وعاهده أن لا يغير على بلاد المسلمين، إلى سبع سنين وسبعة أشهر وسبعة أيام، وأخذ منه رهائن على ذلك، مائة من أولاد أكابر الفرنج، وبطارقتهم، فإن نكث أراق دمائهم، وكان قد عزم على فتح بيت المقدس، شرفه الله، فوافته المنية في شوال من هذه السنة، وكانت ولايته ثمان وعشرين سنة وأشهراً، وقد تقدم ذلك. وهذا مقتضى ما ذكره ابن

الجوزي ومعناه.

■ الخضر بن نصر بن عقيل بن نصر الإربلي، الفقيه، الشافعي، أول من درس بإربل، في سنة ثلاث وثلاثين وخمسمائة، وكان فاضلا، دينا، انتفع به الناس، وكان قد اشتغل على الكياالهراسي، وغيره، ببغداد، وقدم دمشق، فأرّخه ابن عساكر في هذه السنة، وترجمه القاضي ابن خلكان في الوفيات، وقال: قبره يزار، وقد زرته غير مرة، ورأيت الناس يتنابون قبره، ويتبركون به. وهذا الذي قاله ابن خلكان مما ينكره أهل العلم عليه وعلى أمثاله ممن يعظم القبور.

وفيها هلك ملك الفرنج، مري، لعنه اللّه، وأظنه ملك عسقلان، ونحوها من البلاد، وقد كان قارب أن يملك الديار المصرية، لولا فضل اللّه، ورحمته بعباده المؤمنين.

ثم دخلت سنة سبعين وخمسمائة

استهلت هذه السنة والسلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب قد عزم على الدخول إلى بلاد الشام، ليحفظه من أيدي الفرنج المخذول، ولكن دهمه أمر شغله عنه، وذلك أن الفرنج، قدموا إلى الساحل المصري، في أسطول لم يسمع بمثله، في كثرة مراكبه وما فيه من آلات من الحرب، والحصار، والمقاتلة، من جملة ذلك مئتا شيني، في كل منها مائة وخمسون مقاتلا، وأربعمائة قطعة أخرى، وكان قدومهم من صقلية إلى ظاهر إسكندرية قبل رأس السنة بأربعة أيام، فنصبوا المنجنيقات، والدبابات حول البلد، وبرز إليهم أهلها، فقاتلوهم دونها قتالا شديدا، واستمر القتال أياما وقتل من كل من الفريقين خلق كثير، ثم اتفق أهل البلد على تحريق ما نصبوه من المنجنيقات، والدبابات، ففعلوا ذلك، فأضعف ذلك قلوب الفرنج، ثم كبسهم المسلمون، فقتلوا منهم جماعة، وغنموا ما أرادوا، فانهزم الفرنج في كل وجه، ولم يكن لهم ملجأ إلا البحر، أو القتل، أو الأسر، واستحوذ المسلمون على أموالهم، وأثقالهم وخيولهم، وما ضربوه من الخيام، وبالجملة قتلوا خلقا من الرجال، وغنموا شيئاً كثيراً من الأموال وركب من بقي منهم في الأسطول راجعين إلى بلادهم خائبين لم يفوزوا بالمأمول.

ومما عوق الملك الناصر عن الشام أيضا، أن رجلا يعرف بالكنز، سماه بعضهم عباس بن شادي، وكان من مقدمي الديار المصرية، ومن الدولة الفاطمية، وإنما هي العُبيدية، كان قد انتزح إلى بلد يقال له أسوان، وجعل يجمع عليه الناس، فاجتمع عليه خلق كثير من الرعاع، الحاضرة، والعربان، والرعيان، وكان يزعم لهم، أنه سيعيد الدولة الفاطمية، ويدحض الأتابكة التركية، فالتف عليه خلق كثير وجم غفير، ثم قصد قوص وأعمالها، وقتل طائفة من أمرائها، ورجالها، فجرد إليه الملك صلاح الدين طائفة من الجيش المصري وقدم عليهم أخاه الملك العادل سيف الدين أبا بكر الكردي، فلما التقيا هزمه أبو بكر، وأسر أهله وقتله كما جرى لمقدَّم بني حنيفة، ولهذا جعل اللّه دولة بني أيوب عالية منيفة.

فصل

لما تمهدت البلاد المصرية، ولم يبق بها رأس من بقية الدولة العبيدية، برز السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف في الجيوش التركية، قاصدا البلاد الشامية، وذلك حين مات سلطانها نور الدين محمود بن زنكي، وأخيف سكانها، وتضعضعت أركانها، واختلف حكامها، وفسد نقضها وإبرامها، وقصده، رحمه اللّه، جمع شملها والإحسان إلى أهلها وأمن سهلها وجبلها، ونصرة الإسلام، ودفع الطغام، وإظهار القرآن، وإخفاء سائر الأديان، وتكسير الصلبان في رضى الرحمن، وإرغام الشيطان. فخرج من الديار المصرية إلى البركة في مستهل صفر وأقام بها حتى اجتمع عليه العسكر وقد استناب على مصر أخاه سيف الدين أبا بكر، ثم سار إلى بلبيس في الثالث عشر من ربيع الأول، ثم ساق حتى اجتاز بمدينة بصري فسار في خلعته صاحبها صديق بن جاولي فدخل مدينة دمشق، في يوم الاثنين، سلخ ربيع الأول، ولم ينتطح فيها عنزان، ولا اختلف عليه سفيان، وذلك أن نائبها شمس الدين بن مقدم كان قد كتب إليه أولا، فاغلظ له في الكتاب، فلما رأى أمره متوجها، جعل يكاتبه، ويستحثه على القدوم إلى دمشق، ويعده بتسليم البلد، فلما رأى الجد، لم يمكنه المخالفة، فسلمه البلد إليه بلا مدافعة، فنزل السلطان أولا في دار والده، وهي دار العقيقي،التي بنيت مدرسة للملك الظاهر، وجاء القاضي وأعيان البلد الدماشقة للسلام عليه، فرأوا منه غاية الإحسان، وكان في القلعة إذ ذاك الطواشي ريحان، فكاتبه، وأجزل نواله، حتى سلمها إليه، ثم نزل إليه، فأكرمه، واحترمه، ثم أظهر السلطان أنه أحق الناس بتربية ولد نور الدين، لما لنور الدين عليهم من الإحسان المتين، وذكر أنه خطب لنور الدين بالديار المصرية، وضُرب باسمه السكة ثم إن السلطان عامل الناس بالإحسان، وأمر بإبطال ما أحدث بعد نور الدين، من المكوس، والضرائب، وأمر بالمعروف، ونهى عن المنكر، وللّه عاقبه الأمور.

فصل

فلما استقرت له دمشق بحذافيرها لم يلبث أن، نهض إلى حلب، مسرعاً لما فيها من التخبيط، والتخليط، فاستناب على دمشق أخاه طغتكين بن أيوب، الملقب بسيف الإسلام، فلما اجتاز بحمص، أخذ ربضها، ولم يشتغل بقلعتها لعلمه بحصونها، ثم سار إلى حماة فأخذ المدينة، سلمها إليه صاحبها، عز الدين جُرديك، وسأله أن يكون سفيره بينه وبين الحلبيين، فأجابه إلى ذلك، فسار إليهم، فحذرهم بأس صلاح الدين، فلم يلتفتوا إليه ولم يعولوا عليه، بل أمروا بسجنه واعتقاله، فجمعوا بينه وبيني الداية في البئر الذي هم فيه، فأبطأ الجواب على صلاح الدين فكتب إليهم كتابا بليغا، يلومهم فيه على ما هم فيه من الاختلاف، وعدم الائتلاف، فردوا عليه أسوأ جواب، وأحدٌ من الحراب فأرسل إليهم، يذكرهم أيامه، وأيام أبيه، وعمه، في خدمة نور الدين في المواقف المحمودة التي شهد لهم بها أهل الدين، ثم سار إلى حلب فنزل على جبل جوشن، فخاف من سطوته كل ذي جوشن ثم نودي في أهل حلب بالحضور في ميدان باب العراق، فاجتمعوا، فأشرف عليهم ابن الملك نور الدين، فتودد إليهم، وتباكى لديهم، وحرضهم على قتال صلاح الدين، وذلك عن إشارة الأمراء المقدمين، فأجابه أهل البلد، بوجوب طاعته على كل أحد، وشرط عليه الروافض منهم أن يعاد الأذان بحي على خير العمل، وأن يذكر في الأسواق، وأن يكون لهم في الجامع الجانب الشرقي، وأن يذكر أسماء الأئمة الأثنى عشر بين يدي الجنائز، وأن يكبروا على الجنازة خمسا، وأن تكون عقود أنكحتهم إلى الشريف أبي الطاهر بن أبي المكارم حمزة بن زهرة الحسيني، فأجيبوا إلى ذلك كله، فأذن في الجامع وسائر البلد بحي على خير العمل، وعجز أهل البلد عن مقاومة

الناصر، وأعملوا في مكيدته كل خاطر، فارسلوا أولا إلى سنان، صاحب الحُشيشية، فأرسل نفرا من أصحابه إلى الناصر ليقتلوه، فلم يظفروا منه بشيء، بل قتلوا بعض الأمراء، ثم ظهر عليهم، فقتلوا عن آخرهم، فراسلوا عند ذلك القومص صاحب طرابلس الفرنجي، ووعدوه بأموال جزيلة، إن هو رحل عنهم السلطان الملك الناصر، وكان هذا القومص قد أسره نور الدين وهو معتقل عنده مدة عشر سنين، ثم افتدى نفسه بمائة ألف دينار، وألف أسير من أسارى المسلمين، فكان لا ينساها لنور الدين، رحمه الله، فركب القومص - لعنه الله - من بلده طرابلس في جيشه، فلم يتجاسر على مقاتلة السلطان بل قصد حمص ليأخذها بغتة فركب إليه السلطان الناصر، وقد أرسل السلطان إلى بلده طرابلس، سرية، فقتلوا، وأسروا، وغنموا، فلما اقترب الناصر منه، نكص على عقبيه، راجعا إلى بلده، ورأى أنه قد أجابهم إلى ما أرادوا منه، فلما فصل الناصر صلاح الدين إلى حمص، لم يكن قد أخذ قلعتها في ذهابه، فتصدى لأخذها، فنصب عليها المنجنيقات التي ملّكته إياها قسرا، وقهرت ساكنيها قهرا، ثم كر راجعا إلى حلب، فأتاه الله في هذه الكرة ما طلب.

فلما نزل بها، كتب إليهم القاضي الفاضل، على لسان السلطان، كتابا بليغا، فصيحا، فائقا، رائقا، على يدي الخطيب شمس الدين يقول فيه: «فإذا قضى التسليم، حق اللقاء، فاستدعى الإخلاص جهد الدعاء، فليُعَدْ وليُعِدْ حوادث ما كانت حديثا يفترى، وجواري أمور إن قال فيها كثيرا، فأكثر منه ما قد جرى، وليشرح صدراً منها، لعله يشرح منها صدرا، وليوضح الأحوال المستسرّة، فإن الله لا يعبد سرا.

ومن الغرائب أن تسير غرائب ... في الأرض لم يعلم بها المأمول
كالعيس أقتل ما يكون لها الصدى ... والماء فوق ظهورها محمول

فإنا كان نقتبس النار بأكفنا، وغيرنا يستنير، ونستنبط الماء بأيدينا، وسوانا يستمير، ونلقى السهام بنحورنا، وغيرنا يعتمد التصوير، ونصافح الصفاح بصدورنا وغيرنا يدعي التصدير ولا بُدّ أن تسترد بضاعتنا، بموقف العدل، الذي تُرد به الغُصوب، وتظهر طاعتنا، فنأخذ بحظ الألسن كما أخذنا بحظ القلوب، وكان أول أمرنا أنا كنا في الشام، نفتح الفتوح، بمباشرتنا أنفسنا، ونجاهد الكفار، متقدمين بعساكرنا، نحن ووالدنا، وعمنا، فأي مدينة فتحت، أو أي معقل ملك للعدو، أو عسكر كُسر، أو مصاف للإسلام، معه ضرب؟ ولم نكن فيه فما يجهل أحد صنعنا، ولا يجحد عدونا أنا نصطلي الجمرة، ونملك الكرة، ونقدم الجماعة، ونرتب المقاتلة، وندبر التعبئة، إلى أن ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجرها، ولا يضرنا أن يكون لغيرنا ذكرها» ثم ذكر ما صنعوا بمصر، من كسر الكفر، وإزالة المنكر، وقمع الفرنج، وهدم البدع، وما بسط من العدل، ومُدّ من الفضل، وما أقامه من الخُطب العباسية، ببلاد مصر، واليمن، والنوبة، وإفريقية، وغير ذلك، بكلام بسيط حسن.

فلما وصلهم الكتاب، أساؤوا الجواب، وقد كانوا كاتبوا صاحب الموصل، سيف الدين غازي بن مودود، أخي نور الدين محمود بن زنكي، فبعث إليهم أخاه مسعود عز الدين في عساكره، وأقبل عليهم في دساكره، فانضاف إليهم الحلبيون، وقصدوا حماة في غيبة السلطان الناصر، واشتغاله بقلعة حمص وعمارتها، فلما بلغه خبرهم، سار إليهم في قل من الجيش، فانتهى إليهم وهم في جحافل كثيرة، فواقفوه، وطمعوا فيه، لقلة من معه، وهموا بمناجزته، فجعل يداريهم، ويدعوهم إلى المصالحة، لعل الجيش يلحقونه، حتى قال لهم في جملة ما قال: أنا أقنع بدمشق وحدها، وأقيم بها الخطبة للملك الصالح إسماعيل، وأترك ما عداها من أرض الشام. فامتنع من المصالحة الخادم سعد الدولة كمشتكين، إلا أن يجعل لهم الرحبة، التي هي بيد ابن عمه ناصر الدين ابن أسد الدين، فقال ليس لي ذلك، ولا أقدر عليه، فأبوا الصلح، وأقدموا على القتال، فجعل جيشه كردوسا واحدا، وذلك يوم الأحد، التاسع عشر من رمضان، عند قرون حماة فصبر صبرا عظيما، وجاء في أثناء الحال ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه، ومعه أخوه فروخ شاه، في طائفة من الجيش، وقد ترجح دسته عليهم، وخلص رعبه إليهم، فولوا هنالك هاربين، وتولوا منهزمين، فأسر من أسر من رؤوسهم، وناداى، أن لا يتبع مدبر، ولا يذفف على جريح، ثم أطلق من وقع في أسره، منهم وسار على الفور إلى حلب، فانعكس عليهم الحال، وآلوا إلى شر مآل، فبالأمس كان يطلب منهم المصالحة والمسالمة، وهم اليوم يطلبون منه أن يكف عنهم ويرجع، على أن المعرة، وكفر طاب، وبارين، له زيادة على ما بيده، من أراض حماة، وحمص، وبعلبك مع دمشق فقبل ذلك، وكف عنهم، وحلف على أن لا يغزو بعدها الملك الصالح، وأن يدعو له على سائر منابر بلاده وممالكه، وشفع في بني الدابة أخوه مجد الدين، على أن يخرجوا من السجن ففعل ذلك، ثم رجع مؤيدا منصورا مسلما مجبورا.

فلما كان بحماة، وصلت إليه رسل الخليفة المستضيء بأمر الله، بالخلع السنية، والتشريفات العباسية، والأعلام السود، والتوقيع من الديوان بالسلطنة، ببلاد مصر، والشام، وأفيضت الخلع على أهله، وأقاربه، وأصحابه وأصهاره، وأعوانه، وأنصاره وكان يوما مشهودا. واستناب على حماة ابن خاله، وصهره، الأمير شهاب الدين محمود، ثم سار إلى حمص، فأطلقها ابن عمه ناصر الدين، كما كانت من قبله لأبيه شيركوه، أسد الدين، ثم إلى بعلبك ثم إلى البقاع ورجع إلى دمشق، في ذي القعدة.

وفي هذه السنة ظهر رجل من قرية مشغرا، من معاملة دمشق، وكان مغربيا، فادعى النبوة، وأظهر شيئا من المخاريق، والمخاييل، والشعبذة والأبواب النيرنجيّة، فافتتن به طوائف من اهل تلك الناحية من الطغام والهمج والعوام، فتطلبه السلطان، فهرب في الليل من مشغرا إلى معاملة حلب، فالتف عليه كل مقطوع الذنب، وأضل خلقا من الفلاحين لا المفلحين، وتزوج امرأة أحبها، وكانت من أهل تلك البطاح فعلمها أن ادعت النبوة، فأشبها قصة مسيلمة وسجاح. فلعنهما الله كلما غَبّ الحمام وهدر، وكلما ضبّ الغمام وقطر.

وفيها هرب وزير الخليفة، ونهبت داره.

وفيها درس الشيخ أبو الفرج ابن الجوزي بمدرسة أنشئت للحنابلة، فحضر عنده قاضي القضاة أبو الحسن بن الدامغاني، والفقهاء، والكبراء، وكان يوما مشهودا، وخلعت عليه خلعة سَنيّة.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **روح بن أحمد: أبو طالب الحديثي**، قاضي القضاة، ببغداد، في بعض الأحيان، وكان ابنه في أرض الحجاز، فلما بلغه موت أبيه مرض بعده، فمات بعد أيام، وكان ينبذ بالرفض.

■ **شملة التركماني**: كان قد تغلب على بلاد فارس واستحدث قلاعا، وتغلب على السلجوقية، وانتظم له الدست نحوا من عشرين سنة، ثم

حاربه بعض التركمان، فقتلوه.

■ **قايماز بن عبد اللّه:** قطب الدين المستنجدي، وزر للخليفة المستضيء، وكان مقدما على العساكر كلها، ثم خرج على الخليفة، وقصد أن ينهب دار الخلافة، فصعد الخليفة فوق سطح في داره، وأمر العامة بنهب دار قايماز، فنهبت، وكان ذلك بإفتاء الفقهاء، فهرب، فهلك وهلك من كان معه في المهامة، والقفار.

ثم دخلت سنة إحدى وسبعين وخمسمائة

فيها طلب الفرنج من السلطان صلاح الدين، - وكان قد أقام بدمشق في مرج الصفر - أن يهادنهم، فأجابهم إلى ذلك، لأن الشام كان مجدبا ويحتاج إلى ذلك، وأرسل جيشه صحبة القاضي الفاضل إلى الديار المصرية، ليستغلوا المغل، ثم يقبلوا، وعزم هو على المقام بالشام، واعتمد على كاتبه العماد عوضا عن أفصح العباد بتلك البلاد وهو القاضي الفاضل قدوة العلماء والأفاضل ورحلة الطالبين وزين المحافل زين الإسلام ومن لسانه أحد من الحسام ولكن احتاج السلطان إلى إرساله إلى الديار المصرية ليكون عينا وعونا له بها ولسانا فصيحا يعبر عنها فاحتاج إلى أن يتعوض عنه، ولم يكن أحد أعز عليه ولا أحب إليه منه:

وما عن رضى كانت سليمى بديلة بليلى ولكن للضرورات أحكام

وكانت إقامة السلطان بالشام، وإرسال الجيش صحبة القاضي الفاضل، هو غاية الحزم والتدبير والإلهام، ليحفظ ما استجد من الممالك، خوفا عليه من سطوة مَن هنالك.

فلما أرسل الجيوش إلى مصر، وبقي هو في طائفة قليلة من عسكره، واللّه قد تكفل له ولهم بالنصر، كتب صاحب الموصل سيف الدين غازي بن أخي نور الدين إلى جماعة الحلبيين، يلومهم على ما وقع بينهم وبين الملك صلاح الدين من المصالحة، وقد كان إذ ذاك مشغولا بمحاصرة أخيه، عماد الدين زنكي بسنجار، وليست هذه بفعلة صالحة، وما كان سبب قتاله لأخيه إلا انتماؤه إلى طاعة الملك الناصر وذويه، فاصطلح مع أخيه حين عرف قوة الناصر وناصريه، ثم حرض الحلبيين على نقض العهود، إلى الملك اصلاح الدين فأرسلوا إليه بالعهود التي عاهدوه عليها، ودعوه إليها، فاستعان عليهم باللّه، وأرسل إلى الجيوش المصرية ليقدموا إليه، فأقبل صاحب الموصل في عساكره ومشاربه، ودساكره، واجتمع بابن عمه الملك الصالح عماد الدين إسماعيل، وسار في عشرين ألف مقاتل، على الخيول الضُمَّر، الجرد، الأبابيل، وسار نحوهم الناصر، وهو كالهزبر الكاسر، وإنما معه ألف فارس من الحماة، و ﴿كم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة بإذن اللّه﴾ [البقرة: ٢٤٩]، ولكن الجيوش المصرية، قد خرجت من الديار المصرية، في جحافل كالجبال وعدة وعدد كالرمال، فاجتمع الفريقان، وتداعوا إلى النزال، وذلك في يوم الخميس، العاشر من شوال، فاقتتلوا قتالا هائلا، حتى حمل السلطان بنفسه الكريمة، فكانت بإذن اللّه الهزيمة، فقتلوا خلقا من الحلبيين والمواصلة، وأخذوا مضارب الملك سيف الدين غازي، وحواصله، وأسروا جماعة من رؤوسهم، فأطلقهم السلطان، بعدما أفاض الخلع على أبدانهم، ورؤوسهم، وقد كانوا استعانوا بجماعة من الفرنج، في حال القتال، وهذا ليس من صنيع الصناديد الأبطال، وقد وجد السلطان في مخيم السلطان غازي شيئاً من الأقفاص التي فيها الطيور المطربة، وذلك في مجلس شرابه المسكر، وكيف يتصر من كان هذا مسلكه ومذهبه، فأمر السلطان بردها عليه وتسييرها إليه، وقال للرسول: قل له بعد وصولك إليه، وسلامك عليه: اشتغالك بهذه الطيور، أحب إليك مما وقعت فيه من المحذور. وغنم السلطان من أموالهم شيئا كثيرا، ففرقه على أصحابه وأحبابه وأنصاره غيبا، كانوا أو حضورا، وأنعم بخيمة الملك سيف الدين غازي، على ابن أخيه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن نجم الدين، ورد ما كان في وطاقه من الجواري، والمغنيات، وقد كان معه أكثر من مائة مغنية، ورد الأقفاص وآلات اللّهو واللعب إلى حلب، وقال: قولوا له: هذا أحب إليكم، من الحرب ووجد عسكر المواصلة كالحانة، من كثرة الخمور، والبرابط والملاهي، وهذا سبيل من هو عن طريق الخير، ساه، لاهٍ.

فصل

لما رجع الحلبيون إلى حلب، وقد انقلبوا شر منقلب، وندموا على نقضهم الأيمان، ومخالفة طاعة الرحمن وشقهم العصا على السلطان، حصنوا البلد خوفا من وثوب الأسد، وأسرع صاحب الموصل، فوصلها، وما صدق حتى دخلها، وأما السلطان صلاح الدين فإنه لما فرغ من قسمة ما غنم مما تركه من عطب ومن سلم أسرع المسير إلى حلب، الشهباء وهو في غاية السطوة القوة والعزة القعساء، فوجدهم قد حصنوها، والقلعة قد أحكموها فقال: من المصلحة، أن نبادر إلى فتح الحصون، التي حول البلد، ثم نعود إليهم، فلا يمتنع علينا منهم أحد. فشرع بفتح الحصون حصنا حصنا، ثم يعود إليهم ويهدم من أركان دولتهم ركنا ركنا، ففتح بُزاعة، ومنبج، ثم سار إلى عزاز، فأرسل الحلبيون إلى سنان، فأرسل جماعة من أصحابه ليقتلوا صلاح الدين، فدخل طائفة منهم في جيشه، في زي الجند، فقاتلوا أشد القتال، حتى اختلطوا بهم، فوجدوا فرصة ذات يوم، والسلطان ظاهر للناس، فحمل عليه واحد منهم، فضربه بالسكين على رأسه، فإذا هو محترس منهم باللأمة، فسلمه اللّه، غير أن السكين مرت على خده، فجرحته جرحا هينا، ثم أخذ الفداوي رأس السلطان، فوضعه على الأرض ليذبحه، ومن حوله قد أخذتهم دهشة، ثم ثاب إليهم عقلهم، فبادروا إلى الفداوي، فقتلوه، وقطعوه، ثم هجم عليه آخر في الساعة الراهنة على السلطان فقتل، ثم هجم آخر على بعض الأمراء، فقتل أيضا، وهرب الرابع، فأدرك فقتل، وبطل القتال ذلك اليوم، ثم صمم السلطان على البلد، ففتحه وأقطعه ابن أخيه، تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وقد اشتد حنقه على أهل حلب. لما فعلوا ولما أرسلوا من الفداوية إليه وإقدامهم عليه، فجاء فنزل تجاه البلد، على جبل جوشن، وضربت خيمته على رأس البادوقية، وذلك في خامس عشر ذي الحجة، وجبى الأموال، وأخذ الخراج من القرى، ومنع أن يدخل البلد شيء، أو يخرج منه شيء، واستمر حصاره إياها، حتى انسلخت السنة.

وفي ذي الحجة من هذه السنة، عاد شمس الدولة تورانشاه أخو السلطان من بلاد اليمن وذلك من كثرة اشتياقه إلى أخيه وذويه وإلى الشام وطيبه وظلاله لأنه ضجر من حر اليمن، وإن كان حصل على أموال جزيلة، ففرح به أخوه الملك الناصر، واشتد أزره بسببه، فلما اجتمعا، قال الناصر الناصح البر الوفي: أنا يوسف، وهذا أخي، وقد استتاب شمس الدولة على بلاد اليمن، وإنما استتاب على مخاليفها من لا يخالفه من ذي قراباته ومن له سالف المِنن، فلما استقر عند أخيه، استنابه على دمشق

وأعمالها، وقيل إن قدومه، كان قبل وقعة المواصلة، وكان من أكبر أسباب الظفر والنصر، لشجاعته، وفروسيته، وبسالته.

وفيها أنفذ تقي الدين عمر بن أخي الناصر، مملوكه بهاء الدين قراقوش، في جيشه، إلى بلاد المغرب، ففتح بلادا كثيرة هنالك، وغنم أموالا جزيلة، ثم عاد إلى مصر. وطابت له وترك تلك البلاد.

وفيها قدم إلى دمشق الواعظ الكبير أبو الفتوح عبد السلام بن يوسف بن محمد بن مقلد التنوخي، الدمشقي الأصل، البغدادي المنشأ، ذكره العماد في الخريدة [شعراء العراق ٣٠٨/١/٣ - ٣٢٢]. وقال: وكان صاحبي، وجلس للوعظ، وحضر عنده السلطان صلاح الدين، وأورد له مقطعات أشعار، فمن ذلك ما كان يقول في مجلسه:

يا مالكاً مهجتي يا منتهى أملي ... يا حاضراً شاهداً في القلب والفكر
خلقتني من تراب أنت خالقه ... حتى إذا صرت تمثالا من الصور
أجريت في قالبي روحاً منورة ... تمر فيه كجري الماء في الشجر
جمعت بين من صفا روح منورة ... وهيكل صغته من معدن كدر
إن غبت فيك فيا فخري ويا شرفي ... وإن حضرت فيا سمعي ويا بصري
إن احتجبت فسري فيك في ولهه ... وإن خطرت فقلبي منك في خطر
تبدو فتمحو رسومي ثم تثبتها ... وإن تغيبت عني عشت بالأثر

وممن توفي فيها من الأعيان

الحافظ الكبير أبو القاسم

■ ابن عساكر علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر، أبو القاسم، الدمشقي، أحد أكابر حفاظ الحديث، ومن عني به، سماعا، وجمعا، وتصنيفا، واطلاعا، وحفظا لأسانيده، ومتونه، وإتقانا لأساليه، وفنونه، صنف «تاريخ الشام»، في ثمانين مجلدة، فهي باقية بعده، مخلدة، وقد برز على من تقدمه من المؤرخين، وأتعب من يجيء بعده من المتأخرين، فحاز فيه قصب السِّباق، وجاز حدّاً يأمن فيه اللحاق، ومن نظر فيه، وتأمله رأى، ما وصفه فيه، وأصله، وحكم بأنه فريد دهره، في التواريخ، وأنه الذروة العليا من الشماريخ، هذا مع ما له في علوم الحديث، من الكتب المفيدة، وما هو مشتمل عليه، من العبادة، والطرائق الحميدة، فله «أطراف الكتب الستة»، و «الشيوخ النُّبل»، و «تبيين كذب المفتري على أبي الحسن الأشعري»، وغير ذلك من المصنفات الكبار، والصغار، والأجزاء، والأسفار، وقد أكثر في طلب الحديث من الترحال، والأسفار، وجاب المدن، والأقاليم، والأمصار، وجمع من الكتب، ما لم يجمعه أحد من الحفاظ، نسخا، واستنساخا، ومقابلة، وتصحيحاً للألفاظ، وكان من أكابر بيوتات الدماشقة، ورياسته فيهم عالية باسقة، من ذوي الأقدار، والهيئات، والأموال الجزيلة، والصلات، والهبات.

كانت وفاته في الحادي عشر من رجب، وله من العمر ثنتان وسبعون سنة، وحضر السلطان صلاح الدين جنازته، ودفن بمقابر باب الصغير، رحمه الله تعالى. وكان الذي صلى عليه الشيخ قطب الدين النيسابوري.

قال ابن خلكان: وله أشعار كثيرة منها:

أيا نفس ويحك جاء المشيب ... فماذا التصابي وماذا الغزل؟
تولى شبابي كأن لم يكن ... وجاء المشيب كأن لم يزل
كأني بنفسي على غرة ... وخطب المنون بها قد نزل
فيا ليت شعري ممن أكون ... وما قدّر اللّه لي في الأزل

قال: وقد التزم فيها ما لا يلزم، وهو الزاي قبل اللام.

قال: وكان أخوه صائن الدين هبة الله بن الحسن، محدثا فقيها، اشتغل ببغداد على أبي أسعد الميهني، ثم قدم دمشق، فدرس بالغزالية، وتوفي بها في سنة ثلاث وستين رحمهما الله تعالى وإيّانا بمنّه.

ثم دخلت سنة ثنتين وسبعين وخمسمائة

استهلت هذه السنة والسلطان صلاح الدين محاصر حلب، وقد أشرف منها على نيل الطلب فسألوه، وتوسلوا إليه أن يصالحهم، فصالحهم، على أن تكون حلب وأعمالها للملك الصالح فقط، فكُتب بذلك الكتاب وأبرم الحساب، فلما كان المساء، بعث السلطان الملك الصالح إسماعيل، إلى الملك الناصر يسأل منه زيادة قلعة عزاز، على ما شرفه به من الإعزاز، وأرسل بأخت له صغيرة، وهي الخاتون بنت نور الدين، ليكون ذلك أدعى له قبول السؤال، وأنجع لحصول النوال، فحين رآها السلطان الناصر قام قائما كالقضيب الناضر، وقبل الأرض، وأجابها إلى سؤالها، وأطلق لها من الجواهر والتحف ما أرى أنه عليه فرض، ثم ترحل عن حلب، فقصد الإسماعيلية الذين اعتدوا عليه، فحاصر حصنهم مصياب، فقتل، وسبى، وضرب، وأخذ أبقارهم، وخرب ديارهم، وقصر أعمارهم حتى شفع فيهم خاله شهاب الدين محمود بن تكش صاحب حماة، لأنهم جيرانه، فقبل شفاعته، وقد أحضر إليه نائب بعلبك الأمير شمس الدين محمد بن عبد الملك بن مقدم، الذي كان نائب دمشق، جماعة من أسارى الفرنج، الذين عاثوا بالبقاع، في غيبة السلطان، فجدد له العزم على غزو الفرنج والانبعاث، فصالح الفداوية الإسماعيلية، أصحاب سنان، ثم كر راجعا إلى دمشق في حراسة الرحمن، فتلقاه أخوه شمس الدولة توران شاه، فتسالما وتعانقا وتناشدا الأشعار، ولما دخل السلطان إلى دمشق في سابع عشر صفر فوّضها إلى أخيه شمس الدولة توران شاه ولقّبه الملك المعظم، وعزم الناصر على دخول مصر، وكان القاضي كمال الدين محمد الشهرزوري قد توفي في السادس من المحرم، من هذه السنة، وقد كان من خيار القضاة، وأخص الناس بنور الدين الشهيد، فوض إليه نظر الجامع، ودار الضرب، وعمارة الأسوار، والنظر في المصالح العامة.

ولما حضرته الوفاة، أوصى بالقضاء لابن أخيه ضياء الدين بن تاج الدين الشهرزوري، فأمضى ذلك السلطان الملك الناصر صلاح الدين؛ رعاية لحق الكمال الشهرزوري، مع أنه كان يجد عليه، لما كان بينه وبينه حين كان صلاح الدين شِحْنة بدمشق، وكان يعاكسه، ويخالفه، ومع هذا أمضى وصيته لابن أخيه، فجلس في مجلس القضاء، على عادة عمه وقاعدته ورسمه، وبقي في نفس السلطان من تولية شرف الدين أبي سعد عبد الله بن أبي عصرون الحلبي، وكان قد هاجر إلى السلطان، إلى دمشق، فوعده أن يوليه قضاءها، وأسر بذلك إلى القاضي الفاضل، فأشار القاضي الفاضل على الضياء أن يستعفي من القضاء، فاستعفى، فأعفي، وترك له وكالة بيت المال، وولي السلطان ابن أبي عصرون، على أن يستنيب القاضي محيي الدين أبا المعالي محمد بن زكي الدين، والأوحد، ففعل ذلك، ثم بعد سنوات استقل بالحكم محيي الدين أبو حامد بن أبي عصرون، عوضا عن

أبيه شرف الدين، بسبب ضعف بصره.

وفي صفر من هذه السنة، وقف الملك الناصر، قرية حزم، على الزاوية الغزالية، ومن يشتغل بها في العلوم الشرعية، أو ما يحتاج إليه الفقيه، وجعل النظر لقطب الدين النيسابوري مدرسها.

وفي هذا الشهر، تزوج السلطان صلاح الدين بالست خاتون، عصمة الدين بنت معين الدين أُنر وكانت زوجة الملك نور الدين محمود، فأقامت بعده في القلعة محترمة مكرمة، وولي تزويجها منه أخوها الأمير سعد الدين مسعود بن أنر، وحضر القاضي ابن أبي عصرون العقد، ومَن معه من العدول، وبات الناصر عندها تلك الليلة والتي بعدها، ثم سافر إلى مصر بعد يومين، من الدخول بها فركب يوم الجمعة، قبل الصلاة، فنزل مرج الصفر، ثم سار، فعشا قريبا من الصنمين، ثم أجَدَّ السير حتى كان دخوله إلى الديار المصرية يوم السبت، سادس عشر ربيع الأول، من هذه السنة في أُبَّهَةِ الملك. وقد تلقاه أخوه، ونائبه عليها، الملك العادل سيف الدين أبو بكر، إلى عند بحر القلزم، ومعه من الهدايا والتحف شيء كثير، ولا سيّما المآكل المتنوعة، وكان في صحبة السلطان العماد الكاتب، ولم يكن ورد الديار المصرية قبل ذلك، فشرع يذكر محاسنها، وما اختصت به من بين البلدان، ووصف الهرمين، وشبههما بأنواع من التشبيهات، وبالغ في ذلك، حسب ما ذكر في الروضتين [٦٨٥/١].

وفي شعبان منها، ركب السلطان الناصر بن أيوب إلى الإسكندرية، فأسمع ولديه الأفضل علياً والعزيز عثمان على الحافظ السِّلَفي، وتردد بهما إليه ثلاثة أيام، الخميس، والجمعة، والسبت، رابع رمضان، وعزم السلطان على الصيام بها، وقد كمل عمارة السور على البلد، وأمر بتجديد الأسطول، وإصلاح مراكبه وسفنه، وشحنه بالرجال والمقاتلة، وأمرهم بغزو جزائر البحر، وأقطعهم الإقطاعات الجزيلة على ذلك، وأرصد لصالح الأسطول من بيت المال ما يكفيه لجميع شؤونه، ثم عاد السلطان إلى القاهرة في أثناء رمضان، فأكمل صومه بها.

وفيها، أمر السلطان صلاح الدين يوسف ببناء مدرسة للشافعية، على قبر الإمام الشافعي، وجعل الشيخ نجم الدين الخبوشاني مدرسها، وناظرها.

وفيها أمر ببناء المارستان بالقاهرة، ووقف عليه أوقافاً كثيرة.

وفيها بنى الأمير مجاهد الدين قايماز، نائب قلعة الموصل، جامعا حسنا، ورباطا، ومدرسة، ومارستاناً، متجاورات، بظاهر مدينة الموصل، وقد تأخرت وفاته إلى سنة خمس وتسعين وخمسمائة رحمه الله. وله عدة مدارس، وخانقاهات، وجوامع، غير ما ذكرنا، وكان دينا، خيرا فاضلا، حنفي المذهب، يذاكر في الأدب، والأشعار، والفقه، كثير الصيام، وقيام الليل قدّس الله روحه.

وفيها أُخرج المجذومون من أهل بغداد إلى ناحية منها، ليتميزوا عن أهل العافية، نسأل الله العافية بفضله وكرمه.

وذكر ابن الجوزي، في المنتظم [٢٣١/١٨]، عن امرأة أنها قالت: كنت أمشي في الطريق، وكان رجل يعارضني كلما مررت به فقلت له: إنه لا سبيل إلى هذا، الذي ترومه مني، إلا بكتاب وشهود، فتزوجني عند الحاكم، فمكثت معه مدة، ثم اعتراه انتفاخ ببطنه، فكنا نظن أنَّ به استسقاء، فنداويه لذلك، فلما كان بعد مدة، ولد ولدا، كما تلد النساء، وإذا هو خنثى مشكل، وهذا من أغرب الأشياء.

ومن توفي فيها من الأعيان

علي بن عساكر بن المرحَّب بن العوام أبو الحسن.

■ البطائحي، المقرئ، اللغوي، سمع الحديث، وأسمعه، وكان حسن المعرفة بالنحو، واللغة، ووقف كتبه بمسجد ابن جردة ببغداد، وكانت وفاته في شعبان، وقد نيف على الثمانين رحمه الله تعالى.

■ محمد بن عبد الله بن القاسم أبو الفضل، قاضي القضاة بدمشق، كمال الدين الشهرزوري، الموصلي، وله بها مدرسة على الشافعية، وأخرى بنصيبين، وكان فاضلا، دينا أمينا، ثقة، ورعاً ولي القضاء بدمشق، لنور الدين محمود بن زنكي، واستوزره أيضا فيما حكاه ابن الساعي.

قال: وكان يبعثه في الرسائل. كتب مرة على أعلى قصة إلى الخليفة المقتفي: محمد بن عبد الله الرسول، فكتب الخليفة تحت ذلك ﷺ .

قلت: وقد فوض إليه نور الدين، نظر الجامع، ودار الضرب، والأسوار، وعمر له المارستان، والمدارس، وغير ذلك من الأمور المهمات وكانت وفاته في المحرم، من هذه السنة، بدمشق.

■ الخطيب شمس الدين بن الوزير أبي الضياء، خطيب الديار المصرية، وابن وزيرها، كان أول من خطب بديار مصر للخليفة المستضيء بأمر الله العباسي، بأمر الملك الناصر صلاح الدين، يوسف بن أيوب ثم حظي عنده، حتى جعله سفيرا بينه وبين الملوك والخلفاء، وكان رئيسا مطاعا كريما ممدحا، يقرأ عليه الشعراء والأدباء. ثم جعل الناصر مكانه في السفارة وأداء الرسائل ضياء الدين بن قاضي القضاة الشهرزوري بمرسوم سلطاني، وكانت وظيفة مقررة رحمه الله تعالى وإيانا بمنه وكرمه.

ثم دخلت سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة

فيها أمر السلطان ببناء قلعة الجبل، وإحاطة السور على القاهرة ومصر يشملهما جميعاً، فعمرت قلعة للملك، لم يكن في الديار المصرية مثلها، ولا على شكلها، وولي عمارة ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش، مملوك تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب.

وفيها كانت وقعة الرملة على المسلمين.

وفي جمادى الأولى منها سار السلطان الناصر صلاح الدين يوسف من الديار المصرية، قاصدا غزو الفرنج، فانتهى إلى بلاد الرملة، فسبى، وسلب وغنم وقتل وكسر وكسب، ثم تشاغل جيشه بالغنائم، وتفرقوا في القرى والمحال تفرُّق الهائم، وبقي السلطان في طائفة من الجيش منفردا، فهجمت عليه الفرنج، في جحفل من المقاتلة، فما سلم إلا بعد جهد جهيد، و لله الحمد. ثم تراجع الجيش بعد تفرُّقهم، واجتمعوا عليه بعد أيام، ووقعت الأراجيف في الناس، بسبب ذلك، وما صدّق أهل مصر، برؤيته بعدما بلغهم من الإرجاف والإرهاب وصار الأمر كما قيل:

رضيت من الغنيمة بالإياب

ومع هذا، دقت البشائر في البلدان فرحا بسلامة السلطان، ولم تجر مثل هذه الوقعة، إلا بعد عشر سنين. وذلك يوم حطين، وقد ثبت السلطان في هذه الوقعة ثباتا عظيما، وأسر للملك المظفر تقي الدين عمر بن أخي السلطان ولده شاهنشاه، فبقي عندهم سبع سنين، وقتل ابنه الآخر، وكان شابا قد طرّ شاربه فحزن على المقتول، والمفقود، وصبر تأسيا بأيوب، وناح

كما ناح داود، وأسر الفقيهان، الأخوان، ضياء الدين عيسى، وظهير الدين، فافتداهما السلطان بعد سنين بسبعين ألف دينار.

وفيها تخبطت الدولة بحلب، وقبض السلطان الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين على الخادم كمشتكين، وألزمه بتسليم قلعة حارم، وكانت له، فأبى من ذلك، فعلقه منكوسا، ودخن تحت أنفه، حتى مات من ساعته.

وفيها جاء ملك كبير من ملوك الفرنج، يروم أخذ الشام، لغيبة السلطان، واشتغال نوابه بلذاتهم.

قال العماد الكاتب: ومن شرط هدنة الفرنج، أنه متى جاء ملك كبير من ملوكهم لا يمكنهم دفعه، أنهم يقاتلون معه، ويؤازرونه، وينصرونه، فإذا انصرف عنهم، عادت الهدنة كما كانت، فقصد هذا الملك وجملة الفرنج معه مدينة حماه وصاحبها شهاب الدين محمود خال السلطان مريض، ونائب دمشق ومن معه من الأمراء مشغولون بلذاتهم، فكادوا يأخذون البلد، ولكن هزمهم الله، بعد أربعة أيام، فانصرفوا إلى حارم، فلم يتمكنوا من أخذها، وكشفهم عنها الملك الصالح صاحب حلب، وقد دفع إليهم من الأموال والأسرى ما طلبوه.

وتوفي صاحب حماه شهاب الدين محمود بن تكش، خال السلطان الناصر، وتوفي قبله ولده تتش بثلاثة أيام رحمهما الله.

ولما سمع الملك الناصر بنزول الفرنج على حارم، خرج من مصر، قاصدا بلاد الشام لغزو الفرنج - لعنهم الله تعالى - فدخل دمشق، في الرابع والعشرين من شوال، وصحبته العماد الكاتب، وتأخر القاضي الفاضل بمصر، لأجل الحج.

وفيها جاء كتاب القاضي الفاضل الناصر، يهنئه بمولود، له، وهو أبو سليمان داود، وبه كمل له أثنى عشر ذكرا، وقد ولد له بعده عدة أولاد ذكور، فإنه توفي عن سبعة عشر ذكرا، وابنة صغيرة، اسمها مؤنسة، التي تزوجها ابن عمها، الملك الكامل محمد بن العادل، كما سيأتي بيان ذلك في موضعه إن شاء الله تعالى.

وفي هذه السنة جرت فتنة عظيمة بين اليهود، والعامة، ببغداد، وكانت بسبب أن مؤذنا أذن عند كنيسة، اليهود فنال منه بعض اليهود، بكلام أغلظ له فيه، فشتمه المسلم، فاقتتلا، فجاء المؤذن يشتكي منه إلى الديوان، فتفاقم الحال، وكثرت العوام، وأكثروا الضجيج، فلما حان وقت الجمعة، منعت العامة الخطباء في بعض الجوامع، وخرجوا من فورهم، فنهبوا سوق العطارين، الذي فيه اليهود، وذهبوا إلى كنيسة اليهود، فنهبوها، ولم يتمكن الشرط من ردهم، فأمر الخليفة بصلب بعض العامة، فأخرج في الليل جماعة من الشطار، الذين كانوا في الحبوس، وقد وجب عليهم القتل، فصلبوا، فظن كثير من الناس أن هذا كان بسبب هذه الكائنة، فسكنت الفتنة، و لله الحمد.

وفيها خرج وزير الخليفة، عضد الدولة، ابن رئيس الرؤساء ابن المسلمة قاصدا الحج، وخرج الناس في خدمته ليودعوه، فتقدم إليه ثلاثة من الباطنية، في صورة فقراء، ومعهم قصص، فتقدم أحدهم ليناوله قصة، فاعتنقه وضربه بالسكين ضربات، وهجم الثاني وكذا الثالث، فهبروه، وجرحوا جماعة حوله، وقتل الثلاثة من فورهم وحرقوا، ورجع الوزير إلى منزله، محمولا، فمات من يومه، وهذا الوزير هو الذي قتل ولدي الوزير ابن هبيرة، وأعدمهما فسلط الله عليه من قتله، وكما تدين تدان، جزاء وفاقا ﴿وما ربك بظلام للعبيد﴾ [فصلت: ٤٦].

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **صدقة بن الحسين أبو الفرج بن الحداد**، قرأ القرآن، وسمع الحديث، وتفقه، وأفتى، وقال الشعر، وقال في الكلام، وناظر وله تاريخ، ذيل فيه على شيخه ابن الزاغوني، وفيه غرائب، وعجائب.

قال ابن الساعي: كان شيخا، عالما فاضلا، وكان فقيرا، يأكل من أجرة النسخ، وكان يأوي إلى مسجد ببغداد، عند البدرية، يؤم فيه، وكان يتعتب على الزمان وبنيه.

ورأيت ابن الجوزي في المنتظم [١٨/٢٤٣، ٢٤٤] يذمه، ويرميه بالعظائم، وأورد له من أشعاره ما فيه مشابهة لابن الراوندي، في الزندقة، فالله أعلم.

توفي في ربيع الآخر، من هذه السنة، عن خمس وسبعين سنة، ودفن بباب حرب، ورُويت له منامات غير صالحة، نسأل الله العافية، في الدنيا، والآخرة.

■ **محمد بن أحمد بن عبد الجبار بن المظفر**: الحنفي المعروف بالمشطب كان من الفضلاء المشاهير. تفقه ودرس وأفتى وناظر، توفي في هذه السنة وقد جاوز الثمانين.

■ **محمد بن أسعد بن محمد**: أبو منصور العطار، المعروف بحَفَدَة، سمع الكثير، وتفقه، وناظر، وأفتى، ودرس، وقدم بغداد، فمات بها في هذه السنة رحمه الله تعالى.

■ **محمود بن تكش شهاب الدين الحارمي**: خال السلطان صلاح الدين، كان من خيار الأمراء، وشجعانهم، وقد أقطعه ابن أخته حماة حين فتحها، وقد حاصره الفرنج بها في هذه السنة وهو مريض، فأخذوا حماة، وقتلوا بعض أهلها، ثم تناخى أهلها، فردوهم خائبين.

■ **فاطمة بنت نصر بن العطار**: كانت من سادات النساء، وهي من سلالة أخت صاحب المخزن، وكانت من العابدات، المتورعات، المخدَّرات يقال إنها لم تخرج من منزلها سوى ثلاث مرات، وقد أثنى عليها الخليفة، وغيره، والله أعلم.

ثم دخلت سنة أربع وسبعين وخمسمائة

فيها ورد كتاب من القاضي الفاضل، من مصر إلى الناصر، وهو بالشام، يهنيه بسلامة أولاده، الملوك الاثني عشر، يقول في بعضه: وهم بحمد الله، بهجة الدنيا، وزينتها، وريحانة الحياة، وزهرتها، إن فؤادا وسع فراقهم، لواسع، وإن قلبا، قنع بأخبارهم، لقانع، وإن طرفا نام عن البعد عنهم لهاجع، وإن ملكا ملك تصبُّره عنهم لحازم، وإن نعمة الله بهم لنعمة بها العيش ناعم، أما يشتاق جيدُ المولى، أن يتطوّق بدُرِّرهم؟ أما تظمأ عينه أن تتروّى أن بنظرهم؟ أما يحن قلبه إلى قلبه؟ أما يلتقط هذا الطائر بتقبيلهم من خرج من حبّه وللمولى أبقاه الله أن يقول:

وما مثل هذا الشوق يحمل مضغة ولكن قلبي في الهوى يتقلب

وفيها أسقط السلطان صلاح الدين المكوس، والضرائب، عن الحجاج بمكة، وقد كان يؤخذ من حجاج الغرب شيء كثير، ومن عجز عن أدائه، حبس، فربما فاته، الوقوف بعرفة، وعوض أمير مكة بمال، أقطعه إياه بمصر، وأن يحمل إليه في كل سنة، ثمانية آلاف إردب غلة، إلى مكة، ليكون عونا له، ولأتباعه، ورفقا بما تيسّر على المجاورين من ابتياعه، وقرر للمجاورين

أيضا، غلات، تحمل إليهم وصلات، فرحمة الله عليه في سائر الأوقات.

وفيها عصى الأمير شمس الدين بن مقدم ببعلبك، ولم يجئ إلى خدمة السلطان، وهو نازل على ظاهر حمص،،وذلك أنه بلغه أن أخا السلطان، توران شاه، طلب بعلبك منه، فأطلقها له، فامتنع ابن المقدم، من الخروج منها، حتى جاء السلطان بنفسه، فحصره فيها، من غير قتال حتى جاءت الأمطار والبَرد، فعاد إلى دمشق في رجب، ووكّل بالبلد من يحصُره من غير قتال ثم عوض ابن المقدم عنها، بتعويض كثير، خير مما كان بيده، فخرج منها، وتسلمها، وسلمها توران شاه.

قال ابن الأثير: وكان في هذه السنة غلاء شديد، بسبب قلة المطر، عم العراق، والشام، وديار مصر، واستمر إلى سنة خمس وسبعين، فجاء المطر، ورخصت الأسعار، ولكطن تعقّب ذلك، وباء شديد، وعم البلاد مرض آخر، وهو السِّرْسام فما ارتفع إلا في سنة ست وسبعين، فمات بسبب ذلك خلق كثير، وأمم لا يعلم عددهم إلا الذي خلَقهم.

وفي رمضان منها، وصلت خلع الخليفة، إلى الملك صلاح الدين، وهو بدمشق، وكانت سنية عظيمة جداً وزيد في ألقابه معز أمير المؤمنين، وخلع أيضاً على أخيه توران شاه، ولقب بمصطفى أمير المؤمنين.

وفيها جهز الناصر ابن أخيه، فَرُّخ شاه بن شاهنشاه بن أيوب بين يديه لقتال الفرنج، الذين عزموا على قتال المسلمين وعاثوا في نواحي دمشق وقراها، فنهبوا ما حولها، وأمره أن يداريهم حتى يتوسطوا البلاد، ولا يقاتلهم، حتى يقدم عليه، فلما التقوا، عاجلوه بالقتال، فكسرهم، وقتل من ملوكهم صاحب الناصرة الهنفري، وكان من أكابر ملوكهم وشجعانهم، لا ينهنه اللقاء، فكبته الله في هذه الغزوة، ثم ركب الناصر، في إثر ابن أخيه، فما وصل إلى الكسوة، حتى تلقته الرؤوس على الرماح، والغنائم، والأسارى والجيش في سُمْره وبيضه من البنادق والصِّفاح.

وفيها بنت الفرنج قلعة عند بيت الأحزان، للداوية، فجعلوها مرصدا لحرب المسلمين، وقطع طريقهم، ونقضت ملوكهم العهود، التي كانت بينهم وبين صلاح الدين، وأغاروا على نواحي البلدان من كل جانب، ليشغلوا المسلمين عنهم، وتفرقت جيوشهم، فلا تجتمع في بقعة واحدة، فرتب السلطان ابن أخيه تقي الدين عمر على حماة، ومعه شمس الدين بن مقدم، وسيف الدين علي بن أحمد المشطوب، بناحي البقاع، وغيرها، وبثغر حمص ابن عمه ناصر الدين بن أسد الدين شيركوه، وبعث إلى أخيه سيف الدين أبي بكر وهو الملك العادل، نائبه بمصر، أن يبعث إليه ألفا وخمسمائة فارس، يستعين بهم، على قتال الفرنج، وكتب إلى الفرنج يأمرهم بتخريب هذا الحصن، الذي بنوه للداوية، فامتنعوا، إلا أن يبذل لهم ما غرموه عليه، فبذل لهم ستين ألف دينار، فلم يقبلوا، ثم أوصلهم إلى مائة ألف دينار فأبوا، فقال له ابن أخيه تقي الدين عمر: ابذل هذه في أجناد المسلمين، وسر إلى هذا الحصن، فخربه، فأخذ بقوله في ذلك، وخربه في السنة الآتية، كما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها أمر الخليفة المستضيء بكتابة لوح على قبر الإمام أحمد بن حنبل، فيه آية الكرسي، وبعدها: هذا قبر تاج السنة، وحيد الأمة، العالي الهمة، العالم، العابد، الفقيه، الزاهد، وذكر تاريخ وفاته، رحمه الله تعالى.

وفيها احتيط ببغداد، على شاعر ينشد للروافض يقال له ابن قرايا يقف في الأسواق ويذكر أشعارا يضمنها ذم الصحابة رضي الله عنهم وسبهم، وتهجين من يحبهم، فعقد له مجلس بأمر الخليفة، ثم استنطق، فإذا هو رافضي، جَلْد داهية فأفتى الفقهاء بقطع لسانه، ويديه، ففعل به ذلك، ثم اختطفته العامة، فما زالوا يرمونه بالآجر، حتى ألقى نفسه في دجلة، فاستخرجوه منها، فقتلوه، حتى مات، فأخذوا شريطا، وربطوه في رجله رجليه وطوّفوا به في البلد يجرجرونه في أكنافها، ثم ألقوه في بعض الأتونات مع الآجر، والكلس، وعجز الشرط على تخليصه منهم.

ومن توفي فيها من الأعيان

■ **أسعد بن بلدرك أبو أحمد الجبريلي:**

سمع الحديث، وكان شيخا، ظريفاً حسن المذاكرة، جيد النادرة، سريع المبادرة. توفي في هذه السنة عن مائة سنة وأربع سنين رحمه الله تعالى.

■ **محمد بن نسيم بن عبد الله، أبو عبد الله الخياط**، عتيق الرئيس أبي الفضل بن عيشون، سمع الحديث، وقارب الثمانين، سقط من درجة فمات.

قال: أنشدني مولى والدي، يعني ابن أعلى الحكيم أبا الفضل بن عيشون:

القارئ التشريح أجدرُ بالتُّقى ... من راهب في دَيْره متقوِّس
ومُراقب الأفلاك كانت نفسُه ... بعبادة الرحمن أحرى الأنفُس
والماسح الأرَضين وهي فسيحةٌ ... أولى بمسح في أكُفّ اللُمَّس
أولى بخشية ربِّه من جاهل ... بمثلَّث ومربَّع ومُخمَّس

■ **الحيص بيص: سعد بن محمد** بن سعد الملقب شهاب الدين، أبو الفوارس الصيفي، الشاعر، له ديوان شعر مشهور، توفي يوم الثلاثاء، خامس شهر شعبان، من هذه السنة، وله ثنتان وثمانون سنة، وصلي عليه بالنظامية، ودفن بباب التبن، ولم يعقب، ولم يكن له في المراسلات بديل، كان يتقعر فيها، ويتفاصح جدا، فلا تواتيه إلا وهي معجرفة وكان يزعم أنه من بني تميم، فسئل أبوه عن ذلك، فقال: ما سمعته إلا منه. فقال بعض الشعراء يهجوه، فيما ادعاه من ذلك:

كم تبادي وكم تُطوِّل طُرْطُو ... رك وما فيك شعرة من تميم
فكلِ الضبَّ وابلع الحنظل اليا ... بس واشرب إن شئت بول الظليم
ليس ذا وجه من يضيف ولا يقـ ... ـري ولا يدفع الأذى عن حريم

ومن شعر الحيص بيص الجيد:

سلامة المرء ساعة عجب ... وكل شيء لحتفه سبب
يفر والحادثات تطلبه ... يفر منها ونحوها الهرب
فكيف يبقى على تقلُّبه ... مسلَّماً مَنْ حياتُه العطب

ومن شعره أيضاً:

لا تلبس الدهر على غرة ... فما لموت الحي من بد
ولا يخادعك طويل البقا ... فتحسب التطويل من الخُلْد
يقرب ما كان لنا آخر ... ما أقربَ المهد من اللحد

ويقرب من هذا ما ذكره صاحب العقد وهو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي في عقده [العقد الفريد: ١٧٥/٣]:

ألا إنما الدنيا غضارة أيكة ... إذا اخضر منها جانب جف جانب
وما الدهر والآمال إلا فجائع ... عليها وما اللذات إلا مصائب

فلا تكتحل عيناك منها بعبرة على ذاهب منها فإنك ذاهب

قد ذكر أبو سعد السمعاني حيص بيص هذا في ذيله، وأثنى عليه، وسمع عليه ديوانه ورسائله، وأثنى على رسائله القاضي ابن خلكان، وقال: كان فيه تيه، وتعاظم، ولا يتكلم إلا معربا، وكان فقيها، شافعي المذهب، واشتغل بالخلاف، وعلم النظر، ثم تشاغل عن ذلك كله بالشعر، وكان من أخبر الناس بأشعار العرب، واختلاف لغاتهم.

قال: وإنما قيل له الحيص بيص، لأنه رأى الناس في حركة واختلاط، فقال: ما للناس في حيص بيص أي في شدة وهرج، فغلبت عليه هذه الكلمة، وكان يزعم أنه من ولد أكثم بن صيفي طبيب العرب،ولم يترك عقبا كانت له حوالة بالحلة،فذهب يتقاضاها، فتوفي ببغداد، في هذه السنة رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة خمس وسبعين وخمسمائة

وفيها كانت وقعة مرج عيون

استهلت هذه السنة، والسلطان صلاح الدين الناصر، نازل بجيشه، على تل القاضي ببانياس، ثم قصده الفرنج بجمعهم، فنهض إليهم نهوض الأسد فما هو إلا أن التقى الفريقان، واصطدم الجندان، فأنزل الله نصره، وأعز جنده، وهزم الأعهداء وحده، ففرّت الوية الصلبان ذاهبة، وخيل الله لرقابهم راكبة، فقتل منهم خلق كثير، وأسر من ملوكهم جماعة، وأنابوا إلى السمع والطاعة، منهم مقدم الداوية، ومقدم الإسبتارية وصاحب الرملة، وصاحب طبرية، وقسطلان يافا، وآخرون من ملوكهم، وخلق من شجعانهم، وأبطالهم، ومن فرسان القدس جماعة كثيرون، تقريبا من ثلاثمائة أسير، من أشرافهم، يتهادون في قيودهم، كأنهم سكارى وما هم بسكارى.

قال العماد الكاتب: فاستعرضهم السلطان في الليل، حتى أضاء الفجر، على الظلماء وصلى يومئذ الصبح بوضوء العشاء، وكان جالسا ليلتئذ، في نحو العشرين، وهم في هذه العُدّة، فسلمه الله منهم، ثم أرسلهم إلى دمشق ليعتقلوا بقلعتها، وليكونوا في كنف دولتها فافتدى ابن البارزاني صاحب الرملة نفسه بمائة ألف وخمسين ألف دينار صورية، وإطلاق ألف أسير من بلاده، فأجيب إلى ذلك، وافتدى جماعة منهم أنفسهم بأموال جزيلة، وتُحف جليلة، ومنهم من مات في السجن فانتقل منه إلى سجِّين، وهكذا يفعل الله بالكافرون.

واتفق أنه في اليوم الذي ظفر فيه السلطان بالفرنج، بمرج عيون، ظهر أسطول المسلمين، على بطسة للفرنج في البحر، وأخرى معها، فغنموا منها ألف رأس من السبي، وعاد إلى الساحل مؤيدا منصورا، وقد امتدح الشعراء السلطان في هذه الغزوة بمدائح كثيرة، وكتب بذلك إلى بغداد، فدقت البشائر بها فرحا وسرورا بظهور المسلمين على أعداء الله الملحدين.

وكان الملك المظفر تقي الدين عمر غائبا عن هذه الوقعة، مشتغلا بما هو أعظم منها، وذلك أن ملك الروم قلج أرسلان، بعث يطلب حصن رعبان، وزعم أن نور الدين اغتصبه منه، وأن ولده قد أغضى له عنه، فلم يجبه السلطان تقي الدين عمر إلى ذلك. فبعث صاحب الروم عشرين ألف مقاتل يحاصرونه، فأرسل السلطان تقي الدين عمر، في ثمانمائة فارس، منهم سيف الدين علي بن أحمد المشطوب، فالتقوا معهم، فهزموهم بإذن الله تعالى، واستقرت يد صلاح الدين على حصن رعبان، وقد كان مما عوض به ابن مقدم عن بعلبك، وكان تقي الدين عمر، يفتخر بهذه الوقعة، ويرى أنه قد هزم عشرين ألفا، وقيل ثلاثين ألفا بثمانمائة فارس، وكان السبب في ذلك أنه بيتهم، وأغار عليهم وهم غارُّون، فما لبثوا أمامه، بل فروا منهزمين عن آخرهم، فأكثر فيهم القتل، واستحوذ على جميع ما تركوه في خيامهم، ويقال إنه كسرهم، يوم كسر السلطان الفرنج، بمرج عيون، والله أعلم.

تخريب حصن الأحزان وهو قريب من صفد

ثم ركب السلطان في جحافله إلى الحصن، الذي كانت الفرنج قد بنوه، في العام الماضي، وحفروا فيه بئرا عيناً معيناً، وسلموه إلى الداوية، فقصده السلطان، فحاصره، ونقبه من جميع جهاته، وألقى فيه النيران فجعله دكّاً، وخربه إلى الأساس، وغنم جميع ما فيه من الحوامل، فكان فيه مائة ألف قطعة من السلاح، ومن المآكل شيء كثير، وأخذ منه سبعمائة أسير، فقتل بعضا، وأرسل إلى دمشق الباقين، ثم عاد إلى دمشق، مؤيدا، منصورا، غير أنه مات من أمرائه عشرة، بسبب ما نالهم من الحر والوباء في مدة الحصار، وكانت أربعة عشر يوما، وعاد إن الناس زيارة مشهد يعقوب على عادتهم، وقد امتدحه الشعراء فقال بعضهم:

بجدك أعطاف القنا تتعطف وطرف الأعادي دون مجدك يطرف
شهاب هدى في ظلمه الشرك ثاقب وسيف إذا ما هزه الله مرهف
وقفت على حصن المخاض وإنه لموقف حق لا يوازيه موقف
فلم يبد وجه الأرض بل حال دونه رجال كآساد الشرى وهي ترجف
وجرداء سلهوب ودرع مضاعف وأبيض هندي ولدن مثقف
وما رجعت أعلامك الصُفر ساعة إلا غدت أكبادها السود ترجف
كتائب من أعاليه صليب وبيعة وشاد به دين حنيف ومصحف
صليب وعباد الصليب ومنزل النزال قد غادرته وهو صفصف
أتسكن أوطان النبيين عصبة تمين لدى إيمانها وهي تحلف
نصحتكم والنصح في الدين واجب ذروا بيت يعقوب فقد جاء يوسف

وقال آخر:

هلاك الفرنج أتى عاجلا وقد آن تكسير صلبانها
ولو لم يكن قد دنا حتفها لما عمرت بيت أحزانها

ومن كتاب فاضلي إلى بغداد في وصف هذا الحصن الذي خربه صلاح الدين. وقد عرُضوا حائطه إلى أن زاد على عشرة أذرع، وقطعت له عظام الحجارة، كل فص منها من سبعة أذرع، إلى ما فوقها، وما دونها وعدتها تزيد على عشرين ألف حجر، لا يستقر الحجر في مكانه ولا يستقلّ في بنيانه، إلا بأربعة دنانير، فما فوقها، وفيما بين الحائطين حشو من الحجارة الضخمة الصم، المرغم بها أنوف الجبال الشم، وقد جعلت سُقيته بالكلس الذي إذا أحاطت بالحجر، مازجه بمثل جسمه، وصاحبه بأوثق وأصلب من جُرمه، وأوعز إلى خصمه من الحديد بأن لا يتعرض لهدمه.

وفيها أقطع السلطان صلاح الدين لابن أخيه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب مدينة بعلبك. وأغار فيها على صفد وأعمالها فقتل طائفة كبيرة من مقاتليها ورجالها وكان فرخشاه من الصناديد الأبطال

المشهورين المشكورين في النزال.

وفيها حج القاضي الفاضل من دمشق، وعاد إلى مصر، فقاسى في الطريق أهوالا، ولقي بَرْحاً، وتعبا، وكلالا، وكان في العام الماضي قد حج من مصر، وعاد إلى الشام، ولكن كان أمره فيه أسهل من هذا العام.

وفيها كانت زلزلة عظيمة، انهدم بسببها قلاع، وقرى، ومات خلق كثير فيها من الورى، وسقط من رؤوس الجبال صخور كبار، وصادمت بين الجبال، في البراري، والقفار، مع بُعْدِ ما بين الجبال من الأقطار.

وفيها أصاب الناس غلاء شديد، وفناء شديد، وجهد جهيد، فمات خلق كثير من الخلائق بهذا وهذا، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ذكر وفاة الخليفة المستضيء بأمر الله وشيء من ترجمته

كان ابتداء مرضه في أواخر شوال من هذه السنة، فأرادت زوجته أن تكتم ذلك، فلم يمكنها، ووقعت فتنة كبيرة ببغداد، ونهبت العامة دورا كثيرة، وأموالا جزيلة، فلما كان يوم الجمعة، الثاني والعشرين من شوال، خطب لولي العهد، أبي العباس أحمد بن المستضيء، وهو الخليفة الناصر لدين الله، وكان يوما مشهودا، نثر الذهب فيه على الخطباء، والمؤذنين، ومن حضر ذلك، عند ذكره على المنبر والتنويه باسمه في العشر.

فلما كان يوم السبت سلخ شوال مات الخليفة المستضيء بأمر الله وكان مرضه بالحمى، ابتدأ فيها يوم عيد الفطر، ولم يزل الأمر يتزايد به، حتى استكمل في مرضه شهرا فمات رحمه الله سلخ شوال، وله من العمر تسع وثلاثون سنة، وكانت مدة خلافته تسع سنين وثلاثة أشهر وسبعة عشر يوما، وغسل، وصلي عليه من الغد. ودفن بدار النصر التي بناها وذلك عن وصيته التي أوصاها، وترك من بعده ولدين، أحدهم ولي العهد، وهو عدة الدين والدنيا، أبو العباس أحمد الناصر لدين الله، والآخر أبو منصور هاشم، وقد وزر له جماعة من الرؤساء، وكان من خيار الخلفاء، أمّاراً بالمعروف، نهّاءً عن المنكر، وضع عن الناس المكوسات والضرائب، ودرأ عنهم البدع والمصائب، وكان حليما، ووقورا، كريما، فرحمه الله تعالى وبل ثراه وجعل الجنة مأواه، وبويع بالخلافة من بعده لولده الناصر.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ إبراهيم بن علي: أبو إسحاق، الفقيه، السلمي الشافعي، المعروف بابن الفراء الأموي، ثم البغدادي، كان فقيهاً بارعاً فاضلا، مناظرا، فصيحا، بليغا، شاعرا، مُطبقاً توفي عن أربع وسبعين سنة، وصلى عليه أبو الحسن القزويني مدرس النظامية رحمه الله تعالى.

■ إسماعيل بن موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر أبو محمد بن الجواليقي، الملقب حجة الإسلام، أحد أئمة اللغة في زمانه، والمشار إليه من بين أقرانه، بحسن الدين، وقوة اليقين، وعلم اللغة، والنحو، وصدق اللّهجة، وخلوص النية، وحسن السيرة، في مرباه، ومنشاه، ومنتهاه، وقد سمع الحديث، ورواه وفهم الأثر، واتبع سبيله، ومغزاه، رحمه الله تعالى وأكرم مثواه.

■ المبارك بن علي بن الحسين بن عبد الله بن محمد أبو محمد بن الطباخ البغدادي، نزيل مكة، ومجاورها، وحافظ الحديث بها، والمشار إليه بالعلم فيها. كان يوم جنازته يوما مشهودا رحمه الله تعالى.

خلافة الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن المستضيء

لما توفي أبوه في سلخ شوال من سنة خمس وسبعين وخمسمائة بايعه الأمراء والوزراء، والخاصة، والعامة، وكان قد خطب له على المنابر، في حياة أبيه، قبل موته بيسير، فقيل: إنه إنما عهد إليه قبل موته بيوم. وقيل: بأسبوع. ولكن قدر الله عز وجل، أنه لم يختلف عليه اثنان بعد وفاة أبيه ولقب بالخليفة الناصر، ولم يل الخلافة من بني العباس قبله أطول مدة منه، فإن خلافته امتدَّت إلى سنة وفاته، في سنة ثنتين وعشرين وستمائة، وكان ذكيا، شجاعا مهيبا، وما سيأتي ذكر سيرته عند وفاته إن شاء الله تعالى.

وفي سابع ذي القعدة من هذه السنة عزل صاحب المخزن ظهير الدين أبو بكر بن العطار، وأهين غاية الإهانة هو وأصحابه، وقتل كثير منهم، وشهروا في البلد، وتمكن أمر الخليفة الناصر، وعظمت هيبته في البلاد وقلوب العباد وقام بأعباء الخلافة على ما ينبغي في جميع أموره وشؤونهم. ولما حضر عيد الأضحى، أقيم على ما جرت به العادة، والله أعلم.

ثم دخلت سنة ست وسبعين وخمسمائة

فيها هادن السلطان صلاح الدين الفرنج، وسار إلى بلاد الروم، فأصلح بين ملوكها، من بين أرتق، وكر على بلاد الأرمن، فأهان ملكها، وفتح بعض حصونها، وأخذ منها غنائم كثيرة جدا، من أواني الفضة والذهب، لأن ملكها كان قد غدر بقوم من التركمان، أوَرْا إلى بلاده، ثم صالحه على مال يحمله إليه، وأسارى يطلقهم من أسره، وآخرين يستنقذهم من أيدي الفرنج، ثم عاد السلطان مؤيدا، منصورا، فدخل حماة، في أواخر جمادى الآخرة، وامتدحه الشعراء على ذلك.

ومات صاحب الموصل سيف الدين غازي بن مودود بن زنكي وكان شابا، حسنا، مليح الشكل، تام القامة، مدور اللحية، مكث في الملك عشر سنين، ومات عن ثلاثين سنة، وكان عفيفا في نفسه، مهيبا، وقورا، لا يلتفت إذا ركب ولا وإذا جلس، وكان غيورا، لا يدع أحدا من الخدم الكبار يدخل على النساء، وكان لا يقدم على سفك الدماء، وكان ينسب إلى شيء من البخل، سامحه الله، توفي في ثالث صفر، وكان قد عزم على أن يجعل الملك، من بعده، لولده عز الدين سنجرشاه، فلم يوافقه الأمراء، خوفا من صلاح الدين، لصغر سنه، فاتفقوا كلهم على أخيه، فأجلس مكانه في المملكة الدين مسعود، وجعل مجاهد الدين قايماز نائبه، ومدبر مملكته.

وجاءت رسل الخليفة، يلتمسون من صلاح الدين أن يبقي سروج، والرها، والرقة، وحران، والخابور، ونصيبين في يده كما كانت في يد أخيه، فامتنع السلطان من ذلك، وقال: هذه البلاد، هي حفظ ثغور المسلمين، وإنما كنت تركتها في يده، ليساعدنا على غزو الفرنج، فلم يكن يفعل ذلك، وكتب إلى الخليفة يعرفه أن المصلحة في كونها بيده.

وفاة تورانشاه أخي السلطان

فيها توفي أخو السلطان الأكبر الملك المعظم شمس الدولة

■ تورانشاه بن أيوب، أخي الملك صلاح الدين، الذي افتتح بلاد اليمن، عن أمر أخيه، فمكث فيها حينا، واقتنى منها أموالا جزيلة، ثم

استتاب فيها، وأقبل نحو أخيه إلى الشام، شوقا إليه، وقد كتب إليه في أثناء الطريق شعرا عمله له شاعره ابن المنجم، وكانوا قد وصلوا إلى تيماء:

وهل لأخي بل مالكي علم أنني　　إليه وإن طال التردد راجع
وإني ليوم واحد من لقائه　　للكي على عظم المزية بائع
ولم يبق إلا دون عشرين ليلة　　وتجني المُنى أبصارنا والمسامع
لدى ملك تعنو الملوك إذا بدا　　وتخشع إعظاما له وهو خاشع
كتبت وأشواقي إليك ببعضها　　تعلمت النوح الحمام السواجع
وما الملك إلا راحة أنت زندها　　تضم على الدنيا ونحن الأصابع

وكان قدومه على أخيه سنة إحدى وسبعين وخمسمائة، فشهد معه مواقف مشهودة وغزوات محمودة، واستنابه على دمشق مدة، ثم سار إلى مصر، فاستنابه على الإسكندرية، فلم توافقه، وكان يعتريه القولنج، فمات في هذه السنة، ودفن بقصر الإمارة فيها، ثم نقلته أخته ست الشام بنت أيوب، فدفنته بتربتها، التي بالشامية البرانية، فقبره القبلي، والوسطاني قبر زوجها وابن عمها ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه، صاحب حمص، والرحبة، والمؤخر قبرها، رحمها الله تعالى وأجزل ثوابها والتربة الحسامية منسوبة إلى والدها حسام الدين عمر بن لاجين، وهي إلى جانب المدرسة من غربها، وقد كان الملك تورانشاه هذا، كريما شجاعا، باسلا عظيم الهيبة، كبير النفس، واسع الصدر، قال فيه ابن سعدان الحلبي:

هو الملك إن تسمع بكسرى وقيصر　　فإنهما في الجود والبأس عبداه
وما حاتم ممن يقاس بمثله　　فخذ ما رأيناه ودع ما رويناه
ولذ بذراه مستجيراً فإنه　　يجيرك من جور الزمان وعداه
ولا تتحمل للسحائب منّة　　إذا هطلت جوداً سحائب جدواه
ويرسل كفيه بما اشتق منهما　　فلليمن يمناه ولليسر يسراه

ولما بلغ خبر موته إلى أخيه صلاح الدين بن أيوب، وهو مخيم بظاهر حمص، حزن عليه حزنا شديدا، وجعل ينشد باب المراثي من الحماسة، وكانت محفوظة رحمه الله تعالى.

وفي رجب منها، قدمت رسل الخليفة الناصر وخلعه وهداياه إلى الملك الناصر صلاح الدين، فلبس السلطان خلعة الخليفة بدمشق، وزينت له البلد، وكان يوما مشهودا.

وفي رجب أيضا منها، سار السلطان من الشام إلى الديار المصرية، لينظر في أحوالها وأمورها، ويصوم بها رمضان، ومن عزمه أن يحج عامه ذلك إلى بيت الله الحرام، واستناب على الشام ابن أخيه عز الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيوب.

قال العماد الكاتب: وكان عزيز المثل، غزير الفضل، فكتب القاضي الفاضل، عن الملك العادل أبي بكر نائب مصر إلى أهل اليمن، والبقيع، ومكة، يعلمهم بعزم السلطان الناصر على الحج في هذا العام واستصحب صدر الدين أبا القاسم عبد الرحيم شيخ الشيوخ ببغداد، الذي قدم في الرُّسلية من جهة الخليفة، ليكون في خدمته إلى الديار المصرية، وفي صحبته إلى الحجاز الشريف، فدخل السلطان مصر، وتلقاه الجيش وكان يوما مشهودا وأما صدر الدين فانه لم يقم بها إلا قليلا، حتى توجه إلى الحجاز الشريف في البحر، فأدرك الصيام في المسجد الحرام.

وفيها سار قراقوش التَّقَوِيُّ إلى المغرب، فحاصر قابس، وقلاعا كثيرة حولها، واستحوذ على أكثرها، واتفق له أنه أسر من بعض الحصون غلاما أمرد، فأراد قتله، فقال له أهل الحصن: لا تقتله، وخذ لك ديته، عشرة آلاف دينار. فأبى فوصّلوه إلى مائة ألف، فأبى إلا قتله، فقتله، فلما قتله، نزل صاحب الحصن، وهو شيخ كبير، ومعه مفاتيح ذلك الحصن، فقال له: خذ هذه، فإني شيخ كبير، وإنما كنت أحفظه من أجل هذا الصبي الذي قتلته، ولي أولاد أخ، أكره أن يملكوه بعدي فأقره فيه، وأخذ منه أموالا كثيرة والله سبحانه وتعالى أعلم بالصواب.

وممن توفي فيها من الأعيان

الحافظ

■ **أبو طاهر السلفي: أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم سلفة** الحافظ الكبير المعمر، أبو طاهر السلفي الأصبهاني، وإنما قيل لجده إبراهيم سلفة، لأنه كان مشقوق إحدى الشفتين، فكان له ثلاث شفاه فسمته الأعاجم بذلك.

قال القاضي ابن خلكان: وكان السلفي يلقب بصدر الدين، وكان شافعي المذهب، ورد بغداد، واشتغل بها على إلكيا الهراسي، وأخذ اللغة عن الخطيب أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي، وسمع الحديث الكثير، ورحل في طلبه إلى الآفاق، ثم نزل ثغر الإسكندرية، في سنة إحدى عشرة وخمسمائة، وبنى له العادل أبو الحسن علي بن السلار وزير الخليفة الظافر مدرسة، وفوض أمرها إليه، فهي معروفة به إلى الآن.

قال ابن خلكان: وأما أماليه، وتعاليقه، كثيرة جدا، وكان مولده فيما ذكر المصريون، سنة ثنتين وسبعين وأربعمائة.

ونقل الحافظ عبد الغني القدسي عنه، أنه قال: أذكر مقتل نظام الملك في سنة خمس وثمانين وأربعمائة ببغداد، وأنا ابن عشر تقريبا.

ونقل عنه الحافظ أبو القاسم الصفراوي أنه قال: مولدي بالتخمين، لا باليقين، سنة ثمان وسبعين فيكون مبلغ عمره ثمانيا وتسعين سنة، لأنه توفي ليلة الجمعة، خامس ربيع الآخر، سنة ست وسبعين وخمسمائة، بثغر الإسكندرية، والله أعلم، ودفن بوعلة، وفيها جماعة من الصالحين رحمه الله تعالى، وقد رجح ابن خلكان قول الصفراوي، قال: ولم يبلغنا من نحو ثلاثمائة سنة أن أحدا جاوز المائة، إلا القاضي أبا الطيب الطبري رحمه الله.

وقد ترجمه الحافظ بن عساكر في تاريخه [٢٠٨/٥] ترجمة حسنة، وإن كان قد مات قبله بخمس سنين، فذكر رحلته في طلب الحديث، ودورانه في الأقاليم، وأنه كان يتصوف أولا، ثم أقام بثغر الإسكندرية، وتزوج بامرأة ذات يسار، فحسنت حاله، ووقفت عليه مدرسة هناك، وذكر طرفا من أشعاره فمن ذلك رحمه الله تعالى قوله:

أنامن لمسام المنية بغتة　　وأمن الفتى جهل وقد خبر الدهرا
وليس يحابي الدهر في دورانه　　أرذل أهليه ولا السادة الزهرا
وكيف وقد مات النبي وصحبه　　وأزواجه طُراً وفاطمة الزهرا

ومن شعر الحافظ السلفي الذي أورده ابن عساكر قوله:

يا قاصداً علم الحديث يذمُّه　　إذا ضل عن طرق الهداية وهمه
إن العلوم كما علمت كثيرة　　وأجلُّها فقه الحديث وعلمه
من كان طالبه وفيه تيقظ　　فاتمُ سهم في المعالي سهمه
لولا الحديث وأهله لم يستقم　　دين النبي وشذ عنا حكمه

وإذا استراب بقولنا متحذلق فأكلُ فهم في البسيطة فهمه

ثم دخلت سنة سبع وسبعين وخمسمائة

استهلت والملك الناصر صلاح الدين مقيم بالقاهرة، مواظب على سماع الحديث، وجاءه كتاب من نائبه بالشام عز الدين فرخشاه، يخبره فيه بما مَنَّ اللّه به على الناس، من ولادة النساء من التوأم، جبراً لما كان أصابهم في العام الماضي من الوباء، والفناء، وبأن الشام مخصبه بإذن اللّه لما كان أصابهم من الجدب الغلاء.

وفي شوال، توجه الملك صلاح الدين إلى الإسكندرية، لينظر ما أمر به من تحصين سورها، وعمارة أبراجها، وقصورها، وسمع بها موطأ الإمام مالك، على الشيخ أبي طاهر بن عوف، عن الطرطوشي، وسمع معه العماد الكاتب، وأرسل القاضي الفاضل إلى السلطان رسالة، يهنئه بهذا السماع، واللّه تعالى أعلم.

ذكر وفاة الملك الصالح إسماعيل بن الملك نور الدين الشهيد صاحب حلب وما جرى بعده من الأمور

كانت وفاته في الخامس والعشرين من رجب،من هذه السنة،بقلعة حلب، ودفن بها، وكان سبب وفاته، فيما قيل، أن الأمير علم الدين سليمان بن جَنْدر سقاه سما في عنقود عنب في الصيد وقيل بل سقاه ياقوت الأسدي في شراب وقيل: في خُشْكَنانجة فاعتراه قولنج فما زال كذلك حتى مات رحمه اللّه وهو شاب حسن الصورة بهي المنظر، ولم يبلغ عشرين سنة، وكان من أعف الملوك ومن أشبه أباه فما ظلم، وصف له الأطباء في مرضه شرب الخمر فاستفتى بعض الفقهاء في شربها، تداوياً، فأفتاه بذلك، فقال له: أيزيد شربها في أجلي أو ينقص منه تركها شيئا؟قالوا: لا، قال: فواللّه لا أشربها فألقى اللّه وقد شربت ما حرمه علي ولما يئس من نفسه استدعى الأمراء فحلفهم لابن عمه عز الدين مسعود صاحب الموصل، لقوة سلطانه، وتمكنه ليمنعها من صلاح الدين، وخشي أن يبايع لابن عمه الآخر، عماد الدين زنكي، صاحب سنجار، وهو زوج أخته وتربية والده فلا يمكنه حفظها من صلاح الدين، فلما مات، استدعى الحلبيون عز الدين مسعود بن قطب الدين،صاحب الموصل، فجاء إليهم، فدخل حلب في أبهة عظيمة، وكان يوما مشهودا، وذلك في العشرين من شعبان، فتسلم خزائنها، وحواصلها وما فيها من السلاح، وكان تقي الدين عمر بمدينة منبج، فهرب إلى حماة، فوجد أهلها، قد نادوا بشعار عز الدين صاحب الموصل، وأطمع الحلبيون عز الدين مسعود، في أخذ دمشق، لغيبة صلاح الدين بالديار المصرية، وأعلموه محبة أهل الشام، لهذا البيت الأتابكي نور الدين، فقال لهم: بيننا وبين صلاح الدين، أيمان، وعهود، وأنا لا أغدر به، فأقام بحلب شهورا، وتزوج بأم الملك الصالح، في شوال، ثم سار إلى الرقة، فنزلها، وجاءه رسل أخيه عماد الدين زنكي، يطلب منه، أن يقايضه من حلب، إلى سنجار، وألح في ذلك، وتمنع أخوه، ثم فعل على كره منه، فسلم إليه حلب، وسلمه عماد الدين سنجار، والخابور، والرقة، ونصيبين، وسروج، وغير ذلك من البلاد .

ولما سمع الملك صلاح الدين بهذه الأمور، ركب من الديار المصرية، في عساكره، فسار حتى أتى الفرات، فعبرها، وخامر إليه بعض أمراء صاحب الموصل، فتقهقر عن لقائه، فاستحوذ صلاح الدين على بلاد الجزيرة بكمالها، وهم بمحاصرة الموصل، فلم يتفق له ذلك، ثم جاء إلى حلب، فتسلمها من عماد الدين زنكي لضعفه منه ممانعتها، ولقلة ما ترك فيها عز الدين من الأسلحة، وآلات القتال وذلك في السنة الآتية كما سنذكره.

وفي هذه السنة عزم البرنس صاحب الكرك، على قصد تيماء من أرض الحجاز، ليتوصل منها إلى المدينة النبوية، فجهز له صلاح الدين سرية من دمشق، تكون حاجزة بينه وبين أرض الحجاز، فصده ذلك عن قصده و لله الحمد والمنّة.

وفيها ولى السلطان صلاح الدين أخاه سيف الإسلام ظهير الدين طغتكين بن أيوب نيابة اليمن، فملّكه عليها وأرسله إليها، وذلك لاختلاف نوابها، واضطراب أصحابها، بعد وفاة المعظم تورانشاه أخي السلطان الذي كان افتتحها، فلما وقعت الفتن بها، وكثر التخليط والتخبيط، سَمَت نفس أخيه طغتكين إليها، فأرسله أخوه إليها وولاّه عليها، فسار فوصلها، في سنة ثمان وسبعين، فسار فيها أحسن سيرة، واحتاط على أموال حطان بن منقذ صاحب زبيد، وكانت تقارب زهاء ألف ألف دينار أو أكثر، وأما نائب عدن، فخر الدين عثمان الزنجيلي، فإنه خرج من اليمن، قبل قدوم طغتكين، فسكن الشام، وله أوقاف مشهورة باليمن، ومكة، وإليه تنسب المدرسة الزنجلية، خارج باب توما، تجاه دار الطعم، وكان قد حصل من اليمن أموالا جزيلة جدا.

وفيها غدرت الفرنج، ونقضت عهودها، وقطعوا السبل على المسلمين، برا، وبحرا، وسرا، وجهرا، فأمكن اللّه من بطسة عظيمة، لهم فيها نحو من ألفين وخمسمائة، نفس من رجالهم المعدودين، ألقاها الموج إلى ثغر دمياط، قبل خروج السلطان من مصر، فأحيط بها، فغرق بعضهم، وحصل في الأسر نحو ألف وسبعمائة.

وفيها سار قراقوش إلى بلاد إفريقية، ففتح بلادا كثيرة، وقاتل عسكر ابن عبد المؤمن، صاحب المغرب، واستفحل أمره هناك، وقراقوش مملوك تقي الدين عمر بن أخي السلطان صلاح الدين، ثم عاد إلى مصر، فأمره صلاح الدين أن يتم السور المحيط بالقاهرة، ومصر، وذلك قبل خروجه منها في هذه السنة، وكان ذلك آخر عهده بها، حتى توفاه اللّه عز وجل، بعد أن أراه اللّه بلوغ مناه، قبل حلول الوفاة، فأقرّ عينه من أعداه، وفتح على يده بيت المقدس وما حواه، ولما خيم بارزا، من مصر وأولاده حوله، جعل يشمهم، ويقبلهم، ويضمهم، فأنشد بعضهم في ذلك:

تمتع من شميم عرار نجد فما بعد العشية من عرار

وكان الأمر كما قال، لم يعد إلى مصر بعد هذا العام، بل كان مقامه بالشام.

وفي هذه السنة ولد للسلطان ولدان أحدهما المعظم توران شاه، والملك المحسن أحمد، وكان بين ولادتهما سبعة أيام، فزينت البلاد، واستمر الفرح أربعة عشر يوما.

وممن توفي فيها من الأعيان

الشيخ كمال الدين أبو البركات:

■ عبد الرحمن بن محمد بن أبي السعادات، عبيد اللّه بن محمد بن عبيد

اللّه الأنباري، النحوي، الفقيه، العابد، الزاهد، الناسك الخاشع الورع، كان خشن العيش، ولا يقبل من أحد شيئا، ولا من الخليفة، وكان يحضر نوبة الصوفية، بدار الخلافة، ولا يقبل من جوائز الخليفة ولا فلساً، وكان مثابرا على الاشتغال، وله تصانيف مفيدة، وكانت وفاته في شعبان من هذه السنة رحمه اللّه تعالى.

قال ابن خلكان: له كتاب أسرار العربية، مفيد جدا، وكتاب طبقات النحاة، مفيد جدا، وكتاب الميزان في النحو أيضا، واللّه سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة ثمان وسبعين وخمسمائة

في خامس المحرم، كان بروز السلطان من الديار المصرية، قاصدا بلاد الشام لمناجزة الأعداء والإحسان إلى الأولياء، وكان ذلك آخر عهده بمصر ولم يعد إليها بعد ذلك وقد أغار في طريقه على أطراف بلاد الفرنج، بأرض الكرك، وجعل أخاه تاج الملوك بوري بن أيوب على الميمنة، يسير ناحية عنه ليتمكنوا من بلاد العدو فالتقوا على الأردن بعد سبعة أيام، وقد أغار نائب دمشق عز الدين فرخشاه على بلاد طبرية، وما حولها وافتتح حصونا جيدة، وأسر منهم ألفا، وغنم عشرين ألف رأس من الأنعام بيّض اللّه وجهه.

وكان دخول السلطان إلى دمشق، سابع عشر صفر، ثم خرج منها في العشر الأول من ربيع الأول، فاقتتل مع الفرنج، في نواحي طبرية، وبيسان، تحت حصن كوكب، فقتل خلق من الفريقين، وكانت الدائرة للمسلمين على الفرنج، ورجع مؤيدا منصورا.

ثم ركب السلطان في جحافله وعساكره قاصدا حلب، وبلاد الشرق ليأخذها وذلك أن المواصلة والحلبيين قد كاتبوا الفرنج على حرب المسلمين حتى يغزوا على بعض أطراف البلاد، ليشغلوا الناصر بنفسه عنهم، فكان مسيره على بلاد البقاع ثم إلى حماه ثم إلى حلب، فحاصرها ثلاثا، ثم رأى العدول عنها إلى غيرها أولى، فسار حتى قطع الفرات، واستحوذ على بلاد الجزيرة، والخابور وحران والرها، والرقة، ونصيبين، وغير ذلك وخضعت له الملوك، ثم عاد إلى حلب، فتسلمها من صاحبها عماد الدين زنكي، وقد كان قايض أخاه عز الدين مسعود بها إلى سنجار كما ذكرنا ذلك في السنة الماضية فاستوسقت له الممالك شرقا وغربا، وبعداً وقرباً وتمكن حينئذ من قتال أعدائه من الفرنج لعنهم اللّه وأمكنه اللّه من نواصيهم فله الحمد على ما أولاه.

فصل

ولما عجز إيرنس الكرك، لعنه اللّه عن إيصال الأذى للمسلمين في البر، عمل مراكب في بحر القلزم، ليقطعوا الطريق على الحجاج، والتجار، فوصلت أذيتهم إلى عيذاب، وخاف أهل المدينة النبوية من شرهم، فأمر الملك العادل أبو بكر نائب مصر للأمير حسام الدين لؤلؤا، صاحب الأسطول، أن يعمل مراكبه في بحر القلزم، ليحارب أصحاب إيرنس، ففعل ذلك، فظفروا بهم في كل موطن، فقتلوا منهم، وحرقوا، وغرقوا، وسبوا وقهروا وأسروا في مواطن كثيرة، ومواقف هائلة، وأمن البر والبحر، بإذن اللّه تعالى الذي بيده النفع والضر، وأرسل الناصر إلى أخيه العادل ليشكر ذلك عن مساعيه، وأرسل إلى ديوان الخلافة، يعرفهم بذلك بما أنعم اللّه عليه من الفتوحات براً وبحراً وبما هو متقلّب فيه من أنعم اللّه وإحسانه سراً وجهراً والحمد لله رب العالمين.

فصل في وفاة الملك المنصور عز الدين

■ **فروخشاه بن شاهنشاه بن أيوب** صاحب بعلبك، ونائب دمشق لعمه الناصر صلاح الدين، وهو والد الملك الأمجد بهرام شاه صاحب بعلبك بعد أبيه، وإليه تنسب المدرسة الفرو خشاهية بالشرق الشمالي، بدمشق، وإلى جانبها التربة الأمجدية لولده، وهما وقف على الحنفية، والشافعية، وقد كان فروخ شاه، شجاعا، شهما، عاقلا، ذكيا، ممدحا، امتدحه الشعراء لفضله، وجوده، وكان من أكبر أصحاب الشيخ تاج الدين أبي اليمن الكندي، عرفه من مجلس القاضي الفاضل، له وللعماد الكاتب فيه مدائح بدائع، وله شعر رائق لطيف من ذلك قوله:

أنا في أسر السقام ... من هوى هذا الغلام
رشأ ترشق عينا ... ه فؤادي بسهام
كلما أرشفني فا ... ه على حر الأوام
ذقت منه الشهد في الثلج ... المصفّى مذاقات المدام

وكان ابنه الأمجد شاعرا جيدا، ولاه عم أبيه صلاح الدين بعلبك بعد أبيه، واستمر فيها مدة طويلة، ومن محاسن فرخشاه صحبته لتاج الدين الكندي وقد دخل يوما الحمام، فرأى رجلا كان يعرفه من أصحاب الأموال، وقد نزل به الحال، حتى إنه كان يستتر ببعض يديه، لئلا تبدو عورته، فرق له، وأمر غلامه أن ينقل بقجة، وبساطا إلى موضع الرجل، وأمره فأحضر ألف دينار، وبغلة، وتوقيعا له في كل شهر، بعشرين ديناراً، دخل الرجل الحمام فقيرا، وخرج وهو من أغنى الناس، فرحمة اللّه على الأجواد الجياد.

وممن توفي فيها من الأعيان

الشيخ أبو العباس:

■ **الرفاعي أحمد بن أبي الحسن علي بن أبي العباس أحمد**، المعروف بابن الرفاعي، شيخ الطائفة والأحمدية والرفاعية والبطائحية، لسكناه أم عبيدة، من قرى البطائح، وهي بين البصرة، وواسط، كان أصله من العرب، فسكن هذه البلاد، والتف عليه خلق كثير، ويقال: إنه حفظ التنبيه في الفقه وقد ذكرته في طبقات الشافعية.

قال ابن خلكان: ولأتباعه أحوال عجيبة، من أكل الحيات وهي حية، والدخول في النار في التنانير وهي تضطرم فيطفئونها، ويقال إنهم في بلادهم يركبون الأسود.

وذكر ابن خلكان: أنه قال: وليس للشيخ أحمد عقب، وإنما النسل لأخيه، وذريته يتوارثون المشيخة بتلك البلاد. قال: ومن شعر الشيخ أحمد على ما قيل:

إذا جن ليلي هام قلبي بذكركم ... أنوح كما ناح الحمام المطوق
وفوقي سحاب يمطر الهم والأسى ... وتحتي بحار بالأسى تتدفق
سلوا أم عمرو كيف بات أسيرها ... تفك الأسارى دونه وهو موثق
فلا هو مقتول ففي القتل راحة ... ولا هو ممنون عليه فيُطلق

ومن شعره قوله:

أغار عليها من أبيها وأمها ومن كل من يدنو إليها وينظر
وأحذر للمرآة أيضا بكفها إذا نظرت مثل الذي أنا أنظر

قال: ولم يزل على تلك الحال، إلى أن توفي، يوم الخميس الثاني والعشرين من جمادى الأولى، من هذه السنة رحمه الله تعالى.

■ خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال: أبو القاسم القرطبي، الحافظ، المحدث، المؤرخ، صاحب التصانيف، له كتاب الصلة، جعله ذيلا على تاريخ أبي الوليد بن الفرضي، وله كتاب المستغيثين بالله، وله مجلد في تعيين الأسماء المبهمة في الروايات، على طريق الخطيب، وله أسماء من روى الموطأ، على حروف المعجم، بلغوا ثلاثة وسبعين رجلا، وكانت وفاته في رمضان، عن أربع وثمانين سنة رحمه الله تعالى ورضي عنه.

العلامة قطب الدين أبو المعالي:

■ مسعود بن محمد بن مسعود النيسابوري، تفقه على محمد بن يحيى صاحب الغزالي، قدم دمشق، ودرس بالغزالية، والمجاهدية، وبحلب بمدرسة نور الدين، وأسد الدين، ثم بهمذان، ثم رجع إلى دمشق ودرس بالغزالية، وانتهت إليه رياسة المذهب، ومات بها في سلخ رمضان، يوم العيد، سنة ثمان وسبعين وخمسمائة، عن ثلاث وتسعين سنة، وعنه أخذ الفخر ابن عساكر وغيره وهو الذي صلى على الحافظ ابن عساكر، والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة تسع وسبعين وخمسمائة

في الرابع عشر من محرمها، تسلم السلطان صلاح الدين مدينة آمد، صلحا بعد حصار طويل، من يد صاحبها ابن نيسان، بعدما حمل ما أمكنه من حواصله، وأمواله وأثقاله مدة ثلاثة أيام، ولما تسلم السلطان البلد، وجد فيه شيئا كثيرا من الحواصل، وآلات الحرب، والسلاح حتى إنه وجد برجا، مملوءا بنصول النشاب، وبرجا آخر فيه مائة ألف شمعة، وأشياء يطول شرحها، ووجد فيها خزانة كتب ألف ألف مجلد، وأربعين ألف مجلد، فوهبها كلها للقاضي الفاضل، فانتخب منها حمل سبعين حمارة. ثم وهب السلطان البلد بما فيه لنور الدين محمد بن قرا أرسلان وكان قد وعده بها فقيل له: إن الحواصل لم تدخل في وعدك، فقال: لا أبخل بها عليه، وكان في خزائنها ثلاث آلاف ألف دينار وقد صار من أصحابنا وأنصارنا، فامتدحه الشعراء على هذا الصنيع الحسن الجميل وهو حقيق بالثناء والجزاء الجزيل. ومن أحسن ذلك قول بعضهم في ذلك من جملة قصيدة له في السلطان:

قل للملوك تنحوا عن ممالككم فقد أتى آخذ الدنيا ومعطيها

ثم سار السلطان في بقية المحرم إلى حلب فنازلها وحاصرها، وقاتله أهلها قتالا شديدا، فجرح أخو السلطان تاج الملوك بوري بن أيوب جرحا بليغا، فمات منه بعد أيام، وكان أصغر أولاد أيوب، ولم يبلغ عشرين سنة، وقيل إنه جاوزها بستين، وكان ذكيا فهما، له ديوان شعر لطيف، فحزن عليه أخوه الملك صلاح الدين حزنا شديدا، ودفنه بحلب، ثم نقله إلى دمشق، ثم اتفق الحال بين السلطان، وبين صاحب حلب، عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي آق سنقر، على عوض أطلقه له الناصر، بأن يرد عليه سنجار، ويسلمه حلب، فخرج عماد الدين زنكي، وجاء، إلى خدمة الناصر، وعزاه في أخيه، ونزل عنده في المخيم، ونقل أثقاله إلى سنجار، وزاده السلطان الخابور، والرقة، ونصيبين، وسروج، واشترط عليه إرسال العسكر في الخدمة، لأجل الغزاة في الفرنج، ثم سار، وودعه السلطان، ومكث السلطان في المخيم، أياما، غير مكترث بحلب، ولا مستكثر لها ولا بها، ثم صعد إلى قلعتها، يوم الاثنين، السابع عشر من صفر، وعمل له الأمير طمان وليمة عظيمة، وكان يوماً مشهوداً مشهوراً فسمعه بعضهم وهو داخل يتلو هذه الآية: ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ﴾ [آل عمران: ٢٦]. ولما دخل دار الملك تلا قوله تعالى: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٧] الآية. ولما دخل مقام إبراهيم صلى فيه ركعتين، وأطال السجود به، والدعاء، والتضرع إلى الله، ثم شرع في عمل وليمة عظيمة، وقد ضربت البشائر، وخلع على الأمراء، وأحسن إلى الرؤساء والفقراء، وألقت الحرب أوزارها وقضت القلوب أوطارها.

وألقت عصاها واستقرّ بها كما قرّ عيناً بالإياب المسافر

وقد امتدحه الشعراء عند فتح حلب بمدائح حسان. ثم إن القلعة وقعت منه بموقع عظيم، ثم قال: ما سررت بفتح قلعة أعظم سرورا من فتح مدينة حلب، وأسقط عنها، وعن سائر بلاد الجزيرة، المكوس، والضرائب، وكذلك عن بلاد الشام، ومصر.

وقد عاث الفرنج في غيبته في الأرض فسادا، فأرسل إلى عساكره، فاجتمعوا إليه، وكان قد بشر بفتح بيت المقدس، حين فتح حلب، وذلك أن الفقيه مجد الدين بن جهبل الشافعي، رأى في تفسير أبي الحكم بن بَرجَان المغربي، عند قوله: ﴿الٓمٓ غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ [الروم: ١] الآية، البشارة بفتح بيت المقدس، في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، واستدل على ذلك بأشياء، فكتب ذلك في ورقة، وأعطاها للفقيه عيسى الهكاري، ليبشر بها السلطان، فلم يتجاسر على ذلك، خوفا من عدم المطابقة، فأعلم بذلك القاضي محيي الدين بن الزكي، فنظم معناها في قصيدة، يقول فيها:

وفتحكم حلب الشهباء في صفر قضى لكم بافتتاح القدس في رجب

وقدمها السلطان، فقويت همته إلى ذلك، فلما افتتحها كما سيأتي أمر القاضي، فخطب يومئذ، وكان يوم الجمعة، ثم بلغه بعد ذلك أن ابن جهبل هو الذي اطلّع على ذلك أولا، فأمره فدرس على نفس الصخرة درسا عظيما، فأجزل له العطاء، وأحسن عليه الثناء.

فصل

ثم رحل السلطان من حلب، في أواخر ربيع الآخر، بجيوشه وعساكره وقد جعل فيها ولده الظاهر غازي، وولى قضاءها لمحيي الدين بن الزكي، فاستناب له فيها نائبا، وسار مع السلطان، في خدمته فاجتاز بحماه ثم بحمص ثم على بعلبك ثم دخل دمشق، في ثالث جمادى الأولى، وكان ذلك يوما مشهودا، ثم برز منها خارجا إلى قتال الفرنج، في أول جمادى الآخرة في جحافله، قاصدا نحو القدس الشريف، فانتهى إلى بيسان، فنهبها، ونزل على عين جالوت، وأرسل بين يديه سرية هائلة، فيها جرديك، وطائفة من النورية، وجاء مملوك عمه أسد الدين، فوجدوا جيش الكرك من الفرنج قاصدين إلى أصحابهم نجدة لهم، فالتقوا معهم، فقتلوا من الفرنج خلقا كثيراً، وأسروا مائة أسير، ولم يفقد من المسلمين سوى شخص واحد، ثم عاد في آخر ذلك اليوم، وبلغ السلطان أن الفرنج قد اجتمعوا لقتاله،

فقصدهم، وتصدى لهم لعلهم يصافونه، فنكلوا عنه، فقتل منهم خلقا كثيرا، من أطرافهم وجرح مثلهم، فرجعوا ناكصين على أعقابهم، خائفين منه غاية المخافة، لكثرة جيشه وهو خلفهم، يقتل، ويأسر، حتى غرّروا في بلادهم، فرجع عنهم مؤيداً منصوراً، وكتب القاضي الفاضل إلى الخليفة، يعلمه بما من الله عليه، وعلى المسلمين من نصرة الدين، وكان لا يفعل شيئا، ولا يريد أن يفعله إلا أطلع عليه الخليفة، أدبا، واحتراما، وطاعة، واحتشاما.

فصل

وفي رجب، سار السلطان إلى الكرك، فحاصرها، وفي صحبته تقي الدين عمر بن أخيه، وقد كتب إلى أخيه العادل أبي بكر ليحضر إليه ليوليه حلب، وأعمالها، وفق ما كان طلبه منه، واستمر الحصار على الكرك، مدة شهر رجب، فلم يظفر منها بطلب، وبلغه أن الفرنج قد اجتمعوا كلهم، ليمنعوا منه الكرك فكر راجعا إلى دمشق ليلقاهم وذلك من أكبر همته وأعظم طلبه، وأرسل ابن أخيه تقي الدين عمر إلى مصر نائبا، وفي صحبته القاضي الفاضل، وبعث أخاه على مملكة حلب وأعمالها، واستقدم ولده الظاهر إليه، وكذلك نوابه ومن يعز عليه، وإنما أعطى السلطان أخاه العادل حلب ليكون قريبا منه، فإنه كان لا يقطع أمرا دون مشورته، واقترض الناصر من أخيه أبي بكر العادل مائة الف دينار، وتألم الظاهر بن الناصر على مفارقة حلب، وكانت إقامته الاولى بها ستة أشهر، ولكن لا يقدر أن يظهر ما في نفسه لوالده لكن يظهر ذلك، على صفحات وجهه، وفلتات لسانه.

ثم دخلت سنة ثمانين وخمسمائة

في هذه السنة أرسل الناصر إلى العساكر الحلبية، والجزرية، والمصرية، أن يقدموا عليه، لقتال الفرنج، فقدم عليه تقي الدين عمر من مصر، ومعه القاضي الفاضل، وجاء من حلب أبو بكر العادل، وقدمت ملوك الجزيرة، وسنجار، وغيرها، وتلك النواحي والأقطار وأخذهم كلهم مع جيشه فسار إلى الكرك، فأحدقوا بها، في رابع عشر جمادى الأولى، وركب عليها المجانيق، وكانت تسعة، وأخذ في حصارها، وذلك أنه رأى أن فتحها أنفع للمسلمين من غيرها، فإن أهلها يقطعون الطريق على الحجيج والتجار في البراري والبحار، فبينما هو كذلك، إذ بلغه أن الفرنج قد اجتمعوا له كلهم، فارسهم، وراجلهم، ليمنعوا منه الكرك، فانشمر عنها، وقصدهم فنزل على حسبان تجاههم، ثم صار إلى ماء عين، فانهزمت الفرنج، قاصدين الكرك، فأرسل وراءهم من قتل منهم مقتلة عظيمة، وأمر السلطان الجيوش بالإغارة على السواحل، فحلوها من المقاتلة، فنهبت نابلس، وما حولها من القرايا والرساتيق، ثم عاد السلطان إلى دمشق، فأذن للعساكر في الانصراف إلى بلدانهم الشتى، وأمر ابن أخيه تقي الدين عمر، الملك المظفر، أن يعود إلى مصر بعسكره، وكذلك أخاه العادل أن يعود إلى الشهباء، وأقام السلطان بدمشق، ليؤدي فرض الصيام، ولتجمّ الخيل، ويجد الحسام، وقدمت على السلطان خلع الخليفة، فلبسها، وألبس أخاه العادل، وابن عمه ناصر الدين محمد بن شيركوه، ثم خلع السلطان خلعته على ناصر الدين بن قرا أرسلان، صاحب حصن كيفا، وخرتبرت وآمد، التي أطلقها له السلطان.

وفي هذه السنة مات ابن عمه صاحب ماردين وميافارقين وتلك الأعمال وهو قطب الدين إيلغازي بن ألبي بن تمرتاش بن إيلغازي بن أرتق فقام في الملك بعده ولده وله من العمر عشر سنين.

وفيها مات صاحب المغرب، يوسف بن عبد المؤمن بن علي، وقام في الملك بعده ولده يعقوب.

وفي أواخرها بلغ السلطان صلاح الدين أن صاحب الموصل نازل إربل، فبعث صاحبها يستصرخ بالسلطان، فركب من فوره إليه، في جنوده وعساكره فسار إلى بعلبك، ثم إلى حمص ثم إلى حماه، فأقام بها أياما ينتظر وصول العماد الكاتب إليه، وذلك لأنه حصل له ضعف، فأقام ببعلبك، ريثما استبلّ من مرضه وقد أرسل إليه القاضي الفاضل، من دمشق طبيبا، يقال له أسعد بن إلياس المطران، فعالجه معالجة من طب لمن حب.

ثم دخلت سنة إحدى وثمانين وخمسمائة

استهلت هذه السنة والسلطان مخيم بظاهر حماة، ثم سار إلى حلب، وتلقاه أخوه العادل واجتمعت إليه العساكر فخرج منها في صفر قاصدا الموصل فقطع الفرات، وجاء إلى حران، فقبض على صاحبها مظفر الدين بن زين الدين، وهو أخو زين الدين صاحب إربل، ثم رضي عنه، وأعاده إلى مملكته، حتى يتبين خبث طويته، ثم سار منها إلى الموصل، فتلقاه الملوك من كل ناحية، وجاء إلى خدمته عماد الدين أبو بكر بن قرا أرسلان، فطلب دستوراً ليأخذ مملكته فأعطاه وسار السلطان، فنزل على الإسماعيليات، قريبا من الموصل، وجاءه صاحب إربل زين الدين، الذي خضعت له ملوك تلك الناحية، ثم أرسل صلاح الدين ضياء الدين بن كمال الدين الشهرزوري إلى الخليفة يعلمه بما عزم عليه من حصار الموصل وإنما مقصوده ردهم إلى طاعة الخليفة، ونصرة الإسلام، فحاصرها مدة، ثم رحل عنها في أواخر ربيع الأول، ولم يفتحها، وسار إلى خلاط، واستحوذ على بلدان كثيرة، وأقاليم جمة، ببلاد الجزيرة، وديار بكر، وجرت أمور كثيرة قد استقصاها ابن الأثير في الكامل [٥١٥/١١]، وصاحب الروضتين [٦١/٢]، ثم وقع الصلح بينه وبين المواصلة، على أن يكونوا من جنده، إذا ندبهم لقتال الفرنج، وعلى أن يخطب له، وتضرب السكة باسمه، ففعل ذلك في تلك البلاد كلها، وانقطعت خطبة السلاجقة، والأزيقية، بتلك البلاد كلها واتفق الحال وزال الإشكال.

ثم اتفق أنه مرض السلطان بعد ذلك مرضا شديدا، فكان يتجلد، ولا يظهر شيئا من الألم، حتى قوي عليه الأمر، وتزايد الحال، حتى وصل إلى حران، فخيم هنالك من شدة ألمه، وشاع ذلك في البلاد، وخاف الناس عليه، وأرجف الكفرة والملحدون وخاف أهل البر والمؤمنون، وقصده أخوه أبو بكر العادل من حلب، بالأطباء والأدوية، فوجده في غاية الضعف، وأشار عليه بأن يوصي ويعهد، فقال: ما أبالي، وأنا أترك من بعدي أبا بكر وعمر وعثمان وعليا يعني أخاه العادل، صاحب حلب وتقي الدين عمر، صاحب حماة، وهو إذ ذاك نائب مصر، وهو بها مقيم وابنيه العزيز عثمان، والأفضل عليا ثم نذر لئن شفاه الله من مرضه هذا، ليصرفن همته كلها إلى قتال الفرنج، ولا يقاتل بعد ذلك مسلما، وليجعلن أكبر همه فتح بيت المقدس، ولو صرف في سبيل ذلك جميع ما يملكه، من الأموال، والذخائر، وليقتلن البرنس صاحب الكرك بيده، لأنه نقض العهد، الذي عاهد السلطان عليه فغدر بقافلة من تجار مصر، فأخذ أموالهم، وضرب رقابهم،

صبراً بين يديه وهو يقول: أين محمدكم ينصركم؟ وكان هذا النذر كله، بإشارة القاضي الفاضل، رحمه الله وهو أرشده إليه، وحثه عليه، حتى عقده مع الله عز وجل، فعند ذلك شفاه الله وعافاه من ذلك المرض الذي كان فيه كفارة لذنوبه ورفع لدرجته ونصرة للإسلام وأهله، وجاءت البشارات بذلك من كل ناحية، فدقت البشائر، وزينت البلاد.

وكتب الفاضل من دمشق، وهو مقيم بها، إلى المظفر تقي الدين عمر، أن العافية الناصرية، قد استقامت، واستفاضت أخبارها، وطلعت بعد الظلمة أنوارها، وظهرت بعد الاختفاء آثارها، وولت العلة، ولله الحمد والمنة، وطفئت نارها، وانجلى غبارها، وخمد شرارها، وما كانت إلا فتنة، وقى الله شرها، وعظيمة كفى الله الإسلام أمرها، وتورية امتحن الله بها نفوسنا، فرأى أقل ما عندها صبرها، وما كان الله ليضيع الدعاء، وقد أخلصته القلوب، ولا ليوقف الإجابة، وإن سدت طريقها الذنوب، ولا ليخلف وعد فرج، وقد أيس الصاحب والمصحوب.

نعمي زاد فيه الدهر ميما ... فأصبح بعد بؤساه نعيما
وما صدق النذير به لأني ... رأيت الشمس تطلع والنجوما

وقد استقبل مولانا السلطان الملك الناصر العافية غضة جديدة، والعزمة ماضية حديدة، والنشاط إلى الجهاد، والتوبة لرب العباد، والجنة مبسوطة البساط، وقد انقضى الحساب، وجزنا الصراط، وعرضنا نحن على الأهوال، التي من خوفها، كاد الجمل يلج في سمّ الخياط.

ثم ركب السلطان من حران، بعد العافية، فدخل حلب، ثم اجتاز بحماة وحمص ودخل إلى دمشق، وقد تكاملت عافيته، وقد كان يوم دخوله إليها يوما مشهودا وصباحاً محموداً ولله المنة.

وممن توفي في هذه السنة من الأعيان

الفقيه مهذب الدين:

■ عبد الله بن أسعد الموصلي: مدرس حمص، وكان بارعا في فنون، ولا سيما في الشعر والأدب، وقد أثنى عليه العماد، والشيخ شهاب الدين أبو شامة.

الأمير ناصر الدين

■ محمد بن أسد الدين شيركوه: صاحب حمص، والرحبة، وهو ابن عم السلطان صلاح الدين، وزوج أخته ست الشام بنت أيوب، توفي بحمص، فنقلته زوجته ستُّ الشام إلى تربتها، بالمدرسة الشامية البرانية، فقبره هو الأوسط، بينها وبين أخيها المعظم توران شاه صاحب اليمن، وقد خلف ناصر الدين محمد من الأموال، والذخائر شيئا كثيرا، ينيف على ألف ألف دينار، وكانت وفاته يوم عرفة فجأة فولى من بعده مملكة حمص ولده أسد الدين شيركوه بأمر صلاح الدين أيده الله تعالى.

■ محمود بن أحمد بن علي بن إسماعيل بن عبد الرحمن الشيخ جمال الدين أبو الثناء المحمودي بن الصابوني، لأن جد أمّه الشيخ أبو عثمان الصابوني، كان أحد الأئمة المشاهير، وإنما يقال له المحمودي لصحبة جده السلطان محمود بن محمد بن ملكشاة، فقدم الشيخ جمال الدين هذا الشام في أيام نور الدين محمود بن زنكي فأكرمه واحترمه، ثم سار إلى مصر، فنزلها، وكان صلاح الدين يكرمه أيضاً، وأوقف عليه وعلى ذريته أرضا، فهي لهم إلى الآن.

الأمير الكبير سعد الدين

■ مسعود بن معين الدين، كان من الأمراء الكبار، أيام نور الدين، وصلاح الدين، وهو أخو الست خاتون، وحين تزوجها صلاح الدين، زوّجه أخته، الست ربيعة خاتون بنت أيوب، التي تنسب إليها المدرسة الصلاحية، بالسفح على الحنابلة، وقد تأخرت مدتها، فتوفيت في سنة ثلاث وأربعين وستمائة، فكانت آخر من يقي من أولاد أيوب لصلبه، وكانت وفاته بدمشق، في جمادى الآخرة، من جرح أصابه وهو في حصار ميافارقين.

■ الست خاتون عصمة الدين: بنت معين الدين، نائب دمشق، وأتابك عساكرها، قبل نور الدين، كما تقدم، وقد كانت زوجة نور الدين رحمه الله، ثم خلف عليها من بعده صلاح الدين، في سنة اثنتين وسبعين وخمسمائة، وكانت من أحسن النساء، وأعفهن، وأكثرهن صدقة، وهي واقفة الخاتونية الجوانية بمحلة حجر الذهب، وخانقاه خاتون ظاهر باب النصر في أول الشرف القبلي على بانياس، ودفنت بتربتها، في سفح قاسيون، قريبا من قباب السركسية، وإلى جنبها دار الحديث الأشرفية والأتابكية، ولها أوقاف كثيرة غير ذلك، وأما الخاتونية البرانية، التي على القنوات، بمحلة صنعاء الشام، ويعرف ذلك المكان التي هي فيه، بتل الثعالب، فهي من إنشاء الست زمرد خاتون بنت جاولي، وهي أخت الملك دقاق لأمه، وكانت زوجة زنكي والد نور الدين محمود، صاحب حلب، وقد ماتت قبل هذا الحين، كما تقدم، رحمها الله تعالى.

الحافظ الكبير

■ أبو موسى المديني: محمد بن عمر أحمد الأصبهاني الحافظ، أبو موسى، المديني، أحد حفاظ الدنيا الرحالين الجوالين، له مصنفات عديدة، وشرح أحاديث كثيرة، رحمه الله تعالى.

أبو القاسم: وأبو زيد

■ عبد الرحمن بن الخطيب أبي محمد عبد الله بن الخطيب أبي عمر أحمد بن أبي الحسن بن أصبغ بن حسين بن سعدون بن رضوان بن فتوح هو الداخل إلى الأندلس الخثعمي السهيلي.

حكى القاضي ابن خلكان عن ابن دحية، أنه أملى عليه نسبه كذلك، قال ابن خلكان: والسهيلي نسبة إلى قرية، بالقرب من مالقة، اسمها سهيل، لأنه لا يرى سهيل النجم في شيء من تلك البلاد، إلا من رأس جبل شاهق عندها، وهي من قرى المغرب، ولد السهيلي سنة ثمان وخمسمائة، وقرأ القراءات، واشتغل، وحصل حتى برع، وساد أهل زمانه، بقوة القريحة، وجودة الذهن، وحسن التصانيف، وذلك من فضل الله تعالى ورحمته، وكان ضريرا مع ذلك، له كتاب الروض الأنف يذكر فيه نكتا حسنة على السيرة لم يسبق إلى أشياء كثيرة منها، وله كتاب الإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء الأعلام، وله كتاب نتائج الفكر، ومسألة في الفرائض بديعة، ومسألة في السر في كون الدجال أعور، وأشياء فريدة كثيرة بديعة مفيدة، وله أشعار حسنة، وكان عفيفا فقيرا، وقد حصل له مال كثير، في آخر عمره من صاحب مراكش، وكانت وفاته في هذه السنة يوم الخميس، السادس والعشرين من شعبان، وله قصيدة كان يدعو الله بها، ويرتجي الإجابة ببركتها وهي قوله:

يا من يرى ما في الضمير ويسمع ... أنت المعد لكل ما يتوقع
يا من يرجّى للشدائد كلها ... يا من إليه المشتكى والمفزع
يا من خزائن رزقه في قول كن ... امنن فإن الخير عندك أجمع

ما لي سوى فقري إليك وسيلة ... فبالافتقار إليك فقري أدفع
ما لي سوى قرعي لبابك حيلة ... فلئن رددت فأي باب أقرع؟
ومن ذا الذي أدعو وأهتف باسمه ... إن كان فضلك عن فقيرك يمنع؟
حاشا لمجدك أن يُقنِّطَ عاصياً ... الفضل أجزل والمواهب أوسع

ثم دخلت سنة ثنتين وثمانين وخمسمائة

في ثاني ربيع الأول منها، كان دخول السلطان صلاح الدين إلى دمشق بعد عافيته، وكان يوماً مشهوداً كما جرت بمثل ذلك عادات الملوك واجتمع بالقاضي الفاضل وزاره واستناره وفاوضه، واستشاره، وكان لا يقطع أمرا دونه ولا يخفى، عنه مكنونه ولا ضميره ومضمونه ثم السلطان في ملك دمشق، ولده الأفضل علياً، ونزل العادل أبو بكر عن حلب لصهره زوج ابنته الملك الظاهر غازي بن الناصر، وأرسل السلطان أخاه العادل صحبة ولده عماد الدين عثمان، الملك العزيز، على ملك مصر، ويكون الملك العادل أتابكه، وله أقطاع عظيمة جدا، وعزل عن نيابتها تقي الدين عمر، فعزم على الدخول إلى إفريقية، فلم يزل الناصر يكاتبه ويتلطف به، ويترفق له، حتى أقبل بجنوده نحوه، فأكرمه، واحترمه وعظمه، وأقطعه حماة، وبلادا كثيرة معها، وقد كانت له قبل ذلك، بسنين وزاده وزاد له على ذلك مدينة ميافارقين، وامتدحه العماد الكاتب بقصيدة سينية سينة مذكورة في الروضتين [٧١/٢].

وفيها هادن قومص طرابلس السلطان، وصالحه، وصافاه، حتى كان يقاتل ملوك الفرنج أشد القتال، وسبى منهم النساء والأطفال، وكاد أن يسلم، ولكن صده شيطانه ورماه بالخبال، وكانت مصالحة القومص من أقوى أسباب نصرة السلطان على الفرنج، ومن أشد ما دخل عليهم في دينهم ودنياهم.

قال العماد الكاتب: وكان المنجمون في جميع البلاد يحكمون بخراب العالم في شعبان عند اجتماع الكواكب الستة في الميزان، بطوفان الريح، في سائر البلدان، وذكر أن ناسا من الجهلة، تأهبوا لذلك، بحفر مغارات في الجبال، ومدخلات، وأسراب في الأرض، خوفا من ذلك.

قال العماد: فلما كانت تلك الليلة، التي أشاروا إليها، وأجمعوا عليها، لم ير ليلة مثلها، في كودها وركونها، وهدوئها وهدونها ذلك غير واحد من الناس، في سائر أقطار الأرض، وقد نظم الشعراء في تكذيب المنجمين في هذه الواقعة، وغيرها، أشعارا كثيرة حسنة فمن ذلك قول عيسى بن مودود:

مزق التقويم والزيـ ... ـج فقد بان الخفاء
إنما التقويم والزيـ ... ـج هباء وهواء
قلت للسبعة إبرا ... م ومنع وعطاء
ومتى يتزن في الميـ ... ـزان يستولي الهواء
ويثير الرمل حتى ... يتلقى منه الفضاء
ويعم الأرض خسف ... وخراب وبلاء
ويصير القاع كالقـ ... ـف وكالطود العراء
وحكمتم فأبى الحكـ ... ـم إلا ما يشاء
ما أتى الشرع ولا جا ... ءت بهذا الأنبياء
فبقيتم ضحكة يضـ ... ـحك منها العلماء
حسبكم خزياً وعاراً ... ما يقول الشعراء
ثم ما أطمعكم في الـ ... ـحكم إلا الأمراء
ليت إذ لم يحسنوا في الـ ... ـدين ظناً ما أساءوا
فعلى اصطرلاب بطليـ ... ـموس والزيج العفاء
وعليه الخزي ما جا ... ءت على الأرض السماء

وممن توفي في هذه السنة من المشاهير

أبو محمد

■ **عبد الله بن أبي الوحش: بري بن عبد الجبار بن بري المقدسي، ثم المصري**، أحد أئمة اللغة، والنحو، في زمانه، وعليه كانت تعرض الرسائل، بعد ابن بابشاذ، وكان كثير الاطلاع، عالما بهذا الشأن، مطرحا للتكلُّف في كلامه، لا يلتفت، ولا يعرج على الإعراب فيه إذا خاطب الناس، وله التصانيف المفيدة، توفي وقد جاوز الثمانين بثلاث سنين، رحمه الله تعالى، والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة

فيها كانت وقعة حطين، التي كانت أمارة، ومقدمة، وبشارة، لفتح بيت المقدس، على المؤمنين واستنقاذه من أيدي الكافرين.

قال ابن الأثير: في الكامل [٥٣٤/١١] كان أول يوم منها يوم السبت، وكان يوم النيروز، وذلك أول سنة الفرس، واتفق أن ذلك كان أول سنة الروم أيضاً، وهو اليوم الذي نزلت فيه الشمس برج الحمل، وكذلك كان القمر في برج الحمل أيضا.

قال وهذا شيء يبعد وقوع مثله.

وبرز السلطان من دمشق يوم السبت، مستهل محرم، وقيل: في أثنائه في جيشه، فسار إلى رأس الماء، فنزل ولده الأفضل هناك، في طائفة من الجيش، وتقدم السلطان ببقية الجيش إلى بصرى، فخيم على قصر أبي سلامة، ينتظر قدوم الحجاج، وفيهم أخته ست الشام، وابنها حسام الدين محمد بن عمر بن عمر بن لاجين، ليسلموا من معرة إيرنس الكرك،الذي غدر ونقض العهد وفجر فلما اجتاز الحجيج سالمين، سار السلطان، فنزل الكرك، وقطع ما حوله من الأشجار، ورعى الزرع، وأكلوا الثمار، وجاءت العساكر المصرية، وتوافت الجيوش الشرقية بالرماح الخطية والسيوف المشرقية، فنزلوا عند ابن السلطان على رأس الماء، وبعث الأفضل سرية نحو بلاد الفرنج، فقتلت، وغنمت، وسلمت، وكسرت وأسرت ورجعت، فبشر بمقدمات الفتح، والنصر، وجاء السلطان بجحافله، فالتفت عليه جميع العساكر البادي منهم والحاضر رتَّب الجيوش والأطلاب، فرتب الجيوش، وسار قاصدا بلاد الساحل، وكان جملة من معه من المقاتلة، اثنى عشر ألفا غير المطوِّعة، فتسامعت الفرنج بقدومه، فاجتمعوا كلهم، وتصالحوا فيما بينهم، ودخل معهم قومص أطرابلس الغادر وإيرنس الكرك الفاجر، وجاؤوا بقضهم وقضيضهم وأهل أوجهم وحضيضهم واستصحبوا معهم صليب الصلبوت، يحمله منهم عباد الطاغوت، وضلال الناسوت واللاهوت، في

خلق لا يعلم عددهم إلا الله عز وجل، يقال كانوا خمسين ألفا، وقيل ثلاثا وستين ألفا، وقد خوفهم صاحب طرابلس بأس المسلمين، فاعترض عليه البرنس صاحب الكرك، فقال له: لا أشك أنك تحب المسلمين، وتخوفنا كثرتهم، والنار لا تخاف من كثرة الحطب. فقال القومص لهم: ما أنا إلا منكم، وسترون غب ما أقول لك. فتقدموا نحو المسلمين، وأقبل السلطان، ففتح طبرية، وتقوى بما فيها من الأطعمة، والأمتعة، وغير ذلك، وتحصنت عنه القلعة، فلم يعبأ بها، وحاز البحيرة في حوزته، ومنع الله الكفرة أن يصلوا منها إلى قطرة، حتى صاروا في عطش عظيم فبرز السلطان، إلى سطح الجبل الغربي، من طبرية، عند قرية يقال لها حطين، التي يقال إن فيها قبر شعيب عليه الصلاة والسلام، وجاء العدو المخذول، وكان فيهم صاحب عكا، وكفرنكا، وصاحب الناصرة، وصاحب صور، وغير ذلك من جميع ملوكهم، فتواجه الفريقان، وتقابل الجيشان، وأسفر وجه الإيمان، واغبر وأقتم وأظلم وجه الكفر والطغيان، ودارت دائرة السوء، على عبدة الصلبان، وذلك عشية يوم الجمعة، فبات الناس على مصافهم، وأسفر الصباح عن يوم السبت، الذي كان يوما عسيرا، على أهل يوم الأحد، وذلك لخمس بقين من ربيع الآخر في شدة الحر، فطلعت الشمس على وجوه النصارى، وهم من شدة الحر سُكارى وما هم بسكارى، وكان تحت أقدام خيولهم هشيم حشيش. فأمر السلطان النفاطة، أن يرموه بالنفط، فرموه، فتأجج نارا، تحت سنابك خيولهم، فاجتمع عليهم حر الشمس، وحر العطش، وحر النار، وحر السلاح، وحر رشق النبال، وتبارز الشجعان في حومة الوغى، ثم أمر السلطان بالتكبير، والحملة الصادقة، فحملوا، وكان النصر من الله عز وجل، فمنحهم الله أكتاف الكفرة المفجرة، فقتل منهم ثلاثون ألفا، في ذلك اليوم، وأسر ثلاثون ألفا من شجعانهم، وفرسانهم، وكان في جملة من أسر جميع ملوكهم، سوى قومص طرابلس، فإنه انهزم في أول المعركة، واستلبهم السلطان صليبهم الأعظم، وهو الذين يزعمون أنه الذي صلب عليه المصلوب، وقد غلفوه بالذهب، واللآلئ، والجواهر النفيسة، وكان يوماً على الكافرين عسيراً ولم يسمع بمثل هذا اليوم في عز الإسلام وأهله، ودمغ الباطل وأهله، حتى ذكر أن بعض الفلاحين رآه بعضهم وهو يقود نيفا وثلاثين أسيرا من الفرنج، وقد ربطهم بطنب خيمة، وباع بعضهم أسيرا، بنعل ليلبسها في رجله، وجرت أمور لم يسمع بمثلها، ولا وقعت العيون على شكلها إلا في زمن الصحابة والتابعين، فلله الحمد دائماً، أبداً، حمداً كثيراً طيباً.

ولما تمت هذه الوقعة العظيمة والنعمة العميقة الجسيمة، أمر السلطان بضرب مخيم عظيم، وجلس فيه على سرير المملكة، وعن يمينه أسرة، وعن يساره مثلها، وجيء بالأسارى تتهادى في قيودها، فضربت أعناق جماعة من مقدمي الداوية والإسبتارية بين يديه صبرا، ولم يترك منهم، ممن كان يذكر الناس عنه شرا، ثم جيء بملوكهم، فأجلسوا عن يمينه، ويساره، على مراتبهم، فأجلس ملكهم الكبير عن يمينه، وتحته أرناط إبرنس الكرك، قبّحه الله تعالى وبين يديه بقية الملوك وعن يساره، فجيء السلطان بشراب مثلوج، من الجلاب، فشرب، ثم ناول الملك، فشرب، ثم ناول ملكهم أرناط فشرب، صاحب الكرك، فغضب السلطان، وقال له: إنما ناولتك، ولم آذن لك أن تسقيه، هذا لا عهد له عندي، ثم تحول السلطان إلى خيمة، داخل تلك الخيمة، واستدعى أرناط صاحب الكرك، فلما أوقف بين يديه، قام إليه بالسيف، فقال له: نعم، أنا أنوب عن رسول الله ﷺ، في الانتصار لأمته. ثم دعاه إلى الإسلام فامتنع فقتله، وأرسل برأسه إلى الملوك، وهم في الخيمة، وقال: إن هذا تعرض لسب رسول الله ﷺ. فقتلته ثم قتل السلطان جميع من كان من الأسارى من الداوية والإستبارية صبرا، وأراح المسلمين من هذين الجنسين الخبيثين و لله الحمد، ولم يسلم ممن عرض عليه الإسلام إلا القليل، فيقال إنه بلغت القتلى ثلاثين ألفا، والأسارى كذلك كانوا ثلاثين ألفا، وكان جملة جيشهم ثلاثة وستين ألفا، وكان ممن سلم منهم مع قلتهم أكثرهم جرحى، فماتوا ببلادهم، وممن مات كذلك، قومس طرابلس، فإنه انهزم جريحا، فمات بها، بعد مرجعه، ثم أرسل السلطان برؤوس أعيان الفرنج، ومن لم يقتل من رؤوسهم، وبصليب الصلبوت، صحبة القاضي ابن أبي عصرون، إلى دمشق، ليودعوا في قلعتها، فدخل بالصليب منكوسا، وكان يوما مشهودا و لله الحمد والمنة.

ثم سار السلطان إلى قلعة طبرية، فأخذها، وقد كانت طبرية تقاسم بلاد حوران، والبلقاء، وما حولها من الجولان، وتلك الأراضي كلها بالنصف، فأراح الله المسلمين من تلك المقاسمة، وتوفرت عليهم ثم سار السلطان إلى حطين، فزار قبر شعيب، ثم ارتفع منه إلى إقليم الأردن، فتسلم تلك البلاد كلها، وهي قرى كثيرة، كبار وصغار، ثم سار إلى عكا، فنزل عليها يوم الأربعاء، سلخ ربيع الآخر، ففتحها صلحا، يوم الجمعة، وأخذ ما كان بها من حواصل الملوك، وأموالهم، وذخائرهم، ومتاجر، وغيرها، واستنقذ من كان بها من أسرى المسلمين، فوجد فيها أربعة آلاف أسير، ففرج الله عنهم و لله الحمد. وأمر بإقامة الجمعة بها، فكانت أول جمعة أقيمت بالساحل، بعد أخذه الفرنج، من سبعين سنة.

ثم سار منها إلى صيدا، وبيروت، وتلك النواحي من الساحل، يأخذها بلدا بلدا، لخلوها من المقاتلة، والملوك، ثم رجع سائرا نحو غزة، وعسقلان، ونابلس، وبيسان، وأراضي الغور، فملك ذلك كله بحول الله وقوته، واستاب على نابلس ابن اخته حسام الدين عمر بن محمد بن لاجين، وهو الذي افتتحها، وكان جملة ما افتتحه السلطان، في هذه المدة القريبة، خمسين بلدا، كل بلد له مقاتلة، وقلعة، ومنعة فلله الحمد.

وغنم الجيش والمسلمون، من هذه الأماكن، شيئا كثيرا، وسبوا شيئاً كبيراً لا يُحدُّ ولا يُوصف، واستبشر الإسلام وأهله شرقاً وغرباً بهذا النصر العظيم والفتوحات الهائلة.

ثم إن السلطان، أمر جيوشه أن ترتع في هذه الأماكن، مدة شهور، ليستريحوا، ويُجمُّوا أنفسهم، وخيولهم، ليتأهبوا لفتح بيت المقدس، وطار في الناس أن السلطان عزم على فتح بيت المقدس، فقصده العلماء، والصالحون، تطوعا، وجاؤوا إليه من كل فج عميق، ووصل أخوه العادل، بعد وقعة حطين، وفتح عكا، ففتح بنفسه بلاداً كثيرة، فاجتمع من عباد الله، ومن الجيوش المتطوعة، خلق كثير وجم غفير، فعند ذلك، قصد السلطان، بمن معه كما سيأتي بيانه.

وقد امتدحه الشعراء، بسبب وقعة حطين، فقالوا، وأكثروا، وأطابوا وأطنبوا وكتب إليه القاضي الفاضل، - من دمشق وهو مقيم بها لمرض اعتراه - ليهن المولى، أن الله قد أقام به الدين القيم، وأنه كما قيل: أصبحت مولاي ومولى كل مسلم. وأنه قد أسبغ عليه النعمتين، الباطنة والظاهرة، وأورثه المُلكين؛ ملك الدنيا وملك الآخرة كتب المملوك الخدمة والرؤوس إلى الآن لم ترفع من سجودها، والدموع لم تمسح من خدودها، وكلما فكّر المملوك أن البيع تعود وهي مساجد، والمكان الذي كان يقال فيه، إن الله ثالث ثلاثة، يقال فيه إله واحد، جدد لله شكرا، تارة يفيض من لسانه، وتارة يفيض من أجفانه، سرورا بتوحيد الله تعالى الملك الحق

المبين، وأن يقال محمد رسول اللّه، الصادق الوعد الأمين، وجزى اللّه يوسف خيرا، عن إخراجه من سجنه، والمماليك ينتظرون أمر المولى، وكل من أراد أن يدخل الحمام بدمشق، قد عوّل على دخول حمام طبرية.

تلك المكارم لا قعبان من لبن وذلك الفتح لا عمّان واليمن
وذلك السيف لا سيف ابن ذي يزن

ثم قال: «وللألسنة بعد في هذا الفتح، سبح طويل، وقول جليل».

ذكر فتح بيت المقدس في هذه السنة واستنقاذه من أيدي النصارى، بعد ثنتين وتسعين سنة

لما افتتح السلطان ما حول بيت المقدس من الأماكن المباركة وما يقرب من تلك السواحل المتقدم ذكرها، والإشارة إليها، أمر العساكر، فاجتمعت، ثم سار نحو بيت المقدس، فنزل غربي بيت المقدس، في الخامس عشر من رجب من هذه السنة - أعني سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة - فوجد البلد قد حصنت غاية التحصين، وكانوا ستين ألف مقاتل، دون بيت المقدس، أو يزيدون، ﴿وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون﴾ وكان صاحب القدس يومئذ رجلا يقال له باليان بن بارزان، ومعه من سلم من وقعة حطين، يوم التقى الجمعان، من الداوية، والاسبتارية، أتباع الشيطان عليهم لعائن اللّه أجمعين، وعبدة الصلبان، فأقام السلطان بمنزله المذكور، خمسة أيام، وسلم إلى كل طائفة من الجيش ناحية من السور، وأبراجه، ثم تحول السلطان إلى ناحية الشمال لأنه رآها أوسع للمجال، والجلاد، والنزال، وقاتل الفرنج دون البلد قتالا هائلا، وبذلوا أنفسهم، وأموالهم، في نصرة قمامة والقيامة بذلاً طائلاً، واستشهد في الحصار بعض أمراء المسلمين، فحنق عند ذلك كثير من الأمراء والصالحين، واجتهدوا في القتال، بكل خطّي وحسام وقد نصب المجانيق، والعرادات على البلد، وغنت السيوف، وعُملت السُّمهريات، والعيون تنظر إلى الصلبان منصوبة فوق الجدران، وفوق قبة الصخرة صليب كبير، فزاد ذلك أهل الإيمان حنقا، وشدة للتشمير، وكان ذلك يوما عسيرا، على الكافرين غير يسير، فبادر السلطان بأصحابه إلى الزاوية الشرقية الشمالية من السور، فنقبها، وعلقها، وحشاها بالنيران فأحرقها، فسقط ذلك الجانب، وخر البرج برمته، فإذا هو واجب، فلما شاهد الفرنج ذلك الحادث الفظيع، والخطب المؤلم لهم الموجع، قصد أكابرهم السلطان، وتشفعوا إليه بكل إنسان أن يعطيهم الأمان، فامتنع من ذلك، وقال: لا أفتحها إلا، كما افتتحتموها عنوة، ولا أترك بها أحدا من النصارى، إلا قتلته، كما قتلتم أنتم من كان بها من المسلمين، فطلب صاحبها باليان بن بارزان الأمان، ليحضر عنده، فأمنه، فلما حضر، ترقق للسلطان، وذل ذلا عظيما، وتشفع إليه بكل ما أمكنه، فلم يجبه إلى الأمان لهم، فقالوا: إن لم تعطنا الأمان، رجعنا، فقتلنا كل أسير بأيدينا وهم قريب من أربعة آلاف وقتلنا ذرارينا، وأولادنا، ونساءنا، وخربنا الدور، والأماكن الحسنة، وأحرقنا المتاع، وأتلفنا ما بأيدينا من الأموال، وهدمنا قبة الصخرة، وحرقنا ما نقدر عليه، ولا نبقي ممكنا في إتلاف ما نقدر عليه، وبعد ذلك نخرج، فنقاتل قتال الموت، ولا خير في حياتنا بعد ذلك، فلا يقتل واحد منا، حتى يقتل أعدادا منكم، فماذا ترتجي بعد هذا من الخير؟

فلما سمع السلطان ذلك، أجاب إلى الصلح، وأناب، على أن يبذل كل رجل منهم، عن نفسه عشرة دنانير، وعن المرأة خمسة دنانير، وعن كل صغير وصغيرة، دينارين، ومن عجز عن ذلك، كان أسيرا للمسلمين. وأن تكون الغلات، والأسلحة، والدور للمسلمين، وأنهم يتحولون منها إلى مأمنهم، وهي مدينة صور. فكتب الصلح على ذلك، وأن من لم يبذل ما شرط عليه، إلى أربعين يوما، فهو أسير، فكان جملة من أسر بهذا الشرط، ستة عشر ألف أسير، من رجال، ونساء، وولدان، ودخل السلطان، والمسلمون، البلد يوم الجمعة، قبل وقت الصلاة بقليل، وذلك يوم السابع والعشرين من رجب.

قال العماد: وهي ليلة الإسراء برسول اللّه ﷺ، من المسجد الحرام، إلى المسجد الأقصى إلى السماوات العُلى.

قال أبو شامة: وهو أحد الأقوال في الإسراء، ولم يتفق للمسلمين صلاة الجمعة يومئذ، خلافا لمن زعم أنها أقيمت يومئذ، وأن السلطان خطب بنفسه بالسواد، والصحيح أن الجمعة لم يتمكنوا من إقامتها يومئذ، لضيق الوقت، وإنما أقيمت في الجمعة المقبلة، وكان الخطيب القاضي محيي الدين محمد بن علي القرشي بن الزكي، كما سيأتي قريبا.

ولكن نظفوا المسجد الأقصى مما كان فيه من الصلبان، والرهبان، والخنازير، وخربت دور للداوية، وكانوا قد بنوها غربي المحراب الكبير، واتخذوا المحراب حشّاً لعنهم اللّه، فنظف من ذلك كله، وأعيد إلى ما كان عليه في الأيام الإسلامية، والدولة المحمدية وغسلت الصخرة بالماء الطاهر، وأعيد غسلها بماء الورد، والمسك الفاخر، وأبرزت للناظرين، وقد كانت مستورة، مخبوءة عن الزائرين، ووضع الصليب عن قبتها، وعادت إلى حرمتها، وقد كان الفرنج، قلعوا منها قطعا، فباعوها من أهل البحور الجوانية، بزنتها من الذهب، فتعذر استعادة ما نقص منها وما ذهب.

ثم قبض من الفرنج، ما كانوا بذلوه، عن أنفسهم، من الأموال، وأطلق السلطان خلقا، منهم بنات الملوك، بمن معهن من النساء، والصبيان، والرجال، ووقعت المسامحة في كثير منهم، وشفع في أناس كثير، فعفا عنهم، وفرق السلطان جميع ما قبض منهم، من الذهب في العسكر، ولم يأخذ منه شيئا، مما يقتنى، ويدخر، وكان رحمه اللّه، حليماً، كريما، مقداما، شجاعا، رحيما. أسأل اللّه تعالى أن يجدّد رحمته عليه وأن يقبل بوجهه الكريم إليه.

ذكر أول جمعة أقيمت ببيت المقدس بعد فتحه

لما نزه البيت المقدس، مما كان فيه، من الصلبان والنواقيس، والرهبان والخنازير والقساقيس، ودخله أهل الإيمان، ونودي بالأذان وهرب الشيطان وقرئ القرآن، وطهر المكان، فكان إقامة أول جمعة فيه في اليوم الرابع من شعبان، بعد يوم الفتح بثمان، فنصب المنبر إلى جانب المحراب المطهر، وبسطت البسط الرفيعة في تلك العراص الوسيعة، وعلقت القناديل وتلي التنزيل عوضاً عمّا كان يقرأ من التحريف في الإنجيل، وجاء الحق وبطلت تلك الأباطيل، وصفت السجادات، وكثرت السجدات، وتنوعت العبادات، وأديمت الدعوات، ونزلت البركات، وانجلت الكربات، وأقيمت الصلوات، ونطق الأذان، وخرس الناقوس، وحضر المؤذنون وغاب القسوس، وطابت الأنفاس، واطمأنت النفوس، وأقبلت السعود وأدبرت النحوس، وحضر العبّاد والزهّاد والأبدال والأقطاب والأوتاد، وعبد الواحد، وكثر الراكع والساجد، والقائم والقاعد، وامتلأ الجامع، وسالت لرقّة القلوب المدامع، وقال الناس: هذا يوم كريم وفضل عظيم وموسم وسيم، وهذا يوم تجاب فيه الدعوات وتصبُّ البركات وتسيل العبرات

وتقال العثرات، فأذّن المؤذّنون للصلاة وقت الزّوال، وكادت القلوب تطير من الفرح بتلك الحال، ولم يكن السلطان إلى تلك الساعة عيّن خطيباً، وقد تهيّأ لها خلق من العلماء خوفاً أن يدعى إليها أحدهم فلا يكون نجيباً، فبرز للخطباء المرسوم السلطانيُّ الصّلاحيُّ، وهو في قبّة الصّخرة الغرّاء، أن يكون القاضي محيي الدين بن الزكيّ اليوم خطيباً، فلبس الخلعة السوداء وصعد المنبر، وقد كساه الله البهاء، وأكرمه بكلمة التقوى وأعطاه السكينة والوقار والسناء، فخطب بالناس خطبة عظيمة سنيّة فصيحة بليغة، ذكر فيها شرف البيت المقدّس، وما ورد فيه من الفضائل والترغيبات، وما فيه من الدلائل والأمارات، وما منّ الله به على الحاضرين من هذه النّعمة التي تعدل الكثير من القربات، وقد أوردها الشيخ شهاب الدين أبو شامة في «الروضتين» بطولها، فكان أوّل ما قال حين تكلّم: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

ثم أورد تحميدات القرآن كلها، ثم قال: (الحمد لله معز الإسلام بنصره، ومذل الشرك بقهره، ومصرف الأمور بأمره، ومديم النعم بشكره، ومستدرج الكافرين بمكره، الذي قدر الأيام دولا بعدله، وجعل العاقبة للمتقين بفضله، وأفاض على عباده من ظله وأظهر دينه على الدين كله، القاهر فوق عباده، فلا يمانع، والظاهر على خليقته، فلا ينازع، والآمر بما يشاء، فلا يراجع، والحاكم بما يريد، فلا يدافع، أحمده على إظفاره، وإظهاره، وإعزازه لأوليائه، ونصرة لأنصاره، ومطهر بيت المقدس، من أدناس الشرك، وأوضاره حمد من استشعر الحمد، باطن سره، وظاهر جهاره، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، لا شريك له، الأحد الصمد، الذي لم يلد، ولم يولد، ولم يكن له كفوا أحد، شهادة من طهر بالتوحيد قلبه، وأرضى به ربه، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، رافع الشكّ، وداحض الشرك، وراحض الإفك، الذي أسرى به من المسجد الحرام، إلى هذا المسجد الأقصى، وعرج به منه إلى السموات العلى، إلى سدرة المنتهى، عندها جنة المأوى، إذ يغشى السّدرة ما يغشى، ما زاغ البصر، وما طغى ﷺ وعلى خليفته الصديق، السابق إلى الإيمان، وعلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، أول من رفع عن هذا البيت شعار الصلبان، وعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان، ذي النورين، جامع القرآن، وعلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، مزلزل الشرك، ومكسر الأصنام، وعلى آله وصحبه، والتابعين لهم بإحسان)

ثم ذكر الموعظة، وهي مشتملة على تغبيط الحاضرين، على ما يسره الله على أيديهم، من فتح بيت المقدس، الذي من شأنه كذا وكذا، فذكر فضائله، ومآثره، وأنه أول القبلتين، وثاني المسجدين، وثالث الحرمين، لا تشد الرحال بعد المسجدين إلا إليه، ولا تعقد الخناصر بعد الموطنين إلا عليه، وإليه أسرى برسول الله ﷺ من المسجد الحرام، وصلى فيه بالملائكة والمقربين والأنبياء والرسل الكرام ومنه كان المعراج إلى السموات، ثم عاد إليه، ثم سار منه إلى المسجد الحرام، على البراق، وهو أرض المحشر، والمنشر يوم التلاق، وهو مقر الأنبياء، ومقصد الأولياء، وقد أسس على التقوى من أول يوم.

قلت: ويقال: إن الذي أسسه، أولا يعقوب عليه السلام، بعد أن بنى الخليل عليه السلام المسجد الحرام، بأربعين سنة، كما جاء في الصحيحين [خ(٣٣٦٦، ٣٤٢٥)، م(٥٢٠)] ، ثم جدد بناءه سليمان بن داود عليهما السلام، كما ثبت به الحديث في المسند [١٧٦/٢] والسنن[س كبرى(٧٧٢)، ج (١٤٠٨)]، وصحيح ابن خزيمة [١٣٣٤]، وابن حبان [الإحسان(١٦٣٣)]، والحاكم [٣٠/١]، وغيرهم، وسأل سليمان عليه السلام الله، عند فراغه منه، خلالا ثلاثا، حكما يصادف حكمه وملكا لا ينبغي لأحد من بعده وأنه لا يأتي أحد إلى هذا المسجد، لا ينهزه إلا الصلاة فيه، إلا خرج من ذنوبه، كيوم ولدته أمه.

ثم ذكر الخطيب تمام الخطبتين، ودعا للخليفة العباسي، ثم دعا للسلطان الناصر صلاح الدين. وبعد الصلاة، جلس الشيخ زين الدين أبو الحسن بن علي نجا المصري على كرسي الوعظ، بإذن السلطان، فوعظ الناس وكان وقتاً مشهوداً وحالاً محموداً، فلله الحمد والمنة، واستمر القاضي محيي بن ابن الزكي، يخطب بالناس في أيام الجمع، أربع جمعات، ثم قرر السلطان للقدس خطيبا مستقرا، وأرسل إلى حلب، فاستحضر المنبر، الذي كان الملك العادل نور الدين محمود قد استعمله لبيت المقدس، وقد كان يؤمل أن يكون فتحه على يديه، فما كان إلا على يدي بعض أتباعه بعد وفاته رحمه الله تعالى.

نكتة غريبة

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة في الروضتين [١١٣/٢]: وقد تكلم شيخنا أبو الحسن علي بن محمد السخاوي، في تفسيره الأول، فقال: وقع في تفسير أبي الحكم الأندلسي يعني ابن برجان في أول سورة الروم، إخبار عن فتح بيت المقدس، وأنه ينتزع من أيدي النصارى، سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة.

قال السخاوي: ولم أره أخذ ذلك من علم الحروف، وإنما أخذه فيما زعم من قوله ﴿الٓمٓ. غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ. فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ١ ـ ٣] فبنى الأمر على التاريخ، كما يفعل المنجمون، ثم ذكر أنهم يَغْلِبُون في سنة كذا، على ما تقتضيه دوائر التقدير، ثم قال: وهذه نجابة وافقت إصابة، إن صح أنه، قال ذلك قبل وقوعه، وكان في كتابه قبل حدوثه، قال: وليس هذا من قبيل علم الحروف، ولا من باب الكرامات، لأنها لا تنال بحساب. قال: وقد ذكر في تفسير سورة القدر، أنه لو علم الوقت الذي نزل فيه القرآن، لعلم الوقت الذي يرفع فيه.

قلت ابن برجان ذكر هذا في تفسيره، في حدود سنة ثنتين وعشرين وخمسمائة، ويقال إن الملك نور الدين، أوقف على ذلك، فطمع أن يعيش إلى سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة، لأن مولده في سنة إحدى عشرة وخمسمائة، فتهيأ لأسباب ذلك، حتى إنه أعد منبرا هائلا لبيت المقدس، إذا فتحه الله على يديه، والله أعلم.

وأما الصخرة المعظمة، فإن السلطان أزال ما حولها وعندها من المنكرات، والصور، والصلبان، وطهرها بعد ما كانت خفية، مستورة غير مرئية، وأمر الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري، أن يعمل حولها شبابيك من حديد، ورتب لها إماما راتبا، ووقف عليه رزقا جيدا، وكذلك على إمام محراب الأقصى، وعمل للشافعية المدرسة، الصلاحية، ويقال لها الناصرية أيضا، وكان موضعها كنيسة على صند حنة أم مريم عليها السلام، ووقف على الصوفية رباطا، كان داراً للبترك إلى جنب القمامة، وأجرى على الفقهاء والفقراء الجامكيات، وأرصد الختم، والربعات، في أرجاء المسجد الأقصى، والصخرة، ليقرأ فيها المقيمون، والزائرون.

وتنافس بنو أيوب، فيما يفعلونه ببيت المقدس، وغيره من الخيرات، إلى

كل أحد، فجزاهم الله خيراً أجمعين وعزم السلطان على هدم قمامة، وأن يجعلها دكا، لتتحسم مادة النصارى من بيت المقدس، فقيل له إنهم لا يتركون الحج إلى هذه البقعة ولو كانت قاعا صفصفا، وقد فتح هذه البلد قبلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وترك هذه الكنيسة بأيديهم، ولك في ذلك أسوة. فأعرض عنها، وتركها على حالها، تأسيا بعمر بن الخطاب أحد الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين، ولم يترك من النصارى فيها سوى أربعة يخدمونها، وحال بين النصارى وبينها، وهدم المقابر التي كانت لهم عند باب الرحمة، وعفّى آثارها، وهدم ما كان هناك من القباب وعجل دمارها.

وأما أسارى المسلمين، الذين كانوا بالقدس، فإن السلطان أطلقهم جميعهم، وأحسن إليهم، وأطلق لهم إعطاءات هيّنة، وكساهم حللا سنية، وانطلق كل منهم إلى وطنه وعاد إلى أهله ومسكنه، فلله الحمد على نعمه ومنته.

فصل

لما قرّر السلطان صلاح الدين بالقدس الشريف ما ذكرناه، انفصل عنها في الخامس والعشرين من شعبان، وأمر ولده العزيز بالرجوع إلى مصر، وسار السلطان بجيشه فقصد مدينة صور بالساحل، وكان فتحها قد تأخر، وقد استحوذ عليها، بعد وقعة حطين، رجل من تجار الفرنج، يقال له المركيس، فحصنها، وضبط أمرها، وحفر حولها خندقا من البحر إلى البحر، وجمهورها في البحر فجاء السلطان، فحاصرها مدة، ودعا بالأسطول من الديار المصرية في البحر، فأحاط بها برا وبحرا، فعدت الفرنج في بعض الليالي، على خمس شوان من أسطول المسلمين، فملكتها، فأصبح المسلمون واجمين، حزنا، وتأسفا، وقد دخل عليهم فصل البرد، وقلت الأزواد، وكثرت الجراحات، وكلّ الأمراء من المحاصرات، فسألوا السلطان أن ينصرف بهم إلى دمشق، حتى يستريحوا، ثم يعودوا إليها بعد هذا الحين، فأجابهم إلى ذلك، على تمنع منه، وذلك أن السور من صورَ كان قد هُدم أكثره ولم يبق إلا الفتح والنجح، فتوجّه بهم نحو دمشق، واجتاز في طريقه على عكا، وتفرقت العساكر إلى بلادها.

وأما السلطان، فإنه لما وصل إلى عكا، نزل بقلعتها، وأسكن ولده الأفضل برج الداوية، وولي نيابتها عز الدين جرديك، وقد أشار بعضهم على السلطان، بتخريب مدينة عكا، خوفا من عود الفرنج إليها، فكاد، ولم يفعل، وليته فعل، بل وكل بعمارتها، وتجديد محاسنها، بهاء الدين قراقوش التقوي، ووقف دار الإسبتار بصفين، على الفقهاء، والفقراء، وجعل دار الأسقف مارستانا، ووقف على ذلك كله أوقافا دارة، وولى نظر ذلك، لقاضيها جمال الدين ابن الشيخ أبي النجيب وهو في جميع ذلك بآرائه مصيب.

ولما فرغ السلطان من هذه الأشياء، وعاد إلى دمشق، مؤيدا، منصورا، أبهج العيون وسد القلوب وجاءته رسل الملوك بالتهاني، والتحف، والهدايا، من سائر الأقطار، والأمصار، وكتب الخليفة إلى السلطان، يعتب عليه في أشياء، منها أنه بعث إليه في بشارة الفتح، بوقعة حطين، شابا بغداديا، كان وضيعا عندهم، لا قدر له، ولا قيمة، وأرسل بفتح القدس الشريف مع نجاب، ولقب نفسه بالملك الناصر مضاهاة للخليفة الناصر. فتلقى ذلك بالبشر، واللطف، ولم يُظهر له إلا السمع، والطاعة، وأرسل يعتذر مما وقع. وقال: الحرب كانت شغلته عن التروي، في كثير من ذلك، وأما لقبه بالناصر، فهو من أيام الخليفة المستضيء، ومع هذا، فمهما لقبني به أمير المؤمنين، فلا أعدل عنه، وتأدب مع الخليفة، غاية الأدب، مع غناء عنه رحمه الله تعالى.

وفيها كانت وقعة عظيمة، ببلاد الهند، بين الملك شهاب الدين الغوري، صاحب غزنة، وبين ملك الهند الكبير، فأقبلت الهنود، في عدد كثير، من الجنود، ومعهم أربعة عشر فيلا، فالتقوا، واقتتلوا، قتالا شديدا، فانهزمت ميمنة المسلمين وميسرتهم، فقيل للملك انج بنفسك، فما زاده ذلك إلا إقداما، فحمل على الفيلة، فجرح بعضها وجرح الفيل لا يندمل فرماه بعض الفيالة بحربة في ساعده، فخرجت من الجانب الآخر، فخر صريعا، فحملت عليه الهنود ليأخذوه، فجاحف عنه أصحابه، فاقتتلوا عنده قتالا شديدا، وجرت حرب عظيمة، لم يسمع بمثلها بموقف، فغلب المسلمون الهنود، وخلصوا صاحبهم، وحملوه على كواهلهم، في خفة عشرين فرسخا، وقد نزفه الدم، فلما تراجع إليه جيشه، أخذ في تأنيب الأمراء، وحلف ليأكلن كل أمير عليقة فرسه، وما أدخلهم غزنة إلا مشاة حفاة.

وفي هذه السنة ولدت امرأة من سواد بغداد، بنتا لها أسنان.

وفيها قتل الخليفة الناصر أستاذ داره، أبا الفضل بن الصاحب، وكان قد استحوذ على الأمور، ولم يبق للخليفة معه كلمة تطاع، ومع هذا، كان عفيفا عن الأموال، جيد السيرة، فأخذ الخليفة منه شيئا كثيرا من الحواصل، والأموال.

وفيها استوزر الخليفة أبا المظفر عبيد الله بن يونس ولقبه جلال الدين، ومشى أهل الدولة في ركابه، حتى قاضي القضاة أبو الحسن بن الدامغاني، وقد كان ابن يونس هذا شاهدا عنده فكان القاضي، يقول وهو يمشي في ركابه: لعن الله طول العمر، فمات القاضي في آخر هذه السنة رحمه الله تعالى، وقد حكم في أيام عدة من الخلفاء وهو من بيته.

وممن توفي في هذه السنة أعني سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة من الأعيان

الشيخ

■ عبد المغيث بن زهير الحربي: كان من صلحاء الحنابلة، وكان يزار، وله مصنف في فضل يزيد بن معاوية، أتى فيه بالغرائب، والعجائب، وقد رد عليه أبو الفرج بن الجوزي في هذا الكتاب، فأجاد، وأصاب، ومن أحسن ما اتفق لعبد المغيث هذا، أن بعض الخلفاء وأظنه الناصر جاءه زائرا، مستخفيا، فعرفه الشيخ عبد المغيث، ولم يعلمه بأنه قد عرفه، فسأله الخليفة عن يزيد، أيلعن، أم لا؟ فقال: لا أسوغ لعنه، لأني لو فتحت هذا الباب، لَلَعَنَ الناس خليفتنا. فقال الخليفة: ولم؟ قال: لأنه يفعل أشياء منكرة كثيرة، منها كذا وكذا. ثم شرع يعدد على الخليفة أفعاله القبيحة، وما يقع منه من المنكر، لينزجر عنها، فتركه الخليفة، وخرج من عنده، وقد أثر كلامه فيه، وانتفع به. ثم كانت وفاته في المحرم من هذه السنة رحمه الله تعالى.

وفيها توفي الشيخ

■ علي بن خطاب بن ظفر: العابد الناسك، أحد الزهاد، وذوي الكرامات، وكان مقامه بجزيرة ابن عمر.

قال ابن الأثير في الكامل [٥٦٣/١١]: ولم أر مثله، في حسن خلقه وسمته، وكراماته، وعبادته.

الأمير شمس الدين

■ محمد بن عبد الملك بن مقدم: أحد نواب صلاح الدين، لما افتتح الناصر بيت المقدس، أحرم جماعة في زمن الحج منه إلى المسجد الحرام،

وكان ابن مقدم أمير الحاج في تلك السنة، فلما وقف بعرفة، ضرب الدبادب، ونشر الألوية، وأظهر عز السلطان صلاح الدين وعظمته، فغضب طاشتكين أمير الحاج من جهة الخليفة، فزجره عن ذلك، فلم يسمع، فاقتتلا، فجرح ابن مقدم، ومات في اليوم الثاني بمنى، ودفن هنالك، وجرت خطوب كثيرة، وليم طاشتكين على ما فعل، وخاف معرة ذلك من جهة صلاح الدين والخليفة، وعزله الخليفة عن منصبه.

■ محمد بن عبيد الله بن عبد الله سبط ابن التعاويذي الشاعر، أضر في آخر عمره، وقد جاوز الستين، سنة وكانت وفاته رحمه الله تعالى في شوال من هذه السنة.

وفي خامس توفي الفقيه أبو الفتح

■ نصر بن فتيان بن مطر: الحنبلي، المعروف بابن المنّي، وكان زاهدا، عابدا، مولده سنة إحدى وخمسمائة، وممن تفقه عليه من المشاهير، الشيخ موفق الدين بن قدامة، والحافظ عبد الغني، ومحمد بن خلف بن راجح، والناصر عبد الرحمن بن النجم بن عبد الوهاب الحنبلي، وعبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلي، وغيرهم.

وفيها توفي قاضي القضاة ببغداد أبو الحسن

■ ابن الدامغاني: وقد حكم في أيام المقتفي، ثم المستنجد، ثم عزل، وأعيد في أيام المستضيء، وحكم للناصر حتى توفي في هذه السنة رحمه الله.

ثم دخلت سنة أربع وثمانين وخمسمائة

في محرمها، حاصر السلطان صلاح الدين حصن كوكب، فرآه منيعا صعبا، ووقته مشغول بغيره فوكل به الأمير قايماز النجمي، في خمسمائة فارس، يضيقون عليه المسالك، وكذلك وكل بصفد وكانت للداوية خمسمائة فارس، مع طغرل الجاندار، يمنعون وصول الميرة والتقاوي ويعث إلى الكرك والشوبك جيشا آخر يحاصرونه يضيقون على أهله، ليتفرغ من أموره، لقتال هذه الأماكن وحصارها.

ولما رجع السلطان من هذه الغزوة إلى دمشق، وجد الصفي بن الفايض، وكيل الخزانة، قد بنى للملك دارا بالقلعة، هائلة، مطلة على الشرف القبلي، فغضب عليه، وعزله، وقال: إنا لم نخلق للمقام بدمشق، ولا بغيرها من البلاد، وإنما خلقنا لعبادة الله عز وجل، والجهاد في سبيله، وهذا الذي عملته، مما يثبط النفوس، ويقعدها عما خلقت له.

وجلس السلطان بدار العدل، فحضر عنده القضاة، وأهل الفضل، وزار القاضي الفاضل، في بستانه، على الشرف في جوسق بن الفراش، وحكى له ما جرى من الأمور، واستشاره فيما يفعل في المستقبل، من المهمات، والغزوات، ثم خرج من دمشق، فسلك على نبوس، وقصد البقاع، وخيّم على بعلبك وسار إلى حمص، وحماة، وجاءت الجيوش من الجزيرة، وهو على العاصي، فسار إلى السواحل الشامية، ففتح انطرطوس، وغيرها من الحصون، وجبلة، واللاذقية، وكانتا من أحصن المدن عمارة، ورخاما، ومحالا، وفتح صهيون، وبكاس، والشغر، وهما قلعتان على العاصي، حصينتان، فتحهما عنوة، وفتح حصن برزيه، وهي قلعة عظيمة، على جبل شاهق، منيع، تحتها أودية عميقة، يضرب بها المثل في سائر بلاد الفرنج والمسلمين، فحاصرها أشد حصار، وركب عليها المجانيق الكبار، وفرق الجيش ثلاث فرق، كل فريق يقاتل، فإذا كلوا، وتعبوا، خلفهم الفريق الآخر، حتى لا يزال القتال مستمرا، ليلا، ونهارا، صباحاً ومساءاً فكان فتحها في نوبة السلطان، رحمه الله فأخذها عنوة، في أيام معدودات، ونهب جميع ما فيها، واستولى على حواصلها، وأموالها، وقتل حماتها، ورجالها، وسبى ذراريها وأطفالها، ثم عدل عنها، ففتح حصن دربساك، وحصن بغراس، كل ذلك يفتحه عنوة، فيغنم ويسلم ولله الحمد والمنة.

ثم سمت به همته العالية، إلى فتح أنطاكية، وذلك لأنه أخذ جميع ما حولها، من القرى، والمدن، واستظهر عليها بكثرة الجنود، فراسله صاحب أنطاكية، يطلب منه الهدنة، على أن يطلق من عنده من أسرى المسلمين، فأجابه إلى ذلك، لعلمه بتضجر من معه من المقاتلة والأعوان، فوقعت الهدنة على سبعة أشهر، ومقصود السلطان أن تستريح الجيوش من تعبها، وتجمّ النفوسُ من نَصبها وأرسل السلطان من تسلم منه الأسارى، وقد ذلت دولة النصارى.

ثم سار، فسأله ولده الظاهر أن يجتاز بحلب، فأجابه إلى ما طلب، فنزل بقلعتها ثلاثة أيام، ثم استقدمه ابن أخيه تقي الدين إليه، إلى حماة، فنزل عنده ليلة واحدة، وأقطعه جبلة، واللاذقية، ثم سار، فنزل بقلعة بعلبك، ودخل حمامها، ثم عاد إلى دمشق في أوائل رمضان، وكان يوما مشهودا، وجاءته البشائر، بفتح الكرك على المسلمين الذين كانوا له محاصرين الفرنج، وأراح الله منهم تلك الناحية، وسهل حزنها على السالكين من التجار، والحجاج والغزاة، والمعتمرين: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ٤٥].

فصل في صفة فتح صفد وحصن كوكب

لم يقم السلطان بدمشق، إلا أياما معدودة، حتى خرج بجيشه قاصدا بلاد صفد، فنازلها في العشر الأوسط من رمضان، وحاصرها بالمنجنيقات والشجعان، وكان البرد شديدا، يصبح الماء فيه جليدا، فما زال حتى فتحها صلحا في ثامن شوال و لله الحمد على كل حال.

ثم سار إلى صور، فألقت إليه بقيادها، وتبرأت من أنصارها، وأجنادها، وقوادها، وتحققت لما فتحت صفد أنها مقرونة معها في أصفادها.

ثم سار منها إلى حصن ـ كوكب وهي معقل الاستبارية، كما أن صفد كانت معقل الداوية ـ وكانوا أبغض أجناس الفرنج إلى الملك الناصر صلاح الدين، لا يكاد يترك منهم أحدا إلا قتله إذا وقع في المأسورين. فحاصر قلعة كوكب، حتى قهرها، وقتل من بها، وأراح المارة من شر ساكنيها، وتمهدت تلك السواحل، واستقر بها منازل قاطنيها. هذا والسماء تصب، والرياح تهب، والسيول تعب، والأرجل في الأوحال تخب، والسلطان في كل ذلك، صابر مصابر محتسب، وكان القاضي الفاضل معه في هذه المواقف شاهداً ومرتقباً، وكتب القاضي الفاضل عن السلطان إلى أخيه سيف الإسلام، صاحب اليمن، يستدعيه إلى الشام، لنصرة الإسلام وقتل الكفرة اللئام، وأنه قد عزم على حصار أنطاكية، ويكون تقي الدين عمر محاصرا طرابلس إذا انسلخ هذا العام.

ثم عزم القاضي الفاضل على الدخول إلى مصر، فودعه السلطان فدخل القدس فصلى فيه الجمعة وعيد فيه عيد الأضحى ثم سار ومعه أخوه السلطان العادل إلى عسقلان ثم أقطع أخاه الكرك عوضا عن عسقلان، وأمره بالانصراف، ليكون عونا لابنه العزيز على حوادث الزمان، وعاد السلطان، فأقام بمدينة عكا، حتى انسلخت هذه السنة.

وفي هذه السنة خرجت طائفة من الرافضة بمصر، يريدون أن يعيدوا دولة الفاطميين، واغتنموا غيبة العادل عن مصر، واستخفوا أمر العزيز عثمان بن صلاح الدين، فبعثوا اثنى عشر رجلا، ينادون في الليل، يا لَعلي يا لعلي، بناء على أن العامة تجيبهم، إلى ما عزموا عليه فلم يجبهم أحد، ولا التفت إليهم، أحد ولا تبعهم من الناس واحد فلما رأوا ذلك، انهزموا، فأدركوا، وأخذوا، وقيدوا، وحبسوا، ولما بلغ أمرهم إلى السلطان صلاح الدين، ساءه ذلك، واهتم له، وكان القاضي الفاضل عنده بعد لم يفارقه، فقال له: أيها الملك، ينبغي أن تفرح، ولا تحزن، حيث لم يصغ إلى دعوة هؤلاء الجهلة أحد من رعيتك، ولا التفتوا إليهم ولو أنك بعثت جواسيس من قبلك، يختبرون الناس، لسرك ما بلغك عنهم. فسري عنه ما كان يجد، ورجع إلى قوله، وأرسله إلى مصر، ليكون له عينا وعونا.

وممن توفي فيها من الأعيان

الأمير الكبير سلالة الملوك والسلاطين الشيزري، مؤيد الدولة، أبو الحارث، وأبو المظفر

■ أسامة بن مرشد بن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ أحد الشعراء المشهورين، الأمراء المشكورين، بلغ من العمر ستا وتسعين سنة، وكان عمره تاريخا مستقلا وحده، وكانت داره بدمشق، مكان العزيزية، وكانت معقلا للفضلاء، ومنزلا للعلماء، وله أشعار رائقة، ومعان فائقة، ولديه علم غزير، وعنده جود، وفضل كثير، وكان من أولاد ملوك شيزر، ثم أقام بدار مصر مدة، في أيام الفاطميين، ثم عاد إلى الشام، فقدم على الملك صلاح الدين في سنة سبعين دمشق وأنشده.

حدث على طول عمري المشيا ... وإن كنت أكثرت فيه الذنوبا
لأنني حيت إلى أن لقيت ... بعد العدو صديقا حبيبا

وله في سن قلعها وفقد نفعها:

وصاحب لا أمل الدهر صحبته ... يشقى لنفعي ويسعى سعي مجتهد
لم ألقه مذ تصاحبنا فحين بدا ... لناظري افترقنا فرقة الأبد

وله ديوان شعر كبير، وكان صلاح الدين يفضله على سائر الدواوين.

وقد كان مولده في سنة ثمان وثمانين وأربعمائة، وكان في شبيته شهماً شجاعا، فاتحاً قتل الأسد مواجهة، وحده ثم عمر إلى أن توفي في هذه السنة.

قال ابن خلكان ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من رمضان، ودفن شرقي جبل قاسيون قال: وزرت قبره، وقرأت عنده، وأهديت له، رحمه الله تعالى.

ومما أنشده له قوله:

لا تستعر جلدا على هجرانهم ... فقواك تضعف عن صدود دائم
واعلم بأنك إن رجعت إليهم ... طوعا وإلا عدت عودة راغم

وقوله في قتل الأسد وكِبَره:

فاعجب لضعفِ يدي عن حملها قلماً ... من بعدِ حطم القنا في لبّةِ الأسدِ
وقلْ لمن يتمنى طولَ مدتهِ ... هذي عواقب طولِ العمرِ والمددِ

قال ابن الأثير: وفي هذه السنة توفي شيخنا.:

أبو محمد

■ عبد الله بن علي بن عبد الله بن سويدة التكريتي، كان عالماً بالحديث، وله فيه تصانيف حسنة رحمه الله تعالى.

قال الشيخ شهاب الدين: وفيها توفي

الحافظ أبو بكر

■ محمد بن موسى بن عثمان بن حازم الحازمي الهمداني، ببغداد، صاحب التصانيف، على صغر سنه، منها العجالة في النسب، والناسخ والمنسوخ، في الحديث وغيرهما. ومولده سنة ثمان أو تسع وأربعين وخمسمائة، وتوفي في الثامن والعشرين من جمادى الأولى من هذه السنة

ثم دخلت سنة خمس وثمانين وخمسمائة

فيها قدم من جهة الخليفة رسل إلى السلطان، يعلمونه بولاية العهد لأبي نصر محمد الملقب بالظاهر بن الخليفة الناصر فأمر السلطان خطيب دمشق، أبا القاسم عبد الملك بن زيد الدولعي أن يذكره على المنبر، ثم جهز السلطان مع الرسل تحفا عظيمة، وهدايا سنية، وأرسل بأسارى من الفرنج، على هيئتهم، في حال حربهم، وأرسل بصليب الصلبوت، فدفن تحت عتبة باب النوى من دار الخلافة، فكان بالأقدام يداس، بعدما كان يقبل ويباس وصار يُبصق عليه بعدما كان يُسجد له، والصحيح أن هذا الصليب، إنما هو الذي كان منصوبا على قبة الصخرة، وكان من نحاس مطلياً بالذهب، وقد انحط إلى أسفل الرتب

قصة عكا وما كان من أمرها

لما كان شهر رجب، اجتمع من كان بصور من الفرنج، وساروا إلى مدينة عكا، فأحاطوا بها، يحاصرونها فتحصن من فيها من المسلمين وأعدوا للحصار ما يحتاجون اليه وبلغ السلطان خبرهم فسار إليهم من دمشق مسرعاً، فوجدهم قد أحاطوا بها إحاطة الخاتم بالخنصر، فلم يزل يدافعهم عنها، ويمانعهم منها، حتى جعل طريقا إلى باب القلعة، يصل إليه كل من أراده، من جندي، وسوقي، وامرأة، وصبي، ثم أدخل إليها ما أراد، من الآلات والأمتعة والمقاتلة، ودخل هو بنفسه الكريمة، فعلا سورها، ونظر إلى الفرنج، وجيشهم، وكثرة عددهم، وعددهم، والميرة تفد إليهم من البحر، في كل وقت، وكل ما لم لهم في ازدياد، وفي كل حين تصل إليهم الأمداد، وعاد إلى مخيمه والجنود تفد إليه، وتقدم عليه من كل جهة ومكان، منهم رجّالة، وفرسان.

وقعة مرج عكا

فلما كان في العشر الأخير من شعبان، برزت الفرنج من مراكبها، إلى مواكبها، في نحو من ألفي فارس، وثلاثين ألف راجل، فبرز إليهم السلطان، فيمن معه من الشجعان، فاقتتلوا بمرج عكا، قتالا عظيما، وهزم جماعة من المسلمين في أول النهار، ثم كانت الدائرة على الفرنج في آخره ﴿والعاقبة للمتقين﴾ [الأعراف: ١٢٨] فقتل من المسلمين قريب المئتين. وأما الفرنج فكانت القتلى بينهم أزيد من سبعة آلاف قتيل، ولما تناهت هذه الوقعة، تحول السلطان عن مكانه الأول، إلى موضع بعيد، من رائحة القتلى، خوفا من الوخم والأذى، وليستريح الخيالة والخيل، ولم يعلم أن ذلك كان من أكبر مصالح العدو المخذول، فإنهم اغتنموا هذه الفرصة، فحفروا حول مخيمهم خندقا في البحر، محدقا بجيشهم، واتخذوا من ترابه سوراً شاهقا،

وجعلوا له أبوابا، يخرجون منها إذا أرادوا، وتمكنوا في منزلهم ذلك، الذي اختاروا، وارتادوا، وتفارط الأمر على المسلمين، وقوي الخطب، وصار الداء عضالا، وازداد الحال وبالا، اختباراً من اللّه، وامتحاناً، وكان رأي السلطان أن يناجزوا بعد الكرة سريعاً، ولا يتركوا، حتى يطيب البحر، فتأتيهم الأمداد من كل صوب، هريعاً، فاعتذر الأمراء إليه بالملال الجيش، والضجر، وكل لأمر الفرنج قد احتقر، ولم يدر ما قد حتم في القدر، فأرسل السلطان إلى جميع الملوك، يستنفر، ويستنصر، وكتب إلى الخليفة بالبث، وبث الكتب بالتحضيض، والحث السريع، فجاءته الأمداد، جماعات، وآحادا، وأرسل إلى مصر، يطلب أخاه العادل، فقدم عليه ويستعجل الأسطول، فوصل إليه خمسون قطعة في البحر، مع الأمير حسام الدين لؤلؤ، وقدم العادل في عسكر المصريين، فلما وصل الأسطول، حادت مراكب الفرنج عنه، يمنة ويسرة، وخافوا منه، واتصلت بالبلد الميرة، والعدد، والعدد وانشرحت الصدور بذلك، وانسلخت هذه السنة، والحال على ما هو عليه، ولا ملجأ من اللّه إلا إليه واللّه أعلم بالصواب.

وممن توفي فيها من الأعيان

القاضي شرف الدين أبو سعد:

■ عبد اللّه بن محمد بن هبة اللّه بن أبي عصرون، أحد أئمة الشافعية، له كتاب الانتصار، وقد ولي قضاء القضاة بدمشق، ثم أضر قبل موته بعشر سنين، فجعل ولده محيي الدين مكانه، تطييباً لقلبه،وقد بلغ من العمر ثلاثا وتسعين سنة ونصفا، ودفن بالمدرسة العصرونية، التي أنشأها عند سويقة باب البريد، قبالة داره، بينهما عرض الطريق، وكان من الصالحين، والعلماء العاملين، رحمه اللّه. وقد ذكره ابن خلكان، فقال: كان أصله من حديثة الموصل، ورحل في طلب العلم، إلى بلدان شتى، وأخذ عن أسعد الميهني، وأبي علي الفارقي، وجماعة، وولي قضاء سنجار، وحران، وباشر في أيام نور الدين تدريس الغزالية، ثم انتقل إلى حلب، فبنى له نور الدين بحلب مدرسة، وبحمص أخرى، ثم قدم دمشق، في أيام صلاح الدين، فولي قضاءها، في سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، إلى أن توفي في هذه السنة، وقد جمع جزءاً في قضاء الأعمى، وأنه جائز، وهو خلاف المذهب، وقد حكاه صاحب البيان، ووجها لبعض الأصحاب. قال: ولم أره في غيره، ولكن حبك الشيء يعمي ويصم، وقد صنف كتباً كثيرة، منها صفوة المذهب في نهاية المطلب، في سبع مجلدات، والانتصار في أربع، والخلاف في أربع، والذريعة في معرفة الشريعة، والمرشد، وغير ذلك، وكتابا سماه مآخذ النظر، ومختصرا في الفرائض وغيرها، وقد ذكره ابن عساكر في تاريخه، والعماد، فأثنى عليه، وكذلك القاضي الفاضل.

وأورد له العماد أشعاراً كثيرة، وابن خلكان، منها:

أؤمل أن أحيا وفي كل ساعة ... تمر بي الموتى تهز نعوشها

وما أنا إلا مثلهم غير أن لي ... بقايا ليال في الزمان أعيشها

■ أحمد عبد الرحمن بن وهبان: أبو العباس المعروف بابن أفضل الزمان.

قال ابن الأثير: كان عالماً، متبحراً في علوم كثيرة، من الفقه، والأصول، والحساب، والفرائض، والنجوم، والهيئة، والمنطق،وغير ذلك، وقد جاور بمكة، وأقام بها إلى أن مات بها، وكان من أحسن الناس صحبة وخلقا.

الفقية الأمير ضياء الدين

■ عيسى الهكاري: كان من أصحاب أسد الدين شيركوه، دخل معه إلى مصر وحظي عنده، ثم كان ملازماً للسلطان صلاح الدين حتى توفي في ركابه بمنزله الخروبة، قريباً من عكا، فنقل إلى القدس الشريف، فدفن به، وكان ممن تفقه على الشيخ أبي القاسم بن السبزري الجزري، وكان الفقيه عيسى من الفضلاء والنبلاء، والأمراء الكبراء رحمه اللّه تعالى.

■ المبارك بن المبارك الكرخي: مدرس النظامية، تفقه بابن الخل،وكانت له مكانه عند الخليفة والعامة،وكان يضرب بحسن خطه المثل. وقد ذكرته في الطبقات رحمه اللّه تعالى.

ثم دخلت سنة ست وثمانين وخمسمائة

استهلت والسلطان محاصر لحصن عكا، وأمداد الفرنج تفد إليهم من البحر في كل وقت حتى إن نساء الفرنج ليخرجن بنية القتال، ومنهم من تأتي بنية راحة الغرباء، في الغربة، قدم إليهم مركب، فيه ثلاثمائة امرأة، حسناء بهذه النية، حتى إن كثيرا من فسقة المسلمين تحيزوا إليهم من أجل هذه النسوة، واشتهر الخبر بذلك. وشاع بين المسلمين، والفرنج، بأن ملك الألمان، قد أقبل بثلاثمائة ألف مقاتل، من ناحية القسطنطينية، يريد أخذ الشام، وقتل أهله، انتصارا لبيت المقدس فعند ذلك حمل السلطان والمسلمون هما عظيما، وخافوا غائلة ذلك، مع ما هم فيه من الشغل، والحصار الهائل، وقويت قلوب الفرنج بذلك، واشتدوا للحصار والقتال، ولكن اللّه لطف وأهلك عامة جنده في الطرقات بالبرد والجوع والضلال في المهالك، على ما سيأتي بيانه وتفصيلة إن شاء اللّه تعالى.

وكان سبب قتال الفرنج، وخروجهم من بلادهم، ونفيرهم، ما ذكره ابن الأثير في كامله [٤٤/١٢]، أن جماعة من الرهبان، والقسيسين، الذين كانوا ببيت المقدس وغيره ركبوا من صور في أربعة مراكب وخرجوا يطوفون ببلدان النصارى البحرية، وما هو قاطع البحر من الناحية الأخرى، يحرضون الفرنج، ويحثونهم على الانتصار لبيت المقدس، ويذكرون لهم ما جرى على أهل القدس، وأهل السواحل، من القتل، والسبي، وخراب الديار، وقد صوروا صورة المسيح وصورة عربي آخر يضربه ويؤذيه، فإذا سألوهم من هذا الذي يضرب المسيح؟ قالوا: هذا نبي العرب، يضربه، وقد جرحه، ومات. فيتزعجون لذلك، ويحمون، ويبكون، ويحزنون، ويخرجون من بلادهم، لنصرة دينهم، ونبيهم، وموضع حجهم على الصعب والذلول، حتى النساء المخدرات، والأبناء الذين هم عند أهليهم، من أعز الثمرات وأخصّ الخدرات.

وفي نصف ربيع الأول، تسلم السلطان شقيف ارنون بالأمان، وكان صاحبه مأسورا، في الذل، والهوان، وكان من أدهى الفرنج، وأخبرهم بأيام الناس، وربما قرأ في كتب الحديث، وتفسير القرآن، وكان مع هذا غليظ الجلد، كافر القلب، قبّحه اللّه تعالى.

ولما انفصل فصل الشتاء، وأقبل الربيع، جاءت ملوك الإسلام من بلدانها، بخيولها، وشجعانها، ورجالها، وفرسانها، وأرسل الخليفة إلى الملك صلاح الدين أحمالا من النفط، والرماح الخطيّة، ونفاطة، ونقّابين، كل منهم متقن في صنعته غاية الإتقان، ومرسوما بعشرين ألف دينار، وانفتح البحر، وتواترت مراكب الفرنج والنصارى من كل جزيرة، لأجل نصرة أصحابهم، بمدونهم بالقوة، والميرة، وعملت الفرنج ثلاثة أبرجة، من خشب، وحديد، عليها جلود مسقاة بالخل، لئلا يعمل فيها النفط، يسع البرج منها خمسمائة مقاتل، وهي أعلا من أبرجة البلد، وهي مركبة على

عجل، بحيث يديرونها كيف شاؤوا، وعلى ظهر كل برج منها منجنيق كبير، فلما رأى المسلمون ذلك أهمهم أمرها، وخافوا على البلد، ومن فيه من المسلمين أن يؤخذوا وحصل لهم ضيق منها، فأعمل السلطان فكره في إحراقها، وأحضر النفاطين، ووعدهم بالأموال الجزيلة، إن هم أحرقوها، فانتدب لذلك شاب نحاس، من دمشق، يعرف بعلي بن عريف النحاسين، والتزم بإحراقها وإهلاكها، فأخذ النفط الأبيض، وخلطه بأدوية يعرفها، وعلى ذلك في ثلاثة قدور من نحاس، حتى صار نارا تأجج، ورمى كل برج منها، بقدر من تلك القدور، بالمنجنيق من داخل عكا، فاحترقت الأبرجة الثلاثة، حتى صارت نارا بإذن الله، لها ألسنة في الجو متصاعدة، واحترق من كان فيها، فصرخ المسلمون صرخة واحدة بالتهليل والتكبير، واحترق في كل برج منها سبعون كفورا، ﴿وكان يوما على الكافرين عسيرا﴾ [الفرقان: ٢٦]، وذلك يوم الاثنين الثامن والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة، وكان الفرنج، قد تعبوا في عملها، سبعة أشهر، فاحترقت في يوم واحد، ﴿وقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] ثم أمر السلطان لذلك الشاب النحاس بعطية سنية، وأموال كثيرة، فامتنع أن يقبل شيئا من ذلك. وقال: إنما عملت هذا ابتغاء وجه الله، ورجاء ما عنده سبحانه، فلا أريد منكم جزاء ولا شكورا.

وأقبل الأسطول المصري، وفيه الميرة الكثيرة، لأهل البلد، فعمى الفرنج أسطولهم، ليقاتلوا أسطول المسلمين، نهض السلطان بجيشه، ليشغلهم عنهم، وقاتلهم أهل البلد أيضا، واقتتل الأسطولان في البحر، وكان يوما مشهوراً عظيماً، وحربا في البر والبحر، فظفرت الفرنج بشيني واحد، من الأسطول الذي للمسلمين، وسلم الله الباقي، فوصل إلى البلد، بما فيه من الميرة، وكانت حاجتهم قد اشتدت إلى عشرها وحمدوا الله تعالى على يسرها بعد عسرها.

وأما ملك الألمان، المتقدم ذكره، فإنه أقبل في عدد، وعدد كثير وجمٍّ غفير، قريب من ثلاثمائة ألف مقاتل، من نيته خراب البلد، وقتل أهلها من المسلمين، والانتصار لبيت المقدس، وأن يأخذ البلاد إقليما بعد إقليم، حتى مكة والمدينة، فما نال من ذلك شيئا، بعون الله، وقوته، بل أهلكهم الله عز وجل، في كل مكان وزمان فكانوا يتخطفون كما يتخطف الحيوان، حتى اجتاز ملكهم بنهر شديد الجرية، فدعته نفسه أن يسبح فيه، فلما صار فيه، حمله الماء إلى شجرة، فشجت رأسه، وأخذت أنفاسه، وأراح الله منه العباد، والبلاد، فأقيم ولده الأصغر في الملك، بعده وقد تمزق شملهم، وقلت منهم العدة، ثم أقبلوا، لا يجتازون ببلد إلا قتلوا فيه، فما وصلوا إلى أصحابهم، الذين على عكا، إلا في ألف فارس، فلم يرفعوا بهم رأسا، ولا لهم قدرا، ولا قيمة بينهم، ولا عند أحد من أهل ملتهم، ولا غيرهم، وهكذا سُنة الله فيمن أراد مخالفة الإسلام وأهله في إهلاكه وتمزيق شمله، و لله الحمد والمنّة على إحسانه وفضله.

وزعم العماد [الروضتين: ١٦١/٢] في سياقه أن الألمان وصلوا في خمسة آلاف، مقاتل وأن ملوك الإفرنج كلهم، كرهوا قدومه عليهم، لما يخافون من سطوة ملكهم، وزوال دولتهم بدولته، ولم يفرح به إلا المركيس صاحب صور، الذي أنشأ هذه الفتنة، وأثار هذه المحنة، لعنه الله فإنه تقوى به وبجيشه وكيده، فإنه كان خبيرا بالحروب، والقتال وقد قدم بأشياء كثيرة، من آلات الحرب، لم تخطر لأحد ببال، نصب دبابات أمثال الجبال، تسير بعجل، ولها زلوم من حديد تنطح السور فتخرقه وتثلم جوانبه، فمنّ الله العظيم بإحراقها وإتلافها، وأراح الله المسلمين منها، ونهض صاحب الألمان بالعسكر الفرنجي، فصادم به جيش المسلمين، فجاءت جيوش المسلمين برمتها إليه، فقتلوا من الكفرة خلقا كثيرا، وجما غفيرا، وهجموا مرة على مخيم السلطان بغتة، فنهبوا شيئاً كثيراً من الأمتعة، فنهض إليهم الملك العادل أبو بكر وكان رأس الميمنة فركب في أصحابه، وأمهل الفرنج، حتى توغلوا بين الخيام، ثم حمل عليهم بالرماح والحسام، فهربوا بين يديه، فما زال يقتل منهم جماعة بعد جماعة، وفرقة بعد فرقة حتى كسوا وجه الأرض منهم حللا، أزهى من الرياض الباسمة، وأحب إلى النفوس من الخدود الناعمة، وأقل ما قيل إنه قتل منهم خمسة آلاف، وزعم العماد وغيره أنه قتل منهم فيما بين الظهر إلى العصر عشرة آلاف، والله أعلم.

هذا وطرف الميسرة لم يشعر بما جرى، ولا درى، بل هم نائمون وقت القيلولة في خيامهم.

وكان الذين ساقوا وراءهم وأسروهم أقل من ألف، وإنما قتل من المسلمين عشرة أو دونهم، وهذه نعمة عظيمة، ونصرة عميمة وقد أوهن هذا جيش الفرنج، وأضعفهم، وكادوا يطلبون الصلح، وينصرفون عن البلد، فاتفق قدوم مدد عظيم إليهم من البحر مع ملك يقال له كندهري لعنه الله تعالى، ومعه أموال كثيرة، فأنفق فيهم، وغرم عليهم، وأمرهم أن يبرزوا معه لقتال السلطان صلاح الدين، ونصب على عكا منجنيقين، غرم على كل واحد منهما ألفا وخمسمائة دينار، فأحرقهما المسلمون من داخل البلد، وجاءت كتب صاحب الروم، من القسطنطينية، يعتذر لصلاح الدين، من جهة ملك الألمان، وأنه لم يتجاوز بلده باختياره وأنه تجاوزه لكثرة جنوده ولذلك بشّر السلطان بأن الله سيهلكهم في كل مكان، وكذلك وقع، و لله الحمد القديم الإحسان وأرسل إلى السلطان يخبره، بأنه يقيم للمسلمين عنده جمعة، وخطبا، فأرسل السلطان مع رسله، خطيبا، ومنبرا، وكان يوم دخولهم إليه يوما مشهودا، ومشهدا محمودا، فأقيمت الخطبة بالقسطنطينية، ودُعي للخليفة العباسي، واجتمع فيها من هناك من المسلمين، والتجار، والمسافرين، والحمد لله رب العالمين.

فصل

وكتب متولي عكا، من جهة السلطان صلاح الدين، وهو الأمير بهاء الدين قراقوش، في العشر الأول من شعبان إلى السلطان: إنه لم يبق عندهم في المدينة، من الأقوات، إلا ما يبلغهم إلى ليلة النصف من شعبان، فلما وصل الكتاب إلى السلطان أسرها يوسف في نفسه ولم يبدها لهم، خوفا من إشاعة ذلك، فيبلغ العدو، فيقووا على المسلمين، وتضعف القلوب، وكان قد كتب إلى أمير الأسطول، بالديار المصرية، أن يقدم بالميرة إلى عكا، فتأخر سيره، ثم وصلت ثلاث بطس، ليلة النصف، فيها من الميرة ما يكفي أهل البلد طول الشتاء، وهي صحبة الأمير الحاجب لؤلؤ، فلما أشرفت على البلد، نهض إليها أسطول الفرنج، ليحول بينها وبين البلد، ويتلف ما فيها، فاقتتلوا في البحر قتالا شديدا، والمسلمون في البر، يبتهلون إلى الله عز وجل في سلامتها، والفرنج تصرخ أيضا برا وبحرا، وقد ارتفع الضجيج، فنصر الله المسلمين، وسلم مراكبهم، وطابت الريح للبطس، فسارت، فاحترقت المراكب الفرنجية المحيطة بالميناء، ودخلت البلد سالمة، ففرح بها أهل البلد، والجيش فرحا شديدا و لله الحمد.

وكان السلطان قد جهز قبل هذه البطس الثلاث بطسة كبيرة، من بيروت، فيها أربعمائة غرارة، وفيها من الجبن، والشحم، والقديد،

والنشاب، والنفط شيء كثير، وكانت هذه البطسة من بطس الفرنج المغنومة، وأمر من فيها من البحارة، أن يلبسوا زي الفرنج، حتى إنهم حلقوا لحاهم، وشدوا الزنانير، واستصحبوا في البطسة معهم شيئا من الخنازير، وقدموا بها على مراكب الفرنج، فاعتقدوا أنهم منهم، وهي سائرة كأنها السهم، إذا خرج من كبد القوس، فحزهم الفرنج غائلة الميناء، من ناحية البلد، فاعتذروا بأنهم مغلوبون عنها، والريح قوية ولا يمكنهم أن يقفوا ولا ينصرفوا، وما زالوا كذلك، حتى ولجوا الميناء، فأفرغوا ما كان معهم من الميرة، والحرب خدعة، فعبرت الميناء، وعين الكفر عَبرى فامتلأ الثغر بها خيرا، فكفتهم إلى أن قدمت عليهم تلك البطس الثلاث المصرية، وكانت البلد يكتنفها برجان، يقال لأحدهما برج الذبان، فاتخذت الفرنج بطسة عظيمة لها خرطوم وفيه محركات، إذا أرادوا أن يضعوه على شيء من الأسوار، والأبرجة، قلبوه فوصلوا، إلى ما أرادوا، فعظم أمر هذه البطسة على المسلمين، ولم يزالوا في أمرها محتالين، حتى أرسل الله عليها شواظا من نار، فأحرقها، وأغرقها، وذلك أن الفرنج أعدوا فيها نفطا كثيرا، وحطبا جزلا، وأخرى خلفها، فيها حطب محض، فلما أراد المسلمون المحافظة على الميناء، أرسلوا النفط على بطسة الحطب، فاحترقت وهي سائرة بين بطس المسلمين واحترقت الأخرى وكان في بطسة أخرى لهم مقاتلة تحت قبو، قد أحكموه فيها، فلما أرسلوا النفط على برج الذبان، انعكس الأمر عليهم، بقدرة الله تعالى، وذلك لشدة الهواء تلك الليلة، فما تعدت النار بطستهم، فاحترقت، وتعدى الحريق إلى الأخرى فغرقت، ووصل إلى بطسة المقاتلة فتلفت، وهلكت بمن فيها، فأشبهوا من سلف من أهل الكتاب من الكافرين، في قوله تعالى: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الحشر: ٢].

فصل

وفي ثالث رمضان، اشتد حصار الفرنج للمدينة، حتى نزلوا إلى الخندق فبرز إليهم أهل البلد، فقتلوا منهم خلقا كثيرا، وتمكنوا من حريق الكبش الذي اتخذوه لحصار، الأسوار، وسرى حريقه إلى السفور، وارتفعت له لهبة عظيمة، في عنان السماء، ثم اجتذبه المسلمون إليهم بكلاليب من حديد في سلاسل، فحصّلوه عندهم، وألقوا عليه الماء البارد، فبرد بعد أيام، فكان فيه من الحديد مائة قنطار، بالدمشقي ولله الحمد والمنة.

وكان مع السلطان في الثامن والعشرين من رمضان، الملك زين الدين، صاحب إربل فتوفي، في عكا، فتأسف الناس عليه، لشبابه، وغربته، وجودته، وعزى أخاه مظفر الدين فيه، وهو الذي قام في الملك من بعده، وسأل من صلاح الدين أن يضيف إليه شهرزور، ويترك حران،والرها، وسميساط، وغيرها، وتحمل مع ذلك خمسين ألف دينار نقدا، فأجيب إلى ذلك، وكتب له تقليدا، وعقد له لواء، وأضيف مما تركه إلى الملك المظفر تقي الدين عمر ابن أخي السلطان صلاح الدين.

فصل

وكان القاضي الفاضل بمصر يدبر الممالك بها ويجهز إلى السلطان ما يحتاج إليه منها من الأموال، وعَمَل الأسطول، والكتب السلطانية واردة إليه في كل حين، ويستشيره فيما يصلح به أنور المسلمين، وكذلك الكتب الفاضلة قادمة على السلطان في كل أوان، فمنها كتاب يذكر فيه أن سبب هذا التطويل في الحصار إنما هو بسبب، كثرة الذنوب، وارتكاب المحرم بين الناس، ويقول في بعضها: فإن الله لا ينال ما عنده إلا بطاعته، ولا يفرج الشدائد إلا بالرجوع إليه، وامتثال أمره، فكيف لا يطول الحصار، والمعاصي في كل مكان بادية، والمظالم في كل موضع فاشية، وقد صعد إلى الله منها، ما لا يتوقع بعدها إلا ما يُستعاذ منه وفيه أنه قد بلغه أن بيت المقدس قد ظهر فيه المنكرات والفواحش والظلم في بلاده ما لا يمكن تلافيه إلا بكلفة كثيرة.

ومنها كتاب يقول فيه، إنما أتينا من قبل أنفسنا، ولو صدقنا، لعجل الله لنا عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به، فلا يستخصم أحد إلا نفسه وعمله ولا يرج إلا ربه ولا يغتر بكثرة العساكر والأعوان، ولا فلان، الذي يعتمد عليه أن يقاتل ولا فلان الذي ينتظر أن يسير، فكل هذه مشاغل عن الله، ليس النصر بها، وإنما النصر من عند الله، ولا نأمن أن يكلنا الله إليها، والنصر به، واللطف منه والعادة الجملية، ونستغفر الله تعالى من ذنوبنا، فلولا أنها تسد طريق دعائنا، لكان جواب دعائنا قد نزل، وفيض دموع الخاشعين قد غسل، ولكن في الطريق عائق، خار الله لمولانا في القضاء السابق واللاحق.

ومن كتاب آخر، يتألم فيه لما عند السلطان من الضعف، في جسمه، بسبب ما حمل على قلبه، مما هو فيه من الشدائد، أثابه الله تعالى يقول فيه: وما في نفس المملوك شائبة، إلا بقية هذا الضعف، الذي في جسم مولانا، فإنه بقلوبنا، وتفديه بأسماعنا، وأبصارنا.

بنا معشر الخدام ما بك من أذى وإن أشفقوا مما أقول فيي وحدي

وقد أورد الشيخ شهاب الدين، في الروضتين [١٦٧/٢] في هذا المكان كتبا عدة من الفاضل إلى السلطان، فيها فصاحة، وبلاغة، ومواعظ، وتحضيض على الجهاد، يعجز عن مثلها شجعان، وهي جديرة أن تكتب على بماء الذهب على قلائد العقيان فرحمه الله من إنسان، ما أنصحه، ومن وزير، ما كان أنصحه، ومن عقل ما كان أرجحه.

فصل

وكتب القاضي الفاضل كتابا بليغاً عن السلطان إلى ملك المغرب أمير المسلمين وسلطان جيش الموحدين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، يستنجده، فمنه إرسال مراكب في البحر، تكون عونا للمسلمين على المراكب الفرنجية فمنه عبارة طويلة، فصيحة، بليغة، مليحة، حكاها أبو شامة بطولها. وحسنها وبعث السلطان صلاح الدين، مع الكتاب، سنية من التحف، والألطاف، صحبة الأمير الكبير شمس الدين أبي الحزم عبد الرحمن بن منقذ، وسار في البحر في ثامن ذي القعدة، فدخل على سلطان المغرب يعقوب، في العشرين من ذي الحجة، فأقام عنده إلى عاشوراء من المحرم، من سنة ثمان وثمانين، ولم يفد ذلك الإرسال شيئا، لأنه تغضب، إذ لم يلقب بأمير المؤمنين، وكانت إشارة الفاضل إلى عدم الإرسال إليه والتعويل عليه، ولكن وقع ما وقع، بمشيئة الله تعالى.

فصل

وفيها حصل للناصر صلاح الدين، سوء مزاج، من كثرة ما يكابده من الأمور، التي هي أمرُّ من الأجاج فطمع العدو المخذول لعنهم الله، في

حوزة الإسلام، فتجرد جماعة منهم للقتال، وثبت آخرون على الحصار، فأقبلوا في عدد كثير، وعدد، فرتب السلطان الجيوش، يمنة، ويسرة، وقلباً، وجناحين، فلما رأى العدو الجيش الكثيف، فروا، فقتلوا منهم خلقا كثيرا، وجما غفيرا و لله الحمد.

فصل

ولما دخل فصل الشتاء وانشمرت مراكب الفرنج عن البلد، خوفا من الهلاك، بسبب اغتلام البحر، سأل من بالبلد من المسلمين من السلطان أن يريحهم مما هم فيه من الحصر العظيم، والقتال ليلا ونهارا، وأن يرسل إلى البلد بدلهم، فرق لهم السلطان، وعزم على ذلك، وكانوا قريبا من عشرين ألف مسلم ما بين أمير، ومأمور، فجهز جيشا آخر غيرهم، قالوا ولم يكن ذلك برأي جيد، ولكن ما قصد السلطان إلا خيرا، وأن هؤلاء يدخلون البلد وهم جُدَد الهِمَم، ولهم عزم قوي، وهم في راحة بالنسبة إلى ما أولئك، ولكن أولئك الذين كانوا بالبلد، وخرجوا منه، كانت لهم خبرة بالبلد، وبالقتال، وكان لهم صبر، وجلد، وقد تمونوا فيها مؤنة تكفيهم سنة فانمحقت بسبب ذلك وقدم بطش من مصر فيه ميرة تكفي أهل البلد سنة كاملة فقدر الله العظيم وله الأمر من قبل ومن بعد أنها لما توسطت البحر، واقتربت من الميناء، هاجت عليها ريح عظيمة، فتلعّبت بتلك البطس على عظمها فاختبطت، واضطربت، وتصادمت، فتكسرت، وغرقت، وغرق ما كان فيها من الميرة والبحارة، فدخل بسبب ذلك وهن عظيم على المسلمين، واشتد الأمر جدا، ومرض السلطان، وازداد مرضا إلى مرضه عافاه اللّه وكان ذلك عونا للعدو المخذول على أخذ البلد ولا قوة إلا باللّه، وذلك في ذي الحجة من هذه السنة، وكان المقدم على الداخلين إلى عكا الأمير سيف الدين علي بن أحمد بن المشطوب أيده اللّه.

وفي اليوم السابع من ذي الحجة سقطت ثلمة عظيمة من سور عكا فبادر الفرنج إليها، فسبقهم المسلمون إلى سدها بصدورهم، وقاتلوا دونها بنحورهم، وما زالوا يمانعون عنها، حتى بنوها أشد مما كانت، وأقوى، وأحسن.

ووقع في هذه السنة، وباء عظيم في المسلمين، والكافرين، فكان السلطان يقول في ذلك.

اقتلوني ومالكا واقتلوا مالكا معي

واتفق موت ابن ملك الألمان لعنه اللّه في ثاني ذي الحجة من هذه السنة، وجماعة من كبراء الكندهرية، وسادات الفرنج لعنهم اللّه، فحزن الفرنج على ابن ملك الألمان، حزناً عظيماً وأوقدوا نارا عظيمة، في كل خيمة، وصار كل يوم، يهلك من الفرنج المائة، والمائتان، واستأمن إلى السلطان جماعة منهم، من شدة ما هم فيه من الجوع، والضيق، والحصر، وأسلم خلق كثير منهم فلله الحمد والمنة.

في هذا الشهر قدم القاضي الفاضل من الديار المصرية على السلطان وكان قد طال شوق كل منهما إلى صاحبه، فأفضى كل منهما إلى صاحبه ما كان يسره ويكتمه من الآراء التي فيها مصالح المسلمين. وقدم وزير الصدق على السلطان الموفق والأمير المؤيد رحمهما اللّه تعالى.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ ملك الألمان: الذي أقبل في مائتي ألف مقاتل ويقال في ثلاثمائة ألف مقاتل من أقصى بلاده فاجتاز بالقسطنطينية وما بعدها من البلدان يريد انتزاع بلاد الشام فهلكوا في الطرقات، فلم يصل إلى الفرنج إلا في خمسة آلاف، وقيل في ألفي مقاتل، وكان قد عزم على دمار الإسلام، واستنقاذ البلاد بكمالها، من أيدي المسلمين، انتصارا في زعمه لبيت المقدس الذي استنقذه الملك صلاح الدين من أيدي المشركين فلم يزل اللعين يتناقص جيشه ويتفانون في كل موطن وموضع وقدر اللّه هلاكه بالغرق، كما أهلك فرعون، لعنها اللّه تعالى، وذلك أنه نزل يسبح في بعض الأنهار فاحتمله الماء قعراً فألجاه إلى جذع شجرة هناك فشدخت رأسه ومات من ساعته، لعنه اللّه، ثم ملك بعده ولده الأصغر، فأقبل بمن بقي معه من الجيش إلى الفرنج، وهم في حصار عكا، في خمسة آلاف مقاتل، وقيل: في ألف مقاتل. وكان المسلمون قد حملوا من قدومهم همّاً عظيماً وخافوا خوفاً شديداً، فكفى اللّه المؤمنين القتال، وكان اللّه قوياً عزيزاً، ثم توفي ابنه في أواخر هذه السنة، فلله الحمد والمنة.

■ محمد بن محمد بن عبد اللّه: أبو حامد قاضي القضاة بالموصل، محيي الدين بن قاضي القضاة كمال الدين الشهرزوري الشافعي، أثنى عليه العماد الكاتب، وأنشد له من شعره قوله:

قامت بإثبات الصفات أدلة	قصمت ظهور أئمة التعطيل
وطلائع التنزيه لما أقبلت	هزمت ذوي التشبيه والتمثيل
فالحق ما صرنا إليه جميعنا	بأدلة الأخبار والتنزيل
من لم يكن بالشرع مقتديا فقد	ألقاه فرط الجهل في التضليل

ثم دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة

فيها قدم ملك الإفرنسيس، وملك انكلترا، وغيرهما من ملوك البحر الفرنج، على أصحابهم الفرنج إلى عكا، وتمالؤوا على أخذ عكا في هذه السنة، كما سيأتي تفصيله.

وقد استهلت هذه السنة والحصار الشديد على عكا على حاله من الجانبين، وقد استكمل دخول العدو إلى البلد، والملك العادل مخيم إلى جانب البحر، ليتكامل دخولهم، ودخول ميرتهم.

وفي ليلة مستهل ربيع الأول منها خرج المسلمون من عكا فهجموا على مخيم الفرنج فقتلوا منهم خلقا كثيرا، وسبوا، وغنموا شيئا كثيرا، سبوا اثنتي عشرة امرأة، وانكسر مركب عظيم للفرنج، فغرق ما فيه منهم، وأسر باقيهم.

وأغار صاحب حمص أسد الدين بن شيركوه بن ناصر الدين محمد بن شيركوه على سرح الفرنج بأراضي طرابلس فاستاق منهم شيئا كثيرا من الخيول، والأبقار، والأغنام، وظفر اليزك بخلق كثير من الفرنج فقتلوهم، ولم يقتل من المسلمين سوى طواشي صغير عثر به فرسه.

وفي ثاني عشر ربيع الأول، وصل إلى الفرنج ملك الفرنسيين فليب في ست بطس ملعونة، مشحونة بعبدة الصليب، وحين وصل إليهم، وقدم عليهم، لم يبق لأحد من ملوكهم معه كلام ولا حكم، لعظمته عندهم، وقدم معه باز عظيم أبيض، وهو الباز الأشهب، هائل، فطار من يده، فوقع على سور عكا فأمسكه أهلها، وبعثوا به إلى السلطان صلاح الدين، فبذل الفرنجي فيه ألف دينار، فلم يُجاب إلى ذلك، وقدم بعده كند فرير، وهو من أكابر ملوكهم أيضا، ووصلت سفن ملك الإنكليز، ولم يجيء ملكهم،

لاشتغاله بجزيرة قبرص، وأخذها من يد صاحبها.

وتواصلت ملوك الإسلام أيضا من بلدانها، في أول فصل الربيع، إلى خدمة السلطان الناصر.

قال العماد: وقد كان للمسلمين لصوص، يدخلون إلى خيام الفرنج، فيسرقون، حتى أنهم كانوا يسرقون الرجال، فاتفق أن بعضهم أخذ صبيا رضيعا من مهده ابن ثلاثة أشهر فوجدت عليه أمه وجدا شديدا، واشتكت إلى ملوكهم، فقالوا لها: إن سلطان المسلمين رحيم القلب، وقد أذنّا لك أن تذهبي إليه، فتشتكي أمرك إليه. قال العماد: فجاءت إلى السلطان، وأنا واقف معه فبكت بكاءً شديداً وجعلت تمرّغ وجهها على الأرض، فسألها عن أمرها فانهت إليه حالها فرق لها رقة شديدة، حتى دمعت عينه. ثم أمر بإحضار ولدها،فإذا هو قد بيع في السوق، فرسم بدفع ثمنه إلى المشتري، ولم يزل واقفا حتى جيء بالغلام، فأخذته أمه، وأرضعته ساعة، وهي تبكي من شدة فرحها، وشوقها إليه، ثم أمر بحملها إلى قومها، على فرس مكرمة، رحمه الله تعالى، وعفا عنه.

فصل في كيفية أخذ العدو المخذول مدينة عكا من يدي السلطان قسراً

لما كان شهر جمادى الأولى، اشتد حصار الفرنج، لعنهم الله، لمدينة عكا، وتمالؤوا عليها، من كل فج عميق، وقدم عليهم ملك الإنكليز، في جم غفير، وجمع كثير، في خمس وعشرين قطعة، مشحونة بالمقاتلة، وابتلي أهل الثغر منهم، ببلاء لا يشبه ما قبله، فعند ذلك حركت الكوسات في البلد، وكانت علامة ما بينهم وبين السلطان، فحرك السلطان كوساته، فاقترب من البلد وتحول إلى قريب منه ليشغلهم عن البلد وقد أحاطوا به من كل جانب، ونصبوا عليه سبعة مجانيق وهي تضرب في البلد ليلا ونهارا، ولا سيما على برج عين البقر، حتى أثرت به أثرا بينا، وشرعوا في ردم الخندق، بما أمكنهم من دواب ميتة، ومن قتل منهم، ومن مات أيضا ردموا به، وكان أهل البلد يلقون ما ألقوه فيه إلى البحر. وظفر ملك الإنكليز ببطسة عظيمة للمسلمين، قد أقبلت من بيروت، مشحونة بالأمتعة، والأسلحة، فأخذها، وكان واقفا في البحر، في أربعين مركبا، لا يترك شيئا يصل إلى البلد بالكلية، وكان بالبطسة ستمائة من المقاتلين الصناديد الأبطال، فهلكوا عن آخرهم، رحمهم الله. فإنه لما أحيط بهم، من الجوانب كلها وتحققوا إما الغرق، أو القتل، خرقوا جوانبها كلها، فغرقت، ولم يقدر الفرنج على أخذ شيء منها، لا من الميرة، ولا من الأسلحة، وحزن المسلمون على هذا المصاب، حزنا عظيما، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولكن جبر الله سبحانه هذا البلاء، بأن أحرق المسلمون في هذا اليوم للفرنج دبابة كانت أربع طبقات، الأولى من الخشب، والثانية من رصاص، والثالثة من حديد، والرابعة من نحاس، وهي مشرفة على السور، والمقاتلة فيها، وقد قلق أهل البلد منها، بحيث حدثتهم أنفسهم، من خوفهم من شرها، بأن يطلبوا الأمان من الفرنج، ويسلموا البلد، ففرج الله عن المسلمين، وأمكنهم من حريقها، اتفق لهم ذلك في هذا اليوم، الذي غرقت فيه البطسة المذكورة، فأرسل أهل البلد يشكون إلى السلطان شدة الحصار، وقوته عليهم منذ قام ملك الإنكليز لعنه الله ومع هذا قد مرض هو وجرح ملك الافرنسيين أيضا، ولا يزيدهم ذلك إلا شدة وغلظة، وعتوا وبغيا، وفارقهم المركيس، وسار إلى بلدة صور خوفا منهم أن يخرجوا ملكها من يده.

وبعث ملك الإنكليز إلى السلطان صلاح الدين، يذكر له أن عنده جوارح، قد جاء بها من البحر، وهو على نية إرسالها إليه، ولكنها قد ضعفت، وهو يطلب لها دجاجا وطيرا لتقوى به، فعرف أنه إنما يطلب ذلك لنفسه، يتلطف، فأرسل إليه شيئا كثيرا من ذلك كرما وسجيّة وحشمة، ثم أرسل يطلب منه فاكهة وثلجا، فأرسل إليه أيضا، فلم يفد معه الإحسان، بل لما عوفي، عاد إلى شر مما كان، واشتد الحصار ليلا ونهارا، فأرسل أهل البلد يقولون للسلطان إما أن تعملوا معنا شيئا غدا، وإلا طلبنا من الفرنج الصلح، والأمان، فشق ذلك على السلطان، وذلك لأنه كان قد بعث إليها أسلحة الشام، والديار المصرية، وسائر السواحل، وما كان غنمه من وقعة حطين، ومن القدس فهي مشحونة بذلك فعند ذلك عزم السلطان على الهجوم على العدو، فلما أصبح، ركب في جيشه، فرأى الفرنج قد ركبوا من وراء خندقهم، والرجالة منهم قد ضربوا سورا حول الفرسان، وهم قطعة من حديد صماء، لا ينفذ فيهم شيء فأحجم عنهم، لما يعلم من نكول جيشه عما يريده وتحدوه عليه شجاعته رحمه الله تعالى.

هذا، وقد اشتد الحصار على البلد جدّاً، ودخلت الرجالة منهم إلى الخندق، وعلقوا بدنة في السور، وحشوها، وأحرقوها، ودخلت الفرنج إلى البلد، فمانعهم المسلمون، وقاتلوهم أشد القتال، وقتلوا من رؤوسهم ستة أنفس، فاشتد حنق الفرنج على المسلمين جدا بسبب ذلك.

وجاء الليل، فحال بين الفريقين، فلما أصبح الصباح، خرج أمير المسلمين بالبلد سيف الدين المشطوب، فاجتمع بملك الافرنسيين، وطلب منهم الأمان على أنفسهم، ويتسلمون منه البلد، فلم يجبهم إلى ذلك، وقال: بعدما سقط السور جئت تطلب الأمان؟ فأغلظ له الأمير المشطوب في الكلام، ورجع إلى البلد في حالة الله بها عليم، فلما أخبر أهل البلد بما وقع، خافوا خوفا شديدا، وأرسلوا إلى السلطان، يعلمونه بما وقع، فأرسل إليهم أن يسرعوا الخروج من البلد في البحر، ولا يتأخروا عن هذه الليلة، ولا يبقى بها مسلم، فتشاغل كثير ممن كان بها في جمع الأمتعة، والأسلحة، وتأخروا عن الخروج تلك الليلة، فما أصبح الخبر إلا عند الفرنج من مملوكين صغيرين سمعا بما رسم به السلطان، فهربا إلى قومهما، فأخبراهم بذلك، فاحتفظوا على البحر احتفاظا عظيما، فلم يتمكن أحد من أهل البلد أن يتحرك بحركة، ولا خرج منها شيء بالكلية، وهذان المملوكان، كانا أسيرين، قد أسرهما السلطان، من أولاد الفرنج، وعزم السلطان على كبس العدو في هذه الليلة، فلم يوافقه الجيش على ذلك، وقالوا لا نخاطر بعسكر المسلمين، فلما أصبح بعث إلى ملوك الفرنج يطلب منهم الأمان لأهل البلد، على أن يطلق عدتهم من الأسرى، الذين تحت يده من الفرنج، ويزيدهم على ذلك صليب الصلبوت، فأبوا إلا أن يطلق لهم كل أسير تحت يده، ويعيد لهم جميع البلاد الساحلية، التي أخذت منهم، وبيت المقدس، فأبى من ذلك، وترددت المراسلات في ذلك، والحصار يتزايد على أسوار البلد. وقد تهدمت منه ثلم كثيرة، وأعاد المسلمون كثيرا منها، وسدوا ثغر تلك الأماكن بنحورهم، رحمهم الله، وصبروا صبرا عظيما، وصابروا العدو، ثم كان آخر أمرهم الشهادة صبراً، وقد كتبوا إلى السلطان، في آخر أمرهم، يقولون له: يا مولانا لا تخضع لهؤلاء الملاعين، الذين قد أبوا عليك الإجابة، إلى ما عدوتهم فينا، فإنا قد بايعنا الله على الجهاد، حتى نقتل عن آخرنا، وبالله المستعان.

فلما كان وقت الظهر، في اليوم السابع عشر، من جمادى الآخرة، من

هذه السنة، ما شعر الناس إلا وأعلام الكفار قد ارتفعت، وصلبانهم، ونارهم على أسوار البلد، وصاح الفرنج صيحة واحدة، فعظمت عند ذلك المصيبة على المسلمين، واشتد حزن الموحدين، وانحصر كلام العقلاء من الناس في إنا لله وإنا إليه راجعون، وغشي الناس بهتة عظيمة، وحيرة شديدة، ووقع في عسكر السلطان الصياح والعويل، ودخل المركيس لعنه الله، وقد عاد إليهم من صور بهدايا، بهدايا إلى الملوك، فدخل في هذا اليوم عكا، بأربعة أعلام للملوك، فنصبها في البلد، واحدا على المأذنة يوم الجمعة، وآخر على القلعة، وآخر على برج الداوية، وآخر على برج القتال، عوضا عن أعلام السلطان، وتميز المسلمون الذين بها، إلى ناحية من البلد معتقلين، محتاط بهم، مضيق عليهم، وقد أسرت النساء، والأبناء، وغنمت منهم أموال، وقيدت الأبطال، وأهين الرجال، ولكن الحرب سجال، والحمد لله على كل حال.

فعند ذلك أمر السلطان أيده الله الجيش بالتأخر عن هذه المنزلة المضايقة إلى التي بعدها وتأخر هو جريدة، لينظر ماذا يصنعون، وما عليه يعولون، والفرنج بالاستيلاء على البلد مشغولون وبتحصيل الأموال جملة وتفصيلاً، مدهوشون، ثم سار السلطان إلى العسكر، وعنده من الهم ما لا يعلمه إلا الله، وجاءت الملوك الإسلامية، والأمراء، وكبراء الدولة، يعزونه فيما وقع، ويسلونه على ذلك، ثم راسل ملوك الفرنج في خلاص من بأيديهم من الأسارى فطلبوا منه عدتهم من أسراهم، ومائة ألف دينار، وصليب الصلبوت إن كان باقيا، فأرسل فأحضر المال والصليب، ولم يتهيأ له من الأسارى إلا ستمائة أسير، فطلب الفرنج منه أن يريهم الصليب من بعيد، فلما رفع لهم سجدوا له، وألقوا أنفسهم إلى الأرض، وبعثوا يطلبون منه ما أحضره من المال، والأسارى، والصليب فامتنع، إلا أن يرسلوا إليه مَنْ بأيديهم من الأسارى، أو يبعثوا له برهائن على ذلك، فقالوا: لا، ولكن أرسل لنا ذلك، وارض بأمانتنا، فعرف أنهم يريدون الغدر والمكر، فلم يرسل إليهم شيئا من ذلك، وأمر برد الأسارى إلى أهليهم بدمشق، ورد الصليب إلى دمشق مهانا، وأبرزت الفرنج خيامهم، إلى ظاهر البلد، وأحضروا ثلاثة آلاف من المسلمين في صعيد واحد، رحمهم الله، فأوقفوهم بعد العصر، وحملوا عليهم حملة رجل واحد فقتلوهم رحمهم الله، وأكرم مثواهم، ولم يستبقوا بأيديهم من المسلمين إلا أميرا، أو سريّاً، أو من يرونه في عملهم قويا، أو امرأة أوصبيّاً. وجرى الذي كان، وقضي الأمر الذي فيه تستفتيان. وكان مدة إقامة صلاح الدين على عكا، صابرا، مصابرا، مرابطا، سبعة وثلاثين شهرا، وجملة من قتل من الفرنج خمسين ألفا.

فصل فيما جري من الحوادث بعد أخذ الفرنج عكا:

ساروا برمتهم قاصدين عسقلان، والسلطان بجيشه يسايرهم، ويعارضهم منزلة منزلة، والمسلمون يتخطفونهم، ويسلبونهم في كل مكان، وكل أسير أُتي به إلى السلطان، يأمر بقتله في مكانه، وجرت بين الجيشين، وقعات متعددات، ثم طلب ملك الإنكليز أن يجتمع بالملك العادل، أخي السلطان، يطلب منه الصلح والأمان، على أن يعاد لأهلها بلاد السواحل، فقال له العادل: إن دون ذلك قتل كل فارس منكم وراجل. فغضب اللعين، ونهض من عنده وهو متغضب، ثم اجتمعت الفرنج على حرب السلطان، عند غابة أرسوف، فكانت النصرة للمسلمين، فقتل من الفرنج عند غابة أرسوف، ألوف بعد ألوف، وقتل من المسلمين خلق كثير أيضا، وقد كان الجيش فر عن السلطان، في أول الوقعة، ولم يبق معه سوى سبعة عشر مقاتلا، وهو ثابت صابر، والكوس تدق لا تفتر، والأعلام منشورة، ثم تراجع الناس، فكانت النصرة للمسلمين، والكثرة على الكافرين والحمد لله رب العالمين.

ثم تقدم السلطان بعساكره، فنزل ظاهر عسقلان، فأشار ذوو الرأي على السلطان بتخريب عسقلان، خشية أن يتملكها الكفار، ويجعلونها وسيلة إلى أخذ بيت المقدس، صانه الله تعالى، أو يجري عندها من الحرب والقتال، نظير ما كان عند عكا، أو أشد، فبات السلطان ليلته مفكرا في ذلك، فلما أصبح، وقد أوقع الله في قلبه، أن خرابها هو المصلحة، فذكر ذلك لمن حضره، وقال لهم: والله، لموت جميع أولادي، أهون عليّ من تخريب حجر واحد منها، ولكن إذا كان خرابها فيه مصلحة للمسلمين، فلا بأس به.

ثم طلب الولاة، وأمرهم بتخريب البلد، سريعا، قبل وصول العدو المخذول إليها، فشرع الناس في خرابه، وأهله ومن حضره يتباكون على حسنه، وطيب مقيله، وكثرة زروعه وثماره، وغزارة أنهاره ونضارة، وأزهاره، وكثرة رخامه وحسن بنائه. وألقيت النيران في سقوفه، وأتلف ما فيه من الغلات، التي لا يمكن تحويلها، ولا نقلها، ولم يزل الخراب، والحريق فيه، من جمادى الآخرة، إلى سلخ شعبان من هذه السنة.

ثم رحل عنها السلطان في ثاني رمضان، وقد تركها قاعا صفصفا ليس فيها معلَم لأحد، ثم اجتاز بالرملة، فهدم حصنها، وخرب كنيسة لد، وزار بيت المقدس، وعاد إلى المخيم سريعا، تقبّل الله منه وبعث ملك الإنكليز إلى السلطان، يقول له: إن الأمر قد طال، وهلك الفرنج والمسلمون، وإنما مقصودنا ثلاثة أشياء لا سواها: رد الصليب، وبلاد الساحل، وبيت المقدس، لا ترجع عن هذه الثلاثة، وبنا عين تطرف، فأرسل إليه السلطان جواب ذلك أشد جواب، وأسوأ خطاب، فعزمت الفرنج على قصد بيت المقدس، فتقدم السلطان بجيشه إلى القدس، وسكن في دار القساقس، قريبا من قمامة، في ذي القعدة، وشرع في تحصين البلد، وتعميق خنادقه، وعمل فيه بنفسه، وأولاده، وعمل فيه الأمراء، والقضاة، والعلماء والصوفية بأنفسهم، وكان وقتا مشهودا، واليزك حول البلد من ناحية الفرنج، وفي كل وقت يستظهرون على الفرنج، ويقتلون، ويأسرون، ويغنمون منهم، ولله الحمد والمنة، وانقضت هذه السنة. والأمر على ذلك.

وفي هذه السنة فيما ذكره العماد الكاتب تولى القضاء محيي الدين محمد بن الزكي قضاء دمشق.

وفيها عدى أمير مكة، داود بن عيسى بن فليتة بن هاشم بن محمد بن أبي قاسم الحسني، فأخذ أموال الكعبة، حتى انتزع طوقا من فضة، كان على دائرة الحجر الأسود، كان قد لم شعثه، حين ضربه ذلك القرمطي بالدبوس، فلما بلغ السلطان خبره من الحجيج عزله، وولى أخاه مُكثراً، ونقض القلعة، التي كان بناها أخوه على جبل أبي قبيس، وأقام داود بنخلة حتى توفي بها سنة تسع وثمانين.

وممن توفي فيها من الأعيان

الملك

■ المظفر: تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، كان عزيزا عند عمه السلطان الملك الناصر صلاح الدين، استنابه بمصر، وغيرها من البلاد، ثم

أقطعه حماة، ومدنا كثيرة حولها، ومن بلاد الجزيرة، وكان مع عمه السلطان على عكا ثم استأذنه أن يذهب ليشرف على بلاده المجاورة للفرات، فلما صار إليها، اشتغل بها، وامتدت عينه إلى أخذ غيرها، من أيدي الملوك المجاورين له، فقاتلهم، فاتفق موته، وهو في كذلك، والسلطان صلاح الدين متغضب عليه، بسبب اشتغاله بذلك عنه، وحملت جنازته، حتى دفن بحماة، وله مدرسة هناك هائلة كبيرة، وكذلك له بدمشق مدرسة مشهورة، وعليها أوقاف كثيرة مبرورة، وقد أقام بالملك بعده ولده المنصور ناصر الدين محمد، فأقره صلاح الدين على ذلك، بعد جهد جهيد، ووعد ووعيد، ولولا السلطان الملك العادل أخو صلاح الدين، تشفع فيه، لما أقره في مكان أبيه، ولكن الله سلم، وكانت وفاة تقي الدين الجمعة، تاسع عشر رمضان، من هذه السنة، وكان شجاعا باسلا وهُماماً فاتكا كريما كاملا رحمه الله.

الأمير حسام الدين محمد بن عمر

■ ابن لاجين: أمه ست الشام بنت أيوب، واقفة الشاميتين بدمشق، توفي في ليلة الجمعة، تاسع عشر رمضان أيضا، ففجع السلطان بابن أخيه، وابن أخته، في ليلة واحدة، وقد كانا له من أكبر الأعوان، وأعز الإخوان ودفن حسام الدين في التربة الحسامية، وهي التي أنشأتها أمه، بمحلة العونية، وهي الشامية البرانية.

الأمير علم الدين

■ سليمان بن جندر الحلبي: كان من أكابر الأمراء في الدولة الصلاحية، وفي خدمة السلطان حيث كان، وهو الذي أشار على السلطان بتخريب عسقلان، واتفق مرضه بالقدس، فاستأذن في أن يمرض بدمشق، فاذن له، فسار حتى وصل إلى غباغب فمات بها، في أواخر ذي الحجة.

وفي رجب منها، توفي الأمير الكبير نائب دمشق حرسها الله تعالى:

■ الصفي بن القابض: وقد كان من أكبر أصحاب السلطان قبل الملك، ثم استنابه على دمشق، حتى توفي بها، في هذه السنة رحمه الله.

وفي ربيع الأول توفي:

الطبيب الماهر الحاذق

■ أسعد بن المطران: وقد شرف بالإسلام، وشكره على طبه الخاص والعام رحمه الله.

الشيخ نجم الدين

■ الخُبُوشاني: الذي بنى تربة الشافعي بمصر، بأمر السلطان صلاح الدين، ووقف عليها الأوقاف السنية، وولاه تدريسها، ونظرها، وقد كان السلطان يحترمه، ويكرمه، وقد ذكرته في طبقات الشافعية، وما صنفه في المذهب، من شرح الوسيط، وغيره.

ولما توفي الخبوشاني، طلب التدريس جماعة، فشفع الملك العادل عند أخيه، لشيخ الشيوخ أبي الحسن محمد بن حمويه، فولاه إياها، ثم عزله عنها، بعد موت السلطان، واستمرت عليها أيدي بني السلطان، واحدا بعد واحد، ثم خلعت بعد ذلك عادت إليها الفقهاء، والمدرسون والله تعالى أعلم بالصواب.

ثم دخلت سنة ثمان وثمانين وخمسمائة

استهلت والسلطان صلاح الدين مخيم بالقدس الشريف، وقد قسم السور بين أولاده، وأمرائه، وهو يعمل فيه بنفسه، ويحمل الحجر بين القربوسين وبينه، والناس يقتدون به وبالعلماء، والفقراء يعملون بانفسهم، والفرنج لعنهم الله حول البلد، من ناحية عسقلان، وما والاها، لا يتجاسرون أن يقربوا البلد، من الحرس واليزك الذين للسلطان حول القدس، إلا أنهم على نية محاصرة القدس مصممون، ولكيد الإسلام مجمعون، وهم الحرس تارة يغلبون، وتارة يغلبون، وتارة ينهبون، وتارة ينهبون.

وفي ربيع الآخر، وصل إلى السلطان، الأمير سيف الدين المشطوب إلى السلطان وهو بالقدس من الأسر، وكان نائبا على عكا حين أخذت، فافتدى نفسه منهم بخمسين ألف دينار، فأعطاه السلطان شيئا كثيرا منها، واستنابه على مدينة نابلس فتوفي بها في شوال من هذه السنة.

وفي ربيع الآخر، قتل المركيس صاحب صور، لعنه الله، أرسل إليه ملك الإنكليز، اثنين من الفداوية، فقتلوه: أظهرا التنصر، ولزما الكنيسة، حتى ظفرا بالمركيس، فقتلاه، وقتلا أيضا، فاستناب ملك الإنكليز عليها ابن أخته لأمه الكندهري، وهو ابن أخت ملك الإفرنسيس لأبيه، فهما خالاه، ولما صار إلى صور، بنى بزوجة المركيس، بعد موته بليلة واحدة، وهي حبلى أيضا، وذلك لشدة العداوة التي كانت بين الإنكليز، وبينه، وقد كان السلطان صلاح الدين يبغضهما، ولكن المركيس، كان قد صانعه بعض شيء، فلم يهن عليه قتله.

وفي تاسع جمادى الأولى، استولى الفرنج، لعنهم الله، على قلعة الداروم، فخربوها، وقتلوا خلقا كثيرا من أهلها، وأسروا طائفة من الذرية، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ثم أقبلوا بخيلهم ورجلهم جملة، نحو القدس الشريف، فبرز إليهم السلطان، في حزب الإيمان وهو مشتمل على الرجالة والفرسان والأبطال والشجعان، فلما تراءى الجمعان، نكص حزب الشيطان على عقبيه وانقلبوا راجعين، فرارا من قبل القتال، والنزال، وعاد السلطان إلى القدس الشريف. ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْراً، وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيّاً عَزِيزاً﴾ [الأحزاب: ٢٥].

ثم إن ملك الإنكليز، لعنه الله وهو أكبر ملوك الفرنج ذلك الحين ظفر ببعض قفول المسلمين، فكبسهم ليلا، فقتل منهم خلقا كثيرا، وأسر منهم خمسمائة أسير، وغنم منهم شيئا كثيرا من الأموال، والجمال، والخيل، والبغال، فكان جملة الجمال ثلاثة آلاف بعير، فتقوى الفرنج بذلك شيئاً كثيراً وساء ذلك السلطان مساءة عظيمة جدا، وخاف من غائلة ذلك، واستخدم الإنكليز الجمالة على الجمال، والخربندية على البغال، والساسة على الخيل، وأقبل وقد قويت نفسه جدا، وصمم على محاصرة القدس، وأرسل إلى ملوك الفرنج، الذين بالساحل، فاستحضرهم، ومن معهم من المقاتلة، فتعبأ السلطان لهم، وتهيأ، وأكمل السور، وعمر الخنادق، ونصب الآلات والمنجانيق، وأمر بتغوير ما حول القدس من المياه، وأحضر السلطان أمراءه ليلة الجمعة تاسع عشر جمادى الآخرة: وفيهم أبو الهيجاء السمين، والمشطوب، والأسدية بكمالهم، واستشارهم، فيما قد دهمه، من هذا الأمر الفظيع، الموجع المؤلم، فأفاضوا في ذلك، وأشاروا كل برأيه، وأشار العماد الكاتب، بأن يتحالفوا على الموت، عند الصخرة، كما كانت الصحابة يفعلون، فأجابوا إلى ذلك. هذا كله، والسلطان ساكت، واجم، مفكر، فسكت القوم كأنما على رؤوسهم الطير، ثم قال: الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله: اعلموا أنكم جند الإسلام اليوم، ومنعته، وأنتم تعلمون أن دماء المسلمين، وأموالهم، وذراريهم معلقه في ذممكم معلقة، والله عز وجل سائلكم يوم القيامة عنهم، وأن هذا العدو ليس له من المسلمين من يلقاه، عن العباد، والبلاد غيركم، فإن وليتم

أعتّكم والعياذ بالله، طوى البلاد، كطيّ السّجل للكتاب وأهلك العباد، وأخذ الأموال، والأطفال، والنساء، وعبد الصليب في المساجد، وعزل القرآن منها والصلاة، وكان ذلك كله في ذمكم، فإنكم أنتم الذين تصديتم لهذا كله، وأكلتم بيت مال المسلمين، لتدفعوا عنهم عدوهم، وتنصروا ضعيفهم، فالمسلمون في سائر البلاد متعلقون بكم والسلام.

فانتدب لجوابه سيف الدين المشطوب وقال: يا مولانا، نحن مماليكك، وعبيدك، وأنت الذي أعطيتنا، وكبرتنا، وعظمتنا وليس لنا إلا رقابنا، ونحن بين يديك والله ما يرجع أحد منا عن نصرك حتى يموت. فقال الجماعة مثل ما قال، ففرح السلطان بذلك، وطاب قلبه، ومد لهم سماطا حافلا، وانصرفوا من بين يديه على ذلك.

ثم بلغه بعد ذلك، أن بعض الأمراء أنه قال: إنا نخاف، أن يجري علينا في هذا البلد، كما جرى على أهل عكا، ثم يأخذون بلاد الإسلام بلدا بلدا، والمصلحة، أن نلتقيهم بظاهر البلد، فإن هزمناهم، أخذنا بقية بلادهم، وإن تكن الأخرى، سلم العسكر، ومضى بحاله، ويأخذون القدس وتحفظ بقية بلاد الإسلام، بدون القدس مدة طويلة، وبعثوا إلى السلطان، يقولون له: إن كنت تريدنا، نقيم بالقدس، تحت حصار الفرنج، فكن أنت معنا، أو بعض أهلك، حتى يكون الجيش تحت أمرك، فإن الأكراد لا تطيع الترك، والترك لا تطيع الأكراد. فلما بلغه ذلك، شق عليه مشقة عظيمة، وبات ليله أجمع، مهموما، كئيبا، يفكر فيما قالوا، ثم انجلى الأمر، واتفق الحال، على أن يكون الملك الأمجد، صاحب بعلبك، مقيما عندهم، نائبا عنه بالقدس، وكان ذلك نهار الجمعة، فلما حضر إلى صلاة الجمعة، وأذن المؤذن للظهر، قام فصلى ركعتين بين الأذانين، وسجد، وابتهل إلى الله تعالى، ابتهالا عظيما، وتضرع إلى ربه، وتمسكن، وسأله فيما بينه وبينه، كشف هذه الضائقة العظيمة.

فلما كان يوم السبت، من الغد، جاءت الكتب من الحرس، الذين حول البلد، بأن الفرنج قد اختلفوا فيما بينهم في محاصرة القدس، فقال ملك الإفرنسيس: إنا إنما جئنا من البلاد البعيدة، وأنفقنا الأموال العديدة، في تخليص بيت المقدس، ورده إلينا، وقد بقي بيننا وبينهم مرحلة. فقال الإنكليز: إن هذا البلد، يشقّ علينا حصاره، لأن المياه حوله قد عدمت، ومتى بعثنا من يأتينا بالماء، من المشقة البعيدة، يعطل الحصار، ويتلف الجيش. ثم اتفق الحال بينهم، على أن حكموا منهم عليهم ثلاثمائة منهم، فردوا أمرهم إلى اثني عشر منهم، فردا أمرهم إلى ثلاثة منهم، فباتوا ليلتهم ينظرون، ثم أصبحوا، وقد حكموا عليهم بالرحيل، فلم يمكنهم مخالفتهم، فسحبوا راجعين، لعنهم الله أجمعين.

فساروا حتى نزلوا على الرملة، وقد طالت عليهم الغربة والرملة وذلك في بكرة الحادي والعشرين من جمادى الآخرة، وبرز السلطان بجيشه إلى خارج القدس، وسار نحوهم خوفا أن يسيروا إلى مصر لكثرة ما معهم من الظهر، والأموال، وكان الإنكليز يلهج بذلك كثيرا، فخذلهم الله عن ذلك، وترددت الرسل من الإنكليز إلى السلطان، في طلب الأمان، ووضع الحرب بينه وبينهم ثلاث سنين، وعلى أن يعيد لهم عسقلان، ويهب لهم كنيسة بيت المقدس، وهي القمامة، وأن يمكن النصارى من زيارتها، وحجها بلا شيء، فامتنع السلطان من إعادة عسقلان، وأطلق لهم قمامة، وفرض على الزوار مالا يؤخذ من كل منهم فامتنع الإنكليز إلا أن تعاد لهم عسقلان، ويعمر سورها كما كانت، فصمم السلطان على عدم الإجابة...

ثم ركب السلطان، حتى وافى يافا فحاصرها حصارا شديدا، فافتتحها، وغنم جيشه منها شيئاً كثيراً وامتنعت القلعة، فبالغ في أمرها حتى هانت ولانت ودانت وكادوا أن يبعثوا إليه بأقاليدها، ويأخذوا الأمان لكبيرها وصغيرها، فبينما هم كذلك، إذ أشرفت عليهم مراكب الإنكليز، على وجه البحر، فقويت رؤوسهم، واستعصت نفوسهم، فهجم اللعين، فاستعاد البلد، وقتل من تأخر بها من المسلمين صبرا بين يديه، وتقهقر السلطان عن منزلة الحصار، إلى ما وراءها، خوفا على الجيش من معرة الفرنج، فجعل ملك الإنكليز يتعجب من شدة سطوة السلطان، وكيف فتح مثل هذا البلد العظيم في يومين، وغيره لا يمكنه فتحه في عامين، ولكن ما ظننت، أنه مع شهامته، وصرامته، يتأخر من منزلته، بمجرد قدومي، وأنا ومن معي لم نخرج من البحر، إلا جرائد، بلا سلاح، ثم ألح في طلب الصلح، على أن تكون عسقلان داخلة في صلحهم، فامتنع السلطان أشد الامتناع، ثم إن السلطان كبس في تلك الليالي الإنكليز وهو في سبعة عشر مقاتلا، وحوله قليل من الرجالة، فأكب بجيشه حوله، وحصره حصرا لم يبق له معه نجاة، لو صمم معه الجيش، ولكنهم نكلوا كلهم عن الحملة، فلا قوة إلا بالله، وجعل السلطان يحرضهم غاية التحريض، فكلهم يمتنع كما يمتنع المريض من شرب الدواء.

هذا وملك الإنكليز قد ركب في أصحابه، وأخذ عدة قتاله، وأهبة نزاله، واستعرض الميمنة إلى آخر الميسرة، يعني ميمنة المسلمين وميسرتهم، فلم يتقدم إليه أحد من الفرسان، ولا بهش في وجهه بطل من الشجعان فعند ذلك كر السلطان راجعا، وقد أحزنه أنه لم ير من الجيش مطيعا، ولا سامعاً فإنا لله وإنا إليه راجعون. ولو أن له بهم قوة، لما ترك أحداً منهم يتناول من بيت المال فلسا.

ثم حصل لملك الإنكليز بعد ذلك مرض شديد، فبعث إلى السلطان، يطلب فاكهة، وثلجا، فأمده بذلك، من باب الفتوة والإحسان وإظهار القوة والامتنان، ثم عوفي لعنه الله، وتكررت الرسل منه، يطلب من السلطان المصالحة، لكثرة شوقه إلى أولاده وبلاده، وطاوع السلطان على ما يقول، وترك طلب عسقلان، ورضي بما رسم به السلطان، وكتب كتاب الصلح بينهما في ثامن عشر شعبان، وأكدت العهود، والمواثيق من كل ملك من ملوكهم، وأسقف وجاثليق وحلف الأمراء من المسلمين، وكتبوا خطوطهم، واكتفي من السلطان بالقول المجرد، كما جرت به عادة السلاطين، وفرح كل من الفريقين فرحا شديدا، وأظهروا سرورا كثيرا، ووقعت الهدنة على وضع الحرب ثلاث سنين وثمانية أشهر، وعلى أن يقرهم على ما بأيديهم من البلاد الساحلية، وللمسلمين ما يقابلها من البلاد الجبلية، وما بينهما من المعاملات تقسم على المناصفة، وأرسل السلطان مائة نقاب صحبة أمير، لتخريب سور عسقلان، وإخراج من بها من الفرنج والألمان.

وعاد السلطان إلى القدس الشريف، فرتب أحواله، ووطدها، وسدد أموره، وأكدها، وزاد وقف المدرسة سوقا بدكاكينها، وأرضا ببساتينها، وزاد وقف الصوفية، وعزم على الحج عامه ذلك، فكتب إلى الحجاز، واليمن، ومصر، والشام، ليعلموا بذلك، ويتأهبوا له، فكتب إليه القاضي الفاضل ينهاه عن ذلك خوفا على البلاد ويذكر له أن النظر في أحوال المسلمين، وإصلاح أمرهم الذي قد تداعى إلى الفساد وسدّ ثغورهم ومصابرة أعدائهم في هذا الوقت أفضل لك مما عزمت عليه عامك هذا، والعدد المخذول مخيم بعدُ بالشام لم يقلع منه يركب إلى بلادهم خير لك عامك هذا، والعدو مخيم بعد بالشام، وأنت تعلم أنهم يهادنون، ليتقووا، ويكثروا، ثم يمكروا، ويغدروا، فسمع السلطان منه، وشكر نصحه، وترك ما عزم عليه، وكتب به

إلى سائر الممالك، واستمر مقيما بالقدس جميع شهر رمضان في صيام وصلاة، وقرآن، وكلما وفد أحد من رؤساء الفرنج للزيارة، فعل معه غاية الأكرام، تأليفا لقلوبهم وتأكيداً لما حلفوه من الأيمان ورغبة أن يدخل في قلوبهم شيء من الإيمان، ولم يبق أحد من ملوكهم إلا جاء لزيارة القمامة متنكرا، ويحضر سماط السلطان، فيمن حضر من جمهورهم، بحيث لا يرى والسلطان يعلم ذلك جملة لا تفصيلا، ولهذا كان يعاملهم بالإكرام، ويريهم صفحا جميلا، ويرا جزيلا وظلاً ظليلاً.

فلما كان في خامس شوال، ركب السلطان في العساكر، فبرز من القدس، قاصدا دمشق، واستناب على القدس عز الدين جورديك، وعلى قضائها بهاء الدين يوسف بن رافع بن تميم الشافعي، فاجتاز على وادي الجيب، وبات على بركة الداوية، ثم أصبح في نابلس، فنظر في أحوالها، ثم ترحل عنها، فجعل يمر بالقلاع، والحصون، والبلدان فينظر في أحوالها، ويكشف المظالم عنها، وفي أثناء الطريق، جاء إلى خدمته بيمند صاحب أنطاكية فأكرمه، وأحسن إليه، وأطلق له أموالا جزيلة، وخلعا، وكان العماد الكاتب في صحبته، فأخبر عن منازله، منزلة، منزلة، مرحلة مرحلة إلى أن قال: وعبر يوم الاثنين، عين الجر إلى مرج بيوس، وقد زال البوس، وهناك وفد عليه أعيان دمشق، وأماثلها، وأفاضلها وفواضلها ونزلنا يوم الثلاثاء على العرادة، جرى المتلقُّون في بالطرف والتحف على العادة، وأصبحنا يوم الأربعاء، سادس عشر شوال بكرة، إلى جنة دمشق داخلين، بسلام آمنين، لولا أننا غير خالدين وكانت غيبة السلطان عنها طالت أربع سنين، فأخرجت دمشق أثقالها، وأبرزت نساءها، وأطفالها، ورجالها، وكان يوم الزينة، وخرج كل من في المدينة، وحُشر الناس ضحىً وأشاعوا استبشاراً وفرحاً، واجتمع بأولاده الكبار، والصغار، وقدم عليه رسل الملوك، من سائر الأمصار، وأقام بقية عامه في اقتناص الصيد، وحضور دار العدل للفصل، والعمل بالإحسان، والفضل.

ولما كان عيد الأضحى، امتدحه بعض الشعراء، بقصيدة يقول فيها:

وأبيها لولا تغزل عينيه ... ها لما قلت في التغزل شعرا
ولكانت مدائح الملك النا ... صر أولى ما فيه أعمل فكرا
ملك طبق الممالك عدلاً ... مثلما أوسع البرية برا
فتحلّ الأعياد صوما وفطرا ... وتلقى الهناء برا وبحرا
يسا مسرُّ الطاعات اللّه إن ... أضحى مليك على الهنات مصرا
نلت ما تبتغي من الدين والدنيا ... فتيها على الملوك وفخرا
قد جمعت المجدين أصلا وفرعا ... وملكت الدارين دنيا وأخرى

ومما وقع في هذه السنة من الحوادث، غزوة عظيمة، بين صاحب غزنة شهاب الدين ملكها السبكتكيني، وبين ملك الهند وأصحابه الذين كانوا قد كسروه في سنة ثلاث وثمانين، فأظفره الله بهم هذه السنة فكسرهم، وقتل خلقا منهم، وأسر خلقا، وكان من جملة من أسره ملكهم الأعظم، وثمانية عشر فيلا، من جملتها الذي كان جرحه، ثم أحضر الملك بين يديه، فأهانه، ولم يكرمه، واستحوذ على حصنه، وأخبر بما كان فيه من كل جليل، وحقير، ثم قتله بعد ذلك، وعاد إلى غزنة، مؤيدا، منصورا، مسرورا، محبورا.

وفي هذه السنة اتهم أمير الحج ببغداد وهو طاشتكين وقد كان على إمرة الحجيج من مدة عشرين سنة، وكان في غاية حسن السيرة، واتهم بأنه يكاتب صلاح الدين بن أيوب بالقدوم إلى العراق ليأخذها فإنه ليس يردّه أحد وقد كان مكذوبا عليه في ذلك، ومع هذا، أهين، وحبس، وصودر.

وممن توفي فيها من الأعيان

القاضي شمس الدين

■ **محمد بن محمد بن موسى:** المعروف بابن الفراش، كان قاضي العساكر بدمشق، ويرسله السلطان في الرسالات إلى ملوك الآفاق، وتوفي بملطية عائداً من بني قلج.

سيف الدين

■ **علي بن احمد المشطوب:** كان من أصحاب أسد الدين شيركوه، حضر معه الوقعات الثلاث بديار مصر، ثم صار من أكابر أمراء صلاح الدين، وهو الذي كان على نيابة عكا حين أخذها الفرنج، فأسروه في جملة من أسروا، فافتدى نفسه بخمسين ألف دينار، وجاء إلى السلطان وهو بالقدس، فأعطاه أكثرها، وولاه نابلس. وكانت وفاته يوم الأحد، الثالث والعشرين من شوال، بالقدس الشريف، ودفن في داره.

صاحب بلاد الروم عز الدين

■ **قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان،** وكان قد قسم جميع بلاده بين أولاده، طمعا في طاعتهم له، فخالفوه، وتجبروا، وعتوا عليه، وخفضوا قدره، حتى ارتفعوا، ولم يزل كذلك، حتى توفي في عامه هذا.

وفي ربيع الآخر، توفي الأديب

الشاعر أبو المرهف

■ **نصر بن منصور النميري:** سمع الحديث، واشتغل بالأدب، وكان قد أصابه جدري، وهو ابن أربعة عشرة سنة، فنقص بصره جدا، وكان لا يبصر الأشياء البعيدة، ويرى القريب منه، ولكنه لا يحتاج إلى قائد، فارتحل إلى العراق، لمداواة عينيه، فآيسته الأطباء من ذلك، فاشتغل بحفظ القرآن، ومصاحبة الصالحين والزُّهاد، فأفلح، وله ديوان شعر كبير حسن، وقد سئل مرة عن مذهبه واعتقاده فأنشأ يقول:

أحب عليا والبتول وولدها ... ولا أجحد الشيخين فضل التقدم
وأبرأ ممن نال عثمان بالأذى ... كما أتبرأ من ولاء ابن ملجم
ويعجبني أهل الحديث لصدقهم ... فلست إلى قوم سواهم بمنتمي

توفي ببغداد، ودفن بمقابر الشهداء، بباب حرب، رحمه الله تعالى.

ثم دخلت سنة تسع وثمانين وخمسمائة

فيها كانت وفاة السلطان الناصر

■ **صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله تعالى.**

استهلت هذه السنة وهو في غاية الصحة والسلامة، وخرج هو وأخوه العادل إلى الصيد، شرقي دمشق، وقد اتفق الحال بينه وبين أخيه أنه بعد ما يفرغ من أمر الفرنج يسير هو إلى بلاد الروم، ويبعث أخاه إلى خلاط، فإذا فرغا من شأنهما سارا جميعاً إلى بلاد أذربيجان، بلاد العجم، فإنه ليس دونها أحد يمانع عنها، فلما قدم الحجيج من الحجاز في يوم الاثنين، حادي عشر صفر، خرج السلطان لتلقيهم، وكان معه ابن أخيه سيف الإسلام، صاحب اليمن، فأكرمه والتزمه، وعاد إلى القلعة المنصورة فدخلها من باب

الحديد، فكان ذلك آخر ما ركب في هذه الدنيا، ثم إنه اعتراه حمى صفراوية ليلة السبت سادس عشر صفر، فلما أصبح دخل عليه القاضي الفاضل وابن شداد وابنه الأفضل، فأخذ يشكو إليهم كثرة قلقه البارحة، وطاب له الحديث، وطال مجلسهم عنده، ثم تزايد به المرض واستمر، وقصده الأطباء في اليوم الرابع، ثم اعتراه يبس، حصل له عرق شديد بحيث نفذ إلى الأرض، ثم قوي اليبس، فأحضر الأمراء من الأكابر والرؤساء، فبويع لولده الأفضل نور الدين علي، نائباً على دمشق، وذلك عندما ظهرت مخايل الضعف الشديد، وغيبوبة الذهن في بعض الأوقات، وكان الذين يدخلون عليه في هذه الحال القاضي الفاضل، وابن شداد، وقاضي البلد ابن الزكي،ثم اشتد به الحال ليلة الأربعاء، السابع والعشرين من صفر، واستدعى الشيخ أبا جعفر إمام الكلاسة، ليبيت عنده يقرأ القرآن، ويلقنه الشهادة إذا جد به الأمر، فذكر أنه كان يقرأ عنده وهو في غمرات الموت فقرأ: ﴿هُوَ اللَّهُ الذِي لا إِلَهَ إلا هُوَ عَالِمُ الغَيبِ والشَّهَادَةِ﴾ [الحشر: ٢٢]، فقال: وهو كذلك صحيح، فلما أذن الصبح جاء القاضي الفاضل، فدخل عليه وهو في آخر رمق، فلما قرأ القارئ: ﴿لا إِلَهَ إلا هُوَ عَلَيهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [التوبة: ١٢٩، والرعد: ٣٠] تبسم وتهلل وجهه، وأسلم روحه إلى ربه سبحانه، ومات رحمه الله، وأكرم مثواه، وجعل جنات الفردوس مأواه، وكان له من العمر سبع وخمسون سنة، لأنه ولد بتكريت في شهور سنة ثنتين وثلاثين وخمسمائة، رحمه الله، فقد كان رداءً للإسلام، وحرزاً وكهفاً من كيد الكفرة اللئام، وذلك بتوفيق الله له، وكان أهل دمشق لم يصابوا بمثل مصابه وود كل منهم لو فداه بأولاده وأحبابه وأصحابه، وقد غلقت الأسواق، واحتفظ على الحواصل، ثم أخذوا في تجهيزه، وحضر جميع أولاده وأهله، وكان الذي تولى غسله خطيب البلد الفقيه الدولعي، وكان الذي أحضر الكفن ومؤنة التجهيز القاضي الفاضل من صلب ماله الحلال، هذا وأولاده الكبار والصغار يتباكون وينادون، وأخذ الناس في العويل، والانتحاب والدعاء له والابتهال، ثم أبرز جسمه في نعشه في تابوت، بعد صلاة الظهر، وأم الناس عليه القاضي ابن الزكي، ثم دفن في داره، بالقلعة المنصورة، ثم شرع ابنه في بناء تربة له، ومدرسة للشافعية، بالقرب من مسجد القدم، لوصيته بذلك قديماً، فلم يكمل بناؤها، ولم يتمّ وذلك حين قدم ولده العزيز، وكان محاصراً لأخيه الأفضل، كما سيأتي بيانه، في سنة تسعين وخمسمائة، ثم اشترى له الأفضل داراً، شمالي الكلاسة في وزان ما زاده القاضي الفاضل في الكلاسة، فجعلها له تربة، هطلت سحائب الرحمة عليها، ووصلت ألطاف الرأفة إليها، وكان نقله إليها في يوم عاشوراء سنة اثنتين وتسعين، وصلى عليه تحت النسر قاضي القضاة، محمد بن علي القرشي بن الزكي، عن إذن الأفضل له، ودخل في لحده ولده الأفضل، فدفنه بنفسه، وهو يومئذ سلطان الشام؛ وذلك لما له عليه من الحق والخدمة والإكرام. ويقال إنه دفن معه سيفه، الذي كان يحضر به الجهاد والجلاد، وذلك عن أمر القاضي الفاضل، أحد الأجواد والأمجاد وتفاءلوا بأن يكون معه يوم القيامة يتوكأ عليه، حتى يدخل الجنة إن شاء الله لما أنعم عليه من كسر الأعداء ونصر الاولياء، وأعظم عليه بذلك المنّة.

ثم عمل عزاؤه بالجامع الأموي ثلاثة أيام، يحضره الخاص والعام، والرعية والحكام، وقد عمل الشعراء فيه مراثي كثيرة، من أحسنها ما عمله العماد الكاتب، في آخر كتابه البرق الشامي، وهي متان واثنان وثلاثون بيتاً، وقد سردها الشيخ شهاب الدين أبو شامة، في الروضتين [٢/٢١٤، ٢١٥]، منها قوله:

شمل الهدى والملك عم شتاته ... والدهر ساء وأقلعت حسناته
أين الذي مذ لم يزل مخشية ... مرجوة رهباته ورهباته؟
أين الذي كانت له طاعاتنا ... مبذولة ولربه طاعاته؟
باللّه أين الناصر الملك الذي ... للّه خالصة صفت نياته؟
أين الذي ما زال سلطانا لنا ... يرجى نداه وتتقى سطواته؟
أين الذي شرف الزمان بفضله ... وسمت على الفضلاء تشريفاته؟
أين الذي عنت الفرنج لبأسه ... ذلاً، ومنها أدركت ثاراته؟
أغلال أعناق أطواق أجياد الورى ... مناته

وللعماد الكاتب في الملك الناصر يرثيه:

من للعلى من للذرى من للهدى ... يحميه من للبأس من للنائل؟
طلب البقاء لملكه في أجل ... إذا لم يثق ببقاء ملك عاجل
بحر أعاد البر بحراً بره ... وبسيفه فتحت بلاد الساحل
من كان أهل الحق في أيامه ... وبعزه يردون أهل الباطل
وفتوحه والقدس من أبكارها ... أبقت له فضلا بغير مساجل
ما كنت أستسقي لقبرك وابلا ... ورأيت جودك مخجلا للوابل
فسقاك رضوان الإله لأنني ... لا أرتضي سقيا الغمام الهاطل

ذكر تركته وشيء من ترجمته

قال العماد وغيره: لم يترك في خزانته من الذهب سوى جرم واحد أي دينار واحد صُوري وستة وثلاثين درهماً، وقال غيره: سبعة وأربعين درهماً، ولم يترك داراً، ولا عقاراً، ولا مزرعة ولا بستاناً، ولا شيئاً من أنواع الأملاك.

هذا وله من الأولاد سبعة عشر ذكراً وابنة واحدة، وتوفي له في بعض حياته غيرهم، والذين تأخروا بعده ستة عشر ذكراً، أكبرهم الملك الأفضل نور الدين علي، ولد بمصر سنة خمس وستين، ليلة عيد الفطر، ثم العزيز عماد بن أبو الفتح عثمان، ولد بمصر أيضا في جمادى الأولى سنة سبع وستين، ثم الظافر مظفر الدين أبو العباس الخضر، ولد بمصر في شعبان سنة ثمان وستين، وهو شقيق الأفضل، ثم الظاهر غياث الدين أبو منصور غازي، ولد بمصر في نصف رمضان سنة ثمان وستين، ثم المعز فتح الدين أبو يعقوب إسحاق، ولد بدمشق في ربيع الأول سنة سبعين، ثم نجم الدين أبو الفتح مسعود، ولد بدمشق سنة إحدى وسبعين، وهو شقيق العزيز أيضاً، ثم الأغر شرف الدين أبو يوسف يعقوب ولد بمصر سنة ثنتين وسبعين، وهو شقيق العزيز أيضاً، ثم الزاهر مجير الدين أبو سليمان داود، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين وهو شقيق الظاهر، ثم أبو الفضل قطب الدين موسى، وهو شقيق الأفضل، ولد بمصر سنة ثلاث وسبعين أيضاً، ثم لقب بالمظفر أيضاً، ثم الأشرف معز الدين أبو عبدالله محمد، ولد بالشام سنة خمس وسبعين، ثم المحسن ظهير الدين أبو العباس أحمد، ولد بمصر سنة سبع وسبعين، وهو شقيق الذي قبله، ثم المعظم فخر الدين أبو منصور تورانشاه، ولد بمصر في ربيع الأول سنة سبع وسبعين، وتأخرت وفاته إلى سنة ثمان وخمسين وستمائة، ثم الجوّال ركن الدين أبو سعيد أيوب، ولد سنة ثمان وسبعين، وهو شقيق للمعز، ثم الغالب ونصرة الدين أبو الفتح

ملكشاه، ولد في رجب سنة ثمان وسبعين وهو شقيق المعظم، ثم المنصور أبو بكر أخو المعظم لأبويه، ولد بحران بعد وفاة السلطان، ثم عماد الدين شادي لأم ولد، ونصير الدين مروان لأم ولد أيضاً، وأما البنت فهي مؤنسة خاتون، تزوجها ابن عمها الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر بن أيوب، رحمهم الله تعالى.

وإنما لم يخلف أموالا ولا أملاكاً لكثرة عطاياه وهباته وصدقاته، وإحسانه إلى أمرائه ووزرائه وأوليائه، حتى إلى أعدائه، وقد كثير أسلفنا ما يدلُّ على كثير من ذلك ، رحمه الله.

وقد كان متقللا في ملبسه، ومأكله ومشربه ومركبه، وكان لا يلبس إلا القطن والكتان والصوف، ولا يعرف أنه تخطى إلى مكروهاً بعد أن أنعم الله عليه بالملك، بل كان همه الأكبر ومقصده الأعظم نصر الإسلام، وكسر أعدائه اللئام، وكان يعمل فكره في ذلك وحده، ومع من يثق به ليلا ونهاراً، سرّاً وجهاراً، وهذا مع ما لديه من الفضائل والفواضل والفوائد الفرائد، في اللغة والأدب وأيام الناس، حتى قيل إنه كان يحفظ الحماسة بتمامها وختامها وكان مواظباً على الصلوات في أوقاتها في جماعة، يقال إنه لم تفته الجماعة في صلاة قبل وفاته بدهر طويل، حتى ولا في مرض موته، كان يدخل الإمام فيصلي به، فكان يتجشم القيام مع ضعفه، رحمه الله.

وكان يفهم ما يقال بين يديه من البحث والمناظرة، ويشارك في ذلك مشاركة قريبة حسنة، وإن لم يكن بالعبارة المصطلح عليها، وكان قد جمع له القطب النيسابوري عقيدة فكان يحفظها ويحفظها من عقل من أولاده، وكان يحب سماع القرآن والعظيم، ويواظب على سماع الحديث، حتى إنه يسمع في بعض المصافات جزءاً وهو بين الصفين فكان يتبجّح بذلك ويقول: هذا موقف لم يسمع أحد في مثله حديثاً وكان ذلك بإشارة العماد الكاتب.

وكان رقيق القلب سريع الدمعة عند سماع الحديث، كثير التعظيم لشرائع الدين، كان قد لجأ إلى ولده الظاهر وهو بحلب شاب يقال له الشهاب السهروردي وكان يعرف الكيميا وشيئا من الشعبذة والأبواب النيرنجيات، فافتتن به ولد السلطان الظاهر، وقربه وأحبه، وخالف فيه حملة الشرع، فكتب إليه أن يقتله لا محالة، فصلبه عن أمر والده وشهره، ويقال بل حبسه بين حائطين حتى مات كمداً، وذلك في سنة ست وثمانين وخمسمائة.

وكان السلطان صلاح الدين من أشجع الناس وأقواهم بدناً وقلباً، مع ما كان يعتري جسمه من الأمراض والأسقام، ولا سيما وهو مرابط مصابر مثابر عند عكا، فإنه كان مع كثرة جموعهم وأمدادهم لا يزيده ذلك إلا قوة وشجاعة، وقد بلغت جموعهم خمسمائة ألف مقاتل، ويقال ستمائة ألف وكان من جملة من قتل منهم مائة ألف مقاتل.

ولما انفصل الحال وتسلموا عكا وقتلوا أكثر من كان بها من المسلمين وساروا برمتهم إلى القدس جعل يسايرهم منزلة منزلة، ومرحلة مرحلة. وجيوشهم أضعاف أضعاف من معه، ومع هذا نصره الله وخذلهم، وسبقهم إلى البيت المقدس، فصانه وحماه منهم، وشيّد بنيانه، وأطّد أركانه، وصان حماه ولم يزل بجيشه مقيماً به، يرهبهم ويرعبهم ويغلبهم ويسلبهم، حتى تضرعوا إليه وخضعوا لديه، ودخلوا عليه في الصلح، وأن تضع الحرب أوزارها بينهم وبينه، فأجابهم إلى ما سألوا، على الوجه الذي أراده، لا على ما يريدونه، وكان ذلك من جملة الرحمة التي خصَّ الله بها المؤمنين، فإنه ما انقضت تلك السنون حتى ملك البلاد أخوه أبو بكر العادل، فعز به المسلمون، وذل به الكافرون.

وكان رحمه الله سخياً حيّاً ضحوك الوجه، كثير البشر لا يتضجر من خير يفعله، شديد المصابرة على الخيرات والطاعات، فرحمه الله، وقد ذكر الشيخ شهاب الدين أبو شامة (الروضتين: ٢١١/٢ وما بعدها) طرفاً صالحاً من سيرته وأيامه، وعدله في سريرته وعلانيته، وأحكامه.

فصل

وكان السلطان الملك الناصر صلاح الدين قد قسم البلاد بين أولاده، فالديار المصرية لولده العزيز عماد الدين عثمان أبي الفتح، وبلاد دمشق وما حولها لولده الأفضل نور الدين علي وهو أكبر أولاده، والمملكة الحلبية لولده الظاهر غازي غياث الدين، ولأخيه العادل الكرك والشوبك وبلاد جعبر وبلدان كثيرة قاطع الفرات، وحماة ومعاملة أخرى معها للملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر بن أخي السلطان، وحمص والرحبة وغيرها لأسد الدين بن شيركوه بن ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير عم صلاح الدين أخي أبيه لنجم الدين أيوب رحمهم الله، واليمن بمعاقله ومخاليفه جميعه في قبضة السلطان ظهير الدين سيف الإسلام طغتكين بن أيوب، أخي السلطان صلاح الدين، ويعلبك وأعمالها للأمجد بهرام شاه بن فروخ شاه، وبصرى وأعمالها للظافر بن الناصر، ثم شرعت الأمور بعد موت صلاح الدين تضطرب وتختلف وتتفاقم في جميع هذه الأحوال، حتى آل الأمر إلى ما واستقرت الممالك، واجتمعت المحافل على أخي السلطان الملك العادل أبي بكر صلاح الدين، وصارت المملكة في أولاده، الاماجد الأفاضل كما سنوضحه قريباً قريباً إن شاءالله تعالى.

وفي هذه السنة جدد الخليفة الناصر لدين الله خزانة كتب المدرسة النظامية ببغداد، ونقل إليها ألوفاً من الكتب الحسنة المثمنة.

وفي المحرم منها جرت ببغداد كائنة غريبة، وهي أن ابنة لرجل من التجار في الطحين تعشّقت لغلام أبيها فلما علم أبوها بأمرها طرد الغلام من داره، فواعدته البنت ذات ليلة أن يأتيها، فجاء إليها مختفياً، فتركته في بعض الدار، ونزل في أثناء الليل فقتل أباها مولاه، وأمرته الجارية بقتل أمها فقتلها وهي حبلى، وأعطته الجارية حلياً بقيمة ألفي دينار، فأصبح أمره عند الشرطة، فمسك وقتل، قبحه الله وإياها، وقد كان سيده من خيار الناس، وأكثرهم صدقة وبراً، وكان شاباً وضيء الوجه رحمه الله.

وفيها درس بالمدرسة الجديدة عند قبر معروف الكرخي الشيخ أبو علي النُّوقاني، وحضر عنده القضاة والأعيان، وعمل بها دعوة حافلة.

وممن توفي فيها من الأعيان

السلطان صلاح الدين

■ يوسف بن أيوب بن شاذي، وقد تقدمت ذلك مبسوطاً.

الأمير

■ بكتمر صاحب خلاط: قتل في هذه السنة، وكان من خيار الملوك وأشجعهم، وأكرمهم وأحسنهم سيرة، رحمه الله.

الأتابك عز الدين

■ مسعود بن مودود بن زنكي، صاحب الموصل نحواً من ثلاث عشرة سنة، وكان من خيار الملوك، وأحسنهم سيرة، كان يتشبّه بالملك العادل نور الدين الشهيد عمه رحمه الله، ودفن بتربته عند مدرسة أنشأها بالموصل أثابه الله تعالى.

■ **جعفر بن محمد بن قطيرا:** أبو الحسن أحد الكتاب بالعراق، كان ينسب إلى التشيع، وهذا كثير في أهل تلك البلاد، لا أكثر الله في المسلمين أمثالهم ولا أشكالهم. جاءه رجل ذات يوم فقال له: رأيت البارحة أمير المؤمنين علياً في المنام، وهو يقول لي: اذهب إلى ابن قطيرا، فقل له يعطيك عشرة دنانير، فقال له ابن قطيرا: متى رأيته؟ قال: أول الليل، فقال ابن قطيرا: وأنا رأيته آخر الليل، فقال لي: إذا جاءك رجل من صفته كذا وكذا، فطلب منك شيئاً فلا تعطه، فأدبر الرجل مولياً، فاستدعاه ووهبه شيئا، ومن شعره فيما أورده ابن الساعي وقد تقدم ذلك لغيره:

ولما سبرت الناس أطلب منهم ... أخا ثقة عند اعتراض الشدائد
وفكرت في يومي سروري وشدتي ... وناديت في الأحياء هل من مساعد؟
فلم أر فيما ساءني غير شامت ... ولم أر فيما سرني غير حاسد

■ **يحيى بن سعيد بن غازي:** أبو العباس البصري صاحب المقامات، كان شاعراً أديبا فاضلا بليغاً، له اليد الطولى في اللغة والنظم، ومن شعره قوله:

غناءُ خودٍ ينسابُ لطفا ... بلا عناء في كلِ أذنِ
ما ردهُ قطُ بابُ سمع ... ولا أتى زائراً بإذنِ

السيدة

■ **زبيدة بنت الإمام المقتفي لأمر الله:** أخت المستنجد، وعمة المستضيء، كانت قد عمرت دهراً طويلا، ولها صدقات كثيرة دارَّة وقد تزوجها في وقت السلطان مسعود، على صداق مائة ألف دينار، فتوفي قبل أن يدخل بها، وقد كانت كارهة لذلك، فحصل مقصودها وطلبتها.

الشيخة الصالحة

■ **فاطمة خاتون:** بنت محمد بن الحسن العميد، كانت صالحة عابدة زاهدة، عمرت مائة سنة وست سنين، كان قد تزوجها في وقت أمير الجيوش نظر وهي بكر،فبقيت عنده إلى أن توفي، ولم تتزوج بعده، بل اشتغلت بذكر الله عز وجل والعبادة، رحمها الله.

وفي هذه السنة أنفذ الخليفة الناصر لدين الله العباسي إلى الشيخ أبي الفرج بن الجوزي، يطلب منه أن يزيد على أبيات عدي بن زيد المشهورة ما يناسبها من الشعر، ولو بلغ ذلك عشر مجلدات، وهي هذه الأبيات:

أيها الشامت المعير بالدهر ... أأنت المبرأ الموفور
أم لديك العهد الوثيق من الأيام ... بل أنت جاهل مغرور
من رأيت المنون خلدن أم من ... ذا عليه من أن يضام خفير
أين كسرى كسرى الملوك أبو سا ... سان أم أين قبله سابور؟
وبنو الأصفر الملوك ملوك ... الروم لم يبق منهم مذكور
وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجلة ... تجبى إليه والخابور
شاده مرمرا وجلله كلسا ... فللطير في ذراه وكور
لم تهبه ريب المنون فزال الملك ... عنه فبابه مهجور
وتذكر رب الخورنق إذ أشرف ... يوما واللهُدى تكفير
سره حاله وكثرة ما يملك ... والبحر معرضاً والسدير
فارعوى قلبه وقال وما غبطة ... حي إلى الممات يصير
ثم بعد الفلاح والملك والإمة ... وارتهم هناك القبور
ثم أضحوا كأنهم ورق جف ... ت فألوت بها الصبا والدبور
غير أن الأيام يلعبن بالمرء ... وفيها لعمري العظات والتفكير

ثم دخلت سنة تسعين وخمسمائة

لما استقر الملك الأفضل بن صلاح الدين مكان أبيه بدمشق، بعث بهدايا سنية إلى باب الخليفة الناصر، من ذلك سلاح أبيه، وحصانه الذي كان يحضر عليه الغزوات، وأشياء كثيرة ومنها صليب الصلبوت الذي استلبه أبوه من الفرنج يوم حطين، وفيه من الذهب ما ينيف على عشرين رطلا مرصعاً بالجواهر النفيسة، وأربع جوار من بنات ملوك الفرنج، وأنشأ له العماد الكاتب كتاباً حافلا يذكر فيه التعزية بأبيه، والسؤال من الخليفة أن يكون في الملك من بعده، فأجيب إلى ذلك.

ولما كان شهر جمادى الأولى قدم العزيز صاحب مصر إلى دمشق، لياخذها من أخيه الأفضل فخيم على الكسوة يوم السبت سادس جمادى، وحاصر البلد، فمانعه أخوه ودافعه عنها، فقُطعت الأنهار، ونهبت الثمار، واشتد الحال، ولم يزل الأمر كذلك حتى قدم العادل عمهما، فأصلح بينهما، ورد الأمر للألفة، بعد اليمين على أن يكون للعزيز القدس وما جاور فلسطين من ناحيته أيضا، وعلى أن يكون جبلة واللاذقية للظاهر صاحب حلب، وأن يكون لعمهما العادل إقطاعه الأول ببلاد مصر، مضافا إلى ما بيده من الشام والجزيرة كحران والرها وجعبر وما جاور ذلك، فاتفقوا على ذلك، وتزوج العزيز بابنة عمه العادل، ومرض ثم عوفي وهو مخيم بمرج الصفر، وخرجت الملوك لتهنئته بالعافية والتزويج والصلح، ثم كر راجعاً إلى مصر، لطول شوقه إلى أهله وأولاده.

وكان الأفضل بعد موت أبيه قد أساء التدبير، فأبعد أمراء أبيه وخواصه، وقرب الأجانب، وأقبل على شرب المسكر، واللهو واللعب، واستحوذ عليه وزيره ضياء الدين بن الأثير الجزري، وهو الذي كان يحدوه إلى ذلك، فتلف وأتلفه، وضل وأضله، وزالت النعمة عنهما كما سيأتي.

وفيها كانت وقعة عظيمة بين شهاب الدين ملك غزنة وبين كفار الهند، أقبلوا إليه في ألف ألف مقاتل، ومعهم سبعمائة فيل، منها فيل أبيض لم ير مثله، فالتقوا فاقتتلوا قتالا شديداً لم ير مثله، فهزمهم شهاب الدين عند نهر عظيم يقال له: ماجون، وقتل ملكهم، واستحوذ على حواصله وحواصل بلاده، وغنم فيلتهم، ودخل بلد الملك الكبرى، فحمل من خزائنه ذهبا وغيره على ألف وأربعمائة جمل، ثم عاد إلى بلاده سالما منصورا.

وفيها ملك السلطان خوارزم شاه تكش - ويقال له ابن الأصباعي - بلاد الري وغيرها، واصطلح مع السلطان طغرل السلجوقي، وكان قد تسلم بلاد الري وسائر مملكة أخيه سلطان شاه وخزائنه، وعظم شأنه، ثم التقى هو والسلطان طغرل في ربيع الأول من هذه السنة، فقتل السلطان طغرل، وأرسل رأسه إلى الخليفة، فنصب على باب النوبة عدة أيام، وأرسل الخليفة الخلع والتقاليد إلى السلطان خوارزم شاه، وملك همذان وغيرها من البلاد المتسعة.

وفيها نقم الخليفة على الشيخ أبي الفرج بن الجوزي، وتغضّب عليه، ونفاه إلى واسط، فمكث بها خمسة أيام لم يأكل طعاما، وأقام بها خمسة أعوام يخدم نفسه، ويستقي لنفسه الماء، وكان شيخا كبيرا، قد بلغ ثمانين

سنة، وكان يتلو في كل يوم وليلة ختمة، قال: ولم أقرأ سورة يوسف لوجدي على ولدي يوسف، إلى أن فرج الله، كما سيأتي إن شاء الله تعالى.

وفيها توفي من الأعيان

■ أحمد بن إسماعيل بن يوسف: أبو الخير القزويني، الشافعي المفسر، قدم بغداد ووعظ بالنظامية، وكان يذهب إلى قول الأشعري في الأصول، وجلس في يوم عاشوراء فقيل له: العن يزيد بن معاوية، فقال: ذاك إمام مجتهد، فرماه الناس بالآجر فاختفى، ثم هرب إلى قزوين.

■ الشاطبي ناظم الشاطبية: أبو محمد القاسم بن فيرُه بن أبي القاسم خلف بن أحمد الرعيني الشاطبي الضرير، مصنف الشاطبية في القراءات السبع، فلم يسبق إليها، ولا يلحق فيها، وفيها من الرموز كنوز لا يهتدي إليها إلا كل ناقد بصير، هذا مع أنه ضرير.

ولد سنة ثمان وثلاثين وخمسمائة، وبلده شاطبة قرية شرقي الأندلس كان فقيرا، وقد أريد على أن يلي خطابة بلده فامتنع من ذلك لأجل مبالغة الخطباء على المنابر في وصف الملوك.

خرج الشاطبي إلى الحج، فقدم الإسكندرية سنة ثنتين وسبعين وخمسمائة، وسمع على السِّلفي، وولاه القاضي الفاضل مشيخة الإقراء بمدرسته، وزار القدس الشريف، وصام به شهر رمضان، ثم رجع إلى القاهرة، فكانت وفاته بها في جمادى الآخرة من هذه السنة، ودفن بالقرافة بالقرب من التربة الفاضلية، وكان ديناً خاشعاً ناسكا، كثير الوقار، لا يتكلم فيما لا يعنيه، وكان يتمثل كثيراً بهذه الأبيات، وهي لغز في النعش، وهي لغيره:

أتعرف شيئاً في السماء يطير ... إذا سار هاج الناس حيث يسير
فتلقاه مركوباً وتلقاه راكبا ... وكل أمير يعتليه أسير
يحث على التقوى ويكره قربه ... وتنفر منه النفس وهو نذير
ولم يسترر عن رغبة في زيارة ... ولكن على رغم المزور يزور

ثم دخلت سنة إحدى وتسعين وخمسمائة

فيها كانت وقعة الزلاقة ببلاد الأندلس شمالي قرطبة بمرج الحديد، كانت وقعة عظيمة، نصر الله فيها الإسلام، وخذل فيها عبدة الصلبان، وذلك أن الفَنْش ملك الفرنج ببلاد الأندلس، ومقر ملكه بمدينة طليطلة، كتب إلى الأمير يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ملك الغرب، يستنخيه ويستدعيه ويستحثه إليه، ليكون من بعض من يخضع له في مثالبه وفي قتاله في كلام طويل فيه تأنيب وتهديد، ووعيد شديد، فكتب السلطان يعقوب بن يوسف في رأس كتابه فوق خطه ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧] ثم نهض من فوره في جنوده وعساكره، حتى قطع الزقاق إلى الأندلس، فالتقوا في المكان المذكور، فكانت الدائرة أولا على المسلمين، فقتل منهم عشرون ألفا، ثم كانت أخيراً على الكافرين، فهزمهم الله وكسرهم وخذلهم أقبح كسرة، وشر هزيمة وأشنعها، فقتل منهم مائة ألف وثلاثة وأربعون ألفا، وأسر منهم ثلاثة عشر ألفا، وغنم المسلمون منهم شيئا كثيرا، من ذلك مائة ألف خيمة وثلاثة وأربعون خيمة، ومن الخيل ستة وأربعون ألف فرس، ومن البغال مائة ألف بغل، ومن الحمر مثلها، ومن السلاح التام سبعون ألفا، ومن العدد شيء كثير، وملك عليهم من حصونهم شيئاً كثيراً، وحاصر مدينتهم طليطلة مدة، ثم لم يفتحها فانفصل عنها راجعا إلى بلاده.

ولما حصل للفَنش ما حصل حلق لحيته ورأسه، ونكس صليبه، وركب حماراً، وحلف لا يركب فرساً، ولا يتلذذ بطعام، ولا ينام مع امرأة حتى تنصره النصرانية، ثم طاف على ملوك الفرنج، فجمع من الجنود ما لا يعلمه إلا الله عز وجل، فاستعد له السلطان يعقوب، فالتقيا فاقتتلا قتالا عظيما لم يسمع بمثله، فانهزم الفرنج أقبح من هزيمتهم الأولى، وغنموا منهم نظير ما تقدم أو أكثر، واستحوذ السلطان على كثير من معاقلهم وقلاعهم، ولله الحمد والمنة، حتى قيل: إنه بيع الأسير بدرهم، والحصان بخمسة دراهم والخيمة بدرهم، والسيف بنصف درهم، ثم قسم السلطان هذه الغنائم على الوجه الشرعي، فاستغنى المجاهدون إلى الأبد، ثم طلبت الفرنج من السلطان الأمان، فهادنهم على وضع الحرب خمس سنين، وإنما حمله على ذلك أن رجلا يقال له علي بن إسحاق الميورقي، الذي يقال له الملثم، ظهر ببلاد إفريقية، فأحدث أمورا فظيعة في غيبة السلطان، واشتغاله بقتال الفرنج مدة ثلاث سنين، فأحدث هذا المارق الميورقي بالبادية حوادث، وعاث في الأرض فسادا، وقتل خلقا كثيراً، وتملك بلادا.

وفي هذه السنة والتي قبلها استحوذ جيش الخليفة على كثير من بلاد الري وأصبهان وهمذان وخوزستان وغيرها من البلاد، وقوي جانب الخلافة على الملوك والممالك.

وفيها خرج العزيز من مصر قاصداً دمشق، ليأخذها من يد أخيه الأفضل، وكان الأفضل قد تاب وأناب، وأقلع عما كان فيه من الشراب واللهو واللعب، وأقبل على الصيام والصلاة، وشرع بكتابة مصحف بيده، وحسنت طريقته، غير أن وزيره الضياء الجزري يفسد عليه دولته، ويكدر عليه صفوته، فلما بلغ الأفضل إقبال أخيه نحوه، سار سريعاً على عمه العادل، وهو بجعبر فاستنجده، فسار معه وسبقه إلى دمشق، وراح الأفضل أيضاً إلى أخيه الظاهر بحلب، فسارا جميعاً نحو دمشق، فلما سمع الوزير بذلك وقد اقترب من دمشق، كر راجعا سريعاً إلى مصر، وركب وراءه العادل والأفضل ليأخذا منه مصر، وقد اتفقا على أن يكون ثلث مصر للعادل وثلثاها للأفضل، ثم بدا للعادل في ذلك، فأرسل للعزيز يثبته، وأقبل على الأفضل يثبطه، وأقاما على بلبيس أياما حتى خرج إليهما القاضي الفاضل من جهة العزيز، فوقع الصلح على أن يرجع القدس ومعاملتها للأفضل، ويستقر العادل مقيما بمصر على إقطاعه القديمة، فأقام العادل بها طمعاً فيها، ورجع الأفضل إلى دمشق، بعدما خرج العزيز لتوديعه، وهي هدنة على قَذىً، وصلح على دخن.

وفيها توفي من الأعيان

■ علي بن حسان بن مسافر: أبو الحسن، المكاتب البغدادي، كان أديبا شاعرا، من شعره قوله:

نفسي رقادي ومضى ... برق بسلع ومضا
لاح كما سلت يد الـ ... ـأسود عضبا أبيضا
كأنه الأشهب في النقع ... إذا ما ركضا

يبدو كما تختلف السر ... يح على جمر الغضا
فتحسب الزنجي أبد ... ى نظراً وغمضا
أو شعلة النار علا ... لهيبها وانخفضا
آه له من بارق ... ضاء على ذات الأضا
أذكرني عهداً مضى ... على الغوير وانقضى
فقال لي قلبي أتو ... صي حاجة وأعرضا
يطلب من أمرضه ... فديت ذاك المرضا
يا غرض القلب لقد ... غادرت قلبي غرضا
لأسهم كانها ... يرسلها صرف القضا
نبئت لا ارتاب في ... أن رقادي قد قضى
حتى قفا الليل وكاد ... الليل أن ينقرضا
وأقبل الصبح لأط ... راف الدُّجى مبيضا
وسلَّ في الشرق على ... الغرب ضياء وانقضى

ثم دخلت سنة ثنتين وتسعين وخمسمائة

في رجب منها أقبل العزيز من مصر صحبه عمه الملك العادل في العساكر،ودخلا دمشق قهرا، وأخرجا منها الأفضل ووزيره الذي أساء تدبيره، وصلى العزيز عند تربة والده صلاح الدين، وخطب له بدمشق، ودخل إلى القلعة المنصورة في يومه، وجلس في دار العدل للحكم والفصل، وكل هذا وأخوه الأفضل حاضر عنده في الخدمة، وأمر القاضي محيي الدين بن الزكي بتأسيس المدرسة العزيزية، إلى جانب تربة أبيه، وكانت داراً للأمير عز الدين شامة، ثم استناب على دمشق عمه الملك العادل، ورجع إلى مصر يوم الاثنين تاسع شعبان، والسكة والخطبة له، وصولح الأفضل عن دمشق على صرخد، وهرب وزيره ابن الأثير الجزري إلى جزيرته، وقد أتلف نفسه وملكه، بجريرته، وانتقل الأفضل إلى صرخد بأهله وأولاده، وأخيه قطب الدين.

وفي هذه السنة هبت ريح شديدة سوداء مدلهمة، بأرض العراق، ومعها رمل أحمر، حتى احتاج الناس إلى السرج بالنهار.

وفيها ولي قوام الدين أبوطالب يحيى بن سعيد بن زيادة كتاب الإنشاء ببغداد، وكان بليغا، وليس هو كالفاضل.

وفيها درس مجير الدين أبو القاسم محمود بن المبارك بالنظامية، وكان فاضلا مناظرا.

وفيها قتل رئيس الشافعية بأصبهان صدر الدين

■ محمد بن عبد اللطيف بن محمد بن ثابت عبد اللطيف بن الخجندي، قتله فلك الدين سنقر الطويل، وكان ذلك سبب زوال ملك أصبهان عن الديوان.

وفيها مات الوزير وزير الخلافة: مؤيد الدين أبو الفضل:

■ محمد بن علي بن القصاب، وكان أبوه يبيع اللحم في بعض أسواق بغداد، فتقدم ابنه وساد أهل زمانه، توفي بهمذان، وقد أعاد رساتيق كثيرة من بلاد العراق وخراسان وغيرها، إلى ديوان الخلافة، وكان ناهضاً ذا همة، وله صرامة وشهامة وشعر جيد.

وفيها توفي:

الفخر

■ محمود بن علي: النوقاني الشافعي، عائدا من الحج.

والشاعر:

أبو الغنائم

■ محمد بن علي بن المعلم الهرثي، من قرى واسط، عن إحدى وتسعين سنة، وكان شاعراً فصيحاً، وكان ابن الجوزي في مجالسه يستشهد بشيء من لطائف أشعاره، وقد أورد ابن الساعي قطعة جيدة من شعره الحسن المليح.

وفيها توفي:

الفقيه أبو الحسن

■ علي بن سعيد بن الحسن البغدادي المعروف بابن العريف، ويلقب بالبيع الفاسد، كان حنبليا، ثم اشتغل شافعيا على أبي القاسم بن فضلان، وهو الذي لقبه بذلك لكثرة تكراره على هذه المسألة بين الشافعية والحنفية، ويقال إنه صار بعد هذا كله إلى مذهب الإمامية فالله أعلم.

وفيها توفي:

الشيخ أبو شجاع:

■ محمد بن علي بن شعيب بن الدهان القرضي الحاسب المؤرخ البغدادي، قدم دمشق، وامتدح الكندي أبا اليمن زيد بن الحسن فقال:

يا زيد زادك ربي من مواهبه ... نعماً يقصر عن إدراكها الأملُ
لا بدل الله حالا قد حباك بها ... ما دار بين النحاة الحالُ والبدلُ
النحو أنت أحق العالمين به ... أليس باسمك فيه يضربُ المثلُ

ثم دخلت سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة

فيها ورد كتاب من القاضي الفاضل إلى ابن الزكي يخبره فيه أن في ليلة الجمعة التاسع من جمادى الآخرة، أتى عارض فيه ظلمات متكاثفة، وبروق خاطفة، ورياح عاصفة، فقوي لهُوبها، واشتد هبوبها، فتدافعت لها أعنة مطلقات، وارتفعت لها صعقات، فرجفت لها الجدران واصطفقت، وتلاقت على بعدها واعتنقت، وثار بين السماء والأرض عجاج، حتى قيل لعل هذه على هذه قد انطبقت، ولا يحسب إلا أن جهنم قد سال منها واد، وعدا منها عاد، وزاد عصف الريح إلى أن أطفأ سرج النجوم، ومزقت أديم السماء، ومحت ما فوقه من الرقوم، فكنا كما قال تعالى: ﴿يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق﴾ [البقرة: ١٩] وكما قلنا: يردون أيديهم على أعينهم من البوارق، لا عاصم من الخطف للأبصار ولا ملجأ من الخطب إلا معاقل الاستغفار، وفر الناس نساء ورجالا وأطفالا، ونفروا من دورهم خفافا وثقالا، لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا، فاعتصموا بالمساجد الجامعة، وأذعنوا للنازلة بأعناق خاضعة، بوجوه عانية، ونفوس عن الأهل والمال سالية، ينظرون من طرف خفي، ويتوقعون أي خطب جلي، قد انقطعت من الحياة علقهم وعميت عن النجاة طرقهم، ووقعت الفكرة فيما هم عليه قادمون، وقاموا إلى صلاتهم وودوا لو كانوا من الذين هم عليها دائمون، إلا أن يأذن الله في الركود، وأسعف الهاجدين بالهجود، فاصبح كل مسلم على رفيقه، ويهنيه بسلامة طريقه، ويرى أنه قد بعث بعد النفخة، وأفاق بعد الصيحة والصرخة، وأن الله قد رد له الكرة، وأحياه بعد أن كاد يأخذه على غرة، ووردت الأخبار بأنها قد كسرت

المراكب في البحار، والأشجار في القفار، وأتلفت خلقا كثيرا من السفار، ومنهم من فر فلم ينفعه الفرار.... إلى أن قال: «ولا يحسب المجلس أني أرسلت القلم محرفا، والقول مجزّفاً، فالأمر أعظم، ولكن الله سلم، ونرجو أن الله قد أيقظنا بما به وعظنا، ونبهنا بما ولهنا، فما من عباده إلا من رأى القيامة عيانا، ولم يلتمس عليها من بعد ذلك برهانا، إلا أهل بلدنا فما قص الأولون مثلها في المثلات، ولا سبقت لها سابقة في المعضلات، والحمد للّه الذي من فضله قد جعلنا نخبر عنها، ولا يخبر عنا، ونسأل اللّه أن يصرف عنا عارض الحرص والغرور، إذا عنّا.

وفيها كتب القاضي الفاضل من مصر إلى الملك العادل بدمشق يحثه على قتال الفرنج، ويشكره على ما هو بصدده من محاربتهم، وحفظ حوزة الإسلام، فمن ذلك قوله في بعض الكتب: «هذه الأوقات التي أنتم فيها عرائس الأعمار، وهذه النفقات التي تجري على أيديكم مهور الحور في دار القرار، وما أسعد من أودع يد اللّه ما في يديه، فتلك نعم اللّه عليه، وتوفيقه الذي ما كل من طلبه وصل إليه، وسواد العجاج في هذه المواقف بياض ما سودته الذنوب من الصحائف، فما أسعد تلك الوقعات وما أعود بالطمأنينة تلك الرجفات».

وكتب أيضاً: «أدام اللّه ذلك الاسم تاجاً على مفارق المنابر والطروس وحياه للدنيا وما فيها من الأجساد والنفوس، وعرف المملوك من الأمر الذي اقتضته المشاهدة، وجرت به العاقبة في سرور، ولا مزيد على تشبيه الحال بقوله:

ألم تر أن المرءَ تدوى يمينهُ ... فيقطعها عمداً ليسلم سائره

ولو كان فيها تدبير لكان مولانا سبق إليه، ومن قلم من الأصبع ظفراً فقد جلب إلى الجسد بفعله نفعاً، ودفع عنه ضراً.

وتجشم المكروه ليس بضائر ... إذا كان ما جلبه سببا إلى المحمود

وآخر كل شقوة أول كل غزوة، فلا يسأم مولانا نية الرباط وفعلها، وتجشم الكلف وحملها، فهو إذا صرف وجهه إلى وجه واحد وهو وجه اللّه، صرف اللّه إليه الوجوه كلها ﴿والذينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وإنَّ اللّهَ لَمَعَ المُحْسِنِينَ﴾. [العنكبوت: ٦٩]

وفي هذه السنة انقضت مدة الهدنة التي كان عقدها الملك صلاح الدين للفرنج، فأقبلوا بقضّهم وقضيضهم، فتلقاهم الملك العادل بمرج عكا فكسرهم وغنمهم، وفتح يافا عنوة وللّه الحمد والمنة.

وقد كانوا كتبوا إلى ملك الألمان يستنهضونه لفتح بيت المقدس، فقدر اللّه هلاكه سريعا، وأخذت الفرنج في هذه السنة بيروت من نائبها عز الدين شامة، من غير قتال ولا نزال، ولهذا قال بعض الشعراء في الأمير شامة:

سلم الحصن ما عليك ملامه ... ما يلام الذي يرومُ السلامه

فعطاء الحصون من غير حرب ... سنة سنها ببيروت شامه

ومات فيها ملك الفرنج كندهري، سقط من شاهق فمات، فبقيت الفرنج كالغنم بلا راعٍ، حتى ملكوا عليهم صاحب قبرص، وزوجوه بالملكة امرأة كندهري، وجرت خطوب كثيرة بينهم وبين العادل أبي بكر بن أيوب، ففي كلها يستظهر عليهم ويكسرهم، ويقتل خلقا من مقاتلتهم و لله الحمد. ولم يزالوا كذلك معه حتى طلبوا الصلح والمهادنة فعاقدهم على ذلك في السنة الآتية.

وفيها توفي

ملك اليمن سيف الإسلام

■ **طغتكين**: أخو السلطان صلاح الدين، وكان قد جمع أموالا جزيلة جداً، وكان يسبك الذهب مثل الطواحين ويدخره كذلك، وقام في الملك بعده ولده إسماعيل، وكان أهوج قليل التدبير، فحمله جهله على أن ادعى أنه قرشي أموي، وتلقب بالهادي، فكتب إليه عمه العادل ينهاه عن ذلك، ويتهدده بسبب ذلك، فلم يقبل منه ولا التفت إليه، بل تمادى وأساء التدبير إلى الأمراء والرعية، فقتل، وتولى بعده مملوك من مماليك أبيه.

وفيها توفي:

الأمير الكبير

■ **أبو الهيجاء السمين الكردي**: كان من أكابر أمراء صلاح الدين وهو الذي كان نائبا على عكا، وخرج منها قبل أخذ الفرنج، ثم دخلها بعد المشطوب، فأخذت منه واستنابه صلاح الدين على القدس، ثم لما أخذها العزيز عزل عنها، فطلب إلى بغداد فأكرم إكراما زائدا، وأرسله الخليفة مقدماً على العساكر إلى همذان، فمات هناك.

وفيها توفي:

قاضي بغداد أبو طالب

■ **علي بن علي بن هبة اللّه بن محمد ابن البخاري**، سمع الحديث على أبي الوقت وغيره، وتفقه على أبي القاسم بن فضلان، وتولى نيابة الحكم ببغداد، ثم استقل بالمنصب، وأضيف إليه في وقت نيابة الوزارة، ثم عزل عن القضاء، ثم أعيد، ومات وهو حاكم، نسأل اللّه العافية، وكان فضالا بارعا، من بيت فقه وعدالة، وله شعر:

تنح عن القبيح ولا تردهُ ... ومن أوليته حسناً فزدهُ

ستُكفى من عدوك كل كيدٍ ... إذا كاد العدو ولم تكدهُ

وفيها توفي:

السيد الشريف نقيب الطالبيين ببغداد: أبو محمد

■ **الحسن بن علي بن حمزة بن محمد بن الحسن بن محمد بن الحسن بن محمد بن علي بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب**، العلوي الحسيني، المعروف بابن الأقساسي، الكوفي مولدا ومنشأ، كان شاعرا مطلقا، امتدح الخلفاء والوزراء، وهو من بيت مشهور بالأدب والرياسة والمروءة، قدم بغداد، فامتدح المقتفي، والمستنجد وابنه المستضيء وابنه الناصر، فولاه النقابة، كان شيخاً مهيبا، جاوز الثمانين، وقد أورد له ابن الساعي قصائد كثيرة منها:

اصبر على كيد الزما ... ن فما يدوم على طريقه

سبق القضاءُ فكن به ... راض ولا تطلبْ حقيقه

كم قد تغلب مرةً ... وأراك من سعةٍ وضيقه

ما زال في أولاده ... يجري على هذي الطريقه

وفيها توفيت:

الست

■ **عذراء بنت شاهنشاه بن أيوب**، ودفنت بمدرستها داخل باب النصر.

والست

■ **خاتون والدة الملك العادل**، ودفنت بدارها بدمشق المجاورة لدار أسد

الدين شيركوه.

ثم دخلت سنة أربع وتسعين وخمسمائة

فيها جمعت الفرنج جموعها وأقبلوا فحاصروا تبنين فاستدعى العادل بني أخيه لقتالهم، فجاءه العزيز من مصر، والأفضل من صرخد، فأقلعت الفرنج عن الحصن، وبلغهم موت ملك الألمان، فطلبوا من العادل الهدنة والأمان، فهادنهم، ورجعت الملوك إلى أماكنها، وقد عظم المعظم عيسى بن العادل في هذه المرة، واستنابه أبوه على دمشق، وسار إلى ملكه بالجزيرة، فأحسن فيهم السيرة.

وكان قد توفي في هذه السنة السلطان صاحب سنجار وغيرها من المدائن الكبار، وهو

■ **عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي الأتابكي**، كان من خيار الملوك، وأحسنهم شكلا وسيرة، وأجودهم طوية وسريرة غير أنه كان يبخل، وكان شديد المحبة للعلماء، ولا سيما الحنفية، وقد ابتنى لهم مدرسة بسنجار، وشرط لهم طعاما يطبخ لكل واحد منهم في كل يوم، وهذا نظر حسن، والفقيه أولى بهذه الحسنة من الفقير لاشتغال الفقيه بتكراره ومطالعته عن الفكر فيما يقيته، فعدى على أولاده ابن عمه صاحب الموصل، فأخذ الملك منهم، فاستغاث بنوه بالملك العادل، فرد فيهم الملك ودرأ عنهم الضيم، واستقرت المملكة لولده قطب الدين محمد، ثم سار العادل إلى ماردين فحاصرها في شهر رمضان، فاستولى على ربضها ومعاملتها، وأعجزته قلعتها، فصاف عليها وشتا، وما ظن أحد أنه تملكها، حتى هنّأه الشعراء بذلك؛ لأن ذلك لم يكن مثبوتا ولا مقدّراً.

وفيها ملكت الغور مدينة بلخ وكسروا الخطا وقهروهم، وهزموهم، وتوقّعوا بإرسال الخليفة إليهم أن يمنعوا خوارزم شاه من دخول العراق، فإنه كان يروم أن يخطب له ببغداد.

وفيها حاصر خوارزم شاه مدينة بخارى ففتحها بعد مدة، وقد كانت امتنعت عليه دهرا ونصرهم الخطا، فقهرهم جميعاً وأخذها عنوة، وعفا عن أهلها وصفح، وقد كانوا ألبسوا كلباً أعور قباء وسموه خوارزم شاه، ورموه في المنجنيق إلى الخوارزمية، وقالوا هذا ملككم، وكان خوارزم شاه أعور، فلما قدر عليهم عفا عنهم، جزاه الله خيرا.

وفيها توفي من الأعيان

■ **القوام بن زيادة**: كاتب الإنشاء بباب الخلافة، وهو أبو طالب يحيى بن سعيد بن هبة الله بن علي بن زيادة، قوام الدين انتهت إليه رياسة الترسّل، والإنشاء، والبلاغة، والفصاحة في زمانه بالعراق، وله علوم كثيرة غير ذلك من الفقه على مذهب الشافعي، أخذه عن ابن فضلان، وله معرفة جيدة بالأصلين والحساب واللغة، وله شعر جيد، وقد ولي عدة مناصب كان مشكوراً في جميعها، ومن مستجاد شعره قوله:

لا تحقرنّ عدواً تزدريه فكم ... قد أتعس الدهر جد الجد باللعب
فهذه الشمس يعروها الكسوفُ لها ... على جلالتها بالرأس والذنب

وقوله:

باضطراب الزمان ترتفعُ الأنـ ... ـذال فيه حتى يعم البلاءُ
وكذا الماءُ راكد فإذا ... حرك ثارت من قعره الأقذاءُ

وله أيضاً:

قد سلوت الدنيا ولم يسلها ... من علقت في آماله والأراجي
فإذا ما صرفت وجهي عنها ... قذفوني في بحرها العجاج
يستضيئون بي وأهلكُ وحدي ... فكأني ذبالةٌ في سراج

توفي في هذه السنة من الحجة، وله اثنتان وسبعون سنة، وحضر جنازته خلق كثير، ودفن عند موسى بن جعفر.

القاضي أبو الحسن

■ **علي بن جابر بن زهير بن علي البطائحي**، قدم بغداد فتفقه بها، وسمع الحديث، وأقام برحبة مالك بن طوق مدة يشتغل على أبي عبد الله بن النبيه الفرضي، ثم ولي قضاء العراق مدة، وكان فقيهاً أديباً، وقد سمع من شيخه أبي عبد الله بن النبيه، ينشد لنفسه معارضاً للحريري، في بيتيه اللذين زعم أنهما لا يُعزّزان بثالث لهما، وهما قوله:

سيمْ سمةً يُحمَدُ آثارها ... واشكر لمن أعطى ولو سِيْمَهْ
والمكر مهما استطعت لا تأتِهِ ... لتقتني السؤدد والمكرمهْ

فقال ابن النبيه:

ما الأمةُ الوكعاء بين الورى ... أحسن من حر أتى ملأمهْ
فمه إذا استجديت عن قول لا ... فالحر لا يملأ منها فمهْ

الأمير

■ **عز الدين جرديك**: كان من أكابر الأمراء في زمان نور الدين، وكان ممن شرك في قتل شاور، وحظي عند الملك صلاح الدين وقد استنابه على القدس حين افتتحها، وكان يستنيبه للمهمات الكبار فيسدها بنفسه وشجاعته، ولما ولي الأفضل عزله عن بيت المقدس، فترك بلاد الشام وانتقل إلى الموصل، فمات بها في هذه السنة رحمه الله.

ثم دخلت سنة خمس وتسعين وخمسمائة

فيها كانت وفاة الملك العزيز صاحب مصر

وذلك أنه خرج إلى الصيد، ولما كان ليلة الأحد العشرين من المحرم، ساق خلف ذئب، فكبا به فرسه فسقط عنه فمات بعد أيام، ودفن بداره، ثم حول إلى عند تربة الشافعي، وله سبع أو ثمان وعشرون سنة.

ويقال: إنه كان قد عزم في هذه السنة على إخراج الحنابلة من بلده، ويكتب إلى بقية إخوته بإخراجهم من البلاد، وشاع ذلك عنه وذاع، وسمع ذلك منه وصرح به وكل ذلك من معلميه وخلطائه وعشرائه من الجهمية، وقلة علمه بالقرآن والحديث، فلما وقع ما وقع عظم قدر الحنابلة بين الخلق بمصر والشام، عند الخاص والعام. وقيل: إن بعض صالحيهم دعا عليه، فما هو إلا أن خرج إلى الصيد، فكان هلاكه سريعاً فالله أعلم.

وكتب الفاضل كتاب التعزية بالعزيز لعمه العادل، وهو محاصر ماردين ومعه العساكر، وولده محمد الكامل، وهو نائبه على بلاد الجزيرة المقاربة لبلاد الحيرة، وصورة الكتاب «أدام الله سلطان مولانا الملك العادل،وبارك في عمره،وأعلا أمره بأمره، وأعز نصر الإسلام بنصره، وفدت الأنفس

نفسه الكريمة، وأصغر اللّه العظائم بنعمه فيه العظيمة، وأحياه اللّه حياة طيبة هو والإسلام في مواقف الفتوح الجسيمة، وينقلب عنها بالأمور المسلمة والعواقب السليمة، ولا نقص له رجالا، ولا عدداً، ولا أعدمه نفسا ولا ولداً ولا قصر له ذيلا ولا يداً،ولا أسخن له عينا ولا كبدا، ولا كدر له خاطراً ولا مورداً، ولما قدر اللّه ما قدر في الملك العزيز رحمه اله وتحياته مكررة إليه من انقضاء مهله وحضور أجله كانت بديهة المصاب عظيمة، وطالعة المكروه أليمة فرحم اللّه ذلك الوجه ونضّره، ثم إلى سبيل الجنة يسّره.

وإذا محاسن الوجه بليت فعفى الثرى عن وجهه الحسن

فأعزز على الملوك وعلى الأولياء بل على قلب مولانا، لا سبله ثياب العزاء، لسرعة مصرعه وانقلابه إلى مضجعه، ولباسه ثوب البلى قبل أن يبلى ثوب الشباب، وزفّه إلى التراب وسريره محفوف باللذّات والأتراب، وكانت مدة المرض بعد العود من الفيُّوم أسبوعين، وكانت في السّاعة السابعة من ليلة الأحد العشرين من المحرَّم، والمملوك في حال تسطيرها مجموع بين مرض قلب وجسد ووجع وغليل كبد وقد فجع بهذا المولى والعهد بوالده غير بعيد، والأسى عليه في كل يوم جديد.

ولما توفي العزيز خلف من الولد عشرة ذكور، فعمد أمراؤه فملكوا عليهم ولده محمدا، ولقبوه بالمنصور، وجمهور الأمراء في الباطن مائلون إلى تمليك العادل، ولكنهم يستبعدون مكانه، فأرسلوا إلى الأفضل وهو بصرخد، فأحضروه على البريد سريعاً، فلما حصل عندهم منع رفدهم، ووجدوا الكلمة مختلفة عليه، ولم يتم له ما صار إليه، وخامر عليه أكابر الأمراء الناصرية، وخرجوا من مصر، فأقاموا ببيت المقدس، وأرسلوا يستحثون الجيوش العادلية، فأقر ابن أخيه على السلطنة، ونوه باسمه على السكة والخطبة في سائر بلاد مصر، لكن استفاد الأفضل في سفرته هذه أن أخذ جيشاً كثيفا من المصريين، وأقبل بهم ليسترد دمشق في غيبة عمه بمحاصرة ماردين، وذلك بإشارة أخيه صاحب حلب، وابن عمه ملك حمص أسد الدين، فلما انتهى إليها ونزل حواليها، قطع أنهارها وعقر أشجارها، وأكل ثمارها، ونزل بمخيمه على مسجد القدم، وقد لحقه الأسف والندم وجاء إليه أخوه الظاهر وابن عمه الأسد الكاسر وجيش حماه، فكثر جيشه وقوى بأسه، وقد دخل جيشه إلى البلد، ونادوا بشعاره، فلم يتابعهم من العامة أحد، وأقبل العادل من ماردين بعساكره، وقد التف عليه أمراء أخيه وطائفة بني أخيه، وأمده كل مصر بأكابره، وسبق الأفضل إلى دمشق بيومين فحصنها وحفظها من كل حاسد وذي عينين، وقد استناب على ماردين ولده محمداً الكامل رئيس السلاطين.

ولما دخل دمشق خامر إليه أكثر الأمراء من المصريين وغيرهم، وضعف أمر الأفضل، ويئس من برهم وخبرهم، فأقام محاصراً البلد بمن معه حتى انسلخ الحول، وهو كذلك ثم انفصل الحال في أول السنة الآتية على ما سيأتي بيانه إن شاء اللّه تعالى.

وفيها شرع في بناء سور بغداد بالآجر والكلس، وفرق على الأمراء، وكملت عمارته بعد هذه السنة، فأمنت بغداد من الغرق والحصار، ولم يكن لها سور قبل ذلك.

وفي هذه السنة توفي

السلطان أبو محمد

■ يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن، صاحب بلاد المغرب والأندلس بمدينة سلا، وكان قد بنى عندها مدينة مليحة سماها المهدية، وقد كان دينا، حسن السيرة، صحيح السريرة، وكان مالكي المذهب، ثم صار ظاهريا حزمياً، ثم مال إلى مذهب الشافعي، واستقضى في بعض بلاده منهم قضاة، وكانت مدة ملكه خمس عشرة سنة، وكان كثير الجهاد رحمه اللّه، وكان يؤم الناس في الصلوات الخمس، وكان قريباً إلى المرأة والضعيف رحمه اللّه، وهو الذي كتب إليه صلاح الدين يستنجده على الفرنج، فلما لم يخاطبه بأمير المؤمنين غضب من ذلك، ولم يجبه إلى ما طلب منه، وقام بالملك بعده ولده محمد، فسار كسيرة والده، ورجع إليه كثير من البلدان اللاتي كانت قد عصت على أبيه، ثم من بعد ذلك تفرقت بهم الأهواء، وباد هذا البيت بعد الملك يعقوب رحمه اللّه.

وفيها ادعى رجل أعجمي بدمشق أنه عيسى ابن مريم، فأمر الأمير صارم الدين برغش نائب القلعة بصلبه عند حمام العماد الكاتب، خارج باب الفرج، مقابل الطاحون التي بين البابين، وقد باد هذا الحمام قديماً، وبعد صلبه بيومين ثارت العامة على الروافض، وعمدوا إلى قبر رجل منهم بباب الصغير يقال له وثاب فنبشوه وصلبوه مع كلبين، وذلك في ربيع الآخر منها.

وفي هذه السنة وقعت فتنة كبيرة ببلاد خراسان، وكان سببها أن فخر الدين محمد بن عمر الرازي، أستاذ المتكلمين في زمانه وفد إلى الملك غياث الدين الغوري صاحب غزنة، فأكرمه واحترمه وبنى له مدرسة بهراة، وكان أكثر الغورية كرامية، فأبغضوا الفخر الرازي وأحبوا إبعاده عن الملك، فجمعوا له جماعة من الفقهاء الحنفية والكرامية، وخلقا من الشافعية، وحضر ابن القدوة وكان شيخا معظما في الناس، وهو على مذهب ابن كرام وابن الهيصم، فتناظر هو والرازي، وخرجا من المناظرة إلى السب والشتم، فلما كان من الغد اجتمع الناس في المسجد الجامع، وقام واعظ فتكلم، فقال في خطبته:

أيها الناس، إنا لا نقول إلا ما صح عندنا عن رسول اللّه ﷺ، وأما علم ارسطاطا ليس وكفريات ابن سينا وفلسفة الفارابي وما تلبس به الرازي فإنا لا نعلمها ولا نقول بها، وإنما هو كتاب اللّه وسنة رسوله، ولأي شيء يشتم بالأمس شيخ من شيوخ الإسلام، يذب عن دين اللّه وسنة رسوله، على لسان متكلم ليس معه على ما يقول دليل، قال: فبكى الناس وضجوا، وبكت الكرامية واستغاثوا، وأعانهم على ذلك قوم آخرون من الخاصة، وأنهوا إلى الملك صورة ما وقع، فأمر بإخراج فخر الدين الرازي من البلد، وعاد إلى هراة، فلهذا أشرب قلب الرازي بغض الكرامية، وصار يلهج في كلامه في كل موطن وكلّما هبّت الصّبا.

وفي هذه السنة رضي الخليفة عن أبي الفرج بن الجوزي شيخ الوعاظ في زمانه وبعدّه، وقد كان أخرج من بغداد إلى واسط، فأقام بها خمس سنين فانتفع به أهلها، واشتغلوا عليه واستفادوا منه، فلما عاد إلى بغداد خلع عليه الخليفة، وأذن له في الوعظ على عادته، عند التربة الشريفة المجاورة لقبر معروف الكرخي، فكثر الجمع جدا، وحضر الخليفة، وأخذ في العتاب وأنشد يومئذ فيما يخاطب به الخليفة:

لا تعطش الروض الذي نَبَتَّه بصوب إنعامك قد روضا

لا تبر عوداً أنت قد رشته حاشى لباني المجد أن ينقضا

إن كان لي ذنب ولم آتِهِ فاستأنف العفو وهب لي الرضا

قد كنت أرجوك لنيل المنى فاليوم لا أطلب إلا الرضا

ومما أنشده يومئذ:

شقينا بالنوى زمنا فلما ... تلاقينا كأنا ما شقينا
سخطنا عند ما جنت الليالي ... وما زالت بنا حتى رضينا
ومن لم يحي بعد الموت يوما ... فإنا بعد ما متنا حيينا

وفي هذه السنة استدعى الخليفة الناصر قاضي الموصل ضياء الدين بن الشهرزوري، فولاه قضاء بغداد.

وفي هذه السنة وقعت فتنة بدمشق، بسبب الحافظ عبد الغني المقدسي، وذلك أنه كان يتكلم في مقصورة الحنابلة بالجامع الأموي، فذكر يوما شيئا من العقائد، فاجتمع القاضي محيي الدين بن الزكي وضياء الدين الخطيب الدولعي بالسلطان المعظم، والأمير صارم الدين برغش، فعقد له مجلسا فيما يتعلق بمسألة الاستواء على العرش،والنزول والحرف والصوت، فوافق النجم الحنبلي بقية الفقهاء، واستمر الحافظ على ما يقوله لم يرجع عنه، واجتمع بقية الفقهاء عليه، وألزموه بإلزامات شنيعة لم يلتزمها، حتى قال له الأمير برغش: كل هؤلاء على الضلالة وأنت وحدك على الحق؟ قال: نعم، فغضب الأمير عند ذلك وأمر بنفيه من البلد؛ فاستنظره ثلاثة أيام فأنظره، وأرسل برغش الأسارى من القلعة، فكسروا منبر الحافظ، وتعطلت يومئذ صلاة الظهر في محراب الحنابلة، وأخرجت الخزائن والصناديق التي كانت هناك، وجرت خبطة شديدة، نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن، وكان عقد المجلس يوم الاثنين الرابع والعشرين من ذي الحجة، فارتحل الحافظ عبد الغني إلى بعلبك، ثم سار إلى مصر، فآواه المحدثون، فحنوا عليه وأكرموه.

وممن توفي في هذه السنة من الأعيان

الأمير مجاهد الدين

■ **قايماز الرومي**: نائب الموصل المستولي على مملكتها أيام ابن أستاذه نور الدين أرسلان، وكان عاقلا ذكيا، فقيها حنفيا، وقيل شافعيا، يحفظ شيئا كثيراً من التواريخ والحكايات، وقد ابتنى عدة جوامع ومدارس، وربط وخانات، وله صدقات كثيرة دارة،

قال ابن الأثير: وقد كان من محاسن الدنيا.

أبو الحسن

■ **محمد بن جعفر بن أحمد بن محمد بن عبد العزيز العباسي الهاشمي**، قاضي القضاة ببغداد، بعد ابن النجاري، كان شافعياً، تفقّه على أبي الحسن بن الخل وغيره، وقد ولي القضاء والخطابة بمكة، وأصله منها، ولكن ارتحل إلى بغداد، فنال منها ما نال من الدنيا، وآل به الأمر إلى ما آل، ثم إنه عزل عن القضاء، بسبب محضر رقم خطُّه عليه، وكان فيما قيل مزورا عليه، فالله أعلم، فجلس في منزله حتى مات.

الشيخ جمال الدين أبو القاسم:

■ **يحيى بن علي بن الفضل بن بركة بن فضلان**، شيخ الشافعية ببغداد، تفقه أولا على سعيد بن محمد الرزّاز مدرس النظامية، ثم ارتحل إلى خراسان فأخذ عن الشيخ محمد الزبيدي تلميذ الغزالي، وعاد إلى بغداد، وقد أتقن علم المناظرة والأصلين، وساد أهل بغداد، وانتفع به الطلبة والفقهاء، وبنيت له مدرسة، فدرس بها وبعد صيته، وكثرت تلاميذه، وكان كثير التلاوة وسماع الحديث، وكان شيخا حسنا، لطيفا ظريفا، ومن شعره:

وإذا أردت منازل الأشراف ... فعليك بالإسعاف والإنصاف
وإذا بغى باغ عليك فخله ... والدهر فهو له مكافٍ كافٍ

ثم دخلت سنة ست وتسعين وخمسمائة

استهلت هذه السنة والملك الأفضل بالجيش المصري محاصر لعمه العادل بدمشق، وقد قطع عنها الأنهار والميرة، فلا خبز ولا ماء إلا قليلا، وقد تطاول الحال، وقد خندقوا من أرض اللوان إلى بلدا خندقا لئلا يصل إليهم جيش دمشق، وجاء فصل الشتاء وكثرت الأمطار والأوحال، فلما دخل شهر صفر قدم الملك الكامل محمد بن العادل على أبيه بخلق من التركمان، وعساكر من بلاد الجزيرة والرها وحران، فعند ذلك انصرفت العساكر المصرية، وتفرقوا أيادي سبا، فرجع الظاهر إلى حلب، والأسد إلى حمص، والأفضل إلى مصر، وسلم العادل من كيد الأعادي، بعدما كان قد عزم على تسليم البلد واستسلم، ولكنّ الله سلّم.

وسارت الأمراء الناصرية خلف الأفضل ليمنعوه من الدخول إلى القاهرة، وكاتبوا العادل أن يسرع السير إليهم، فنهض إليهم سريعا سامعاً لمشورتهم مطيعاً، فتحصّن الأفضل بالقلعة من الجبل، وقد اعتراه الضعف والفشل، ونزل العادل على البركة واستبدّ بملك مصر آنفاً من الشركة، ونزل إليه ابن أخيه الأفضل خاضعاً ذليلا بعدما كان مهيباً جليلاً فأقطعه بلادا من الجزيرة، ونفاه عن الشام لسوء السيرة، ودخل العادل إلى دار السلطان بالقاهرة، وأعاد القضاء إلى صدر الدين عبد الملك بن درباس الماراني الكردي، وأبقى الخطبة والسكة باسم ابن أخيه المنصور، والعادل مستقل بالأمور، واستوزر الصاحب صفي الدين بن شكر لصرامته وشهامته، وسيادته وديانته، وكتب العادل إلى ولده الكامل يستدعيه من بلاد الجزيرة،ليملكه على مصر ويسترعيه، فقدم عليه، فأكرمه واحترمه وعانقه والتزمه، وأحضر الملك الفقهاء واستفتاهم في صحة مملكة ابن أخيه المنصور بن العزيز، وأنه صغير ابن عشر سنين، فأفتوا بأن ولايته لا تصح، لأنه متولى عليه، فعند ذلك طلب الأمراء، ودعاهم إلى مبايعته فامتنعوا، فأرغبهم وأرهبهم، وقال فيما قال: قد سمعتم ما أفتى به العلماء، والأئمة والفقهاء وقد علمتم أن ثغور المسلمين لا يحفظها الأطفال الصغار، وإنما يحرسها الملوك الكبار، فأذعنوا عند ذلك وبايعوه، ثم من بعده لولده الكامل، فخطب الخطباء بذلك بعد الخليفة لهما، وضربت السكة باسميهما، واستقرت دمشق باسم المعظم عيسى بن العادل، ومصر باسم الكامل.

وفي شوال رجع إلى دمشق الأمير فلك الدين أبو منصور سليمان بن شروة بن خلدك، وهو أخو الملك العادل لأمه، وهو واقف المدرسة الفلكية داخل باب الفراديس، وبها قبره فأقام بها محترماً معظما إلى أن توفي في هذه السنة.

وفيها وفي التي بعدها كان بديار مصر غلاء شديد، فهلك بسببه الغني والفقير، في وعم الجليل والحقير، وهرب الناس منها نحو الشام، فلم يصل إليها إلا القليل، وتخطفهم الفرنج من الطرقات، وغروهم من أنفسهم، واغتالوهم بالقليل من الأقوات وأما بلاد العراق فإنه كان مرخصا.

قال ابن الساعي: وفي هذه السنة باض ديك ببغداد، فسألت جماعة عن ذلك فأخبروني به.

وممن توفي فيها من الأعيان

السلطان علاء الدين

■ **خوارزم شاه: تكش بن ألب رسلان من ولد طاهر بن الحسين**، وهو صاحب خوارزم وبعض بلاد خراسان والري وغيرها من الأقاليم المتسعة، وهو الذي قطع دولة السلاجقة، كان عادلا، حسن السيرة، له معرفة جيدة بالموسيقى، حسن المعاشرة، فقيها على مذهب أبي حنيفة، ويعرف الأصول، وبنى للحنفية مدرسة عظيمة، ودفن بتربة بناها بخوارزم، وقام في الملك من بعده ولده علاء الدين محمد، وكان قبل ذلك يلقب بقطب الدين.

وفيها قتل وزير السلطان خوارزم شاه المذكور.

■ **نظام الدين مسعود بن علي**: وكان حسن السيرة، شافعي المذهب، له مدرسة عظيمة بخوارزم، وجامع هائل، وبنى بمرو جامعاً عظيما للشافعية، فحسدتهم الحنابلة، وشيخهم بها يقال له شيخ الإسلام، فيقال: إنهم أحرقوه، وهذا إنما يصدر من قلة الدين والعقل واحترام معابد الإسلام، فأغرمهم السلطان خوارزم شاه على ما غرم الوزير على بنائه.

وفيها توفي الشيخ المسند المعمر رحلة الوقت:

■ **أبو الفرج بن عبد المنعم بن عبد الوهاب بن صدقة بن الخضر بن كليب**، الحراني الأصل، البغدادي المولد والدار والوفاة، عن ست وتسعين سنة، سمع الكثير وأسمع، وتفرد بالرواية عن جماعة من المشايخ، وكان من أعيان التجار، وذوي الثروة رحمه الله.

الفقيه

■ **مجد الدين: أبو محمد بن طاهر بن نصر الله بن جهبل**، مدرس القدس الشريف، أول من درس بالصلاحية، وهو والد الفقهاء بني جهبل الدين، كانوا بالمدرسة الجاروخية، ثم صاروا إلى العمادية والدماغية في أيامنا هذه، ثم ماتوا ولم يبق إلا شرحهم.

الأمير صارم الدين

■ **قايماز بن عبد الله النجمي**، كان من أكابر الدولة الصلاحية، كان عند الملك صلاح الدين بمنزلة الأستاذ، وهو الذي تسلم القصر حين مات العاضد، فحصل له أموال جزيلة جداً، وكان كثير الصدقات والأوقاف، وقد تصدق في يوم بسبعة آلاف دينار عينا، وهو واقف المدرسة القيمازية، شرقي القلعة المنصورة، وقد كانت دار الحديث الأشرفية داراً لهذا الأمير، وله بها حمام، فاشترى ذلك الملك الأشرف فيما بعد، موسى بن العادل وبناها دار حديث، وأخرب الحمام وبناه مسكنا للشيخ المدرس بها، ولما توفي قيماز ودفن في قبره، نبشت دوره وحواصله، وكان متهما بمال جزيل، فتحصل ما جمع من ذلك مائة ألف دينار، وكان يظن أن عنده أكثر من ذلك، وكان يدفن أمواله في الخراب من أراضي ضياعه وقراياه، فسامحه الله ويلّ بالرحمة ثراه.

الأمير الكبير

■ **لؤلؤ**: أحد الحجاب بالديار المصرية، كان من أكابر الأمراء في أيام الدولة الصلاحية، وهو الذي كان متسلم الأسطول في البحر، فيكون كالشجا في حلوق الفرنج والنحر في البحر، فكم من شجاع قد أسر، وكم من مركب قد كسر، وكم من لهم أسطول قد فرق شمله، ومن بطسة وقارب قد غرّق أهله، وقد كان مع كثرة جهاده دارّ الصدقات، كثير النفقات في كل يوم، وقع غلاء بمصر غلاء شديد فتصدق باثنى عشر ألف رغيف، لأثنى عشر ألف نفس فجزاه الله خيراً ورحمة في قبره، وبيّض وجهه يوم محشره ومنشره، آمين.

الشيخ الإمام الفقيه العلامة

■ **شهاب الدين الطوسي**: أحد مشايخ الشافعية بديار مصر، شيخ المدرسة المنسوبة إلى تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، التي يقال لها منازل العز، وهو من أصحاب محمد بن يحيى تلميذ الغزالي، كان له قدر ومنزلة عند ملوك مصر، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، توفي في هذه السنة، فازدحم الناس على جنازته، وتأسفوا عليه.

الشيخ

■ **ظهير الدين عبد السلام الفارسي**: شيخ الشافعية بحلب، أخذ الفقه عن محمد بن يحيى تلميذ الغزالي، وتتلمذ للفخر الرازي، ورحل إلى مصر، وعرض عليه أن يدرس بتربة الشافعي فلم يقبل، فصار إلى حلب، فأقام بها إلى أن توفي في هذه السنة.

الشيخ العلامة

■ **بدر الدين بن عسكر**: رئيس الحنفية بدمشق، قال أبو شامة: ويعرف بابن العقادة.

الشاعر الماهر الهُمام العبدي، وهو أبو الحسن

■ **علي بن نصر بن عقيل بن أحمد بن علي بن عبد القيس بن ربيعة** وهو بغدادي، قدم دمشق في سنة خمس وتسعين وخمسمائة، ومعه ديوان شعر له فيه درر حسان، وفرائد وعقائد وَعِقيان وقد تصدى لمدح الملك الأمجد صاحب بعلبك ومَن قبلَه وله:

وما الناس إلا كامل الحظ ناقص ... وآخر منهم ناقص الحظ كامل
وإني لمثر من خيار وعفّة ... وإن لم يكن عندي من المال طائل

وفيها توفي:

■ **القاضي الفاضل، الإمام العلامة شيخ الفصحاء والبلغاء: أبو علي عبد الرحيم بن القاضي الأشرف: أبي المجد علي بن الحسن بن البيساني** المولى الأجل القاضي الفاضل، كان أبوه قاضيا بعسقلان، فأرسل ولده في الدولة الفاطمية إلى الديار المصرية، فاشتغل بها بكتابة الإنشاء، على الشيخ أبي الفتح قادوس وغيره، فساد أهل البلاد حتى بغداد، ولم يكن له في زمانه نظير ولا عديد، ولا فيما بعده إلى وقتنا هذا مماثل ولا مناظر ولا نديد.

ولما استقر الملك صلاح الدين بالديار المصرية، جعله كاتبه وصاحبه، ووزيره، ومشيره وجليسه وأنيسه، وكان أعز عليه من أهله وأولاده، وأكرم عليه من طريفه وتلاده وتساعدا حتى فتح الأقاليم والبلدان والحصون والمعاقل، هذا بحسامه وسنانه، وهذا بقلمه ولسانه وبيانه.

وقد كان القاضي الفاضل من كثرة أمواله ووجاهته ورياسته كثير الصدقات والصلات، والصيام والصلاة، وكان يواظب كل يوم وليلة على ختمة كاملة، مع ما يزيد عليها من نافلة، رحيم القلب، حسن السيرة، طاهر القلب والسريرة، له مدرسة بديار مصر على الشافعية والمالكية، وأوقاف على تخليص الأسارى من أيدي النصارى، وقد اقتنى من الكتب نحواً من مائة ألف كتاب، وهذا شيء لم يفرح به أحد من الوزراء ولا العلماء ولا الملوك ولا الكتاب.

كان مولده في سنة ثنتين وثلاثين وخمسمائة، وقد كانت وفاته يوم دخل العادل إلى قصر مصر بمدرسته فجأة يوم الثلاثاء سادس ربيع الآخر، واحتفل الناس بجنازته، ووزار قبره في اليوم الثاني الملك العادل، وتأسف

عليه، ويقال: إنه استوزر الملك العادل صفي الدين بن شكر، فلما سمع الفاضل بذلك دعا الله أن لا يحييه إلى هذه الدولة، لما بينهما من المنافسة، فمات، رحمه الله، ولم ينله أحد بضيم ولا أذى، ولا رأى في الدولة من هو أكبر منه، وقد رثاه الشعراء بأشعار حسنة، منها قول القاضي هبة الله بن سناء الملك:

عبد الرحيم على البرية رحمة ... أمنت بصحبتها حلول عقابها
يا سائلا عنه وعن أسبابه ... نال السماء فسله عن أسبابها
والدهر يعلم أن فيصل خطبه ... بخطابه يراعته وفصل خطابها
ولقد علتْ رتب الأجل عن الورى ... بسموِّ منصبها وطيب نصابها
وأتتــه خاطبــة إلى وزارة ... ولطالما أعيت على خطابها
ما لقّبوه بها لأن يعلو بها ... أسماؤه أغنته عن ألقابها
قال الزمان لغيره إذ رامها ... تربت يمينك لست من أترابها
اذهب طريقك لست من أربابها ... وراجع وراءك لست من أصحابها
وبعزِّ سيدنا وسيِّد غيرنا ... ذلَّت من الأيام شمس صعابها
وأتت سعادته إلى أبوابه ... لا كالذي يسعى إلى أبوابها
تعنو الملوك لوجهه بوجوهها ... لا بل تساق لبابه برقابها
شغل الملوك بما يزول ونفسه ... مشغولة بالذكر في محرابها
في الصوم والصلوات أتعب نفسه ... وضمان راحته على أتعابها
وتعجل الإقلاع عن لذاته ... ثقة بحسن مآلها ومآبها
فلتفخر الدنيا بسائس ملكها ... منه ودارس علمها وكتابها
صوامها قوامها علامها ... عمالها بذالها وهابها

والعجب أن الفاضل مع براعته وفصاحته التي لا تُداني ولا تُجارى لا يُعرف له قصيدة طويلة طنّانة وإنما له ما بين البيت والبيتين في أثناء رسائله وغيرها شيء كثير جداً، فمن ذلك قوله:

سبقتم بإسداء الجميل تكرما ... وما مثلكم فيمن يحدثُ أو حكى
وكان ظني أن أسابقكم به ... ولكن بكت قبلي فهيج لي بكت

ومن ذلك قوله:

ولي صاحب ما خفت من جور ... من الدهر إلا كان لي من ورائه
إذا عضني صرف الزمان فإنني ... براياته أسطو عليه ورائه

وله في بدوّ أمره:

أرى الكتاب كلهم جميعاً ... بأرزاق تعمهم سنينا
ومالي بينهم رزقٌ كأني ... خلقتُ من الكرام الكاتبينا

وله في النحلة والزلقطة:

ومغردين تجاوبا في مجلس ... منعاهما لأذاهما الأقوام
هذا يجود بعكس ما يأتي به ... هذا فيحمد ذا وذاك يذام

وله:

بتنا على حالٍ تسرُّ الهوى ... لكنهُ لا يمكنُ الشرحُ
بوابنا الليلُ وقلنا له ... إن غبت عنا هجم الصبحُ

وسأله الملك العزيز عثمان بن الناصر عن جارية من حظاياه أرسلت إليه زراً من ذهب مغلف بعنبر أسود، فأنشأ الفاضل يقول:

أهدت لك العنبر في وسطهِ ... زرٌ من التبر رقيق اللحام
فالزر في العنبر معناهما ... زُرْ هكذا مختفياً في الظلام

قال ابن خلكان: وقد اختلف في لقبه، فقيل: محيي الدين، وقيل: مجير الدين.

وحُكي عن عمارة اليمني أنه ذكره بذكر جميل، وأن العادل بل الصالح بن رزيك هو الذي استقدمه من الإسكندرية، واستخدمه وقد كان معدودا في حسناته، وقد بسط ابن خلكان ترجمته بنحو ما ذكرنا، وفي هذه زيادة كثيرة، والله أعلم.

ثم دخلت سنة سبع وتسعين وخمسمائة

فيها اشتد الغلاء بأرض مصر جدا، فهلك خلق كثير جداً من الفقراء والأغنياء، ثم أعقبه فناء عظيم، حتى حكى الشيخ أبو شامة في الذيل [ذيل الروضتين: ص١٩]: أن العادل كفن من ماله في مدة شهر من هذه السنة نحواً من مائتي ألف، وعشرين ألف ميت، وأكلت الكلاب والميتات فيها بمصر، وأكل من الصغار والأطفال خلق كثير، يشويه والده والداه ويأكلانه، وكثر هذا في الناس جداً حتى صار لا ينكر بينهم ثم صاروا يحتالون على بعضهم بعضاً فيأكلون من يقدرون عليه، ومن غلب من قويٍ ضعيفاً ذبحه وأكله، وهلك كثير من الأطباء الذين يستدعون إلى المرضى، فكانوا يذبحون ويؤكلون، كان الرجل يستدعي الطبيب ثم يذبحه ويأكله، وقد استدعى رجل طبيبا حاذقا، وكان الرجل موسراً من أهل المال، فذهب الطبيب معه على وجل وخوف، فجعل الرجل يتصدق على من لقيه في الطريق ويذكر الله ويسبحه، ويكثر من ذلك، فارتاب به الطبيب وتخيل منه، ومع هذا حمله الطمع على الاستمرار معه حتى دخل داره، فإذا هي خربة، فارتاب الطبيب أيضاً، فخرج صاحبه فقال له: ومع هذا البطء جئت لنا بصيد، فلما سمعها الطبيب هرب، فخرجا خلفه سراعا، فما خلص إلا بعد جهد جهيد.

وفيها وقع وباء شديد ببلاد عنزة بين الحجاز واليمن، وكانوا يسكنون في عشرين قرية، فبادت منها ثماني عشرة، لم يبق فيها ديار ولا نافخ نار، وبقيت أنعامهم وأموالهم لا قاني لها، ولا يستطيع أحد أن يسكن تلك القرى ولا يدخلها، بل كان من اقترب إلى شيء من هذه القرى هلك من ساعته، فسبحان من بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون. أما القريتان الباقيتان فإنهما لم يمت منهما أحد، ولا عندهم شعور بما جرى على من حولهم، بل هم على ما كانوا عليه لم يفقد منهم أحد، فسبحان الحكيم العليم.

واتفق باليمن في هذه السنة كائنة غريبة جداً، وهي أن رجلا يقال له عبدالله بن حمزة العلوي، كان قد تغلب على كثير من بلاد اليمن، وجمع نحواً من أثنى عشر ألف فارس، ومن الرجالة جمعا كثيراً، وخافه ملك اليمن المعز بن إسماعيل بن سيف الإسلام بن طغتكين بن أيوب، وغلب على ظنه زوال ملكه على يدي هذا الرجل، وأيقن بالهلكة لضعفه عن مقاومته، واختلاف أمرائه معه في المشورة، فأرسل الله صاعقة، فنزلت عليهم، فلم يبق منهم أحد، سوى طائفة من الخيالة والرجالة، فاختلف

جيشه فيما بينهم، فغشيهم المعز فقتل منهم ستة آلاف، واستقر في ملكه آمنا.

وفيها تكاتب الأخوان الأفضل من صرخد والظاهر من حلب، على أن يجتمعا على حصار دمشق، وينزعاها من المعظم بن العادل، وتكون للأفضل، ثم يسيرا إلى مصر، فيأخذاها من العادل وابنه الكامل، اللذين نقضا العهد وأبطلا خطبة المنصور بن العزيز، ونكثا المواثيق، فإذا استقر لهما ملك مصر كانت للأفضل، وتصير دمشق مضافة إلى الظاهر مع حلب، فلما بلغ العادل ما تمالآ عليه، أرسل جيشاً مددا لابنه المعظم عيسى إلى دمشق، فوصلوا إليها قبل وصول الظاهر وأخيه إليها، وكان وصولهما إليها في ذي القعدة من ناحية بعلبك، فنزلا بجيشهما على مسجد القدم، واشتد الحصار للبلد، وتسلق كثير من الجيش من ناحية خان ابن المقدم، ولم يبق إلا فتح البلد، لولا هجوم الليل، ثم إن الظاهر بدا له فيما كان عاهد أخاه عليه من كون دمشق تكون للأفضل، فرأى أن تكون له أولا، ثم إذا فتحت حصر تسلمها الأفضل، فأرسل إليه في ذلك فلم يقبل الأفضل، فاختلفا وتفرقت كلمتهما، وتنازعا الملك بدمشق، فتفرقت الأمراء عنهما، وكوتب العادل في الصلح، فأرسل يجيب إلى ما سألا، من إقطاعهما شيئاً من بلاد الجزيرة، وبعض معاملة المعرة. وتفرقت العساكر عن دمشق في محرم سنة ثمان وتسعين، وسار كل منهما إلى ما تسلم من البلاد التي أقطعها، وجرت خطوب يطول شرحها، وقد كان الظاهر وأخوه كتبا إلى صاحب الموصل نور الدين أرسلان الأتابكي، أن يحاصر مدن الجزيرة التي مع عمهما العادل، فركب في جيشه وأرسل إلى ابن عمه قطب الدين صاحب سنجار واجتمع معهما صاحب ماردين الذي كان العادل قد حاصره وضيق عليه مدة طويلة، فقصدت العساكر حران، وبها الفائز بن العادل، فحاصروه مدة، ثم لما بلغهم وقوع الصلح بين العادل وابني أخيه الظاهر والأفضل عدلوا إلى المصالحة، وذلك بعد طلب الفائز ذلك منهم، وتمهدت الأمور واستقرت على ما كانت عليه ولله الحمد والمنة.

وفي هذه السنة ملك غياث الدين وأخوه شهاب الدين الغوريان جميع ما كان يملك خوارزم شاه من البلدان والخواصل والأموال، وجرت لهم خطوب طويلة جدا.

وفيها كانت زلزلة عظيمة ابتدأت من بلاد الشام إلى الجزيرة، وبلاد الروم والعراق، وكان جمهورها وعظمها بالشام تهدمت منها دور كثيرة، وتخربت محال كثيرة، وخسف بقرية من أرض بصرى، وأما سواحل الشام وغيرها فهلك فيها شيء كثير، وأخربت محال كثيرة من طرابلس وصور وعكا ونابلس، ولم يبق بنابلس سوى حارة السامرة، ومات بها وبقراها ثلاثون ألفاً تحت الردم، وسقط طائفة كثيرة من المنارة الشرقية بجامع دمشق، وأربع عشرة شرفة منه، وغالب الكلاسة والمارستان النوري، وخرج الناس إلى الميادين يستغيثون، وسقط غالب قلعة بعلبك مع وثاقة بنيانها، وانفرق البحر إلى قبرص، وقد حذف بالمراكب إلى ساحله، وتعدى إلى ناحية الشرق فسقط بسبب ذلك دور كثيرة، ومات أمم لا يحصون ولا يعدون، حتى قال صاحب مرآة الزمان [٤٧٨/٢/٨]: إنه مات في هذه السنة بسبب الزلزلة نحو من ألف ألف ومائة ألف إنسان نقله في ذيل الروضتين عنه [ص ٢٠].

وفي هذه السنة توفي من الأعيان والمشاهير

الشيخ أبو الفرج

■ **ابن الجوزي عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن حُمّادي بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزي** ـ نسبة إلى فرضة نهر بالبصرة ـ ابن عبد الله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق، الشيخ الحافظ الواعظ جمال الدين أبو الفرج المشهور بابن الجوزي، القرشي التيمي البغدادي الحنبلي.

أحد أفراد العلماء، برز في علوم كثيرة، وانفرد بها عن غيره، وجمع المصنفات الكبار والصغار نحواً من ثلاثمائة مصنف، وكتب بيده نحواً من ألفي مجلدة، وتفرد بفن الوعظ، الذي لم يسبق إليه ولا يلحق شأوه فيه وفي طريقته وشكله، وفي فصاحته وبلاغته، وعذوبة كلامه وحلاوة ترصيعه، وبقود وعظه وغوصه على المعاني البديعة، وتقريبه الأشياء الغريبة فيما يشاهد من الأمور الحسية، بعبارة وجيزة سريعة الفهم والإدراك، بحيث يجمع المعاني الكثيرة في الكلمة اليسيرة.

هذا وله في العلوم كلها اليد الطولى، والمشاركات في سائر أنواعها، من التفسير، والحديث والتاريخ، والحساب، والنظر في النجوم، والطب، والفقه، وغير ذلك من اللغة والنحو، وله من المصنفات في ذلك ما يضيق هذا المقام عن تعدادها، وحصر أفرادها، منها كتابه في التفسير المشهور بزاد المسير، وله تفسير أبسط منه ولكنه ليس بمشهور، وله جامع المسانيد، استوعب به غالب مسند الإمام أحمد، وصحيحي البخاري ومسلم، وجامع الترمذي، وله كتاب المنتظم في تواريخ الأمم من العرب والعجم في عشرين مجلداً، قد أوردنا في كتابنا هذا كثيرا منه من حوادثه وتراجمه، ولم يزل يؤرخ أخبار العالم حتى صار هو تاريخاً، وما أحقه بقول الشاعر:

مازلت تداب في التاريخ مجتهداً حتى رأيتك في التاريخ مكتوبا

وله مقامات وخطب، وله الأحاديث الموضوعة، وله العلل المتناهية في الأحاديث الواهية، وغير ذلك.

ولد سنة عشر وخمسمائة، ومات أبوه وعمره ثلاث سنين، وكان أهله تجاراً في النحاس، فلما ترعرع جاءت به عمته إلى مسجد محمد بن ناصر الحافظ، فلزم الشيخ وقرأ عليه، وسمع عليه الحديث، وتفقه بابن الزاغوني، وحفظ الوعظ، ووعظ وهو دون العشرين، وأخذ اللغة عن أبي منصور الجواليقي، وكان صيّناً دينا، مجموعا على نفسه لا يخالط أحداً، ولا يأكل مما فيه شبهة، ولا يخرج من بيته إلا للجمعة، وكان لا يلعب مع الصبيان، وقد حضر مجلس وعظه الخلفاء والوزراء، والملوك والأمراء، والعلماء والفقراء، ومن سائر صنوف بني آدم، وأقل ما كان يجتمع في مجلس وعظه عشرة آلاف، وربما اجتمع فيه مائة ألف أو يزيدون، وربما تكلم من خاطره على البديهة نظماً ونثراً، رحمه الله.

وبالجملة كان أستاذاً فرداً في الوعظ له مشاركات حسنة في بقية العلوم، وقد كان فيه بهاء وترفع في نفسه، ويسمو بنفسه أكثر من مقامه، وذلك ظاهر في كلامه في نثره ونظمه، فمن ذلك قوله:

ما زلتُ أدرك ما غلا بل ما علا وأكابد النهج العسير الأطولا

تجري بي الآمال في حلباته طلّق السعيد جرى مدى ما أملا

يفضي بي التوفيق فيه إلى الذي أعيا سواي توصلا وتغلغلا

لو كان هذا العلم شخصا ناطقاً ... وسألته هل زرت مثلي قال: لا

ومن شعره، وقيل: هو لغيره:

إذا قنعت بميسور من القوت ... أصبحت في الناس حراً غير ممقوت
يا قوت نفسي إذا ما در خِلْفُك لي ... فلست آسى على درٍّ وياقوتِ

وله من النظم والنثر شيء كثير لا ينضبط، وله كتاب مفرد سماه لقط الجمان في كان وكان.

ومن لطائف كلامه قوله في الحديث «أعْمَارُ أُمَّتي ما بين السِّتين إلى السَّبعين» إنما طالت أعمار من قبلنا لطول البادية، فلما شارف الركب بلد الإقامة قيل لهم حثوا المطي.

وقال له رجل: أيهما أفضل؟ أجلس أسبح أو استغفر؟ فقال: الثوب الوسخ أحوج إلى الصابون من البخور.

وسئل عمن أوصى وهو في السياق فقال: هذا طين سطوحه في كانون.

والتفت يوماً إلى ناحية الخليفة المستضيء وهو في الوعظ فقال: يا أمير المؤمنين إن تكلمت خفت منك، وإن سكت خفت عليك، وإن قول القائل لك اتق الله خير لك من قوله لكم إنكم أهل بيت مغفور لكم، وكان عمر بن الخطاب يقول: إذا بلغني عن عامل لي أنه ظالم، فلم أغيره فأنا الظالم، يا أمير المؤمنين، وكان يوسف لا يشبع في زمن القحط حتى لا ينسى الجائع، وكان عمر يضرب بطنه عام الرمادة ويقول قَرْقِرْ أو لا تُقرقر، والله لا سمناً ولا سميناً حتى يخصب الناس، قال: فبكى المستضيء، وتصدق بمال جزيل، وأطلق المحابيس، وكسى خلقا من الفقراء.

وولد ابن الجوزي في حدود سنة عشر وخمسمائة كما تقدم، وكانت وفاته ليلة الجمعة بين العشاءين، الثاني عشر من رمضان من هذه السنة، وله من العمر سبع وثمانون سنة، وحملت جنازته على رؤوس الناس، وكان الجمع كثيراً جداً، ودفن بباب حرب عند أبيه بالقرب من الإمام أحمد، وكان يوماً مشهوداً، حتى قيل: إنه أفطر جماعة من الناس من كثرة الزحام، وشدة الحر رحمه الله، وقد أوصي أن يكتب على قبره هذه الأبيات:

يا كثير العفو عمّن ... كثُرَ الذَّنبُ لديه
جاءكَ المذنِبُ يرجو الـ ... صفحَ عن جُرمِ يديه
أنا ضيفٌ وجزاءُ الـ ... ضيفِ إحسانٌ إليه

وقد كان للشيخ جمال الدين بن الجوزي من الأولاد الذكور ثلاثة: عبد العزيز ـ وهو أكبرهم ـ مات شابا في حياة والده، في سنة أربع وخمسين، ثم أبو القاسم علي، وقد كان عاقا لوالده إلبا عليه في زمن المحنة وغيرها، وقد تسلط على كتبه في غيبته بواسط فباعها بأبخس الثمن، ثم محيي الدين يوسف، وكان أنجب أولاده وأصغرهم، ولد سنة ثمانين، ووعظ بعد أبيه، واشتغل وحرر، وأتقن وساد أقرانه، ثم باشر حسبة بغداد، ثم صار رسول الخلفاء إلى الملوك بأطراف البلاد، ولا سيما بني أيوب بالشام، وقد حصل منهم من الأموال والكرامات ما ابتنى به المدرسة الجوزية التي بالنشابين بدمشق، وما أوقف عليها، ثم حصل له من سائر الملوك أموالا جزيلة، ثم صار أستاذ دار الخليفة المستعصم في سنة أربعين ستمائة، واستمر مباشرها إلى أن قتل مع الخليفة عام هولاكو بن تولي بن جنكيزخان.

وكان لأبي الفرج عدة بنات، منهن رابعة أم سبطه أبي المظفر بن قزاوغلي صاحب مرآة الزمان، وهي كتاب من أجمع التواريخ وأكثرها فائدة، وقد ذكره ابن خلكان في الوفيات، فأثنى عليه، وشكر تصانيفه وعلومه.

■ **العماد الكاتب الأصبهاني: محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبد الله بن علي بن محمود بن هبة الله بن أُله ـ بتشديد اللام وضمها ـ المعروف بالعماد الكاتب الأصبهاني**، صاحب المصنفات والرسائل والشعر، وهو قرين القاضي الفاضل، واشتهر في زمنه، ومن اشتهر في زمن الفاضل فهو فاضل.

ولد بأصبهان في سنة تسع عشر وخمسمائة، وقدم بغداد، فاشتغل بها على الشيخ أبي منصور سعيد بن الرزاز مدرس النظامية، وسمع الحديث ثم رحل إلى الشام، فحظي عند الملك نور الدين محمود بن زنكي، وكتب بين يديه، وولاه المدرسة التي أنشأها داخل باب الفرج التي يقال لها العمادية، نسبة إلى العماد هذا لكثرة سكناه بها، وإقامته فيها، وتدريسه بها، لا أنه أنشأها، وإنما أنشأها نور الدين محمود، ولم يكن هو أول من درس بها، بل قد سبقه إلى تدريسها غير واحد، كما تقدم في ترجمة نور الدين، ثم صار العماد كاتباً في الدولة الصلاحية، وكان القاضي الفاضل يثني عليه ويشكره.

قالوا: وكان منطوقه يعتريه جمود وفترة، وقريحته في غاية الجودة والحدة، وقد قال القاضي الفاضل لأصحابه يوماً: قولوا فتكلموا وشبهوه في هذه الصفة بصفات فلم يقبلها القاضي، وقال: هو كالزناد ظاهره بارد وداخله نار.

وله من المصنفات: خريدة القصر في شعراء العصر، والفتح القدسي، والبرق الشامي وغير ذلك من المصنفات المسجعة، والعبارات المصرّعة، والقصائد المطولة، والمعاني والألفاظ المؤثلة.

ومن لطيف تغزّله قوله هذه الأبيات: -

كيف قلتم في مقلتيه فتور ... وأراها بلا فتور تجور
لو بصرتم بطرفه كيف يسبي ... قلتم ذاك كاسرٌ لا كسير
موتر قوس حاجبيه لإصما ... ء فؤادي كأنّه موتور
لا تسلني عن العقار فعقلي ... طافح من عقارهنّ عقير
كيف يصحو من سكره مستهام ... مزجت كأسه الحسان الحور
أورثته سقامها الحدق النجـ ... ـل وأهدت له النحول الخصور
ما تصيد الأسد الخوادر إلاّ ... ظبيات كناسهنّ الخدور
كل غصنيّة الموشّح هيفا ... ء على البدر جيبها مزرور
وجنات تجنى الشقائق منها ... وثنايا كأنّها المنثور

وقد كانت وفاته في مستهلّ رمضان من هذه السنة عن ثمان وسبعين سنة، رحمه الله، ودفن بمقابر الصوفيّة.

الأمير بهاء الدين

■ **قراقوش**: الفحل الخصي، أحد كبار كتاب أمراء الدولة الصلاحية، كان شهما شجاعا فاتكا، تسلم القصر لما مات العاضد، وعمر سور القاهرة محيطا على مصر أيضاً، وانتهى إلى المقسم، وهو المكان الذي اقتسمت فيه الصحابة ما غنموا من الديار المصرية، وبنى قلعة الجبل، وكان صلاح الدين سلمه عكا ليعمر فيها أماكن كثيرة فوقع الحصار وهو بها، فلما خرج البدل منها كان هو من جملة من خرج، ثم دخلها ابن المشطوب، وقد ذكر أنه أسر، فافتدى نفسه بعشرة آلاف دينار، وعاد في حياة الملك صلاح الدين

ففرح به فرحاً شديداً، ولما توفي في هذه السنة احتاط العادل على تركته، وصارت أقطاعه وأملاكه للملك الكامل محمد بن العادل.

قال ابن خلكان: وقد نسب إليه أحكام عجيبة، حتى صنف بعضهم جزءاً لطيفا سماه كتاب الفاشوش في أحكام قراقوش، فذكر أشياء كثيرة جدا، وأظنها موضوعة عليه، فإن الملك صلاح الدين كان يعتمد عليه، وما كان ليفعل ذلك وهو بهذه المثابة والله أعلم.

■ مكلبة بن عبد الله المستجدي: كان تركياً عابدا زاهدا، سمع المؤذن وقت السحر وهو ينشد على المنارة:

يا رجالَ الليل جدوا رب صوت لا يرد
ما يقومُ الليل إلا من له عزمٌ وجد

فبكى مكلبة وقال للمؤذن: يا مؤذن زدني، فقال المؤذن:

قد مضى الليلُ وولى وحبيبي قد تجلّى

فصرخ مكلبة صرخة كان فيها حتفه، فأصبح أهل البلد قد اجتمعوا على بابه، فالسعيد منهم من وصل إلى نعشه، رحمه الله تعالى وأكرم مثواه.

■ (ابن نقطة).

أبو منصور بن أبي بكر بن شجاع: المزكلش ببغداد، ويعرف بابن نقطة، كان يدور في أسواق بغداد بالنهار ينشد كان وكان والمواليا، ويسحر الناس في ليالي رمضان، وكان مطبوعا ظريفا خليعا، وكان أخوه الشيخ عبد الغني الزاهد من أكابر الصالحين، له زاوية ببغداد يزار فيها، وكان له أتباع ومريدون، ولا يدخر شيئا يحصل له من الفتوح، تصدق في ليلة بألف دينار وأصحابه صيام لم يدخر منها شيئاً لعشائهم، وزوجته أم الخليفة بجارية من خواصها، وجهزتها بعشرة آلاف دينار إليه، فما حال الحول وعندهم من ذلك شيء بل جميع ذلك يؤثر به ويتصدق به حتى لم يبق عندهم سوى هاون، فوقف سائل ببابه فالح في الطلب فأخرج إليه الهاون فقال: خذ هذا وكل به ثلاثين يوماً، ولا تسأل الناس ولا تشنع على الله عز وجل. وكان من خيار الصالحين.

والمقصود أنه قال لأخيه أبي منصور هذا: ويحك أنت تدور في الأسواق، وتنشد الأشعار، وأخوك من قد عرفت؟ فأنشأ يقول في جواب ذلك بيتين مواليا من شعره على البديهة:

قد خاب من شبه الجزعه إلى الدرة وشابه قبحه إلى مستجنّه حره
أنا مغني وأخي زاهد إلى مره في الدار بترين ذي حلوه وذي مره

وقد جرى عنده مرة ذكر قتل عثمان وعلي حاضر بالمدينة، فأنشأ يقول كان وكان، ومن قتل في جواره مثل ابن عفان فاعتذر، يجب عليه أن يقبل في الشام عذر يزيد، فأرادت الروافض قتله، فاتفق أنه في بعض الليالي يسحر الناس في رمضان، إذا مر بدار الخليفة، فعطس الخليفة في الطارقة فشمته أبو منصور هذا من الطريق في نظم ارتجله على البديهة هوالياً يقول في آخره: أي من عطس في المنظره يرحمك الله، فأرسل إليه مائة دينار، ورسم بحمايته من الروافض، إلى أن مات في هذه السنة رحمه الله.

وفيها توفي مسند الشام: أبو طاهر بركات بن إبراهيم بن طاهر:

■ الخشوعي، شارك ابن عساكر في كثير من مشيخته، وطالت حياته بعد وفاته بسبع وعشرين سنة، فألحق فيها الأحفاد بالأجداد.

ثم دخلت سنة ثمان وتسعين وخمسمائة

فيها شرع الشيخ أبو عمر محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي في بناء المسجد الجامع بالجبل، فأنفق عليه رجل يقال له الشيخ أبو داود محاسن الفامي، حتى بلغ البناء مقدار قامة فنفد ما عنده، وما كان معه من المال، فأرسل الملك المظفر كوكبوري بن زين الدين صاحب إربل مالا جزيلا ليتمه به، فكمل، وأرسل ألف دينار ليساق بها إليه الماء من بزرة، فلم يمكن من ذلك الملك المعظم صاحب دمشق، واعتذر بأن هذا يشوّش قبوراً كثيرة للمسلمين، فصنع له بئر وبغل يدور، ووقف عليه وقفٌ لذلك.

وفيها كانت حروب كثيرة، وخطوب طويلة بين الخوارزمية والغورية ببلاد المشرق، بسطها ابن الأثير [الكامل: ١٢/١٧٣]، واختصرها ابن كثير.

وفيها درس بالنظامية مجد الدين يحيى بن الربيع، وخلع عليه خلعة سنية سوداء، وطرحة كحلية، وحضر عنده العلماء والأعيان.

وفيها تولى قاضي القضاة ببغداد أبو الحسن علي بن سليمان الجيلي، وخلع عليه أيضا.

وفيها توفي من الأعيان

القاضي

■ ابن الزكي: محمد بن علي بن محمد بن يحيى بن علي بن عبد العزيز أبو المعالي القرشي، محيي الدين قاضي قضاة دمشق، وكل منهما كان قاضيا أبوه وجده وأبو جده يحيى بن علي، وهو أول من ولي الحكم بدمشق منهم، وكان جد الحافظ أبي القاسم بن عساكر لأمه، وقد ترجمه ابن عساكر في التاريخ ولم يزد على القرشي.

قال الشيخ أبو شامة: ولو كان أمويا عثمانيا كما يزعمون لذكر ذلك ابن عساكر، إذ كان فيه شرف لجده، وخاليه محمد وسلطان، فلو كان ذلك صحيحا لما خفي على ابن عساكر.

اشتغل ابن الزكي على القاضي شرف الدين أبي سعد عبد الله بن محمد بن أبي عصرون، وناب عنه في الحكم، وهو أول من ترك النيابة، وهو أول من خطب بالقدس لما فتحه الملك صلاح الدين كما تقدم بيان ذلك في سنة ثلاث وثمانين، ثم ولاه قضاء دمشق، وأضاف إليه قضاء حلب أيضاً، وكان ناظر أوقاف الجامع، وعزل عنها قبل وفاته بشهور، ووليها شمس الدين بن البيني ضمانا.

وقد كان ابن الزكي ينهى الطلبة عن الاشتغال بالمنطق وعلم الكلام، ويمزق كتب من كان عنده شيء من ذلك بالمدرسة التقوية، وكان يحفظ العقيدة المسماة بالمصباح للغزالي، ويحفظها أولاده أيضا، وكان له درس في التفسير، يذكره بالكلاسة، تجاه تربة الملك الناصر صلاح الدين، وكان قد وقع بينه وبين الإسماعيلية فأرادوا قتله، فاتخذ له بابا من داره إلى الجامع، ليخرج منه إلى الصلاة، ثم إنه خولط في عقله، فكان يعتريه شبه الصرع، إلى أن توفي في سابع شعبان من هذه السنة، ودفن في تربة بسفح.

■ الخطيب الدولعي: ضياء الدين أبو القاسم عبد الملك بن زيد بن ياسين الثعلبي الدولعي، نسبة إلى قرية بالموصل، يقال لها الدولعية، ولد بها في سنة ثماني عشرة وخمسمائة، وتفقه ببغداد على مذهب الشافعي، وسمع الحديث، فسمع الترمذي على أبي الفتح الكروخي، والنسائي على أبي الحسن علي بن أحمد اليزدي، ثم قدم دمشق فولي بها الخطابة وتدريس

الغزالية، وكان زاهدا متورعاً، حسن الطريقة، مهيباً في الحق.

وكانت وفاته يوم الثلاثاء ثاني عشر ربيع الأول، ودفن بمقبرة باب الصغير عند قبور الشهداء، وكان يوم جنازته يوماً مشهوداً، وتولى بعده الخطابة ولد أخيه محمد بن أبي الفضل بن زيد سبعا وثلاثين سنة، وقيل: وقد كان ابن الزكي ولي ولده الزكي الطاهر ، فصلى صلاة واحدة، فتشفع جمال الدين بالأمير فلك الدين أخي العادل، فولاه إياها، فبقي فيها إلى أن توفي سنة خمس وثلاثين وستمائة.

الشيخ

■ علي بن علي بن غُليس: اليمني العابد الزاهد، كان مقيما شرقي الكلاسة، وكانت له أحوال وكرامات، نقلها الشيخ علم الدين السخاوي عنه، ساقها أبو شامة عنه في الذيل [ص: ٣٠].

الصدر أبو الثناء

■ حماد بن هبة الله بن حماد الحراني، التاجر، ولد سنة إحدى عشرة عام ولد نور الدين بن زنكي، وسمع الحديث ببغداد ومصر وغيرها من البلاد وحدّث، وتوفي في ذي الحجة.

ومن شعره قوله:

تنقّلُ المرءِ في الآفاقِ يُكسِبهُ ... محاسناً لم يكنْ منها ببلدتهِ

أما ترى البيدقَ الشطرنجَ أكسبهُ ... حسنُ التنقل حسناً فوق زينتهِ

الست الجليلة

■ بنفشا بنت عبد الله: عتيقة المستضيء، كانت من أكبر حظاياه، ثم صارت بعده من أكثر النساء صدقة وبراً، وإحسانا إلى العلماء والفقراء، لها بطريق الحجاز معروف، ووقفت مدرسة على الحنابلة وأوقافاً دارّة، ودفنت ببغداد عند تربة معروف الكرخي.

■ ابن المحتسب الشاعر أبو الشكر: محمود بن سليمان بن سعيد الموصلي، يعرف بابن المحتسب، تفقه ببغداد، ثم سافر إلى البلاد، وصحب ابن الشهرزوري وقدم معه، فلما ولي قضاء بغداد ولاه نظر أوقاف النظامية، وكان فاصلاً يقول الشعر الرائق، فمن ذلك:

أسلف لنا في سلافة العنب ... جميع ما يقتني من الذهب

وانشب مع النفس في معاملة ... فيها بما عندنا من النُشب

جميع ما في الهيمان بحقره الـ ... ـعاقل في لثم ريقها الشَّنب

لا سيَّما إن أتتك كالذهب ... قد قلدوها عقداً من الحبب

تحرق كفُّ المدير إن وقف الـ ... ـدور بها ساعة من اللَّهب

إذا بدا همُّنا ليسترق السمع ... برفق للَّهو واللَّعب

تتبعه من سماء راووقها الـ ... ـرائق رجماً بالأنجم الشُّهب

ما قطُّ تبَّت يد لشاربها ... وحقُّ تبَّت يدا أبي لهب

أمرُ بالكرم خلف حائطه ... تأخذني نشوة من الطَّرب

أسكر بالأمس إن عزمت على الـ ... ـشُّرب غداً إنَّ ذا من العجب

جنُبها سكرها وصحبتها ... وتحريم شرع لسيِّد العرب

تركتها جانباً ولذت إلى ... ظلِّ إمام منج من النُّوب

الطاهر الطُّهر وابن خير فتى ... وطاهر الخلق طاهر النَّسب

ماذا يقول المدّاح في رجل ... خليفة اللَّه وابن عمِّ نبي

ومن شعره الرائق له أيضاً:

أهاب وصف الخمر في إهابها ... يا حبَّذا ما كان من مهابها

حبا بها الساقي وقد أقعده ... سكر فزاد السُّكر إذا حبا بها

خطا بها ونيقة شرعيَّة ... على الذي يفلس من خطّابها

دعا بها في صدر كلِّ باخل ... وخليًا من كلِّ من دعا بها

فتا بها قلب الحسود واشكرا ... كلُّ فتى في الناس قد فتا بها

اعن بها يا أيُّها المغرى بها ... وأسلف النُّضار في أعنابها

ثوى بها كلُّ السرور عندنا ... وإثمها أكبر من ثوابها

ثم دخلت سنة تسع وتسعين وخمسمائة

قال سبط بن الجوزي في المرآة [مرآة الزمان: ٨/٥١٣/٢]: في ليلة السبت سلخ المحرم، هاجت النجوم في السماء، وماجت شرقا وغربا، وتطايرت كالجراد المنتشر يمينا وشمالا، قال: ولم ير مثل هذا إلا في عام المبعث، وفي سنة إحدى وأربعين ومائتين.

وفي هذه السنة شرع في عمارة سور قلعة دمشق، وابتدئ ببرج الزاوية الغربية القبلية، المجاور لباب النصر. وفيها أرسل الخليفة الناصر الخلع، وسراويلات الفتوة إلى الملك العادل وبنيه.

وفيها بعث العادل ولده موسى الأشرف لمحاصرة ماردين، وساعده جيش سنجار والموصل، ثم وقع الصلح على يدي الظاهر، على أن يحمل صاحب ماردين للعادل في كل سنة مائة ألف وخمسين ألف دينار، وأن تكون السكة والخطبة للعادل، وأنه متى طلبه بجيشه يحضر إليه.

وفيها كمل بناء رباط المرزبانية، ووليه الشيخ شهاب الدين عمر بن محمد السهرودي، ومعه جماعة من الصوفية، ورتب لهم من المعلوم والجراية ما ينبغي لمثلهم من إقامتهم بالديار المصرية.

وفيها احتجر الملك العادل على محمد بن الملك العزيز وإخوته، وسيرهم إلى الرها خوفا من آفاتهم بالديار المصرية.

وفيها استحوذت الكرج على مدينة دوين فقتلوا أهلها ونهبوها، وهي من بلاد آذربيجان، لاشتغال ملكها بالفسق وشرب الخمر قبحه الله فتحكمت الكفرة في رقاب المسلمين بسببه، وذلك كله غل في عنقه يوم القيامة.

الملك غياث الدين الغوري أخو شهاب الدين: فقام بالملك بعده ولده محمود، وتلقب بلقب أبيه، وكان غياث الدين عاقلا،حازما شجاعاً، لم تكسر له راية مع كثرة حروبه،وكان شافعي المذهب، ابتنى مدرسة هائلة للشافعية، وكانت سيرته حسنة في غاية الجودة وكذا سريرته، رحمه الله.

وفيها توفي من الأعيان

الأمير الكبير فلك الدين أبو منصور:

■ سليمان بن شروة بن خلدك، أخو الملك العادل لأمه، وكانت وفاته في التاسع والعشرين من المحرم، ودفن بداره التي جعلها مدرسة في داخل باب الفراديس في محلة الأفتريس، ووقف عليها الحمام بكمالها، تقبل الله منه.

القاضي ضياء الدين

■ ابن الشهرزوري: أبو الفضائل القاسم بن يحيى بن عبد الله بن القاسم الشهرزوري الموصلي، قاضي قضاة بغداد، وهو ابن أخي قاضي قضاة دمشق كمال الدين الشهرزوري، أيام نور الدين، ولما توفي سنة ست وسبعين في أيام الدولة الصلاحية أوصى لولد أخيه هذا بالقضاء فوليه، ثم عزل عنه بابن أبي عصرون، وعوض بالسفارة إلى الملوك، ثم تولى قضاء بلدة الموصل، ثم استدعي إلى بغداد فوليها سنتين وأربعة أشهر، ثم استقال الخليفة فلم يقله الخليفة لحظوته عنده، فاستشفع في زوجته ست الملوك على أم الخليفة، وكان لها مكانة عندها، فأجيب إلى ذلك، فصار إلى قضاء حماة لمحبته إياها، وكان يعاب عليه ذلك، وكانت لديه فضائل، وله أشعار رائقة، كانت وفاته في حماة، في نصف رجب رحمه الله.

■ عبيد الله بن علي بن نصر بن حمزة: أبو بكر البغدادي، المعروف بابن المرستانية، أحد الفضلاء المشهورين، سمع الحديث وجمعه، وكان طبيباً منجماً، يعرف علوم الأوائل، وأيام الناس، وصنف ديوان الإسلام في تاريخ دار السلام ورتبه على ثلاثمائة وستين كتابا إلا أنه لم يشتهر، وجمع سيرة ابن هبيرة، وقد كان يزعم أنه من سلالة الصديق، فتكلموا فيه بسبب ذلك، وأنشد بعضهم:

دع الأنساب لا تعرض لتيم فإن المجْنَ من ولد الصمم
لقد أصبحت من تيم دعياً كدعوى حيص بيص إلى تميم

■ ابن النجا الواعظ: علي بن إبراهيم بن نجا زين الدين أبو الحسن الدمشقي، الواعظ الحنبلي، وسبط الشيخ أبي الفرج الشيرازي الحنبلي قدم بغداد فتفقه بها، وسمع الحديث، ثم رجع إلى بلده دمشق، ثم عاد إليها رسولا من جهة نور الدين في سنة أربع وستين، وحدث بها، ثم كانت له حظوة عند الملك الناصر صلاح الدين، وهو الذي نمّ على عمارة اليمني وذويه فصلبوا، وكانت له مكانة بمصر، وقد تكلم يوم الجمعة التي خطب فيها بالقدس الشريف بعد الفراغ من الجمعة، وكان وقتاً مشهوداً، وكان يعيش عيشا أطيب من عيش الملوك في الأطعمة والملابس، وكان عنده أكثر من عشرين سُرية من أحسن النساء، كل واحدة بألف دينار، فكان يطوف عليهن ويغشاهن، وبعد هذا كله مات فقيراً لم يخلف كفنا، وقد أنشد وهو على منبره للوزير طلائع بن رزيك:

مشيبكَ قد قضى صبغ الشباب وحل البازُ في وكر الغراب
تنامُ ومقلتُ الحدثان يقظى ومانابَ النوائب عنك ناب
فكيفَ بقاءُ عمرك وهو كنزٌ وقد أنفقت منه بلا حساب؟

الشيخ أبو البركات:

■ محمد بن أحمد بن سعيد التكريتي يعرف بالمؤيد، كان أديباً شاعراً، ومما نظمه في الوجيه النحوي حين كان حنبليا فانتقل حنفيا، ثم صار شافعيا، نظم ذلك في حلقة النحو بالنظامية:

ألا مبلغ عني الوجيه رسالة وإن كان لا تجدي لديه الرسائلُ
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل وذلك لما أعوزتك المآكلُ
وما اخترت رأي الشافعي تديُّناً ولكنما تهوى الذي هو حاصل
وعما قليل أنتَ لا شك صائرٌ إلى مالك فانظر إلى ما أنت قائلُ؟

الست الجليلة المصونة

■ زمرد خاتون: أم الخليفة الناصر لدين الله بن المستضيء، كانت صالحة عابدة، كثيرة البر والإحسان والصلات والأوقاف، عمرت المصانع بطريق الحجاز الشريف وأصلحت الطرقات وقد بنت لها تربة إلى جانب قبر معروف الكرخي، وكانت جنازتها مشهورة جداً، واستمر العزاء بسببها شهراً، عاشت في خلافة ولدها أربعا وعشرين سنة، نافذة الكلمة مطاعة الأوامر.

وفي هذه السنة كان مولد الشيخ شهاب الدين **أبي شامة**، قد ترجم نفسه عند ذكر مولده في هذه السنة في الذيل [ص: ٣٧]، ترجمة مطولة، فينقل إلى سنة وفاته رحمه الله، وذكر بدو أمره، واشتغاله، ومصنفاته، وشيئا كثيراً من أشعاره، وما رثي له من المنامات المبشرة.

وفي هذه السنة كان ابتداء ملك جنكيز خان، ملك التتار، عليه من الله ما يستحقه، وهو صاحب الياسق، وضعها ليتحاكموا إليها - يعني التتار ومن معهم من أمراء الترك ممن يبتغي حكم الجاهلية وهو والد تولي، وجد هولاكو بن تولى - الذي قتل الخليفة المستعصم وأهل بغداد في سنة ست وخمسين وستمائة كما سيأتي بيانه إن شاء الله تعالى في موضعه، والله سبحانه وتعالى أعلم.

سنة ستمائة من الهجرة النبوية

في هذه السنة كانت الفرنج قد جمعوا خلقا منهم ليستعيدوا بيت المقدس من أيدي المسلمين، فيما كانوا زاعمين فأشغلهم الله عن ذلك بقتال الروم، وذلك أنهم اجتازوا في طريقهم بالقسطنطينية، فوجدوا ملوكها قد اختلفوا فيما بينهم، فحاصروها حتى فتحوها قسرا، وأباحوها ثلاثة أيام قتلا وأسرا، وأحرقوا أكثر من ربعها، وما أصبح أحد من الروم في هذه الأيام الثلاثة إلا قتيلا أو فقيراً أو مكبولا أو أسيراً، ولجأ عامة من بقي منها إلى كنيستها العظمى المسماة بـ (صوفيا)، فقصدهم الفرنج، فخرج إليهم القسيسون بالأناجيل، ليتوسلوا إليهم، ويتلوا عليهم، فما التفتوا إلى شيء من ذلك، بل قتلوهم أجمعين، أكتعين أبصعين. وأخذوا ما كان في الكنيسة من الحلى والأذهاب والأموال التي لا تحصى ولا تعد، وأخذوا ما كان على الصلبان والحيطان، والحمد لله الرحيم الرحمن، الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.

ثم اقترع ملوك الفرنج وكانوا ثلاثة، وهم دوقس البنادقة، وكان شيخا أعمى تقاد فرسه، ومركيس الافرنسيس، وكند أفلند، وكان أكثرهم عدداً وعدداً، فخرجت القرعة له ثلاث مرات، فولوه ملك القسطنطينية، وأخذ الملكان الآخران بعض البلاد، وتحول الملك من الروم إلى الفرنج بالقسطنطينية في هذه السنة ﴿قل اللّهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾ [آل عمران: ٢٦] ولم يبق بأيدي الروم هنالك إلا ما وراء الخليج استحوذ عليها رجل منهم يقال له لشكري، ولم يزل مالكا لتلك الناحية حتى توفي، لعنة ا لله ثم إن الفرنج قصدوا بلاد الشام وقد تقووا بملكهم القسطنطينية، فنزلوا عكا، وأغاروا على كثير من بلاد الإسلام من ناحية الغور وتلك الأراضي، فقتلوا وسبوا، فنهض إليهم العادل وكان بدمشق، واستدعى الجيوش المصرية والشرقية، ونازلهم بالقرب من عكا، فكان بينهم قتال شديد ومصابرة عظيمة، ثم وقع الصلح بينهم والهدنة، وأطلق لهم السلطان شيئا من البلاد، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي هذه السنة جرت حروب كثيرة بين الخوارزمية والغورية بالمشرق يطول ذكرها.

وفيها تحارب صاحب الموصل نور الدين وقطب الدين بن عماد زنكي صاحب سنجار، وساعد الأشرف بن العادل القطب، ثم اصطلحوا، وتزوج الأشرف أخت نور الدين، وهي الأتابكية بنت عز الدين مسعود بن مودود بن زنكي، واقفة الأتابكية التي بالسفح، وبها تربتها.

وفيها كانت زلزلة عظيمة بمصر والشام والجزيرة وقبرص، وغيرها من البلاد، قاله ابن الأثير في كامله [١٢/١٩٨].

وفيها تغلب رجل من التجار يقال له محمود بن محمد الحميري على بعض بلاد حضرموت ظفار وغيرها، واستمرت أيامه إلى سنة تسع عشرة وستمائة وما بعدها.

وفي جمادى الأولى منها عقد مجلس لقاضي القضاة ببغداد، وهو أبو الحسن علي بن عبد الله بن سليمان الحلبي بدار الوزير، وثبت عليه محضر بأنه يتناول الرشا، فعزل في ذلك المجلس، وفسق، ونزعت الطرحة عن رأسه، وكانت مدة ولايته ستين وثلاثة أشهر.

وفيها كانت وفاة الملك

■ ركن الدين بن قلج أرسلان، صاحب بلاد الروم ما بين ملطية وقونية، وكانت فيه شهامة وصرامة غير أنه كان ينسب إلى اعتقاد الفلاسفة، وكان كهفاً لمن ينسب إلى ذلك، وملجأ لهم، وظهر منه قبل موته تجهم عظيم، وذلك أنه حاصر أخاه شقيقه ـ وكان صاحب أنكورية، وتسمى أيضاً أنقرة ـ مدة ستين، حتى ضيق عليه الأقوات بها، فسلمها إليه قسراً، على أن يعطيه بعض البلاد، فلما تمكن منه ومن أولاده، أرسل إليهم من قتلهم،غدراً وخديعة ومكراً فلم ينظر بعد ذلك إلا خمسة أيام،فضربه الله تعالى بالقولنج سبعة أيام ومات ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السماء والأرض وما كانوا مُنْظَرِين﴾ [الدخان: ٢٩] وقام بالملك من بعده ولده قلج أرسلان، وكان صغيراً فبقي سنة واحدة، ثم نزع منه الملك، وصار إلى عمه كنخسرو.

وفيها قتل خلق كثير من الباطنية بواسط و لله الحمد.

قال ابن الأثير: في رجب منها اجتمع جماعة من الصوفية برباط ببغداد في سماع فأنشدهم الحادي، وهو الجمال الحلي:

عُويذلتي اقصري ... كفى بمشيبي عذلْ
شباب كان لم يكن ... وشيب كان لم يزلْ
وحق ليالي الوصال ... أواخرها والأولْ
وصفرة لون المحب ... عند استماع الغزلْ
لئن عاد عيشي بكم ... حلا لي العيشُ لي واتصل

قال فتحرك الصوفية على العادة، فتواجد من بينهم رجل يقال له أحمد بن إبراهيم الرازي، فخر مغشياً عليه، فحركوه فإذا هو ميت، قال: وكان رجلا صالحا.

وقال ابن الساعي كان شيخا صالحا، صحب الصدر عبد الرحيم شيخ الشيوخ، فشهد الناس جنازته، ودفن بباب أبرز.

ومن توفي فيها من الأعيان

أبو محمد القاسم بهاء الدين: الحافظ ابن الحافظ أبي القاسم علي بن هبة الله

■ ابن عساكر، كان مولده في سنة سبع وعشرين وخمسمائة، أسمعه أبوه الكثير، وشارك أباه في أكثر مشايخه، وكتب تاريخ أبيه مرتين بخطه، وكتب الكثير، وأسمع وصنف كتبا عدة، وخلف أباه في إسماع الحديث بالجامع الأموي، ودار الحديث النورية.

وكانت وفاته يوم الخميس ثامن صفر، ودفن بعد العصر على أبيه، بمقابر باب الصغير شرقي قبور الصحابة، خارج الحظيرة رحمهما الله.

■ (عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي).

الحافظ: عبد الغني المقدسي بن عبد الواحد بن علي بن سرور الحافظ أبو محمد المقدسي، صاحب التصانيف المشهورة، من ذلك: الكمال في أسماء الرجال، والأحكام الكبرى والصغرى، وغير ذلك.

ولد بجماعيل في ربيع الآخر، سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وهو أسن من ابن خالته الإمام موفق الدين عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، بأربعة أشهر، وكان قدومهما مع أهلهما من بيت المقدس إلى مسجد أبي صالح خارج باب شرقي أولا، ثم انتقلوا إلى السفح، فعرفت محلة الصالحية بهم، فقيل لها الصالحية، فسكنوا الدير.

وقرأ الحافظ عبد الغني القرآن، وسمع الحديث، وارتحل هو والموفق إلى بغداد سنة ستين وخمسمائة، فأنزلهما الشيخ عبد القادر عنده في المدرسة، وكان لا يترك أحداً ينزل عنده، ولكن توسم فيهما الخير والنجابة والصلاح، فأكرمهما وأسمعهما، ثم توفي بعد مقدمهما بخمسين ليلة رحمه الله.

وكان ميل عبد الغني إلى الحديث وأسماء الرجال، وميل الموفق إلى الفقه، واشتغلا على الشيخ أبي على الشيخ أبي الفتح بن المني، ثم قدما دمشق بعد أربع سنين، فدخل عبد الغني إلى مصر وإسكندرية، ثم عاد إلى دمشق، ثم ارتحل إلى الجزيرة وبغداد، ثم رحل إلى أصبهان، فسمع بها الكثير، ووقف على مصنف للحافظ أبي نعيم في أسماء الصحابة.

قلت: وهو عندي بخط أبي نعيم.

فأخذ في مناقشته في أماكن من الكتاب، في مائة وتسعين موضعاً، فغضب بنو الخجندي من ذلك، فبغضوه، وأخرجوه منها مختفياً في إزار، ولما دخل في طريقه إلى الموصل سمع كتاب العقيلي في الجرح والتعديل، فثار عليه الحنفية بسبب أبي حنيفة، فخرج منها أيضاً خائفاً يترقب.

فلما ورد دمشق كان يقرأ الحديث بعد صلاة الجمعة، برواق الحنابلة من جامع دمشق، فاجتمع الناس عليه وإليه، وكان رقيق القلب، سريع الدمعة، فحصل له قبول من الناس جدا، فحسده الدماشقة، وجهزوا الناصح ابن الحنبلي، فتكلم تحت قبة النسر، وأمروه أن يجهر بصوته مهما أمكنه، حتى يشوش عليه، فحول عبد الغني ميعاده إلى بعد العصر، فذكر يوماً عقيدته على الكرسي، فثار عليه القاضي محيي الدين ابن الزكي، والخطيب وضياء الدين الدولعي، وعقدوا له مجلساً في القلعة، يوم الاثنين الرابع والعشرين من ذي القعدة سنة خمسة وتسعين، وتكلموا معه في مسألة العلو ومسألة النزول، ومسألة الحرف والصوت، وطال الكلام، وظهر عليهم بالحجة، حتى قال له الصارم بزغش والي القلعة: كل هؤلاء على الضلالة وأنت على الحق؟ قال: نعم. فغضب بزغش من ذلك وأمره بالخروج من البلد، فارتحل بعد ثلاث إلى بعلبك، ثم إلى الديار المصرية، فآواه الطحانون، فكان يقرأ الحديث بها، فثار عليه الفقهاء بمصر أيضاً، وكتبوا إلى الوزير صفي الدين بن شكر، فأمر بنفيه إلى المغرب، فمات قبل وصول الكتاب، يوم الاثنين الثالث والعشرين من ربيع الأول من هذه السنة، وله تسع وخمسون سنة، ودفن بالقرافة، عند قبر الشيخ أبي عمرو بن مرزوق رحمهما الله.

قال السبط [مرآة الزمان: ٥٢١/٢/٨]: كان عبد الغني ورعا زاهدا عابداً، يصلي كل يوم ثلاثمائة ركعة كورد الإمام أحمد، ويقوم الليل، ويصوم عامة السنة، وكان كريما جواداً لا يدخر شيئا، ويتصدق على الأرامل والأيتام حيث لا يراه أحد، وكان يرقع ثوبه ويؤثر بثمن الجديد، وكان قد ضعف بصره من كثرة المطالعة والبكاء وكان أوحد زمانه في علم الحديث والحفظ.

قلت: وقد هذب شيخنا الحافظ أبو الحجاج المزي تغمّده اللّه برحمته كتابه الكمال في أسماء الرجال ـ رجال الكتب الستة ـ بتهذيبه الذي استدرك عليه فيه أماكن كثيرة، نحواً من ألف موضع، وذلك أنه الإمام المزي الذي لا يمارى ولا يجارى، وكتابه التهذيب لم يسبق إلى مثله، ولا يلحق في مثل شكله، فرحم اللّه صاحبي التهذيب والكمال، فلقد كانا نادرين في زمانيهما في أسماء الرجال حفظا وإتقانا، وسماعا وإسماعا وسرداً للمتون وأسماء الرجال.

قال ابن الأثير في الكامل [١٩٩/١٢] وفيها توفي.

أبو الفتوح

■ **أسعد بن محمود العجلي:** صاحب تتمة التتمة، أسعد بن أبي الفضل بن محمود بن خلف العجلي الفقيه الشافعي الأصبهاني، الواعظ منتجب الدين، سمع الحديث، وتفقه وبرع، وصنف تتمة التتمة لأبي سعد الهروي.

كان زاهدا عابدا، وله شرح مشكلات الوسيط والوجيز.

قال ابن خلكان توفي في صفر سنة ستمائة.

■ **البناني الشاعر:** أبو عبد اللّه محمد بن المهنا، الشاعر المعروف بالبناني، مدح الخلفاء والوزراء والأمراء وغيرهم، كبر وعلت سنه، وكان رقيق الشعر لطيفة، فمن قوله:

وغـرّة بـالهوى أمسيت تنكـره ... ظلما ترى مغرماً في الحب تزجره
لوجنـة وعـذار كنـت تعـذره ... يا عاذل الصب لو عاتبت قاتله
إذا تصدى لقتلـي كيـف أسحره ... أفـدي الـذي سحر عينيه يعلمني
إلى الصبـاح وينسـاني وأذكـره ... يستمتع الليـل في نـوم وأسـهره

وله أيضاً:

بَكـرتْ تُديـر علـى العـواذلْ ... وتجـرُّ ذيـلاً في الخمـائلْ
وتهـزُّ في ثنـي الغـلا ... ئـل رِدْفهـا هـزَّ الذوابـلْ
وتقـول للغصـن الرطـ ... ـب إذا تمـائل أو تمـايلْ
بيضـاء صبغـة خدّهـا ... تُنْمـى وصبـغُ السـود حـائلْ
شَـهْدُ الحيـاةِ وصالُهـا ... وصدودهـا سـمُّ القواتـلْ

أبو سعيد

■ **الحسن بن خالد بن المبارك بم محضر النصراني الماردين،** الملقب بالوحيد، اشتغل في حداثته بعلم الأوائل وأتقنه، وبرز فيه وكانت له يد طولى في الشعر الرائق، فمن ذلك قوله قاتله اللّه:

حوت أبحراً من فيضها يغرق البحر ... أتـاني كتـاب أنشـأته أنـامل
وما عـودت بـالقبض أنمله العشر ... فوا عجبا أنى التوت فوق طرسه

وله أيضاً لعنه اللّه:

ولاحا كفيء مـن وراء زجـاج ... لقد أثرت صدغاه في لـون خـده
طلائعـه تسـعى ليـوم هيـاج ... ترى عسكراً للروم في الزنج قد بدتْ

أم الصبح بالليل البهيم موشح ... حكى أبنوساً في صحيفة عاج
لقد غار صدغاه على ورد خده ... فسيّجه من شعره بسياج

■ **الطاوسي صاحب الطريقة العراقي بن محمد بن العراقي:** ركن الدين أبو الفضل القزويني ثم الهمذاني، المعروف بالطاوسي، كان بارعا في علم الخلاف والجدل والمناظرة، أخذ هذا الشأن عن الشيخ رضي الدين النيسابوري الحنفي، وصنف في ذلك ثلاث تعاليق.

قال ابن خلكان: أحسنهن الوسطى، وكانت إليه الرحلة بهمذان، وقد بنى له بعض الأمراء الحجبة بها مدرسة تعرف بالحاجبية، وكانت وفاته في هذه السنة ويقال: إنه منسوب إلى طاوس بن كيسان التابعي فاللّه أعلم.

ثم دخلت سنة إحدى وستمائة

فيها عزل الخليفة الناصر ولده محمد الملقب بالظاهر عن ولاية العهد، بعدما خطب له بذلك سبع عشرة سنة، وولي العهد ولده الآخر عليا، فمات علي عن قريب، فعاد الأمر إلى الظاهر، فبويع له بالخلافة بعد أبيه الناصر، كما سيأتي في سنة ثلاث وعشرين وستمائة.

وفيها وقع حريق عظيم بدار الخلافة في خزائن السلاح، فاحترق من ذلك شيء كثير، من السلاح والأمتعة والمساكن، ما يقارب قيمته أربعة آلاف ألف دينار، وشاع خبر هذا الحريق في الناس، فأرسلت الملوك من سائر الأقطار هدايا أسلحة إلى الخليفة عوضا عن ذلك، وفوقه من ذلك شيئا كثيراً.

وفيها عاثت الكرج ببلاد المسلمين فقتلوا خلقا، وأسروا آخرين.

وفيها وقعت الحرب بين أمير مكة قتادة الحسني، وبين أمير المدينة سالم بن قاسم الحسيني، وكان قتادة قد قصد المدينة فحصر سالما فيها، فركب إليه سالم بعد ما صلى عند الحجرة النبوية، فاستنصر اللّه على قتادة، ثم برز إليه فكسره، وساق وراءه إلى مكة فحصره بها، ثم إن قتادة أرسل إلى أمراء سالم فأفسدهم عليه، فكر سالم راجعاً إلى المدينة سالماً.

وفيها ملك غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بلاد الروم، واستلبها من ابن أخيه، واستقر هو بها، وعظم شأنه، وقويت شوكته، وكثرت عساكره، وأطاعه الأمراء وأصحاب الأطراف، وخطب له الأفضل بن صلاح الدين بسميساط، وسار إلى خدمته.

واتفق في هذه السنة أن رجلا ببغداد نزل إلى دجلة يسبح فيها، وأعطى ثيابه لغلامه، فغرق في الماء، فوجد في ورقة بعمامته هذه الأبيات:

يـا أيهـا النـاس كـان لي أمـلُ ... قصـر بـي عـن بلوغـه الأجـلُ
فليتـق اللّـه ربـه رجـلٌ ... أمكنـهُ في زمانـه العمـلُ
مـا أنـا وحدي نُقلتُ حيث تـرى ... كـلٌ إلى مثلـه سـيتقلُ

ومن توفي فيها من الأعيان

أبو الحسن

■ **علي بن الحسن بن عنتر بن ثابت الحلي:** المعروف بشميم، كان شيخا أديباً، فاضلاً لغويا شاعراً، جمع من شعره حماسة كان يفضلها على حماسة أبي تمام، وله خمريات يزعم أنها أفحل من التي لأبي نواس.

قال أبو شامة في الذيل [ص: ٥٢]: كان قليل الدين، ذا حماقة ورقاعة وخلاعة، وله حماسة ورسائل.

قال ابن الساعي: قدم بغداد فأخذ النحو عن ابن الخشاب، حصل منه طرفا صالحا، ومن اللغة وأشعار العرب، ثم أقام بالموصل حتى توفي بها، ومن شعره في حماسته:

لا تسرحَنّ الطرفَ في بقْرِ المها ... فمصَارعُ الآجالِ في الآجالِ
كم نظرةٍ أردَتْ وما أخذتْ يدُ ... المُضمي بمن قتلت أداةَ قتالِ
سنحت وما سمحت بتسليم ... وإقلالِ التحيةِ فعلةِ المغتالِ

ومن خمريّاته قوله:

امزجْ بمسبوك اللُّجين ... دماً حكَته دموع عيني
لما نَعَى ناعي الفرا ... ق بين من أهوى وبيني
خفقت لنا شمسان من ... لألائها في الخافقين
وبَدَتْ لنا في كأسها ... من لونها في حُلّتين

وله في التجنيس:

ليت من طول ... بالشام نواه وثوى به
جعل العود إلى الزو ... راء من بعض ثوابه
أترى يوطنني الدهر ... ثرى مسك ترابه
وأرى أي نور عيني ... موطناً لي وترى به

أبو نصر

■ محمد بن سعد الله بن نصر بن سعيد الدجاجي، كان سخياً بهياً، واعظا حنبلياً، فاضلا شاعرا فمن قوله.

نفسُ الفتى إن أصلحت أحوالها ... كان إلى نيلِ المنى أحوى لها
وإن تراها سددت أقوالها ... كان على حملِ العلى أقوى لها
فإن تبدلت حال من لها لها ... في قبره عند البلى لها لها

أبو العباس

■ أحمد بن مسعود بن محمد القرطبي الخزرجي، كان إماما في التفسير والفقه، والحساب والفرائض، والنحو واللغة، والعروض والطب، وله تصانيف حسان، وشعر رائق منه قوله:

وفي الوجنات ما في الروض لكن ... لرونق زهرها معنى عجيبٌ
وأعجبُ ما التعجبُ عنه أني ... لتيار يحمله قضيبُ

أبو الفداء

■ إسماعيل بن برتقش السنجاري: مولى صاحبها عماد الدين زنكي بن مودود بن زنكي، وكان جنديا، حسن الصورة، مليح النظم كثير الأدب، ومن شعره ما كتب له إلى الأشرف موسى بن العادل يعزيه في أخ له اسمه يوسف:

دموع المعالي والمكارم ذرّف ... وربع العلى قاع لفقدك صفصف
غدا الجود والمعروف في اللحد ثاويا ... غداة ثوى في ذلك اللحد يوسف
فتىً خطفت يد المنية روحه ... وقد كان للأرواح بالبيض يخطف
سقته ليالي الدهر كأس حمامها ... وكان بسقي الموت في الحرب يعرف

فوا حسرتا لو ينفع الموت حسرة ... ووا أسفا لو كان يجدي التأسف
وكانت على الأرزاء نفسي قوية ... ولكنها عن حمل ذا الرزء تضعف

■ أبو الفضل بن إلياس بن جامع بن علي الإربلي: تفقه بالنظامية وسمع الحديث، وصنف التاريخ وغيره، وتفرد بحسن كتابة الشروط، وله فضل ونظم، فمن شعره:

أمرض قلبي، ما لهجرك آخر ... ومسهر طرفي، هل خيالك زائر
ومستعذب التعذيب جوراً بصده ... أما لك في شرع المحبة زاجر؟
هنيئاً لك القلب الذي قد وقفته ... على ذكر أيامي وأنت مسافر
فلا فارق الحزن المبرح خاطري ... لبعدك حتى يجمع الشمل قادر
فإن مت فالتسليم مني عليكم ... يعاودكم ما كبر اللّه ذاكر

■ أبو السعادات الحلي: التاجر البغدادي الرافضي، كان في كل جمعة يلبس لأمة الحرب، ويقف خلف باب داره، وهو مجاف عليه، والناس في صلاة الجمعة، وهو ينتظر أن يخرج صاحب الزمان من سرداب سامرا - يعني محمد بن الحسن العسكري - ليميل بسيفه في الناس نصرة للمهدي.

■ أبو غالب بن كمُّونة اليهودي: الكاتب، كان يزور على خط ابن مقلة من قوة خطه، توفي لعنه اللّه بمطمورة واسط، ذكره ابن الساعي في تاريخه [٩/١٦٥].

ثم دخلت سنة ثنتين وستمائة

فيها وقعت حرب عظيمة بين شهاب الدين محمد بن سام الغوري، صاحب غزنة، وبين بني كوكر أصحاب الجبل الجودي، وكانوا قد ارتدوا عن الإسلام، فقاتلهم وكسرهم، وغنم منهم شيئاً كثيراً لا يعد ولا يوصف، فاتبعه بعضهم حتى قتله غيلة في ليلة مستهل شعبان منها بعد العشاء، وكان رحمه اللّه من أجود الملوك سيرة، وأعقلهم وأثبتهم في الحرب، ولما قتل كان في صحبته فخر الدين الرازي وكان يجلس للوعظ بحضرة الملك ويعظه، وكان السلطان يبكي حين يقول في آخر مجلسه يا سلطان سلطانك لا يبقى، ولا تلبيس الرازي أيضا، وإن مردنا جميعاً إلى اللّه، وحين قتل السلطان اتهمه بعض الخاصكية بقتله، فخاف من ذلك، والتجأ إلى الوزير مؤيد الملك بن خواجا، فسيره إلى حيث يأمن، وتملك غزنة بعده أحد مماليكه تاج الدين الدز، وجرت بعد ذلك خطوب يطول ذكرها، قد استقصاها ابن الأثير وابن الساعي.

وفيها أغارت الكرج على بلاد المسلمين، فوصلوا إلى خلاط، فقتلوا وسبوا، وقاتلهم المقاتلة والعامة.

وفيها سار صاحب إربل مظفر الدين كوكبوري وصحبته صاحب مراغة لقتال ملك أذربيجان، وهو أبو بكر بن البهلوان، وذلك لتكوله عن قتال الكرج، وإقباله على السكر ليلا ونهاراً، فلم يقدروا عليه، ثم إنه تزوج في هذه السنة بنت ملك الكرج، فاتكف شرهم عنه.

قال ابن الأثير: وكان كما يقال أغمد سيفه وسل أيره.

وفيها استوزر الخليفة نصير الدين ناصر بن مهدي ناصر العلوي الحسني، وخلع عليه بالوزارة، وضربت الطبول بين يديه وعلى بابه في أوقات الصلوات.

وفيها أغار صاحب بلاد الأرمن وهو ابن لاون على بلاد حلب، فقتل

وسبى ونهب، فخرج إليه الملك الظاهر غازي بن الناصر، فهرب ابن لاون بين يديه، فهدم الظاهر قلعة كان قد بناها ودكها إلى الأرض.

وفي شعبان منها هدمت القنطرة الرومانية عند الباب الشرقي، ونشرت حجارتها ليبلط بها الجامع الأموي بسفارة الوزير صفي الدين بن شكر، وزير العادل، وكمل تبليطه في سنة أربع وستمائة.

وفيها توفي من الأعيان

شرف الدين أبو الحسن:

■ **علي بن محمد بن علي جمال الإسلام الشهرزوري**، بمدينة حمص، وقد كان أخرج إليها من دمشق، وكان قبل ذلك مدرساً بالأمينية والحلقة بالجامع تجاه البرادة، وكان لديه علم جيد بالمذهب والخلاف.

التقي

■ **عيسى بن يوسف بن أحمد العراقي الفراني الضرير**، مدرس الأمينية أيضاً، كان يسكن المنارة الغربية، وكان عنده شاب يخدمه ويقود به، فعدم للشيخ دراهم فاتهم هذا الشاب بها، فلم يثبت له عنده شيئا، واتهم به الشيخ، ولم يكن يظن الناس أن عنده من المال شيء، فضاع المال واتهم عرضه، فأصبح يوم الجمعة السابع من ذي القعدة مشنوقا ببيته بالمئذنة الغربية، فامتنع الناس من الصلاة عليه لكونه قتل نفسه، فتقدم الشيخ فخر الدين عبد الرحمن بن عساكر فصلى عليه، فاتتم به بعض الناس.

قال أبو شامة: وإنما حمله على ما فعله ذهاب ماله، والوقوع في عرضه، قال: وقد جرى لي أخت هذه القضية فعصمني الله سبحانه بفضله.

قال: وقد درس بعده في الأمينية الجمال المصري وكيل بيت المال.

■ **أبو الغنائم الركبسلار البغدادي**: كان يخدم مع عز الدين نجاح الشرابي، وحصل أموالا جزيلة، كان كلما تهيأ له مال اشترى به ملكا وكتبه باسم صاحب له يعتمد عليه، فلما حضرته الوفاة أوصى ذلك الرجل أن يتولى أولاده، وينفق عليهم من ميراثه مما تركه لهم، فمرض الموصى إليه بعد قليل، فاستدعى الشهود ليشهدهم على نفسه أن ما في يده لورثة أبي الغنائم، فتمادى ورثته بإحضار الشهود وطولوا عليه، وأخذته سكتة فمات فاستولى ورثته على تلك الأموال والأملاك، ولم يعطوا أولاد أبي الغنائم منها شيئا مما تركه أبوهم.

أبو الحسن

■ **علي بن سعاد الفارقي**: تفقه ببغداد، وأعاد بالنظامية ونائب في تدريسها، واستقل بتدريس المدرسة التي أنشأتها أم الخليفة، وأريد على نيابة القضاء عن أبي طالب علي بن علي البخاري فامتنع، فألزم به فباشره قليلا، ثم دخل يوماً إلى مسجد فلبس على رأسه مئزر صوف، وأمر الوكلاء والجلاوذة أن ينصرفوا عنه، وأشهد على نفسه بعزلها عن نيابة القضاء، واستمر على الإعادة والتدريس رحمه الله.

وفي يوم الجمعة العشرين من ربيع الأول توفيت.

■ **الخاتون**: أم السلطان الملك المعظم عيسى بن العادل، فدفنت بالقبة بالمدرسة المعظمية بسفح قاسيون.

الأمير مجير الدين

■ **طاشتكين المستجدي**: أمير الحاج، وزعيم بلاد خوزستان، كان شيخاً خيراً، حسن السيرة، كثير العبادة، غاليا في التشيع، توفي بتستر ثاني جمادى الآخرة، سنة ثنتين وستمائة وحمل تابوته إلى الكوفة، فدفن بمشهد علي لوصيته بذلك، هكذا ترجمه ابن الساعي في تاريخه [٩/١٨٦].

وذكر أبو شامة في الذيل [ص: ٥٣]: أنه مجير طاشتكين بن عبد الله المقتفوي أمير الحاج، حج بالناس ستا وعشرين سنة، كان يكون في الحجاز كأنه ملك، وقد رماه الوزير ابن يونس بأنه يكاتب صلاح الدين فحبسه الخليفة، ثم تبين له بطلان ما ذكر عنه فأطلقه وأعطاه خوزستان، ثم أعاده إلى إمرة الحج، وكانت الحلة السيفية إقطاعه، وكان شجاعا جواداً سمحا، قليل الكلام، يمضي عليه الأسبوع لا يتكلم فيه بكلمة، وكان فيه حلم واحتمال، استغاث به رجل على بعض نوابه فلم يرد عليه، فقال له الرجل المستغيث: أحمار أنت؟ فقال: لا. وفيه يقول ابن التعاويذي:

وأميرٌ على البلاد مولى ... لا يجيب الشاكي بغير السكوت

كلما زاد رفعة حطنا الله ... بتغفيله إلى البهموت

وقد سرق فراشه حياصة له فأرادوا أن يستقروه عليها، وكان قد رآه الأمير طاشتكين حين أخذها فقال: لا تعاقبوا أحدا، قد أخذها من لا يردها، ورآه حين أخذها من لا ينم عليه، وقد كان بلغ من العمر تسعين سنة، واتفق أنه استأجر أرضا مدة ثلاثمائة سنة للوقف، فقال فيه بعض المضحكين: هذا لا يوقن بالموت، عمره تسعون سنة واستأجر أرضا ثلاثمائة سنة، فاستضحك القوم، والله سبحانه وتعالى أعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث وستمائة

فيها جرت أمور طويلة ببلاد المشرق، بين الغورية والخوارزمية، وملكهم خوارزم شاه محمد بن تكش ببلاد الطالقان.

وفيها ولي الخليفة الناصر القضاء ببغداد لعماد الدين أبي القاسم عبد الله بن الدامغاني.

وفيها قبض الخليفة على عبد السلام بن عبد الوهاب ابن الشيخ عبد القادر الجيلاني، بسبب فسقه وفجوره، وأحرقت كتبه وأمواله قبل ذلك، لما فيها من كتب الفلاسفة، وعلوم الأوائل، وأصبح يستعطي من الناس، وهذا بخطيئة قيامه على الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي، فإنه هو الذي كان وشى به إلى الوزير ابن القصاب، حتى أحرقت بعض كتب ابن الجوزي، وختم على بقيتها، ونفي إلى واسط خمس سنين، والناس يقولون: في الله كفاية وفي القرآن، ﴿وجزاء سيئة سيئة مثلها﴾ [الشورى: ٤٠] والصوفية يقولون: الطريق تأخذ حقها، والأطباء يقولون: الطبيعة مكافئة.

وفيها نازلت الفرنج حمص فقاتلهم ملكها أسد الدين شيركوه، وأعانه بالمدد الملك الظاهر صاحب حلب، فكف الله شرهم. ولله الحمد والمنة.

وفيها اجتمع شابان ببغداد على الخمر فضرب أحدهما الآخر بسكين فقتله وهرب، فأخذ فقتل، فوجد معه رقعة فيها بيتان من نظمه أمر أن تجعل بين أكفانه:

قدمتُ على الكريم بغير زادٍ ... من الأعمال بالقلب السليمِ

وسوء الظن أن تعتد زاداً ... إذا كان القدوم على كريم

وفيها توفي من الأعيان

الفقيه العالم أبو منصور:

■ **عبد الرحمن بن الحسين بن النعمان النيلي**، الملقب بالقاضي شريح

لذكائه وفضله، وبراعته وعقله وكمال أخلاقه، ولي قضاء بلده، ثم قدم بغداد فندب إلى المناصب الكبار فأباها، فحلف عليه الأمير طاشتكين أن يعمل عنده في الكتابة فخدمه عشرين سنة، ثم وشى به الوزير ابن مهدي إلى الخليفة، فحبسه في دار طاشتكين إلى أن مات في هذه السنة، ثم إن الوزير الواشي عما قريب حبس بها أيضاً، وهذا من العجب الغريب.

■ (عبد الرزاق بن عبد القادر الجيلاني).

عبد الرزاق بن الشيخ عبد القادر: كان ثقة،عابداً زاهداً ورعاً، لم يكن في أولاد الشيخ عبد القادر الجيلاني خير منه، لم يدخل فيما دخلوا فيه من المناصب والولايات، بل كان متقللا من الدنيا، مقبلا على أمر الآخرة، وقد سمع الكثير وسمع عليه أيضاً.

ابو الحرم

■ مكي بن زيان بن شبة بن صالح الماكسيني، من أعمال سنجار، ثم الموصلي النحوي، قدم بغداد وأخذ عن ابن الخشاب وابن القصار، والكمال الأنباري، وقدم الشام فانتفع به خلق كثير، منهم الشيخ علم الدين السخاوي وغيره، وكان ضريراً، وكان يتعصب لأبي العلاء المعري، لما بينهما من القدر المشترك في الأدب والعمى، ومن شعره:

إذا احتاج النَّوالُ إلى شفيع　　فلا تقبلهُ تضحي قرير عين
إذا عيف النوال لِفَرد منٍّ　　فأولى أن يعاف لمنتين

ومن شعره أيضاً:

نفسي فداء لأغيد غنج　　قال لنا الحق يوم ودعنا
من ود شيئا من حبه طمعا　　في قُبلة للوداع ودَّ عَنّا

■ إقبال الخادم: جمال الدين أحد خدام صلاح الدين، واقف الإقباليتين الشافعية والحنفية، وكانتا دارين له فجعلهما مدرستين، ووقف عليهما وقفاً: الكبيرة للشافعية وعليها ثلثا الوقف والصغيرة للحنفية، وعليها ثلثا الوقف. وكانت وفاته بالقدس الشريف رحمه الله.

ثم دخلت سنة أربع وستمائة

فيها رجع الحاجُ إلى العراق، وهم يدعون الله ويشتكون إليه ما لقوا من صدر جهان البخاري الحنفي، الذي كان قدم بغداد في رسالة فاحتفل به الخليفة، وخرج إلى الحج في هذه السنة، فضيق على الناس في المياه والميرة، فمات نحوٌ من ستة آلاف من حجيج العراق، وكان فيما ذكر يأمر غلمانه فتسبق إلى المناهل فيحجزون على المياه ويأخذون الماء فيرشونه حول خيمته في قيظ الحجاز، ويسقونه للبقولات التي كانت تحمل معه في ترابها، ويمنعون منه الناس وابن السبيل، والآمين البيت الحرام، يبتغون فضلا من ربهم ورضواناً، فلما رجع مع الناس لعنته العامة، ولم تحتفل به الخاصة، ولا أكرمه الخليفة ولا أرسل إليه أحداً، وخرج من بغداد والعامة من ورائه يرجمونه ويلعنونه، وسماه الناس هذه السنة صدر جهنم، نعوذ بالله من الخذلان، ونسأله أن يزيدنا شفقة ورحمة لعباده، فإنه إنما يرحم من عباده الرحماء.

وفيها قبض الخليفة على وزيره ابن مهدي العلوي، وذلك أنه نسب إليه لأنه يروم الخلافة، وقيل غير ذلك من الأسباب، والمقصود أنه حبس بدار طاشتكين حتى مات بها، وكان جباراً عنيداً، حتى قال بعضهم فيه:

خليلي قولا للخليفة أحمدٍ　　توق وقيت السوء ما أنت صانع
وزيرك هذا بين أمرين فيهما　　صنيعك يا خير البرية ضائع
فإن كان حقاً من سلالة حيدر　　فهذا وزير في الخلافة طامع
وإن كان فيما يدعي غير صادق　　فأضيع ما كانت لديه الصنائع

وقيل: إنه كان عفيفاً عن الأموال، حسن السيرة جيد المباشرة، فاللّهُ أعلم بحالة.

وفي رمضان منها رتب الخليفة ببغداد عشرين داراً للضيافة، يفطر فيها الصائمون من الفقراء، يطبخ لهم في كل يوم طعام كثير، فجزاه الله خيراً ويحمل إليها أيضاً من الخبز النقي والحلواء شيء كثير، وهذا الصنيع يشبه ما كانت قريش تفعله من الرفادة في زمن الحج، وكان يتولى ذلك عمه أبو طالب، كما كان جدّه العباس يتولى السقاية، وقد كانت فيهم السفارة واللواء والندوة له، كما تقدم بيان ذلك في مواضعه، وقد صارت هذه المناصب كلها على أتم الأحوال في الخلفاء العباسيين.

وفيها أرسل الخليفة الشيخ شهاب الدين السهروَردي وفي صحبته سنقر السلحدار إلى الملك العادل بالخلعة السنية وفيها الطوق والسواران، وإلى جميع أولاده بالخلع أيضاً.

وفيها ملك الأوحد بن العادل صاحب ميافارقين مدينة خلاط بعد قتل صاحبها شرف الدين بن بكتمر وكان شابا جميل الصورة جداً، قتله بعض مماليكهم، ثم قتل القاتل أيضاً، فخلا البلد عن ملك فأخذها الأوحد بن العادل كما ذكرنا.

وفيها ملك خوارزم شاه محمد بن تكش بلاد ما وراء النهر منَ الخِطا بعد حروب طويلة.

اتفق له في بعض الأيام أمر عجيب، وهو أن المسلمين انهزموا عن السلطان خوارزم شاه، في بعض المواقف وبقي معه عصابة قليلة من أصحابه، فقتل منهم كفار الخطا من قتلوا، وأسروا خلقا منهم، وكان السلطان خوارزم شاه في جملة من أسروا، أسره رجل وهو لا يشعر به ولا يدري أنه الملك، وأسر معه أميراً يقال له ابن مسعود، فلما وقع ذلك وتراجعت العساكر الإسلامية إلى مقرها، فقدوا من بينهم السلطان فاختبطوا فيما بينهم، واختلفوا اختلافا كثيراً، وانزعجت خراسان بكمالها، ومن الناس من ظن أن السلطان قد قتل.

وأما ما كان من أمر السلطان وذاك الأمير، فقال الأمير للسلطان: إني أرى من المصلحة أن تترك اسم الملك عنك في هذه الحالة، وتظهر أنك غلام لي، فقبل منه ما قال وأشار به، ثم جعل الملك يخدم ذلك الأمير يلبسه ثيابه، ويسقيه الماء، ويصنع له الطعام، ويضعه بين يديه، ولا يألو جهداً في خدمته، فقال الذي أسرهما: إني أري هذا يخدمك فمن أنت؟ فقال: أنا ابن مسعود الأمير، وهذا غلامي، فقال: والله لو علم الأمراء أني قد أسرت أميراً لأطلقتك، فقال له: إني إنما أخشى على أهلي، فإنهم يظنون أني قد قتلت ويقيمون المأتم، فإن رأيت أن تفاديني على مال وترسل من يقبضه منهم فعلت خيراً، فقال: نعم، فعين رجلا من أصحابه فقال له الأمير ابن مسعود: إن أهلي لا يعرفون هذا ولكن إن رأيت أن أرسل معه غلامي هذا فعلت ليبشرهم بحياتي فإنهم يعرفونه، ثم يسعى في تحصيل المال، فقال: نعم، فجهز معهما من يحفظهما إلى مدينة خوارزم.

فلما دنوا من مدينة خوارزم سبق الملك إليها، فلما رآه الناس فرحوا به فرحاً شديداً، ودقت البشائر في سائر بلاده، وعاد الملك إلى نصابه، واستقر

السرور بإيابه، وأصلح ما كان وهي من مملكته بسبب ما اشتهر من قتله، وحاصر هراة وأخذها عنوة.

وأما الذي كان قد أسره، فإنه قال يوماً للأمير ابن مسعود إن الناس يتوحون أن خوارزم شاه قد قتل، فقال: لا،هو الذي كان في أسرك، فقال له: فهلا أعلمتني به حتى كنت أرده موقراً معظماً؟ فقال: خفتك عليه، فقال سر بنا إليه، فسار إليه فأكرمهما إكراماً زائداً، وأحسن إليهما.

وفيها غدر صاحب سمرقند فإنه قتل كل من كان في أسره من الخوارزمية، حتى كان الرجل يقطع قطعتين ويعلق في السوق كما تعلق الأغنام، وعزم على قتل زوجته بنت خوارزم شاه، ثم رجع عن قتلها وحبسها في قلعة وضيق عليها، فلما بلغ الخبر إلى الملك خوارزم شاه سار إليه في الجنود، فنازله وحاصر سمرقند فأخذها قهراً، وقتل من أهلها نحواً من مائتي ألف وأنزل الملك من القلعة وقتله صبراً بين يديه، ولم يترك له نسلا ولا عقبا، واستحوذ خوارزم شاه على تلك المماليك التي هنالك.

وفيها تحارب الخطا وملك التتار كشلى خان المتاخم لمملكة الصين، فكتب ملك الخطا لخوارزم شاه يستنجده على التتار ويقول: متى غلبونا خلصوا إلى بلادك، وكذا وقع، وكتب التتار أيضاً يستنصرونه على الخطا ويقولون: هؤلاء أعداؤنا وأعداؤك، فكن معنا عليهم، فكتب خوارزم شاه إلى كل من الفريقين يطيب قلبه، وحضر الوقعة بينهم وهو متحيز عن الفريقين، وكانت الدائرة على الخطا، فهلكوا إلا القليل منهم، وغدر التتار ما كانوا عاهدوا عليه خوارزم شاه، فوقعت بينهم الوحشة الأكيدة، وتواعدوا للقتال، وخاف منهم خوارزم شاه، وخرب بلاداً كثيرة متاخمة لبلاد كشلي خان، خوفا عليها أن يملكها، ثم إن جنكيز خان خرج على كشلي خان، فاشتغل بمحاربته عن محاربة خوارزم شاه، ثم إنه وقع من الأمور الغريبة ما سنذكره إن شاء الله تعالى.

وفيها كثرت غارات الفرنج من طرابلس على نواحي حمص، فضعف صاحبها أسد الدين شيركوه عن مقاومتهم، فبعث إليه الظاهر صاحب حلب عسكرا قواه بهم على الفرنج.

وخرج الملك العادل من الديار المصرية في العساكر الإسلامية، وأرسل إلى جيوش الجزيرة العُمرية فوافوه على عكا فحاصرها، لأن القبارصة أخذوا من أسطول المسلمين قطعا فيها جماعة من المسلمين، فطلب صاحب عكا الأمان والصلح على أن يرد الأسارى، فأجابه إلى ذلك، وسار العادل فنزل على بحيرة قدس قريباً من حمص، ثم سار إلى بلاد طرابلس، فأقام اثنى عشر يوماً يقتل ويأسر ويغنم، وخرّب تلك البلدان الأطرابلسية حتى جنح الفرنج إلى المهادنة ثم عاد إلى دمشق مؤيداً منصوراً مسروراً محبوراً.

وفيها ملك صاحب أذربيجان الأمير نصرة الدين أبو بكر بن البهلوان مدينة مراغة لذلك لخلوها عن ملك قاهر، لأن ملكها مات وقام بالملك بعده ولد له صغير، فدبر أمره خادم له.

وفي غرة ذي القعدة شهد محيي الدين أبو محمد يوسف بن الشيخ أبي الفرج بن الجوزي عند قاضي القضاة أبي القاسم بن الدامغاني، فقبله وولاه حسبة جانبي بغداد، وخلع عليه خلعة سنية سوداء بطرحة كحلية، وبعد عشرة أيام جلس للوعظ مكان أبيه أبي الفرج بباب بدر الشريف، وحضر عنده خلق كثير، وبعد أيام من يومئذ درس بمشهد أبي حنيفة ضياء الدين أحمد بن مسعود التركستاني الحنفي، وحضر عنده الأعيان والأكابر.

وفي رمضان منها وصلت الرسل من الخليفة إلى العادل بالخلع، فلبس هو وولداه المعظم والأشرف، ووزيره صفي الدين بن شكر، وغير واحد من الأمراء الخِلَع السنية الخليفية، ودخلوا القلعة وقت صلاة الظهر من باب الحديد، وقرأ التقليد الوزير وهو قائم، وكان يوما مشهوداً وفيها ركبت الساعات بمئذنة العروس بالجامع الأموي، وشرعوا في بناء الدُّرَج التي تجاه المدرسة القيمازية.

وفيها درس الشيخ شرف الدين عبدالله بن زين القضاة عبد الرحمن بالمدرسة الرواحية بدمشق.

وفيها انتقل الشيخ ابن الحُبَير البغدادي من الحنبلية إلى مذهب الشافعية، ودرس بمدرسة أم الخليفة، وحضر عنده الأكابر من سائر المذاهب.

وفيها توفي من الأعيان

الأمير

■ **إيتامش بن عبدالله**: أحد أمراء الخليفة الناصر، كان من سادات الأمراء عقلا وعفة ونزاهة، وشرفاً سقاه بعض الكتاب من النصارى سما فمات رحمه الله، وكان اسم الذي سقاه ابن ساوى، فسلمه الخليفة إلى غلمان بنيامين، فشفع فيه ابن مهدي الوزير وقال: إن النصارى قد بذلوا فيه خمسين ألف دينار، فكتب الخليفة على رأس الورقة:

إن الأسود أسودَ الغابِ همتها يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

فتسلمه غلمان إيتامش فقتلوه وحرقوه، وقبض الخليفة بعد ذلك على الوزير ابن مهدي كما تقدم.

■ **حنبل بن عبد الله بن الفرج بن سعادة الرصافي الحنبلي**، المكبر بجامع المهدي، راوى مسند أحمد عن ابن الحصين عن ابن المذهب عن ابن مالك عن عبد الله عن أبيه.

عمّر تسعين سنة، وخرج من بغداد فأسمعه بإربل، واستقدمه ملوك دمشق إليها، فسمع الناس بها عليه المسند، وكان المعظم يكرمه، ويأكل عنده على السماط من الطيبات، فتصيبه التخمة كثيراً، لأنه كان فقيراً ضيق الأمعاء من قلة الأكل، خشن العيش ببغداد وكان الكندي إذا دخل على المعظم يسأل عن حنبل فيقول المعظم: هو متخوم،فيقول: أطعمه العدس، فيضحك المعظم، ثم أعطاه المعظم مالا جزيلا، ورده إلى بغداد فتوفي بها في هذه السنة،وكان مولده سنة عشر وخمسمائة، وكان معه ابن طبرزد، فتأخرت وفاته عنه إلى سنة سبع وستمائة.

■ **عبدالرحمن بن عيسي بن أبي الحسن البُزوري، الواعظ البغدادي**، سمع من ابن أبي الوقت وغيره، واشتغل على ابن الجوزي بالوعظ، ثم حدثته نفسه بمضاهاته وسمخت نفسه، واجتمع عليه طائفة من أهل باب البصرة، ثم تزوج في آخر عمره، وقد قارب السبعين فاغتسل في يوم بارد فانتفخ ذكره فمات في هذه السنة.

الأمير زين الدين

■ **قراجا الصلاحي**: صاحب صرخد، كانت له دار عند باب الصغير عند قناة الزلاقة. وتربته بالسفح في قبة على جادة الطريق، عند تربة ابن تميرك وأقر العادل ولده يعقوب على صرخد.

■ **عبد العزيز الطيب**: توفي فجأة، وهو والد سعد الدين الطيب الأشرفي، وفيه يقول ابن عنين:

فُرادى ولا خلف الخطيب جماعة وموت ولا عبد العزيز طيب

وفيها توفي.

■ العفيف بن الدرجي: إمام مقصورة الحنفية الغربية بجامع دمشق.

أبو محمد

■ **جعفر بن محمد بن محمود بن هبة الله بن أحمد بن يوسف الإربلي،** كان فاضلا في علوم كثيرة في الفقه على مذهب الشافعي، والحساب والفرائض، والهندسة والأدب والنحو، وما يتعلق بعلوم القرآن العزيز، وغير ذلك، ومن شعره الحسن الجيد قوله:

لا يدفعُ المرءُ ما يأتي به القدرُ … وفي الخطوب إذا فكرتَ معتبرُ
فليس ينجي من الأقدار إن نزلت … رأي وحزمٌ ولا خوفٌ ولا حذرُ
فاستعمل الصبر في كل الأمور … تجزع لشيء فعقبى صبرك الظفرُ
كم مسنا مرةً عسرٌ فصرَّفهُ … صرفُ الزمان ووالى بعده يُسر
لا ييأس المرءُ من روح الإله فما … ييأس منه إلا عصبةٌ كفروا
إني لأعلم أن الدهر ذو دول … وأن يوميه ذا أمنٌ وذا خطرُ

ثم دخلت سنة خمس وستمائة

في محرمها كمل بناء دار الضيافة ببغداد، التي أنشأها الناصر لدين الله، بالجانب الغربي منها للحجاج والمارة لهم الضيافة ما داموا نازلين بها، فإذا أراد أحدهم السفر منها زود وكسي وأعطي بعد ذلك كله ديناراً للسفر، جزاه الله خيراً.

وفيها عاد أبو الخطاب بن دحية الكلبي من رحلته العراقية فاجتاز بالشام، فاجتمع في مجلس الوزير صفي الدين بن شكر هو والشيخ تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن بن زيد الكندي شيخ اللغة والحديث، فأورد ابن دحية في كلامه حديث الشفاعة حتى انتهى إلى (قول) إبراهيم عليه السلام: «إنما كنت خليلا من وراء وراء» [م(٣٢٩)(١٩٥)] بفتح اللفظتين، فقال الكندي: من وراءُ وراءُ بضمهما، فقال ابن دحية للوزير ابن شكر: من ذا؟ فقال: هذا الشيخ أبو اليمن الكندي، فنال منه ابن دحية، وكان جريئا، فقال الكندي: هو من كلب فنبح.

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة، وكلتاالروايتين محكيتان، وحكى فيهما الجر أيضا.

وفيها عاد فخر الدين بن تيمية خطيب حران من الحج إلى بغداد، وجلس بباب بدر للوعظ، مكان محيي الدين يوسف بن الشيخ أبي الفرج، فقال في كلامه ذلك:

وابن اللبون إذا ما لز في قرنٍ … لم يستطعْ صولة البُزْلِ القناعيسِ

كأنه يعرض بالمحيي الجوزي، لكونه شابا ابن خمس وعشرين سنة والله أعلم.

وفي يوم الجمعة تاسع محرم دخل مملوك إفرنجي من باب مقصورة جامع دمشق وهو سكران، وفي يده سيف مسلول، والناس جلوس ينتظرون صلاة الفجر، فمال على الناس يضربهم بسيفه، فقتل اثنين أو ثلاثة، وضرب المنبر بسيفه فانكسر سيفه، فأخذ وأودع المارستان، وشنق في يومه ذلك على جسر اللبادين.

وفيها عاد الشيخ شهاب الدين السهروردي من دمشق بهدايا الملك العادل، فتلقاه الجيش ومعه أموال كثيرة أيضاً لنفسه، وكان قبل ذلك فقيراً زاهداً، فلما عاد منع من الوعظ، وأخذت منه الربط التي يباشرها، ووكل إلى ما بيده من الأموال، فشرع في تفريقها على الفقراء والمساكين، فاستغنى منه خلق كثير من الفقهاء وغيرهم، فقال المحيي بن الجوزي في مجلس ما معناه: لا حاجة بالرجل يأخذ أموالا من غير حقها ويصرفها إلى من يستحقها، ولو ترك على ما كان تركها أولى به من تناولها، وإنما أراد أن ترتفع منزلته ببذلها، أو يعود إلى حاله كما كان ولو ترك على ما كان يباشره لما بذلها، فليحذر العبد الدنيا، فإنها خداعة غرارة، تسترق فحول العلماء والعباد فضلاً عن العوامّ والقواد، وقد وقع ابن الجوزي فيما بعد فيما وقع فيه السهروردي وأعظم.

وفيها قصدت الفرنج حمص، وعبروا على العاصي بجسر أعدُّوه في بلادهم، فلما عرف بهم العساكر ركبوا في آثارهم فهربوا، فقتلوا خلقا كثيرا منهم، وغنم المسلمون منهم غنيمة جيدة ولله الحمد.

وفيها قتل صاحب الجزيرة، وكان من أسوأ الناس سيرة، وأخبثهم سريرة، وهو الملك

■ **سنجر شاه بن غازي بن مودود بن زنكي بن آقسنقر الأتابكي،** ابن عم نور الدين صاحب الموصل، وكان الذي تولى قتله ولده غازي، توصل إليه حتى دخل عليه وهو في الخلاء سكران، فضربه بسكين أربع عشرة ضربة، ثم ذبحه، وذلك كله ليأخذ الملك من بعده فحرمه الله إياه، فبويع بالملك لأخيه محمود، وأخذ غازي هذا العاق لوالده فقتل من يومه، فسلبه الله الملك والحياة، ولكن أراح الله المسلمين من ظلم أبيه وغشمه وفسقه قال تعالى: ﴿وكذلك نولي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون﴾ [الأنعام: ١٢٩].

وفيها توفي من الأعيان

أبو الفتح

■ **محمد بن أحمد بن بختيار بن علي بن محمد بن إبراهيم بن جعفر الواسطي، المعروف بابن المندائي،** آخر من روى المسند عن الإمام أحمد عن ابن الحصين وكان من بيت فقه وقضاء وديانة، وكان ثقة عدلا متورعا في النقل، ومما أنشده من حفظه:

ولو أن ليلى مطلعُ الشمس دونها … وكنت من وراء الشمس حين
لحدثت نفسي بانتظار نوالها … وقال المنى لي: إنها لقريبُ

قاضي قضاة بالديار المصرية: صدر الدين

■ **عبد الملك بن درباس الماراني الكردي** والله أعلم.

ثم دخلت سنة ست وستمائة

في المحرم وصل نجم الدين خليل شيخ الحنفية من دمشق إلى بغداد في الرسلية عن العادل، ومعه هدايا كثيرة، وتناظر هو وشيخ النظامية مجد الدين يحيى بن الربيع في مسألة وجوب الزكاة في مال اليتيم والمجنون،وأخذ الحنفي يستدل على عدم وجوبها، فاعترض عليه الشافعي فأجاد كل منهما في الذي أورده، ثم خلع على الحنفي وأصحابه بسبب الرسالة، وكانت المناظرة بحضرة نائب الوزير ابن أمسينا.

وفي يوم السبت خامس جمادى الآخر وصل الجمال يونس بن بدران المصري رئيس الشافعية بدمشق إلى بغداد في الرسلية عن الملك العادل،

فتلقاه الجيش مع حاجب الحجاب، ودخل معه ابن أخي صاحب إربل مظفر الدين كوكبري، والرسالة تتضمن الاعتذار عن صاحب إربل، والسؤال في الرضا عنه، فأجيب إلى ذلك.

وفيها ملك العادل الخابور ونصيبين، وحاصر مدينة سنجار مدة فلم يتمكن منها، ثم صالح صاحبها ورجع عنها.

وفيها توفي من الأعيان

القاضي

■ الأسعد بن مماتي: أبو المكارم أسعد بن الخطير أبي سعيد مهذب بن مينا بن زكريا بن أبي قدامة بن أبي مليح مماتي المصري الكاتب الشاعر، أسلم في الدولة الصلاحية وتولى نظر الدواوين بمصر مدة.

قال ابن خلكان: وله فضائل عديدة، ومصنفات كثيرة، ونظم سيرة صلاح الدين، وكليلة ودمنة، وله ديوان شعر، ولما تولى الوزير ابن شكر هرب منه إلى حلب فمات بها، وله ثنتان وستون سنة، فمن شعره في ثقيل رآه بدمشق:

حكى نهرين ما في الأر ض من يحكيهما أبدا
حكى في خلقه ثَوْري وفي أخلاقه بردى

أبو يعقوب

■ يوسف بن إسماعيل بن عبد الرحمن بن عبد السلام اللمغاني، أحد الأعيان من الحنفية ببغداد، سمع الحديث ودرس بجامع السلطان، وكان معتزليا في الأصول، بارعا في الفروع، اشتغل على أبيه وعمه، وأتقن الخلاف وعلم المناظرة، وقارب التسعين رحمه الله.

أبو عبد الله

■ محمد بن محمد بن الحسين: المعروف بابن الخراساني، المحدث الناسخ، كتب كثيراً من الحديث وجمع خطباً له ولغيره، وخطه جيد مشهور رحمه الله.

أبو المواهب

■ معتوق بن منيع بن مواهب الخطيب البغدادي، قرأ النحو واللغة على ابن الخشاب، وجمع خطبا كان يخطب منها، وكان شيخا فاضلا أديباً، له ديوان شعر، فمنه قوله:

ولا ترج الصداقةَ من عدوٌ يعادي نفسهُ سراً وجهراً
فلو أجدتْ مودتهُ انتفاعاً لكانَ النفعُ منهُ إليه أحرى

■ ابن خروف: شارح كتاب سيبويه، علي بن محمد بن يوسف أبو الحسن بن خروف، الأندلسي النحوي، شرح سيبويه، وقدمه إلى صاحب المغرب، فأعطاه ألف دينار، وشرح جمل الزجاجي، وكان يتنقل في البلاد، ولا يسكن إلا في الخانات، ولم يتزوج قط، ولا تسرى، ولذلك علة تغلب على طباع الأراذل، وقد تغير عقله في آخر عمره، فكان يمشي في الأسواق مكشوف الرأس، وكانت وفاته في هذه السنة عن خمس وثمانين سنة.

أبو علي

■ يحيى بن الربيع بن سليمان بن حراز الواسطي ثم البغدادي، اشتغل بالنظامية على ابن فضلان وأعاد عنده، وسافر إلى محمد بن يحيى فأخذ عنه طريقته في الخلاف، ثم عاد إلى بغداد، ثم صار مدرساً بالنظامية، وناظراً على أوقافها، وقد سمع الحديث وكان لديه علوم كثيرة، ومعرفة حسنة بالمذهب، وله تفسير في أربع مجلدات كان يدرس منه، واختصر تاريخ الخطيب والذيل عليه لابن السمعاني وقارب الثمانين رحمه الله.

■ ابن الأثير صاحب جامع الأصول والنهاية:

المبارك بن محمد بن محمد بن عبدالكريم بن عبد الواحد مجد الدين أبو السعادات الشيباني الجزري الشافعي، المعروف بابن الأثير.

وهو أخو الوزير وزير الأفضل ضياء الدين نصر الله، وأخو الحافظ عز الدين أبي الحسن علي صاحب الكامل في التاريخ.

ولد أبو السعادات هذا في إحدى الربيعين سنة أربع وأربعين وخمسمائة، وسمع الحديث الكثير، وقرأ القرآن الكريم وأتقن علومه وحَرَّز علوماً جمّة، وكان مقامه بالموصل، وقد جمع في سائر العلوم كتبا مفيدة، منها جامع الأصول الستة: الموطأ، والصحيحان، وسنن أبي داود، والنسائي والترمذي ولم يذكر ابن ماجه فيه، وله كتاب النهاية في غريب الحديث، وله شرح مسند الشافعي، والتفسير في أربعة مجلدات، وغير ذلك في فنون شتى.

وكان رحمه الله معظماً عند ملوك الموصل، فلما آل الملك إلى نور الدين أرسلان شاه بن مسعد بن مودود بن زنكي، أرسل إليه مملوكه لؤلؤاً يعرض عليه أن يستوزره فأبى، فركب السلطان إليه بنفسه فامتنع أيضاً وقال له: قد كبرت سني، واشتهرت بنشر العلم، ولا يصلح هذا الأمر إلا بشيء من العسف والظلم، ولا يليق بي ذلك، فأعفاه.

قال أبو السعادات: كنت أقرأ علم العربية على سعيد بن الدهان، وكان يأمرني بصنعة الشعر، فكنت لا أقدر عليه، فلما توفي الشيخ رأيته في بعض الليالي، فأمرني بذلك، فقلت له: ضع لي مثالا أعمل عليه فقال:

جُبِ الفَلا مدمنا إن فاتك الظفرُ

فقلت أنا:

وخد خد الثرى والليلُ معتكِر

فالعزُ في صهوات الخيل مركَبُه والمجدُ ينتجه الإسراءُ والسهرُ

فقال: أحسنت ثم استيقظت فأتممت عليها نحواً من عشرين بيتا.

كانت وفاته في سلخ ذي الحجة من هذه السنة عن ثنتين وستين سنة رحمه الله، وقد ترجمه أخوه في الكامل [٢٨٨/١٢] فقال: كان عالماً في عدة علوم منها الفقه، وعلم الأصول، والنحو، والحديث، واللغة، وتصانيفه مشهورة في التفسير، والحديث والفقه، والحساب وغريب الحديث وله رسائل مدونة، وكان كاتباً مفلقاً يضرب به المثل، ذا دين متين، ولزم طريقة مستقيمة رحمه الله ورضي عنه، فلقد كان من محاسن الزمان.

قال ابن الأثير: وفيها توفي:

المجد

■ المطرزي النحوي الخوارزمي: كان إماما في النحو، له فيه تصانيف حسنة.

قال أبو شامة: وفيها توفي:

الملك

■ المغيث: فتح الدين عمر بن الملك العادل، ودفن في تربة أخيه الملك بسفح قاسيون.

والملك المؤيد

■ مسعود بن صلاح الدين: بمدرسة رأس العين فحمل إلى حلب فدفن بها.

وفيها توفي:

■ الفخر الرازي: المتكلم صاحب التفسير والتصانيف، محمد بن عمر بن الحسين بن علي القرشي التيمي البكري، الإمام أبو المعالي. وأبو عبد الله المعروف بالفخر الرازي، ويقال له ابن خطيب الري، أحد الفقهاء الشافعية المشاهير بالتصانيف الكبار والصغار نحو من مائتي مصنف فمن ذلك: التفسير الحافل والمطالب العالية، والمباحث المشرقية، والأربعين، وشرح الإشارات وغيرها في علم الكلام ومذاهب الأوائل وأقوال الناس وله في أصول الفقه المحصول وغيره، وصنف ترجمة الشافعي في مجلد مفيد، وفيه غرائب لا يوافق عليها، وينسب إليه أشياء عجيبة، وقد استقصيت ترجمته في طبقات الشافعية.

وقد كان معظماً عند ملوك خوارزم وغيرهم، وبنيت له مدارس كثيرة في بلدان شتى، وملك من الذهب العين ثمانين ألف دينار، وغير ذلك من الأمتعة، والمراكب، والأثاث والملابس، وكان له خمسون مملوكا من الترك.

وكان يحضر في مجلس وعظه الملوك والوزراء، والعلماء والأمراء، والفقراء والعامة، والغوغاء وكانت له عبادات وأوراد، وقد وقع بينه وبين الكرامية في أوقات شتى فكان يبغضهم ويبغضونه ويبالغ في ذمهم، ويبالغون في الحط عليه، وقد ذكرنا طرفا من ذلك فيما تقدم.

وكان مع غزارة علمه في فن الكلام يقول: من لزم مذهب العجائز كان هو الفائز، وقد ذكرت وصيته عند موته، وأنه رجع عن مذهب الكلام فيها إلى طريقة السلف، وتسليم ما ورد على وجه المراد اللائق بجلال الله سبحانه.

وقال الشيخ شهاب الدين أبو شامة في الذيل [ص: ٦٨] في ترجمته: كان يعظ وينال من الكرامية، وينالون منه سباً، وتكفيراً، وقيل: إنهم وضعوا عليه من سقاه سما فمات، ففرحوا بموته، وكانوا يرمونه بالكبائر.

قال: وكانت وفاته في ذي الحجة، ولا كلام في فضله، ولا فيما كان يتعاطاه، وقد كان يصحب السلطان ويحب الدنيا ويتسع فيها اتساعاً زائداً، وليس ذلك من صفة العلماء، ولهذا وأمثاله كثرت الشناعات عليه وقامت عليه شناعات عظيمة بسبب كلمات كان يقولها، مثل قوله: قال محمد التازي، يعني العربي، يريد به النبي ﷺ، نسبة إلى البادية، وقال محمد الرازي: يعني نفسه.

ومنها أنه كان يقرر الشبهة من جهة الخصوم بعبارات كثيرة، ويجيب عن ذلك بأدنى إشارة،وغير ذلك.

قال: وبلغني أنه خلف من الذهب العين ثمانين ألف دينار، غير ما كان يملكه من الدواب والثياب، والعقار والآلات، وخلف ولدين أخذ كل واحد منهما أربعين ألف دينار، وكان ابنه الأكبر قد تجند وخدم السلطان محمد بن تكش.

وقال ابن الأثير في الكامل [٢٨٨/١٢]: وفيها توفي فخر الدين الرازي محمد بن عمر بن خطيب الري، الفقيه الشافعي، صاحب التصانيف المشهورة، والفقه والأصولين، كان إمام الدنيا في عصره، بلغني أن مولده سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة.

ومن شعره قوله:

إليكَ إله الخلقِ وجهي ووجهتي ... وأنت الذي أدعوه في السرِّ والجهر

وأنت غياثي عند كل ملمةٍ ... وأنتَ ملاذي في حياتي وفي قبري

ذكره ابن الساعي عن ياقوت الحموي عن ابن لفخر الدين عنه وبه قال أنشدنا:

تمت أبواب السعادة للخلق ... بذكر جلال الواحد الأحد الحق

مدبر كل الممكنات بأسرها ... ومبدعها بالعدل والقصد والصدق

أجلُّ جلالَ الله عن شبه خلقهِ ... وأنصر هذا الدين في الغرب

إله عظيم الفضل والعدل والعلى ... هو المرشد المغوي هو المسعدُ

ومما كان ينشده في بعض مصنفاته:

نهاية إقدام العقول عقال ... وأكثر سعي العالمين ضلال

وأرواحنا في وحشةٍ من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبالُ

ولم نستفد من بحثنا طولَ عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

ثم يقول: لقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فلم أجدها تروي غليلا ولا تشفي عليلا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، أقرأ في الإثبات ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: ٥] ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] وفي النفي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

ثم دخلت سنة سبع وستمائة

ذكر الشيخ شهاب الدين أبو شامة في الذيل [ص: ٧٥، ٧٦] أن من هذه السنة تملأت ملوك الجزيرة: صاحب الموصل، وصاحب سنجار وصاحب إربل ومعهم ابن أخيه الظاهر صاحب حلب، وملك الروم أيضاً، على مخالفة العادل، ومنابذته ومقاتلته واصطلام الملك من يده، وأن تكون الخطبة في بلادهم بذلك للملك كيخسرو بن قليج أرسلان صاحب الروم، وأرسلوا إلى الكرج ليقدموا لحصار خلاط، وأخذها من يد الملك الأوحد نجم الدين بن العادل، ووعدهم النصر والمعاونة عليه.

قلت: وهذا بغي وعدوان ينهى الله عنه.

فأقبلت الكرج بملكهم إيواني، فحاصروا خلاط فضاق بهم الأوحد ذرعا وقال: هذا يوم عصيب، فقدر الله تعالى أن في يوم الاثنين تاسع عشر ربيع الآخر اشتد حصارهم للبلد، وأقبل ملكهم إيواني وهو راكب على جواده وهو سكران، فسقط به جواده في بعض الحفر التي قد أعدت مكيدة حول البلد، فبادر إليه رجال، فأخذوه أسيرا حقيرا، فأسقط في أيدي الكرج، فلما أوقف بين يدي الأوحد أطلقه، ومنّ عليه وأحسن إليه، وفاداه على مائتي ألف دينار، وألفي أسير من المسلمين، وتسليم إحدى وعشرين قلعة متاخمة لبلاد الأوحد، وأن يزوج ابنته من أخيه الملك الأشرف موسى، وأن يكون عوناً له على من يحاربه، فأجابه إلى ذلك كله، فأخذت منه الأيمان بذلك، وبعث الأوحد إلى أبيه يستأذنه في ذلك كله، والعادل نازل بظاهر حرّان في أشد حيرة مما قد دهمه من هذا الأمر الفظيع، فبينما هو كذلك إذ أتاه هذا الخبر، والأمر الهائل من والتدبير من عزيز حكيم، لم يكن في باله ولا في حسابه، فكاد يذهل من شدة الفرح والسرور، ثم أجاز جميع ما شرطه ولده، وطارت الأخبار بما وقع بين الملوك، فخضعوا وذلوا عند ذلك، وأرسل كل منهم يعتذر مما نسب إليه ويحيل على غيره، فقبل منهم اعتذاراتهم، وصالحهم صلحاً أكيداً واستقبل الملك عقداً جديداً، ووفى ملك الكرج الأوحد بجميع ما شرطه عليه، وتزوج الأشرف بابنته.

ومن غريب ما ذكره الشيخ أبو شامة في هذه الكائنة،أن قسيس الملك

كان حَزّاءً ينظر في النجوم، فقال للملك قبل ذلك بيوم: اعلم أنك تدخل غداً إلى قلعة خلاط، ولكن بزي غير ذلك، فوافق دخوله إليها أسيراً أذان العصر.

ذكر وفاة صاحب الموصل نور الدين

أرسل الملك

■ نور الدين شاه بن عز الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن زنكي صاحب الموصل يخطب ابنة السلطان الملك العادل، وأرسل وكيله لقبول العقد على ثلاثين ألف دينار، فاتفق موت نور الدين ووكيله سائر في أثناء الطريق، فعقد العقد بعد وفاته رحمه الله، وقد أثنى عليه ابن الأثير في كامله كثيراً، وشكر منه ومن عدله وشهامته، وهو أعلم به من غيره، وذكر أن مدة ملكه سبع عشرة سنة وأحد عشر شهراً.

وأما أبو المظفر السبط فإنه قال: كان جباراً ظالماً بخيلا سفاكا للدماء، فالله أعلم به.

وقام بالملك من بعده ولده القاهر عزالدين مسعود، وجعل لابنه عماد الدين زنكي وكان الأصغر بعض البلاد، وجعل تدبير مملكته إلى غلامه بدر الدين لؤلؤ، الذي صار الملك إليه فيما بعد كما سيأتي.

قال أبو شامة: وفي سابع شوال شرع في عمارة المصلى وبني له أربعة جدر مشرفة، وجعل له أبواب صونا لمكانه من الميتات، ونزول القوافل، وجعل في قبلته محراب من حجارة، ومنبر من حجارة،وعقدت فوق ذلك قبة، ثم في سنة ثلاث عشرة عمل في قبلته رواقان، وعمل له منبر من خشب، ورتب له خطيب وإمام راتبان، ومات العادل ولم يتم الرواق الثاني منه، وذلك كله على يد الوزير صفي الدين بن شكر.

قال وفي حادي عشر شوال من هذه السنة جددت أبواب الجامع الأموي من ناحية باب البريد بالنحاس الأصفر، وركبت في أماكنها.

وفي شوال أيضاً شرع في إصلاح الفوارة والشاذروان والبركة، وعمل عندها مسجد، وجعل له إمام راتب وأول من تولاه رجل يقال له النفيس المصري، وكان يقال له بوق الجامع، لطيب صوته إذا قرأ على الشيخ أبي منصور الضرير المصدر، فيجتمع عليه الناس الكثيرون.

وفي ذي الحجة منها توجهت مراكب من عكا في البحر إلى ثغر دمياط وفيها ملك قبرص المسمي البال، لعنه الله، فدخل الثغر ليلا، فأغار على بعض البلاد، فقتل وسبى، وغنم وكر راجعا فركب مراكبه ولم يدركه الطلب، وقد تقدمت له مثلها قبل هذه، وهذا شيء لم يتفق لغيره لعنه الله.

وفي هذه السنة عائت الفرنج بنواحي القدس الشريف، فبرز إليهم الملك المعظم، في عساكره وجلس الشيخ شمس الدين أبو المظفر بن قِزُغلي الحنفي وهو سبط بن الجوزي ابن ابنته رابعة، وهو صاحب مرآة الزمان وكان فاضلا في فنون كثيرة، حسن الشكل، طيب الصوت، وكان يتكلم في الوعظ جيداً، وتحبه العامة على صيت جده، وقد رحل من بغداد فنزل دمشق وأكرمه ملوكها، وولي التدريس الكبار بها، وكان يجلس كل يوم سبت عند باب مشهد علي بن الحسين زين العابدين إلى السارية التي يجلس عندها الوعاظ في زماننا هذا، فكان يكثر الجمع عنده، حتى يكونوا من باب الناطفانيين إلى باب المشهد وإلى باب الساعات، الجلوس غير الوقوف، فحزر جمعه في بعض الأيام ثلاثين ألفا من الرجال والنساء، وكان الناس يبيتون ليلة السبت في الجامع ويدعون البساتين، يبيتون في قراءة ختمات وأذكار، ليحصل لهم أماكن من شدة الزحام، فإذا فرغ من وعظه خرجوا إلى أماكنهم، وليس لهم كلام إلا فيما قال يومهم ذلك أجمع، يقولون: قال الشيخ، وسمعنا من الشيخ، فيحثهم ذلك على العمل الصالح، والكف عن المساوئ.

وكان يحضر عنده الأكابر، حتى الشيخ تاج الدين أبو اليمن الكندي، كان يجلس في القبة التي عند باب المشهد هو ووالي البلد المعتمد ووالي البر ابن ثميرك وغيرهم.

والمقصود أنه لما جلس يوم السبت خامس ربيع الأول بالجامع كما ذكرنا حث الناس على الجهاد، وأمر بإحضار ما كان تحصل عنده من شعور التائبين، وقد عمل منه شكالات يحملها الرجال، فلما رآها الناس ضجوا ضجة واحدة، وبكوا بكاء كثيراً، وقطعوا من شعورهم نحورها، فلما انقضى المجلس، ونزل عن المنبر، فتلقاه الوالي مبارز الدين المعتمد بن إبراهيم، وكان من خيار الناس، فمشى بين يديه إلى باب الناطفانيين يعضده حتى ركب فرسه، والناس من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، فخرج من باب الفرج، وباب المصلّى، ثم ركب من الغد في الناس إلى الكسوة، ومعه خلائق كثيرون خرجوا بنية الجهاد إلى بلاد القدس، وكان من جملة من معه ثلاثمائة من جهة زملكا، بالعدد الكثيرة التامة.

قال: فجئنا عقبة أفيق والطير لا يتجاسر أن يطير من خوف الفرنج، فلما وصلنا نابلس تلقانا المعظم، قال: ولم أكن اجتمعت به قبل ذلك، فلما رأى الشكالات من شعور التائبين جعل يقبلها، ويمرغها على وجهه ويبكي، وعمل أبو المظفر ميعاداً بنابلس، وحث على الجهاد، وكان يوماً مشهوداً، ثم سار هو ومن معه وصحبته المعظم نحو الفرنج فقتلوا خلقا وخربوا أماكن كثيرة، وغنموا وعادوا سالمين وشرع المعظم في تحصين جبل الطور، وبنى قلعة فيه ليكون إلبا على الفرنج، فغرم أموالا كثيرة في ذلك، فبعث الفرنج إلى العادل يطلبون منه الأمان والمصالحة، فهادنهم، وبطلت تلك العمارة، وضاع ما كان المعظم غرم عليها والله أعلم.

وفيها توفي من الأعيان

الشيخ أبو عمر: باني المدرسة بسفح قاسيون للفقراء رحمه الله.

■ محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة، الشيخ الصالح أبو عمر المقدسي، باني المدرسة التي بالسفح، يقرأ بها القرآن العزيز، وهو أخو الإمام العلامة موفق الدين عبدالله بن أحمد بن محمد بن قدامة، وكان الشيخ أبو عمر أسن منه، لأنه ولد سنة ثمان وعشرين وخمسمائة، بقرية الساويا، وقيل بجماعيل، والشيخ أبو عمر ربى الشيخ موفق الدين، وأحسن إليه وزوجه، كان يقوم بمصالحه،فلما قدموا من الأرض المقدسة نزلوا بمسجد أبي صالح، خارج باب شرقي، ثم انتقلوا منه إلى السفح، وليس به من العمارة شيء سوى دير الحوراني، قال فقيل لنا الصالحيون نسبة إلى مسجد أبي صالح لا أنا صالحون، وسميت هذه البقعة من ذلك الحين بالصالحية نسبة إلينا.

فقرأ الشيخ أبو عمر القرآن على رواية أبي عمرو، وحفظ مختصر الخرقي في الفقه، ثم إن أخاه الموفق شرحه فيما بعد فكتب شرحه بيده، وكتب تفسير البغوي والحلية لأبي نعيم والابانة لابن بطة وكتب مصاحف كثيرة بيده للناس ولأهله بلا أجرة، وكان كثير العبادة، والزهادة والتهجد، ويصوم الدهر حسن الشكل، نحيل الجسم، عليه أنوار العبادة، وكان لا يزال متبسما، وكان يقرأ كل يوم سبعا بين الظهر والعصر، ويصلي الضحى

ثماني ركعات، يقرأ فيهن ألف مرة ﴿قل هو الله أحد﴾، وكان يزور مغارة الدم، في كل يوم اثنين وخميس، ويجمع في طريقه الشيح فيعطيه الأرامل والمساكين، ومهما تهيأ له من فتوح وغيره يؤثر به أهله والمساكين، وكان متقللا في الملبس، وربما مضت عليه مدة لا يلبس فيها سراويل ولا قميصاً، وكان يقطع من عمامته قطعا يتصدق بها أو في تكميل كفن ميت، وكان هو وأخوه وابن خالهم الحافظ عبد الغني وأخوه الشيخ العماد لا ينقطعون عن غزاة يخرج فيها الملك صلاح الدين إلى بلاد الفرنج، وقد حضروا معه فتح القدس الشريف، والسواحل وغيرها، وجاء الملك العادل يوماً إلى خيمتهم، أي خصهم لزيارة الشيخ أبي عمر وهو قائم يصلي، فما قطع صلاته ولا أوجزها، واستمر أبو عمر في صلاته، ولم يلتفت إليه حتى قضى صلاته، رحمه الله، والشيخ أبو عمر هو الذي شرع في بناء المسجد الجامع أولا بمال رجل من الناس، فنفذ ما عنده وقد ارتفع البناء قامة، فبعث صاحب إربل الملك المظفر كوكبري مالا فكمل به، وولي خطابته الشيخ أبو عمر، فكان يخطب به، وعليه لباسه الضعيف، وعليه أنوار الخشية والتقوى والخوف من الله عز وجل، والمسك كيف خبأته ظهر عليك وبان، وكان المنبر الذي فيه يومئذ ثلاث مراق والرابعة للجلوس كما كان المنبر النبوي.

وقد حكى أبو المظفر أنه حضر يوماً عنده الجمعة، وكان الشيخ عبدالله اليونيني حاضراً هناك، فلما انتهى في خطبته إلى الدعاء للسلطان قال: اللهم أصلح عبدك الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيوب، فلما قال ذلك نهض الشيخ عبدالله اليونيني، وأخذ نعليه وخرج من الجامع، وترك صلاة الجمعة، فلما فرغنا ذهبت إلى اليونيني فقلت له: ماذا نقمت عليه في قوله؟ فقال: يقول لهذا الظالم: العادل؟ لا صليت معه، قال: فبينما نحن في الحديث إذ أقبل الشيخ أبوعمر ومعه رغيف وخيارتان فكسر ذلك الرغيف وقال: الصلاة، ثم قال النبي ﷺ: «بعثت في زمن الملك العادل كسرى» [الشعب للبيهقي(٥١٩٥)] فتبسم الشيخ عبدالله، ومد يده فأكل، فلما فرغوا قام الشيخ أبو عمر فذهب، فلما ذهب قال لي:

ياسيدنا ما ذا إلا رجل صالح

قال الشيخ شهاب الدين أبو شامة: كان الشيخ أبو عبد الله من الصالحين الكبار، وقد رأيته، وكانت وفاته بعد أبي عمر بعشر سنين، فلم يسامح الشيخ أبا عمر في تساهله مع ورعه، ولعله كان مسافرا، والمسافر لا جمعة عليه، وعذر الشيخ أبي عمر أن هذا قد جرى مجرى الأعلام العادل الكامل الأشرف ونحوه، كما يقال سالم، وغانم، ومسعود، ومحمود،وقد يكون المسمّى بذلك على الضد، من هذه الأسماء فلا يكون سالما، ولا غانما، ولا مسعوداً، ولا محموداً، وكذلك اسم العادل ونحوه من أسماء الملوك وألقابهم، والتجار وغيرهم، كما يقال شمس الدين، وبدر الدين، وعز الدين، وتاج الدين، ونحو ذلك قد يكون معكوساً على الضد والانقلاب، ومثله الشافعي، والحنبلي، وغيرهم، وقد تكون أعماله ضد ما كان عليه إمامه الأول، من الزهد والعبادة ونحو ذلك وكذلك العادل يدخل إطلاقه على المشرك، فهذا أولى.

قلت: هذا الحديث الذي احتج به الشيخ أبو عمر لا أصل له، وليس هو في شيء من الكتب المشهورة، وعجباً له ولأبي المظفر، ثم لأبي شامة في قبول مثل هذا، وأخذه منه مسلما؛ والله أعلم.

ثم شرع أبو المظفر في ذكر مناقب الشيخ أبي عمر، ومناقبه وكراماته، وما رآه هو وغيره من أحواله الصالحة، قال: وكان على مذهب السلف الصالح، سمتا وهديا، وكان حسن العقيدة، متمسكا بالكتاب والسنة، والآثار المروية، يمرها كما جاءت من غير طعن على أئمة الدين وعلماء المسلمين، وكان ينهي عن صحبة المبتدعين، ويأمر بصحبة الصالحين، الذين هم على سنة سيد المرسلين، وخاتم النبيين، وربما أنشدني لنفسه في ذلك:

أوصيكم بالقول في القرآن ... بقول أهل الحقّ والإتقان
ليس بمخلوق ولا بفان ... لكن كلام الملك الديان
آياته مشرقة المعاني ... متلوّة للّه باللسان
محفوظة في الصدر والجنان ... مكتوبة في الصحف بالبنان
والقول في الصفات يا إخواني ... كالذات والعلم مع البيان
إمرارها من غير ما كفران ... من غير تشبيه ولا عطلان

قال وأنشدني لنفسه:

ألم يسكُ ملهاة عن اللّهو أنني ... بدا لي شيبُ الرأس والضعف والألمْ
ألم بي الخطبُ الذي لو بكيتهُ ... حياتي حتى ينهب الدمعُ لم ألمْ

قال: ومرض أياماً، فلم يترك شيئا مما كان يعمله من الأوراد، حتى كانت وفاته وقت السحر، في ليلة الثلاثاء، التاسع والعشرين من ربيع الأول، فغسل في الدير، وحمل إلى مقبرته في خلق كثير لا يعلمهم إلا الله عز وجل، ولم يبق أحد من الدولة والأمراء والعلماء والقضاة وغيرهم إلا حضر جنازته، وكان يوماً مشهوداً، وكان الحر شديدا، فأظلت الناس سحابة من الحر، كان يسمع منها كدوي النحل، وكان الناس يتهبون أكفانه، وقد رثاه الشعراء بمراث حسنة، ورثيت له منامات صالحة رحمه الله، وترك من الأولاد ثلاثة ذكور: عمر، وبه كان يكنى، والشرف عبد الله، وهو الذي ولي الخطابة بعد أبيه وهو والد العز أحمد.

ولما توفي الشرف عبد الله صارت الخطابة لأخيه شمس الدين عبد الرحمن بن أبي عمر، وكان من أولاد أبيه الذكور، فهؤلاء أولاده الذكور، وترك من الأناث بنات كما قال الله تعالى: ﴿مُسْلِمَاتٍ مُؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا﴾ [التحريم: ٥]

قال: وقبره في طريق مغارة الجوع في الزقاق المقابل لدير الحوراني رحمه الله وإيانا.

■ **ابن طبرزد شيخ الحديث:** عمر بن محمد بن معمر بن يحيى المعروف بأبي حفص بن طبرزد البغدادي الدارقزي، ولد سنة عشر وخمسمائة، سمع الكثير وأسمع، وكان خليعا ظريفاً ماجنا، وكان يؤدب الصبيان بدار القز، قدم مع حنبل بن عبد الله المكبر إلى دمشق، فسمع أهلها عليهما، وحصل لهما أموال، وعادا إلى بغداد، فمات حنبل سنة ثلاث، وتأخر هو إلى هذه السنة في تاسع شهر رجب فمات وله سبع وتسعون سنة، وترك مالا جيدا، ولم يكن له وارث إلا بيت المال، ودفن بباب حرب.

السلطان الملك العادل أرسلان شاه: نور الدين أبو الحارث

■ **أرسلان شاه بن عزالدين مسعود بن قطب الدين مودود بن زنكي** صاحب الموصل، وهو ابن أخي نور الدين الشهيد، وقد ذكرنا بعض سيرته في الحوادث، كان شافعي المذهب، ولم يكن بينهم شافعي سواه، وبنى للشافعية مدرسة عظيمة بالموصل، وبها تربته.

وقال ابن خلكان كانت وفاته في صفر ليلة الأحد التاسع والعشرين من هذه السنة.

■ **ابن سكينة عبد الوهاب بن علي: ضياء الدين أبو محمد المعروف**

بابن سكينة الصوفي، كان يعد من الأبدال، سمع الحديث الكثير وأسمعه ببلاد شتى، ولد في سنة تسع عشرة وخمسمائة، وكان صاحبا لأبي الفرج بن الجوزي، ملازماً لمجلسه، وكان يوم جنازته يوما مشهودا لكثرة الخلق، ولكثرة ما كان فيه من الخاصة والعامة، رحمه الله.

■ **مظفر بن شاسير: الواعظ الصوفي البغدادي**، ولد سنة ثلاث وعشرين وخمسمائة، وسمع الحديث، وكان يعظ في الأعزية والمساجد والقرى، وكان ظريفا مطبوعا، قام إليه إنسان فقال له فيما بينه وبينه: أنا مريض جائع، فقال: أحمد ربك فقد عوفيت، واجتاز مرة على قصاب يبيع لحما ضعيفا وهو يقول: أين من حلف لا يغبن، فقال له: حتى تحثه، قال: وعملت مرة مجلساً ببعقوبا، فجعل هذا يقول: عندي للشيخ نصفية، وهذا يقول: عندي للشيخ نصفية، وهذا يقول مثله، حتى عدوا نحوا من خمسين نصفية، فقلت في نفسي: استغنيت الليلة، فأرجع إلى البلد تاجرا، فلما أصبحت إذا صبرة من شعير في المسجد فقيل لي: هذه النصافي التي ذكر الجماعة، وإذا هي مكيلة يسمونها النصافي.

وعملت مرة مجلسا بياجسرا فجمعوا لي شيئاً لا أدري ما هو، فلما أصبحنا إذا شيء من صوف الجواميس وقرونها، فقام رجل ينادي كم في صوف الشيخ وقرونه، فقلت: لا حاجة لي بهذا، وأنتم في حل منه. ذكره أبو شامة.

ثم دخلت سنة ثمان وستمائة

استهلت والعادل مقيم على الطور لعمارة حصنه، وجاءت الأخبار من بلاد المغرب بأن ابن عبد المؤمن قد كسر الفرنج بطليطلة كسرة عظيمة، وربما فتح البلد عنوة، وقتل منهم خلقا كثيراً.

وفيها كانت زلزلة عظيمة شديدة بمصر والقاهرة، هدمت منها دوراً كثيرة، وكذلك بالكرك والشوبك هدمت من قلعتها أبراجا، ومات خلق كثير من الصبيان والنسوان تحت الهدم ورئي دخان نازل من السماء، فيما بين المغرب والعشاء، عند قبر عاتكة غربي دمشق.

وفيها أظهرت الباطنية الإسلام، وأقامت الحدود على من تعاطى الحرام، وبنوا الجوامع والمساجد وكتبوا إلى إخوانهم بالشام بمصاب وأمثالها بذلك، وكتب زعيمهم جلال الدين إلى الخليفة يعلمه بذلك، وقدمت أمة منهم إلى بغداد لأجل الحج، فأكرموا وعظموا بسبب ذلك، ولكن لما كان بعرفات ظفر واحد منهم على قريب لأمير مكة قتادة الحسيني فقتله، ظانا أنه قتادة، فثارت فتنة بين سودان مكة وركب العراق، ونهب الركب وقتل منهم خلق كثير.

وفيها اشتري الملك الأشرف جوسق الريس من النيرب من ابن عم الظافر حضر بن صلاح الدين، وبناه بناء حسنا وهو المسمى بزماننا بالدهشة.

وفيها توفي من الأعيان

الشيخ عماد الدين

■ **محمد بن يونس: الفقيه الشافعي الموصلي**، صاحب التصانيف والفنون الكثيرة، كان رئيس الشافعية بالموصل، وبعث رسولا إلى بغداد بعد موت نور الدين أرسلان، وكان عنده وسوسة كثيرة في الطهارة، ويقال: إنه كان يعامل في الأموال بمسألة العينة، كما قيل: تصفون البعوض من شرابكم، وتستريطون الجمال بأحمالها،ولو عكس الأمر لكان خيراً له فلقيه يوماً قضيب البان الموله فقال له: يا شيخ، بلغني عنك أنك تغسل العضو من أعضائك بإبريق من الماء، فلم لا تغسل اللقمة التي تأكلها لتستنظف قلبك وباطنك؟ ففهم الشيخ ما أشار إليه، وترك المعاملة وكانت وفاته بالموصل في رجب عن ثلاث وسبعين سنة.

■ **ابن حمدون تاج الدين: أبو سعد الحسن بن محمد بن حمدون**، صاحب التذكرة الحمدونية، كان فاضلا بارعا، اعتنى بجمع الكتب المنسوبة وغيرها، وولاه الخليفة المارستان العضدي، توفي بالمدائن، وحمل إلى مقابر قريش فدفن بها.

صاحب الروم

■ **خسروشاه بن قليج أرسلان**، مات فيها وقام بالملك بعده ولده كيكاوس، فلما توفي في سنة خمس عشرة ملك أخوه كيقباذ صارم الدين بزغش العادلي، نائب القلعة بدمشق، مات في صفر، ودفن بتربته غربي الجامع المظفري، وهذا الرجل هو الذي نفى الحافظ عبد الغني المقدسي إلى مصر، وبين يديه كان عقد المجلس، وكان في جملة من قام عليه ابن الزكي، والخطيب الدولعي، وقد توفوا أربعتهم وغيرهم، ممن قام عليه، واجتمعوا عند ربهم الحكم العدل سبحانه.

الأمير فخر الدين

■ **سركس: ويقال له جهاركس**: أحد أمراء الدولة الصلاحية، وإليه تنسب قباب سركس بالسفح، تجاه تربة خاتون وبها قبره.

قال القاضي ابن خلكان: هو الذي بني القيسارية بالقاهرة المنسوبة إليه، وبنى في أعلاها مسجدا معلقا وربعاً، وقد ذكر جماعة من التجار أنهم لم يروا لها نظيراً في البلدان، في حسنها وعظمها وإحكام بنائها.

قال: وجهاركس بمعني أربعة أنفس.

قلت: وقد كان نائبا للعادل على بانياس وتبنين وهونين، فلما توفي ترك ولدا صغيراً فأقره العادل على ما كان يليه أبوه، وجعل له مدبرا، وهو الأمير صارم الدين خطلبا التبنيني، ثم استقل بها بعد موت الصبي إلى سنة خمس عشرة.

الشيخ الكبير المعمر الرحلة أبو القاسم أبو بكر أبو الفتح:

■ **منصور بن عبد المنعم بن عبد الله بن محمد بن الفضل الفراوي النيسابوري**، سمع أباه وجد أبيه وغيرهما، وعنه ابن الصلاح وغيره، توفي بنيسابور في شعبان في هذه السنة، عن خمس وثمانين سنة.

■ **قاسم الدين التركماني العقيبي**: والد والي البلد، كانت وفاته في شوال منها والله أعلم.

ثم دخلت سنة تسع وستمائة

فيها اجتمع العادل وأولاده: الكامل، والمعظم، والفائز، بدمياط من بلاد مصر، في مقاتلة الفرنج، فاغتنم غيبتهم سامة الجبلي، أحد أكابر الأمراء، وكانت بيده قلعة عجلون وكوكب، فسار مسرعا إلى دمشق ليستلم البلدين، فأرسل العادل في إثره ولده المعظم، صاحب دمشق فسبقه إلى القدس، وحمل عليه، فرسم عليه في كنيسة صهيون، وكان شيخاً كبيرا قد أصابه النقرس، فشرع يرده إلى الطاعة بالملاطفة فلم ينفع فيه، فاستولى على حواصله وأملاكه وأمواله، وأرسله إلى قلعة الكرك فاعتقله بها، وكان قيمة

ما أخذه منه قريباً من ألف ألف دينار، من ذلك داره وحمامه داخل باب السلامة، وداره هي التي جعلها البادرائي مدرسة للشافعية، وخرب حصن كوكب، ونقلت حواصله إلى حصن الطور، الذي استجده العادل وولده المعظم.

وفيها عزل الوزير صفي الدين ابن شكر، واحتيط على أمواله، ونفي إلى الشرق، وهو الذي كان قد كتب إلى الديار المصرية بنفي الحافظ عبد الغني إلى المغرب، فتوفي الحافظ عبد الغني رحمه الله قبل أن يصل الكتاب، وكتب الله عز وجل بنفي الوزير إلى الشرق.

وفيها استولى صاحب قبرص على مدينة أنطاكية فحصل بسببه شر عظيم، وتمكن من الغارات على بلاد المسلمين، لا سيما على التراكمين الذين حول أنطاكية، قتل منهم خلقا كثيراً، وغنم من أغنامهم شيئا كثيرا، فقدر الله عز وجل أن أمكنهم منه في بعض الأودية فقتلوه، وطافوا برأسه في تلك البلاد، ثم أرسلوا رأسه إلى الملك العادل إلى مصر فطيف به هنالك، وهو الذي كان أغار على بلاد مصر من ثغر دمياط مرتين، فقتل وسبى وعجز عنه الملوك.

وفي ربيع الأول منها توفي الملك الأوحد.

■ نجم الدين أيوب بن العادل صاحب خلاط، يقال إنه كان قد سفك الدماء، وأساء السيرة، فقصف الله عمره، ووليها بعده أخوه الملك الأشرف موسى بن العادل، وكان محمود السيرة، جيد السريرة، فأحسن إلى أهلها، فأحبوه كثيرا.

وفيها توفي من الأعيان

فقيه الحرم الشريف بمكة:

■ محمد بن إسماعيل بن أبي الصيف اليمني.

وأبو إسحاق

■ إبراهيم بن محمد بن أبي بكر القفصي المقرئ المحدث، كتب كثيرا، وسمع الكثير، ودفن بمقابر الصوفية رحمه الله.

أبو الفتح

■ محمد بن سعد بن محمد الدياجي: من أهل مرو، له كتاب المحصل في شرح المفصل للزمخشري في النحو، كان ثقة عالما، سمع الحديث، توفي في هذه السنة عن ثنتين وتسعين سنة.

الشيخ الصالح الزاهد العابد: أبو الثناء

■ محمود بن عثمان بن مكارم النعال الحنبلي، كان له عبادات، ومجاهدات وسياحات، وبنى رباطاً بباب الأزج يأوي إليه أهل العلم من المقادسة وغيرهم، وكان يؤثرهم ويحسن إليهم، وقد سمع الحديث وقرأ القرآن، وكان يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر. وكانت وفاته في هذه السنة وقد جاوز الثمانين.

ثم دخلت سنة عشر وستمائة

فيها أمر العادل أيام الجمع بوضع سلاسل على أفواه الطرق إلى الجامع لئلا تصل الخيول إلى قريب الجامع صيانة للمسلمين عن الأذى بهم، ولئلا يضيقوا على المارين إلى الصلاة.

وفيها ولد الملك العزيز ابن الظاهر غازي صاحب حلب، وهو والد الملك الناصر صاحب دمشق، واقف الناصريتين داخل دمشق، إحداهما داخل باب الفراديس، والأخرى بالسفح ذات الحائط الهائل والعمارة المتينة، التي قيل إنه لا يوجد مثلها إلا قليلا، وهو الذي أسره هلاوون ملك التتار.

وفيها قدم بالفيل من مصر، فحمل هدية إلى صاحب الكرج، فتعجب أهل دمشق منه ومن بديع خلقه.

وفيها قدم الملك الظافر خضر بن السلطان صلاح الدين من حلب قاصدا الحج، فتلقاه الناس، وأكرمه ابن عمه المعظم، صاحب دمشق فلما لم يبق بينه وبين مكة إلا مراحل يسيرة تلقته حاشية الكامل صاحب مصر، وصدوه عن دخول مكة، وقالوا: إنما جئت لأخذ اليمن، فقال لهم: قيدوني وذروني أقضي المناسك، فقالوا: ليس معنا مرسوم، وإنما أمرنا بردك وصدك، فهمّ طائفة من الناس بقتالهم، فخاف من وقوع فتنة، فتحلل من حجه، ورجع إلى الشام، وتأسف الناس على ما فعل به وتباكوا لما ودعهم، تقبل الله منه.

وفيها وصل كتاب من بعض فقهاء الحنفية بخراسان إلى الشيخ تاج الدين أبو اليمن الكندي، يخبر به أن السلطان خوارزم شاه محمد بن تكش تنكر في ثلاثة نفر من أصحابه، ودخل بلاد التتر، ليكشف أخبارهم بنفسه، فأنكروهم فقبضوا عليهم، فضربوا منهم اثنين حتى ماتا ولم يقرا بما جاؤوا فيه، واستوثقوا من الملك وصاحبه الآخر أسرا، فلما كان في بعض الليالي هربا، ورجع السلطان إلى مملكته، قلت: وهذه المكاتبة غير ما تقدم من أسره في المعركة، مع ابن مسعود والله أعلم.

وفيها ظهرت بلاطة وهم يحفرون في خندق حلب، فوجد تحتها من الذهب خمسة وسبعون رطلا، ومن الفضة خمسة وعشرون بالرطل الحلبي.

وممن توفي فيها من الأعيان

شيخ الحنفية: مدرس مشهد أبي حنيفة ببغداد، الشيخ أبو الفضل

■ أحمد بن مسعود بن علي الزكستاني، وكان إليه المظالم، ودفن بالمشهد المذكور.

والشيخ أبو محمد

■ إسماعيل بن علي بن الحسين فخر الدين الحنبلي، يعرف بابن الماشطة، ويقال له الفخر غلام ابن المنى، له تعليقة في الخلاف، وله حلقة بجامع الخليفة، وكان يلي النظر في قرايا الخليفة، ثم عزله فلزم بيته فقيرا لا شيء له إلى أن مات رحمه الله، وكان ولده محمد مدبرا شيطانا مريدا كثير الهجاء والسعاية بالناس إلى أولياء الأمر بالباطل فقطع لسانه وحبس إلى أن مات.

والوزير معز الدين أبو المعالي:

■ سعيد بن علي بن أحمد بن حديدة، من سلالة الصحابي قطبة بن عامر بن حديدة الأنصاري ولي الوزارة للناصر في سنة أربع وثمانين، ثم عزله عن سفارة ابن مهدي فهرب إلى مراغة، ثم عاد بعد موت ابن مهدي، فأقام ببغداد معظماً محترماً، وكان كثير الصدقات والإحسان إلى الناس إلى أن مات رحمه الله.

■ سنجر بن عبد الله الناصري: الخليفي، كانت له أموال كثيرة، وأملاك وإقطاعات متسعة، وكان مع ذلك بخيلا ذليلا، ساقط النفس، اتفق أنه خرج أمير الحاج في سنة تسع وثمانين وخمسمائة، فاعترضه بعض الأعراب في نفر يسير، وكان مع سنجر خمسمائة فارس فدخله الذل من

الأعرابي فطلب منه الأعرابي خمسين ألف دينار فجباها سنجر من الحجيج ودفعها إليه، فلما عاد إلى بغداد أخذ الخليفة منه خمسين ألف دينار ودفعها إلى أصحابها، وعزله وولى طاشتكين مكانه.

قاضي السلامية: ظهير الدين أبو إسحاق

■ إبراهيم بن نصر بن عسكر، الفقيه الشافعي الأديب، ذكره العماد في «الخريدة» ٢/ ٣٤٦، وابن خلكان في الوفيات [٣٧/١]، وأثنى عليه، وأنشد من شعره، في شيخ زاوية، وأصحابه يقال له مكي:

ألا قل لمكي قول النصوح ... فحقُّ النصيحة أن تستمع
متى سمع الناس في دينهم ... بأن الغنا سنة تتبع
وأن يأكل المرء أكل البعير ... ويرقص في الجمع حتى يقع
ولو كان طاوي الحشا جائعاً ... لما دار من طرب واستمع
وقالوا: سكرنا بحب الإله ... وما أسكر القوم إلا القصع
كذاك الحمير إذا أخصبت ... يُنفِّرُها ريها والشبع
تراهم يهزوا لحاهم إذا ... ترنم حاديهم بالبدع
فيصرخ هذا وهذا يئن ... ويس لو تليتُ ما انصدع

وتاج الأمناء: أبو الفضل

■ أحمد بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عساكر، من بيت الحديث والرواية، وهو أكبر من إخوته زين الأمناء والفخر عبد الرحمن، سمع عميه الحافظ أبي القاسم والصائن، وكان صديقا للشيخ تاج الدين الكندي، وكانت وفاته يوم الأحد، ثاني رجب، ودفن قبلي محراب مسجد القدم رحمه الله.

وتاج العلى النسابة الحلبي الحسني، اجتمع بآمد بابن دحية، وكان ينسب إلى دحية الكلبي، فقال له: تاج العُلى إنّ دحية الكلبي لم يعقب، فرماه ابن دحية بالكذب في مسائله الموصلية.

قال ابن الأثير: في الكامل [٣٠٢/١٢] وفي المحرم منها توفي.

المهذب الطبيب المشهور: وهو

■ علي بن أحمد بن هبل الموصلي، سمع الحديث، وكان أعلم أهل زمانه بالطب، وله فيه تصنيف حسن، وكان كثير الصدقة، حسن الأخلاق.

■ ابن خروف شارح سيبويه وجُمل الزجاجي هو أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحضرمي الأندلسي الإشبيلي: أحد المشاهير في هذه الصناعة وكتبه تدلّ على تقدُّمه وعلمه وفضله، وكان شيخه فيها ابن طاهر، المعروف بالخِدَبّ الأندلسي.

■ الجزولي صاحب المقدمة المسماة بالقانون: وهو أبو موسى عيسى بن عبد العزيز الجزولي بطن من البربر ثم اليزدكيني النحوي المغربي، مصنف المقدمة المشهورة البديعة، شرحها هو وتلامذته، وكلهم يعترفون بتقصيرهم عن فهم مراده في أماكن كثيرة منها، قدم مصر، وأخذ عن ابن بري، ثم عاد إلى بلاده، وولي خطابة مراكش، وكانت وفاته في هذه السنة، وقيل قبلها فالله أعلم.

ثم دخلت سنة إحدى عشرة وستمائة

فيها أرسل الملك خوارزم شاه أميراً من أخصاء أمرائه عنده، وكان قبل ذلك سيروانا فصار أميرا خاصاً، فبعثه في جيش، ففتح له كرمان ومكران وإلى حدود بلاد السند، وخطب له بتلك النواحي، وكان خوارزم شاه لا يصيف إلا بنواحي سمرقند، خوفا من التتار وأصحاب كشلي خان أن يثبوا على أطراف تلك البلاد التي تتاخمهم. قال أبو شامة: وفيها شرع في تبليط داخل الجامع الأموي، وبدؤوا من ناحية السبع الكبير، وكانت أرض الجامع قبل ذلك حفرا وجورا، فاستراح الناس بتبليطه.

وفيها وسع الخندق مما يلي القيمازية فأخربت دور كثيرة، وحمام قايماز، وفرن كان هناك وقفا على دار الحديث النورية وغير ذلك.

وفيها بنى المعظم الفندق المنسوب إليه بناحية قبر عاتكة ظاهر باب الجابية.

وفيها أخذ المعظم قلعة صرخد من ابن قراجا وعوضه عنها وسلمها إلى مملوكه عز الدين أيبك المعظمي، فثبتت في يده إلى أن انتزعها منه نجم الدين أيوب سنة أربع وأربعين.

وفيها حج الملك المعظم ابن العادل، ركب من الكرك على الهجن في حادي عشر ذي القعدة، ومعه ابن موسك، ومملوكه أيبك، عز الدين أستاذ داره وخلق، فساروا على طريق تبوك والعلاء، وبنى المعظم البركة المنسوبة إليه، ومصانع أخر، فلما قدم المدينة النبوية تلقاه صاحبها سالم، وسلم إليه مفاتيحها، وخدمه خدمة تامة.

وأما صاحب مكة قتادة فلم يرفع به رأساً، ولهذا لما قضي نسكه، وكان قارنا وأنفق في المجاورين ما حمله إليهم من الصدقات وكرّ راجعاً واستصحب معه سالما صاحب المدينة، وتشكى إلى أبيه عند رأس الماء ما لقيه من صاحب مكة عنها، فأرسل العادل مع سالم جيشاً يطردون صاحب مكة، فلما انتهوا إليها هرب منهم في الأودية والجبال والبراري، وقد أثر المعظم في حجته هذه آثاراً حسنة بطريق الحجاز أثابه الله.

وفيها تعامل أهل دمشق بالقراطيس السود العادلية، ثم بطلت بعد ذلك وفنيت.

وفيها مات صاحب اليمن ابن سيف الإسلام وتولاها سليمان بن شاهنشاه بن تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب بإتفاق الأمراء عليه، فأرسل العادل إلى ولده الكامل أن يرسل إليها ولده أقسيس ابن الكامل فأرسله فتملكها، فظلم بها وفتك وغشم، وقتل من الأشراف نحواً من ثمانمائة، وأما من عداهم فكثير، وكان من أفجر الملوك وأكثرهم فسقا، وأقلهم حياء ودينا، وقد ذكروا عنه ما تقشعر منه الأبدان وتنكره القلوب، نسأل الله العافية.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ إبراهيم بن علي بن محمد بن بكروس الفقيه الحنبلي، أفتى وناظر، وعدل عند الحكام، ثم انسلخ من هذا كله وصار شرطيا بباب النوبي، يضرب الناس ويؤذيهم غاية الأذى، ثم بعد ذلك ضرب إلى أن مات، وألقي في دجلة، وفرح الناس بموته، وقد كان أبوه رجلا صالحا.

الركن

■ عبد السلام بن عبد الوهاب بن الشيخ عبد القادر، كان أبوه صالحا، وكان هو متهما بالفلسفة ومخاطبة النجوم ووجد عنده كتب في ذلك، وقد ولي عدة ولايات،وفيه وفي أمثاله يقال: نعم الجدود ولكن بئس ما نسلوا.

ورأى عليه أبوه يوماً ثوبا بخاريا فقال: سمعنا بالبخاري ومسلم، وأما بخاري وكافر فهذا شيء عجب، وقد كان مصاحباً لأبي القاسم ابن الشيخ

أبي الفرج بن الجوزي، وكان الآخر مدبراً فاسقا، وكانا يجتمعان على الشراب والمردان قبحهما الله.

أبو محمد

■ **عبد العزيز بن محمود بن المبارك: البزاز المعروف بابن الأخضر** البغدادي، المحدث المكثر، الحافظ المصنف المحرر، له كتب مفيدة متقنة، وكان من الصالحين، وكان يوم جنازته يوماً مشهوداً رحمه الله.

الحافظ أبو الحسن

■ **علي بن الأنجب: أبي المكارم المفضل اللخمي المقدسي**، ثم الإسكندراني المالكي، سمع السلفي وعبد الرحيم المنذري، وكان مدرسا للمالكية بالإسكندرية، ونائب الحكم بها، ومن شعره قوله:

أبا نفسُ بالمأثور عن خير مرسل ... وأصحابهِ والتابعين تمسكي
عساك إذا بالغت في نشر دينه ... بما طاب من نشر له أن تمسكي
وخافي غداً يوم الحساب جهنماً ... إذا لفحت نيرانها أن تمسكي

وكانت وفاته بالقاهرة في هذه السنة قاله ابن خلكان.

ثم دخلت سنة ثنتي عشرة وستمائة

فيما شرع في بناء المدرسة العادلية الكبيرة بدمشق.

وفيها عزل القاضي الزكي بن محيي الدين ابن الزكي، وفوض الحكم إلى القاضي جمال الدين بن الحرستاني، وهو ابن ثنتين تسعين سنة، فحكم بالعدل، وقضى بالحق، ويقال: إنه كان يحكم بالمدرسة المجاهدية قريبا من النورية عند باب القواسين.

وفيها أبطل العادل ضمان الخمر والقيان جزاه الله خيراً، فزال بزوال ذلك عن الناس ومنهم شر كثير.

وفيها حاصر الأمير قتادة أمير مكة المدينة النبوية، وقطع نخلا كثيراً، فقاتله أهلها، فكر خائبا خاسراً حسيراً، وكان صاحب المدينة بالشام، فطلب من العادل نجدة على أمير مكة، فأرسل معه جيشا، فأسرع في الأوبة، فمات في أثناء الطريق، فاجتمع الجيش على ابن أخيه جماز، فقصد مكة، فالتقاه أميرها بالصفراء، فاقتتلوا قتالا شديدا، فهرب المكيون، وغنم منهم جماز شيئاً كثيراً، وهرب قتادة إلى الينبع فساروا إليه، فحاصروه بها وضيقوا عليه.

وفيها أغارت الفرنج على بلاد الإسماعيلية فقتلوا ونهبوا وسبوا.

وفيها أخذ ملك الروم كيكاوس مدينة أنطاكية من أيدي الفرنج، ثم أخذها منه ابن لاون ملك الأرمن، ثم أخذها منه إبرنس طرابلس.

وفيها ملك السلطان خوارزم شاه محمد بن تكش مدينة غزنة بغير قتال.

وفيها كانت وفاة الملك المعظم أبي الحسن علي بن الخليفة الناصر لدين الله الذي كان قد جعله ولي عهده من بعده، وعزل عن ذلك أخاه الأكبر، ولما توفي حزن الخليفة عليه حزنا عظيما، وكذلك الخاصة والعامة لكثرة صدقاته وإحسانه إلى الناس، حتى قيل إنه لم يبق بيت ببغداد إلا حزنوا عليه، وكان يوم جنازته يوما مشهوداً، وناح أهل البلد عليه ليلا ونهارا، ودفن عند جدته بالقرب من قبر معروف الكرخي، توفي يوم الجمعة العشرين من ذي القعدة، وصلي عليه بعد صلاة العصر.

وفي هذا اليوم قدم بغداد برأس منكلي الذي كان قد عصى على الخليفة وعلى أستاذه إلى بغداد، فطيف به فيها، ولم يتم فرحه ذلك اليوم لموت ولده وولي عهده، والدنيا لا تسر بقدر ما تضر، وترك ولدين: أحدهما المؤيد أبو عبد الله الحسن، والموفق أبو الفضل يحيى.

وممن توفي فيها من الأعيان

الحافظ عبد القادر الرهاوي:

■ **عبد القادر بن عبد الله بن عبد الرحمن أبو محمد الحافظ الكبير** المحدث المخرج المفيد المحرر المتقن البارع المصنف كان مولى لبعض المواصلة، وقيل لبعض الجرّانيين، اشتغل بدار الحديث بالموصل، ثم انتقل إلى حران، وقد رحل إلى بلدان شتى، وسمع الكثير من المشايخ، شرقاً وغرباً وأقام بحران إلى أن توفي بها، في هذه السنة وكان مولده في سنة ست وثلاثين وخمسمائة، كان ديناً خيراً رحمه الله.

الوجيه الأعمى: أبو بكر المبارك بن سعيد

■ **ابن الدهان، النحوي الواسطي، الملقب بالوجيه**، ولد بواسط وقدم بغداد فاشتغل بعلم العربية والنحو، فأتقن ذلك، وحفظ شيئا كثيرا من أشعار العرب، وسمع الحديث، وكان حنبليا ثم انتقل إلى مذهب أبي حنيفة، ثم صار شافعياً، وولي تدريس النحو بالنظامية، وفيه يقول الشاعر:

ألا مبلغاً عني الوجيهَ رسالةً ... وإن كان لا تجدي لديه الرسائلُ
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل ... وذلك لما أعوزتك المآكل
وما اخترت رأي الشافعي تديُّناً ... ولكنما تهوى الذي هو حاصلُ
وعما قليل أنت لا شك صائرٌ ... إلى مالكٍ فافطن لما أنا قائلُ

وقد ذكرناه في في سنة تسع وتسعين وخمس مئة كان يحفظ شيئا كثيراً من الحكايات والأمثال والملح، ويعرف العربية، والتركية، والعجمية، والرومية، والحبشية، والزنجية، وكانت له يد طولى في نظم الشعر، فمن ذلك قوله:

ولو وقعت في لجةِ البحر قطرةٌ ... من المزن يوماً ثم شاء لمازها
ولو ملك الدنيا فأضحى ملوكها ... عبيداً له في الشرق والغرب ما زها

وله في التجنيس:

أطلتَ ملامي في اجتنابي لمعشر ... طغام لئام جودهم غيرُ مرتجى
ترى بأبهم لا بارك اللّهُ فيهمُ ... على طالب المعروف إن جاء مُرتجى
حموا ما لهم والدينُ والعرضُ منهمُ ... مباحٌ، فما يخشون من هجوِ مَن هجا
إذا شرع الأجوادُ في الجود منهجاً ... لهم شرعوا في البخل سبعين منهجا

وله مدائح حسنة، وأشعار رائقة، ويبتكر معاني فائقة، وربما عارض شعر البحتري بما يقاربه ويدانيه.

قالوا: وكان الوجيه لا يغضب قط، فتراهن جماعة مع واحد أنه إن أغضبه كان له كذا وكذا فجاء إليه فسأله عن مسألة في العربية، فأجابه فيها بالجواب، فقال له السائل: أخطأت أيها الشيخ، فأعاد عليه الجواب بعبارة أخرى، فقال له: أخطأت أيضاً فأعاد ثالثة بعبارة أخرى، فقال: كذبت وما أراك إلا قد نسيت النحو، فقال الوجيه: أيها الرجل فلعلك لم تفهم ما أقول لك،فقال: بلى ولكنك تخطئ في الجواب، فقال له: فقل أنت ما عندك لنستفيد منك، فأغلظ له السائل في القول، فتبسم ضاحكا وقال له الوجيه: إن كنت راهنت فقد غلبت وإنما مثلك في هذا كمثل البَقّة - يعني الناموسة

ـ سقطت على ظهر الفيل فلما أرادت أن تطير قالت له: استمسك فإني أحب أن أطير، فقال لها الفيل: ما أحسست بك حين سقطت، فما أحتاج أن أستمسك إذا طرت.

كانت وفاته رحمه الله في شعبان منها، ودفن بالوردية.

أبو الفتوح

■ **محمد بن علي بن المبارك**: التاجر المعروف بابن الجلاجلي، كان يسكن بدار الخلافة ببغداد، قرأ القرآن على الروايات، وسمع الحديث الكثير، ورحل إلى البلدان المتباينة، بلغ ثلاثاً وستين سنة، وكانت وفاته بالقدس الشريف في رمضان، رحمه الله.

أبو محمد

■ **عبد العزيز بن المعالي بن غنيمة بن الحسن المعروف بابن منينا وولد** سنة خمس عشرة وخمسمائة، وسمع الكثير وأسمعه، وكانت وفاته في ذي الحجة منها، عن سبع وتسعين سنة.

الشيخ الفقيه كمال الدين

■ **مودود بن الشاغوري الشافعي**، كان يقرئ بالجامع الأموي الفقه وشرح التنبيه للطلبة، ويتأنى عليهم حتى يفهموا، احتساباً تجاه المقصورة، ودفن بمقابر باب الصغير شمالي قبور الشهداء، وعلى قبره شعر، ذكره أبو شامة والله سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة ثلاث عشرة وستمائة

قال أبو شامة: فيها أحضرت الأوتاد الخشب الأربعة لأجل قبة نسر الجامع، طول كل واحد اثنان وثلاثون ذراعاً بالنجار.

وفيها شرع في تجديد خندق باب السر المقابل لدار الطعم العتيقة إلى جانب باناس.

قلت: هي التي يقال لها اليوم اصطبل السلطان، وقد نقل السلطان بنفسه التراب، ومماليكه تحمل بين يديه على قربوس السروج القفاف من التراب، فيفرغونها في الميدان الأخضر، وكذلك أخوه الصالح إسماعيل ومماليكه يعمل هذا يوماً وهذا يوماً.

وفيها وقعت فتنة بين أهل الشاغور وأهل العقيبة، فاقتتلوا بالرحبة والصيارف، فركب الجيش إليهم ملبسين، وجاء السلطان المعظم بنفسه فمسك رؤوسهم وحبسهم.

وفيها رتب بالمصلى خطيب مستقل، وأول من باشره الصدر معيد الفلكية، ثم خطب به بعد بهاء الدين بن أبي اليسر، ثم بنو حسان وإلى الآن.

وفيها توفي من الأعيان

صاحب حلب الملك الظاهر:

■ **غازي بن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب**، وكان من خيار الملوك وأسدهم سيرة، ولكن كان فيه عسف ويعاقب على الذنب شديداً، وكان يكرم العلماء والشعراء والفقراء.

أقام في الملك ثلاثين سنة، وحضر كثيراً مع الغزوات مع أبيه، وكان ذكيا، له رأي جيد، وعبارة سديدة، وفطنة حسنة، عمر أربعاً وأربعين، سنة.

لما حضرته الوفاة جعل الملك من بعده لولده العزيز غياث الدين محمد، وكان حينئذ ابن ثلاث سنين، وكان له أولاد كباد ولكن ابنه هذا الصغير الذي عهد إليه كان من بنت عمه العادل وأخواله الأشرف والمعظم والكامل، وجده العادل لا ينازعونه، ولو عهد لغيره من أولاده لأخذوا الملك منه، وهكذا وقع سواء، بايع له جده العادل وخاله الأشرف صاحب حرّان والرُّها وخِلاط، وهم المعظم بنقض ذلك ويأخذ الملك منه فلم يتفق له ذلك، وقام بتدبير ملكه الطواشي شهاب الدين طغريل الرومي الأبيض، وكان دينا عاقلا عادلاً.

وفيها توفي من الأعيان.

الشيخ تاج الدين

■ **أبو اليُمن زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن بن سعيد بن عصمة**، الشيخ الإمام العلامة، وحيد عصره ونسيج وحده تاج الدين أبو اليمن الكندي. ولد ببغداد ونشأ بها، واشتغل وحصل، ثم قدم دمشق فأقام بها، وفاق أهل زمانه شرقاً وغرباً في اللغة والنحو، وغير ذلك من فنون العلم، وعلو الإسناد، وحسن الطريقة والسيرة، وصحة العقيدة، وانتفع به علماء زمانه، وأثنوا عليه وخضعوا له، وكان حنبليا ثم صار حنفياً، ولد في الخامس والعشرين من شعبان سنة عشرين وخمسمائة، فقرأ القرآن بالروايات وعمره عشر سنين وسمع الكثير من الحديث العالي على الشيوخ الثقات، وعنى به، وتعلم العربية واللغة واشتهر بذلك، ثم دخل الشام في سنة ثلاث وستين وخمسمائة، ثم سكن مصر، واجتمع بالقاضي الفاضل. ثم انتقل إلى دمشق، فسكن بدرب العجم منها، وحظي عند الملوك والوزراء والأمراء، وتردد إليه العلماء والملوك وأبناؤهم.

كان الأفضل بن صلاح الدين وهو صاحب دمشق يتردد إليه إلى منزله، وكذلك أخوه المحسن والمعظم ملك دمشق، كان ينزل إليه إلى درب العجم يقرأ عليه في المفصل للزمخشري، وكان المعظم يعطي لمن حفظ المفصل ثلاثين ديناراً جائزة، وكان يحضر مجلسه بدرب العجم جميع المصدرين بالجامع،كالشيخ علم الدين السخاوي، ويحيى بن معطي الوجيه البوني، والفخر التركي وغيرهم، وكان القاضي الفاضل في أيامة يثني عليه.

قال السخاوي: كان عنده من العلوم ما لا يوجد عند غيره، ومن العجب أن سيبويه قد شرحت عليه «كتابه» كان واسم الشيخ أبي اليُمن عمرو، واسمه زيد، فقلت في ذلك.

لم يكن في عهد عمرو مثله ... وكذا الكندي في آخر عصر

فهما زيد وعمرو إنما ... بني النحو على زيد وعمرو

قال أبو شامة: وهذا كما قال فيه ابن الدهان المذكور في سنة ثنتين وتسعين وخمسمائة:

يازيد زادك ربي من مواهبه ... نعما يقصر عن إدراكها الأمل

النحو أنت أحق العالمين به ... أليس باسمك فيه يضرب المثل

وقد مدحه السخاوي بقصيدة حسنة، وأثنى عليه أبو المظفر سبط بن الجوزي، فقال: قرأت عليه وكان حسن العقيدة، ظريف الخلق، لا يسأم الإنسان من مجالسته، وله النوادر العجيبة، والخط المليح، والشعر الرائق، وله ديوان شعر كبير، وكانت وفاته يوم الاثنين سادس شوال من هذه السنة، وله ثلاث وتسعون سنة وشهر وستة عشر يوماً، وصلي عليه بجامع دمشق، ثم حمل إلى الصالحية فدفن بها رحمه الله.

وكان قد وقف كتبه ـ وكانت نفيسة ـ وهي سبعمائة وإحدى وستون

مجلدا، على معتقه نجيب الدين ياقوت، ثم على ولده من بعد ثم على العلماء في الحديث والفقه واللغة وغير ذلك، وجعلت في خزانة كبيرة، في مقصورة ابن سنان الحنفية، المجاورة لمشهد علي بن زين العابدين، ثم إن هذه الكتب تفرقت، وبيع كثير منها، ولم يبق بالخزانة المشار إليها إلا القليل الرث، وهي بمقصورة الحنفية، وكانت قديماً يقال لها مقصورة ابن سنان.

وقد ترك الشيخ شهاب الدين رحمه اللّه نعمة وافرة وأموالا جزيلة ومماليك متعددة من الترك، وقد كان رقيق الحاشية، حسن الأخلاق، يعامل الطلبة معاملة حسنة من القيام والتعظيم، فلما كبر ترك القيام لهم وأنشأ يقول:

تركتُ قيامي للصديق يزورني ... ولا ذنب لي إلا الإطالة في عمري
فإن بلغوا من عشر تسعين ... نصفها تبين في ترك القيام لهم عذري

وقد أسلفنا شيئاً من قبله في قتل عمارة اليمني في الدولة الصلاحية، في سنة تسع وستين وخمس مئة، وهو في غاية القوة والفصاحة والجناس، وقد أورد ابن الساعي في ترجمته من «تاريخه» أشعاراً حسنة، فمن ذلك قوله بمدح الملك المظفر شاهنشاه.

وصال الغواني كان أروى وأروجا ... وعصر التداني كان أبهى وأبهجا
ليالي كان العمر أحسن شافع ... تولى وكان اللهو أوضح منهجا
بدا الشيب فانجابت طماعية الصبا ... وقبح لي ما كان يستحسن الحجا
بلهنية ولت كأن لم أكن بها ... بها أجتلي وجه النعيم مسرجا
ولا اختلت في دبر الشباب مجرراً ... ذيولي إعجاباً به وتبرجا
أُغازك غيداء المعاطف طفلة ... وأغيد معسول المراشف أدعجا
تقضت لياليها بطيب كأنه ... لتقصيره منهن يختطف الدجى
فإن أمس مكروب الفؤاد حزينه ... أعاقر من دنّ الصبابة منهجا
وحيداً على أني بفضلي متيم ... مروعاً بأعداء الفضائل مزعجا
فيا ربُّ ذي ودٌ سررت وسرني ... وأبهجته بالصالحات وأبهجا
ويا رب ناد قد شهدت وماجد ... شهدت وخصم رعته فتلجلجا
صدعت بفضلي نقصه فتركته ... وفي قلبه شجو وفي حلقه شجى
كأن بياني في مسامع حسدي ... وقد ضم أبكار المعاني وأدرجا
حسام تقي الدين في كل مارق ... يقد إلى الأرض الكمي المدججا

وقال يمدح أخاه معز الدين فروخشاه بن شاهنشاه بن أيوب:

هل أنت راحم عبرة وتدلُه ... ومجير صب عند ما منه دُهي
هيهات يرحم قاتل مقتوله ... وسنانه في القلب غير منهنه
مَن بلّ من داء الغرام فإنني ... مذ حلّ بي مرض الهوى لم أنقه
إني بليت بحب أغيد ساحر ... بلحاظه رخص البنان بزهرة
أبغي شفاء تدلهي من دلّه ... ومتى يرق مدلل لمدله
كم آهة لي في هواه وأنة ... لو كان ينفعني عليه تأوهي
ومآرب في وصله لو أنها ... تقضى لكانت عند مبسمه الشهي
يا مفرداً بالحسن إنسك منته ... فيه كما أنا في الصبابة منتهي
قد لام فيك معاشر أفانتهي ... باللوم عن حب الحياة وأنت هي

أبكي لديه فإن أحس بلوعة ... وتشهق أومأ بطرف مقهقه
أنا من محاسنه وحالي عنده ... حيران بين تفكر وتفكُّه
ضدان قد جمعا بلفظ واحد ... لي في هواه بمعنيين موجه
أو لست رب فضائل لو حاز أد ... ناها وما أزهى بها غيري زهي

والذي أنشده تاج الدين الكندي في قتل عمارة اليمني، حين كان مالأ الكفرة والملحدين على قتل الملك صلاح الدين، وأرادوا عودة دولة الفاطميين، فظهر على أمره فصلب مع من صلب في سنة تسع وتسعين وخمسمائة.

عمارة في الإسلام أبدى خيانة ... وحالف فيها بيعة وصليبا
وأمسى شريك الشرك في بغض أحمد ... وأصبح في حب الصليب صليبا
وكان خبيث الملتقى إن عجمته ... تجد منه عوداً في النفاق صليبا
سيلقي غداً ما كان يسعى لأجله ... ويُسقى صديداً في لظىً وصليبا

وله:

صحبنا الدهر أياماً حساناً ... نعوم بهن في اللذات عوما
وكانت بعدما ولت كأني ... لدى نقصانها حلماً ونوما
أناخ بي المشيب فلا براح ... وإن أوسعته عتباً ولوما
نزيل لا يزال على التنائي ... يسوق إلى الردى يوماً فيوما
وكنت أعد لي عاماً فعاماً ... فصرت أعد لي يوماً فيوما

■ (محمد بن عبد الغني المقدسي).

العز محمد بن الحافظ عبد الغني المقدسي: ولد سنة ست وستين وخمسمائة، وأسمعه والده الكثير، ورحل بنفسه إلى بغداد، وقرأ بها مسند أحمد، وكانت له حلقة بجامع دمشق، وكان من أصحاب المعظم، وكان صالحا دينا، ورعا حافظا رحمه اللّه ورحم أباه.

أبو الفتوح

■ محمد بن علي بن المبارك: الجلاجلي البغدادي، سمع الكثير، وكان يتردد في الرسلية بين الخليفة والملك الأشرف بن العادل، وكان عاقلا دينا، ثقة صدوقا.

الشريف أبو جعفر:

■ يحيى بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن علي العلوي الحسني، نقيب الطالبيين بالبصرة بعد أبيه، كان شيخاً أديباً، فاضلا، عالما بفنون كثيرة، لا سيما علم الانساب، وأيام العرب وأشعارها، يحفظ كثيرا منها، وكان من جلساء الخليفة الناصر، ومن لطيف شعره قوله:

ليهنك سمع لا يلائمه العذل ... وقلب قريح لا يمل ولا يسلو
كأن عليّ الحب أضحى فريضة ... فليس لقلبي غيره أبداً شغل
وإني لأهوى الهجر ما كان أصله ... دلالا ولولا الهجر ما عذب الوصل
وأما إذا كان الصدود ملالة ... فأيسر ما هم الحبيب به القتل

أبو علي

■ مزيد بن علي بن مزيد المعروف بابن الخشكري، الشاعر المشهور، من أهل النعمانية، جمع لنفسه ديواناً، أورد له ابن الساعي قطعة من شعره، فمن ذلك قوله:

سألتك يوم النوى نظرة فلم تسمحي خفراً لا سلم
فأعجب كيف تقولين لا ووجهك قد خط فيه نعم
أما النون يا هذه حاجب أما العين عين أما الميم فم

أبو الفضل

■ رشوان بن منصور بن رشوان الكردي، المعروف بالنقف، ولد بإربل، وخدم جنديا، وكان أديباً شاعراً، خدم مع الملك العادل، ومن شعره قوله:

سلي عني الصوارم والرماحا وخيلا تسبق الهوج الرياحا
وأسداً جيشها سمر العوالي إذا ما الأسد حاولت الكفاحا
فإني ثابت عقلا ولباً إذا ما صائح في الحرب صاحا
وأورد مهجتي لجج المنايا إذا ماجت ولم أخف الجراحا
وكم ليل سهرت وبت فيه أراعي النجم أرتقب الصباحا
وكم في فدفد فرسي ونضوي بقائلة الهجير غدا وراحا
لعينك في العجاجة ما الاقي وأثبت في الكريهة لا براحا

■ محمد بن يحيى بن هبة الله أبو نصر النحاس الواسطي كتب إلى السبط من شعره:

وقائلة لما عمرت وصار لي ثمانون عاماً عش كذا وابق واسلم
ودم وانتشق روح الحياة فإنه لأطيب من بيت بصعدة مظلم
فقلت لها عذري لديك ممهد بيت زهير فاعلمي وتعلمي
سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا محالة يسأم

ثم دخلت سنة أربع عشرة وستمائة

في ثالث المحرم منها كمل تبليط داخل الجامع الأموي، وجاء المعتمد مبارز الدين إبراهيم المتولي بدمشق، فوضع آخر بلاطة منه بيده عند باب الزيادة فرحاً بذلك.

وفيها زادت دجلة ببغداد زيادة عظيمة، وارتفع الماء حتى ساوى القبور إلا مقدار أصبعين، ثم طفح الماء من فوقه، وأيقن الناس بالهلكة، واستمر ذلك سبع ليال وثمانية أيام حسوما، ثم منّ الله فتناقص الماء، وذهبت الزيادة، وقد بقيت بغداد تلولا، وتهدمت أكثر البنايات فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها درس بالنظامية محمد بن يحيى بن فضلان، وحضر عنده القضاة والأعيان.

وفيها سار الصدر بن حمويه في الرسلية إلى بغداد من العادل إلى الخليفة.

وفيها قدم ولده الفخر بن الكامل إلى أخيه المعظم يخطب منه ابنته على ابنه أقسيس صاحب اليمن، فعقد العقد بدمشق على صداق هائل.

وفيها قدم السلطان علاء الدين خوارزم شاه محمد بن تكش من همذان قاصدا إلى بغداد في أربعمائة ألف مقاتل، وقيل في ستمائة ألف، فاستعد له الخليفة، واستخدم الجيوش، وأرسل إلى الخليفة يطلب منه أن يكون بين يديه على قاعدة من تقدمه من الملوك السلاجقة، وأن يخطب له ببغداد، فلم يجبه الخليفة إلى ذلك، وأرسل إليه الشيخ شهاب الدين السهروردي، فلما وصل شاهد عنده من العظمة وكثرة الملوك بين يديه وهو جالس في خركاه من ذهب على سرير ساذج، وعليه قباء بخارى ما يساوي خمسة دراهم، وعلى رأسه جلدة ما تساوي درهماً، فسلم عليه فلم يرد عليه من الكبر، ولم يأذن له في الجلوس فقام إلى جانب السرير وأخذ في خطبة هائلة، فذكر فيها فضل بني العباس وشرفهم وأورد حديثا في النهي عن أذاهم، والترجمان يعيد على الملك، فقال الملك: أما ما ذكرت من فضل الخليفة فإنه ليس كذلك، ولكني إذا قدمت بغداد أقمت من يكون بهذه الصفات، وأما ما ذكرت من النهي عن أذاهم فإني لم أوذ منهم أحدا، ولكن الخليفة في سجونه منهم طائفة كثيرة يتناسلون في السجون، فهو الذي آذى بني العباس، ثم تركه ولم يرد عليه جوابا بعد ذلك، وانصرف السهروردي راجعا، وأرسل الله تعالى على الملك وجنده ثلجاً عظيماً ثلاثة أيام، حتى طم الخراكي والخيام، ووصل إلى قريب رؤوس الأعلام، وتقطعت أيدي رجال وأرجلهم، وعمهم من البلاء ما لا يحد ولا يوصف، فردهم الله خائبين، والحمد لله رب العالمين.

وفيها انقضت الهدنة التي كانت بين العادل والفرنج، واتفق قدوم العادل من مصر فاجتمع هو وابنه المعظم ببيسان، فركبت الفرنج من عكا ومقدمهم وصحبتهم ملوك السواحل كلهم، وساقوا كلهم قاصدين مغافصة العادل، فلما أحس بهم فر منهم لكثرة جيوشهم وقلة من معه، فقال ابنه المعظم إلى أين يا أبة؟ فشتمه أبوه بالعجمية، وقال له: أقطعت الشام مماليك وتركت من ينفعني أبناء الناس، ثم توجه العادل إلى دمشق، وكتب إلى واليها المعتمد ليحصنها من الفرنج، وينقل إليها من الغلات من داريا إلى القلعة، ويرسل الماء على أراضي داريا وقصر حجاج والشاغور، ففزع الناس من ذلك، وابتهلوا إلى الله بالدعاء، وكثر الضجيج بالجامع، وأقبل السلطان فنزل مرج الصفر، وأرسل إلى ملوك الشرق ليقدموا لقتال الفرنج فكان أول من قدم صاحب حمص أسد الدين شيركوه، فتلقاه الناس فدخل من باب الفرج، وجاء فسلم على ست الشام بدارها عند المارستان، ثم عاد إلى داره.

ولما قدم أسد الدين سري عن الناس، فلما أصبح توجه نحو السلطان بمرج الصفر.

وأما الفرنج فإنهم قدموا بيسان فنهبوا ما كان بها من الغلات والدواب وقتلوا وأسروا شيئاً كثيراً، ثم عاثوا في الأرض فسادا يقتلون وينهبون ويأسرون ما بين بيسان إلى بانياس، وخرجوا إلى أراضي الجولان إلى نوى وخسفين وغيرها، وسار الملك المعظم فنزل على عقبة اللبن بين القدس ونابلس خوفاً على القدس منهم، فإنه هو الأهم الأكبر، ثم حاصر الفرنج حمص الطور حصاراً هائلا، ومانع عنه الذين به من الأبطال ممانعة هائلة، ثم كر الفرنج راجعين إلى عكا، ومعهم الأسارى من المسلمين، وجاء الملك المعظم إلى الطور فخلع على الأمراء الذين به وطيب نفوسهم، ثم اتفق هو وأبوه على هدمه كما سيأتي.

وفيها توفي من الأعيان

الشيخ العماد: أخو الحافظ عبد الغني، أبو إسحاق

■ إبراهيم بن عبد الواحد بن علي بن سرور الشيخ عماد الدين المقدسي أصغر من أخيه الحافظ عبد الغني بسنتين، وقدم مع الجماعة إلى

دمشق سنة إحدى وخمسين وخمسمائة، ودخل بغداد مرتين، وسمع الحديث، وكان عابدا زاهداً ورعا كثير الصلاة كثير الصيام، يصوم يوما ويفطر يوماً، وكان فقيها مفتيا، وله كتاب «الفروق»، وصنف أحكاماً ولم يتمه، وكان يؤم بمحراب الحنابلة مع الشيخ الموفق، وإنما كانوا يصلون بغير محراب، ثم وضع المحراب في سنة سبع عشرة وستمائة، وكان أيضاً يؤم بالناس لقضاء الفوائت، وهو أول من فعل ذلك، صلى المغرب ذات ليلة وكان صائما، ثم رجع إلى بيته بدمشق، فأفطر ثم مات فجاة، فصلي عليه بالجامع الأموي، صلى عليه الشيخ الموفق عند مصلاهم، ثم صعدوا به إلى السفح، وكان يوم موته يوماً مشهوداً من كثرة الناس.

قال سبط بن الجوزي: كان الخلق من الكهف إلى مغارة الدم إلى الميطور لو بذر السمسم ما وقع إلا على رؤوس الناس،قال: فلما رجعت تلك الليلة فكرت فيه وفي جنازته وكثرة من شهدها وقلت: هذا كان رجلا صالحا، ولعله أن يكون نظر إلى ربه حين وضع في قبره، ومر بذهني أبيات الثوري التي أنشدها بعد موته في المنام:

نظرت إلى ربي كفاحاً فقال لي … هنيئاً رضاي عنك يا ابن سعيد
لقد كنت قواماً إذا أظلم الدجى … بعبرة مشتاق وقلب عميد
فدونك فاختر أي قصر أردته … وزرني فإني منك غير بعيد

ثم قلت: أرجو أن يكون العماد رأى ربه كما رآه سفيان الثوري، فنمت فرأيت الشيخ العماد في المنام وعليه حلة خضراء وعمامة خضراء وهو في مكان متسع كأنه روضة، وهو يرقى في درج متسعة، فقلت: يا عماد الدين، كيف بت؟ فإني والله مفكر فيك؟ فنظر إلي وتبسم على عادته التي كنت أعرفه فيها في الدنيا ثم قال:

رأيت إلهي حين أنزلت حفرتي … وفارقت أصحابي وأهلي وجيرتي
وقال جزيت الخير عني فإنني … رضيت فها عفوي لديك ورحمتي
دأبت زماناً تأمل الفوز والرضا … فوقيت نيراني ولقيت جنتي

قال: فانتبهت وأنا مذعور وكتبت الأبيات والله أعلم.

القاضي جمال الدين بن الحرستاني:

■ **عبد الصمد بن محمد بن أبي الفضل أبو القاسم الأنصاري بن الحرستاني**، قاضي القضاة بدمشق ولد سنة عشرين وخمسمائة، وكان أبوه من أهل حرستا، فنزل داخل باب توما، وأم بمسجد الزينبي، ونشأ ولده هذا نشأة حسنة، سمع الحديث الكثير، وشارك الحافظ بن عساكر في كثير من شيوخه، وكان يجلس للإسماع بمقصورة الخضر، وعندها كان يصلي دائما، لا تفوته الجماعة بالجامع، وكان منزله بالحويرة، ودرس بالمجاهدية، وعمر دهراً طويلا على هذا القدم الصالح والله أعلم. وناب في الحكم عن ابن أبي عصورن، ثم ترك ذلك ولزم بيته وصلاته بالجامع، ثم عزل العادل القاضي ابن الزكي الطاهر بن محيي الدين على القرشي وألزم القاضي جمال الدين بن الحرستاني هذا بولاية القضاء وله ثنتان وتسعون سنة، وأعطاه تدريس العزيزية، وأخذ التقوية أيضاً من ابن الزكي، وولاها فخر الدين بن عساكر.

قال ابن عبد السلام: ما رأيت أحداً أفقه من ابن الحرستاني، كان يحفظ الوسيط للغزالي.

وذكر غير واحد أنه كان من أعدل القضاة وأقومهم بالحق، لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان ابنه عماد الدين يخطب بجامع دمشق، وولي مشيخة الأشرفية ينوب عنه، وكان القاضي جمال الدين يجلس للحكم بمدرسته المجاهدية، وكان السلطان قد أرسل إليه طراحة ومسندة لأجل أنه شيخ كبير، وكان ابنه يجلس بين يديه، فإذا قام أبوه جلس في مكانه، ثم إنه عزل ابنه عن نيابته لشيء بلغه عنه، واستناب شمس الدين بن الشيرازي، وكان يجلس تجاهه في شرقي الإيوان، واستناب معه شمس الدين بن سنيٍّ الدولة، وبُنيت له دكّة في الزاوية القبلية بغرب المدرسة واستناب شرف الدين بن الموصلي الحنفي،فكان يجلس في محراب المدرسة،واستمر حاكما ستتين وسبعة أشهر، ثم مات يوم السبت رابع ذي الحجة وله من العمر خمس وتسعون سنة، وصلي عليه بجامع دمشق، ثم دفن بسفح قاسيون.

الأمير بدر الدين

■ **محمد بن أبي القاسم بن محمد الهكاري** باني المدرسة التي بالقدس، كان من خيار الأمراء، وكان يتمنى الشهادة دائما فقتلته الفرنج بحصن الطور، ونقل إلى القدس الشريف ودفن بتربته بمالا وتربته تزار إلى الآن رحمه الله.

■ **(الدماغ).**

الشجاع محمود المعروف بالدماغ: كان من أصدقاء العادل يضحكه، فحصل أموالا جزيلة منهم، كانت داره داخل باب الفرج، فجعلتها زوجته عائشة مدرسة للشافعية والحنفية، ووقفت عليها أوقافا دارة.

■ **(دهن اللوز).**

الشيخة الصالحة العابدة الزاهدة: شيخة العالمات بدمشق، وتلقب بدهن اللوز.

وفيها توفيت

■ **بنت بوريحان** وهي آخر بناته وفاة، وجعلت أموالها وقفا على تربة أختها بنت صفية المشهورة.

ثم دخلت سنة خمس عشرة وستمائة

استهلت والعادل نازل بمرج الصفر لمناجزة الفرنج، وأمر ولده المعظم بتخريب حصن الطور فأخربه ونقل ما فيه من آلات الحرب وغيرها إلى البلدان خوفا من الفرنج.

وفي ربيع الأول نزلت الفرنج على دمياط، وأخذوا برج السلسلة في جمادى الأولى، وكان حصناً منيعاً، وهو قفل بلاد مصر فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها التقى المعظم والفرنج على القيمون، فكسرهم وقتل منهم خلقا وأسر من الداوية مائة، فأدخلهم إلى القدس منكسة أعلامهم.

وفيها جرت خطوب كثيرة ببلد الموصل بسبب موت ملوكها أولاد قرا أرسلان واحداً بعد واحد، وتغلب مملوك أبيهم بدر الدين لؤلؤ على الأمور ويُذكر أنه هو الذي كان يقتلهم في الباطن يستحوذ هو على الأمور، فالله أعلم.

وفيها أقبل ملك الروم كيكارس بن كيخسرو يريد أخذ مملكة حلب، وساعده على ذلك الأفضل بن صلاح الدين صاحب سميساط، فصده عن ذلك الملك الأشرف موسى بن العادل وقهر ملك الروم وكسر جيشه، ورده خائبا.

وفيها تملك الأشرف مدينة سنجار مضافا إلى ما بيده من الممالك هنالك.

وفيها توفي السلطان الملك

■ العادل أبو بكر بن أيوب، فأخذت الفرنج لعنهم الله، ثغر دمياط، ثم ركبوا وقصدوا بلاد مصر من ثغر دمياط، فحاصروه مدة أربعة شهور، والملك الكامل محمد يقاتلهم ويمانعهم، فتملكوا برج السلسلة، وهو كالقفل على ديار مصر، وصفته في وسط جزيرة في النيل عند انتهائه إلى البحر ومن هذا البرج إلى دمياط، وهو على شاطىء البحر وحافة النيل سلسلة منه إلى الجانب الآخر، وعليه الجسر وسلسلة أخرى لتمنع دخول المراكب من البحر إلى النيل، فلا يمكن الدخول، فلما ملكت الفرنج هذا البرج شق ذلك على المسلمين، وحين وصل الخبر إلى الملك العادل وهو بمرج الصفر تأوه لذلك تأوهاً شديداً، ودق بيده على صدره أسفاً وحزنا على المسلمين وبلادها، ومرض من ساعته مرض الموت لأمر يريده الله عز وجل. فلما كان يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة توفي بقرية عالقين، فجاءه ولده المعظم مسرعاً، فجمع حواصله وأرسله في محفة ومعه خادم بصفة أن السلطان مريض، وكلما جاء أحد من الأمراء ليسلم عليه بلغهم الطواشي عنه، أي أنه ضعيف، عن الرد عليهم، فلما انتهى به إلى القلعة المنصورة دفن بها مدة ثم حول إلى تربته بالعادلية الكبيرة، وقد كان الملك سيف الدين أبو بكر بن أيوب بن شاذي من خيار الملوك وأجودهم سيرة، ديناً عاقلا، صبوراً وقوراً، أبطل المحرمات والخمور والمعازف من مملكته كلها، وقد كانت ممتدة من أقصي بلاد مصر واليمن والشام والجزيرة إلى همذان كلها أخذها بعد أخيه صلاح الدين، سوى حلب فإنه أقرها بيد ابن أخيه الظاهر غازي، لأنه زوج ابنته صفية الست خاتون، وكان العادل حليماً، صفوحاً صبوراً على الأذى كثير الجهاد بنفسه، ومع أخيه حضر معه مواقفه كلها أو أكثرها في مقاتلة الفرنج، وكانت له في ذلك اليد البيضاء، وكان ماسك اليد، وقد انفق في عام الغلاء بمصر أموالا كثيرة على الفقراء، وتصدق على أهل الحاجة من أبناء الناس وغيرهم شيئا كثيراً جداً، ثم إنه كفن في العام الثاني من بعد عام الغلاء في الفناء ثلاثمائة ألف إنسان من الغرباء والفقراء وكان كثير الصدقة في أيام مرضه، حتى كان يخلع جميع ما عليه ويتصدق به ويمركوبه، وكان كثير الأكل ممتعا بصحة وعافية مع كثرة صيامه، كان يأكل في اليوم الواحد أكلات جيدة، ثم بعد هذا يأكل عند النوم رطلا بالدمشقي من الحلوى السكرية اليابسة، وكان يعتريه مرض في أنفه في زمن الورد، وكان لا يقدر على الإقامة بدمشق حتى يفرغ زمن الورد، فكان يضرب له الوطاق بمرج الصفر ثم يدخل البلد بعد ذلك.

توفي عن خمس وسبعين سنة، وكان له من الأولاد جماعة: محمد الكامل صاحب مصر، وعيسى المعظم صاحب دمشق، وموسى الأشرف صاحب الجزيرة وخلاط وحران وغير ذلك، والأوحد أيوب مات قبله، والفائز إبراهيم، والمظفر غازي صاحب الرها، والعزيز عثمان والأمجد حسن وهما شقيقا المعظم، والمغيث محمود، والحافظ أرسلان صاحب جعبر، والصالح إسماعيل، والقاهر إسحاق، ومجير الدين يعقوب، وقطب الدين أحمد، وخليل وكان أصغرهم، وتقي الدين عباس وكان آخرهم وفاة، بقي إلى سنة ستين وستمائة، وكان له بنات أشهرهن الست صفية خاتون، زوجة الظاهر غازي صاحب حلب، وأم الملك العزيز والد الناصر يوسف الذي ملك دمشق، وإليه تنسب الناصريتان إحداهما بدمشق، والأخرى بالجبل، وهو الذي قتله هولاكو كما سيأتي.

صفة أخذ الفرنج دمياط

لما انتهى الخبر بموت العادل، ووصل إلى ابنه الكامل وهو بثغر دمياط مرابط الفرنج، أضعف ذلك أعضاء المسلمين وفشلوا، ثم بلغ الكامل خبر آخر أن الأمير أحمد بن علي ابن المشطوب وكان أكبر أمير بمصر، قد أراد ان يبايع للفائز عوضا عن الكامل، فساق وحده جريدة من دمياط قاصداً إلى مصر لاستدراك هذا الخطب الجسيم، فلما فقده الجيش من بينهم انحل نظامهم، واعتقدوا أنه قد حدث أمر أكبر من موت العادل، فركبوا وراءه، فدخلت الفرنج بأمان إلى الديار المصرية، واستحوذوا على معسكر الكامل وأثقاله، فوقع خبط عظيم جدا، وذلك تقدير العزيز العليم، فلما دخل الكامل مصر لم يقع مما ظنه شيء، وإنما هي خديعة من الفرنج، وهرب منه ابن المشطوب إلى الشام، ثم ركب من فوره في الجيش إلى الفرنج فإذا الأمر قد تزايد، وتمكنوا من البلدان، وقتلوا خلقا، وغنموا كثيرا، وعاثت الأعراب التي هنالك على أموال الناس ببلاد دمياط، فكانوا أضر عليهم من الفرنج فإنا لله وإنا إليه راجعون، فنزل الكامل تجاه الفرنج يمانعهم عن دخولهم إلى القاهرة، بعد أن كان يمانعهم عن دخول الثغر، وكتب إلى إخوانه يستحثهم ويستنجدهم، ويقول: الوحاء الوحاء، العجل العجل، أدركوا المسلمين قبل تملك الفرنج جميع الديار المصرية، فأقبلت العساكر الإسلامية إليه من كل مكان، وكان أول من قدم عليه أخوه الأشرف موسى صاحب الجزيرة بيض الله وجهه، ثم المعظم وكان من أمرهم مع الفرنج ما سنذكره بعد هذه السنة.

وفيها ولي حسبة بغداد الصاحب محي الدين يوسف بن أبي الفرج بن الجوزي، وهو مع ذلك يعمل ميعاد الوعظ على قاعدة أبيه، وشُكرت في مباشرته للحسبة.

وفيها فوض إلى المعظم النظر في التربة البدرية، تجاه مدرسة الشبلية، عند الجسر الذي على ثوري، ويقال له جسر كحيل، وهي منسوبة إلى بدر الدين حسن بن الداية، كان هو وإخوته من أكابر أمراء نور الدين محمود بن زنكي.

قلت: وقد جعلت في حدود الأربعين وستمائة جامعا، يخطب فيه يوم الجمعة.

وفيها أرسل السلطان علاء الدين محمد بن تكش إلى الملك العادل وهو مخيم بمرج الصفر رسولا، فرد إليه مع الرسول خطيب دمشق جمال الدين محمد بن عبد الملك الدولعي، واستنيب عنه في الخطابة الشيخ الموفق عمر بن يوسف خطيب بيت الآبار، فأقام بالعزيزية يباشر عنه، حتى قدم وقد مات العادل رحمه الله.

وفيها توفي الملك

■ القاهر صاحب الموصل، فأقيم ابنه الصغير مكانه، ثم قتل، وتشتت شمل البيت الأتابكي، وتغلب على الأمور بدر الدين لؤلؤ غلام أبيهم نور الدين أرسلان.

وفيها كان عود الوزير صفي الدين عبد الله بن علي بن شكر من مصر آمد. إلى دمشق بعد موت العادل، فعمل فيه الشيخ علم الدين السخاوي مقامة بالغ في مدحه فيها، وقد ذكروا أنه كان متواضعاً يحب الفقراء والفقهاء، ويسلم على الناس إذا اجتاز بهم وهو راكب في أبهة وزاته ثم إنه نُكب في هذه السنة وذلك أن الكامل هو الذي كان سبب طرده وإبعاده كتب إلى أخيه المعظم فيه، فاحتاط على أمواله وحواصله، وعزل ابنه عن

النظر من الدواوين، وقد كان ينوب عن أبيه في مدة غيبته.

وفي رجب منها أعاد المعظم ضمان القيان والخمور والمغنيات، وغير ذلك من الفواحش والمنكرات، التي كان أبوه قد أبطلها، بحيث إنه لم يكن أحد يتجاسر أن ينقل ملء كف خمر إلى دمشق إلا بالحيلة الخفية، فجزى الله العادل خيراً، ولا جزى المعظم خيرا على ما فعل، واعتذر المعظم في صنعه هذا المنكر لقلة الأموال على الجند، واحتياجهم إلى النفقات في قتال الفرنج، وهذا من جهله وقلة دينه، وعدم معرفته بالأمور، فإن هذا الصنيع يديل عليهم الأعداء وينصرهم عليهم، ويتمكن منهم الداء، ويثبط الجند عن القتال، فيولون بسببه الأدبار، وهذا مما يدمر ويخرب الديار ويديل الدول، كما في الأثر إذا عصاني من يعرفني سلطت عليه من لا يعرفني، وهذا ظاهر لا يخفى على فطن.

وممن توفي فيها من الأعيان.

السلطان الملك

■ العادل أبو بكر بن أيوب، كما تقدم.

■ (عبد الله بن عبد الرحمن بن سلطان بن يحيى).

■ القاضي شرف الدين: أبو طالب عبد الله بن زين القضاة عبد الرحمن بن سلطان بن يحيى بن علي القرشي الدمشقي، من بني عمّ ابن الزكي، وكان أول من درس بالشامية البرّانية وبالرواحية أيضاً ونائب في الحكم عن ابن عمه محي الدين بن الزكي، وتوفي في شعبان من هذه السنة ودفن عند مسجد القدم.

أبو سليمان

■ داود بن أبي الغنائم أحمد بن يحيى الملهمي الضرير البغدادي، كان ينسب إلى علم الأوائل، ولكنه كان يتستر بمذهب الظاهرية، قال فيه ابن الساعي: الداودي مذهباً، المعري أدبا واعتقادا، ومن شعره:

إلى الرحمن أشكو ما الاقي ... غداة غدوا على هوج النياق

سألتكم بمن زم المطايا ... امرٌ بكم امرٌ من الفراق؟

وهل داءٌ اشد من التنائي ... وهل عيشٌ الذُ من التلاقي؟

قاضي قضاة بغداد عماد الدين أبو القاسم:

■ عبد الله بن الحسين بن الدامغاني الحنفي، سمع الحديث، وتفقه على مذهب أبي حنيفة، وولي القضاء ببغداد مرتين، نحوا من سبع عشرة سنة، وكان مشكور السيرة، عارفا بالحساب، والفرائض وقسمة التركات.

■ أبو اليمن نجاح بن عبد الله الحبشي: الشرواني نجم الدين، مولى الخليفة الناصر، كان يسمى سلمان دار الخلافة، وكان لا يفارق الخليفة، فلما مات وجد عليه الخليفة وجدا كثيرا، وكان يوم جنازته يوماً مشهودا، كان بين يدي نعشه مائة بقرة، وألف شاة، وأحمال من التمر والخبز والموارد، وقد صلى عليه الخليفة بنفسه تحت التاج، وتصدق عنه بعشرة آلاف دينار على المشاهد، ومثلها على المجاورين بالحرمين، وأعتق مماليكه، ووقف عنه خمسمائة مجلد.

أبو المظفر

■ محمد بن علوان بن مهاجر بن علي بن مهاجر الموصلي، تفقه بالنظامية، وسمع الحديث، ثم عاد إلى الموصل، فساد أهل زمانه بها، وتقدم في الفتوى والتدريس بمدرسة بدر الدين لؤلؤ وغيرها وكان صالحا دينا.

أبو الطيب

■ رزق الله بن يحيى بن رزق الله بن يحيى بن خليفة بن سليمان بن رزق الله بن غانم بن غنام الماحوزي، المحدث الجوال الرحال، الثقة الحافظ، الأديب الشاعر.

أبو العباس

■ أحمد بن برنقش بن عبد الله العمادي، كان من أمراء سنجار، وكان أبوه من موالي الملك عماد الدين زنكي صاحبها، وكان أحمد هذا أديباً شاعرا، ذا مال جزيل، وأملاك كثيرة، وقد احتاط على أمواله قطب الدين محمد بن عماد الدين زنكي، وأودعه سجنا، فنسي فيه ومات كمدا، ومن شعره:

تقولُ وقد ودعتها ودموعها ... على نحرها من خشية البين تلتقي

مضى أكثر العمر الذي كان نافعاً ... رويدك فاعمل صالحاً في الذي بقي

ثم دخلت سنة ست عشرة وستمائة

فيها أمر الشيخ محي الدين بن الجوزي محتسب بغداد بإزالة المنكر وكسر الملاهي ففُعل ذلك في مستهل هذه السنة ولله الحمد والمنة.

ظهور جنكيزخان وجنوده وعبورهم نهر جيحون

وفيها عبرت التتار نهر جيحون صحبة ملكهم جنكيزخان من بلادهم، وكانوا يسكنون جبال طمغاج من أرض الصين، ولغتهم مخالفة للغة سائر التتار، وهم من أشجعهم، وأصبرهم على القتال، وسبب دخولهم نهر جيحون أن جنزخان بعث تجارا له، ومعهم أموال كثيرة إلى بلاد خوارزم شاه، يتبضعون له ثيابا للكسوة، فكتب نائبها إلى السلطان خوارزم شاه يذكر له ما معهم من كثرة الأموال، فأرسل إليه بأن يقتلهم ويأخذ ما معهم، ففعل ذلك، فلما بلغ جنكيز خان خبرهم أرسل يتهدد خوارزم شاه ولم يكن ما فعله خوارزم شاه فعلا جيدا، فلما تهدده أشار من أشار على خوارزم شاه بالمسير إليهم، فسار إليهم وهم في شغل شاغل بقتال كشلي خان، فنهب خوارزم شاه أموالهم وسبى ذراريهم وأطفالهم، فأقبلوا إليه محروبين فاقتلوا معه أربعة أيام قتالا لم يسمع بمثله، أولئك يقاتلون عن حريمهم والمسلمون عن أنفسهم، يعلمون أنهم متى ولوا استأصلوهم، فقتل من الفريقين خلق كثير، حتى إن الخيول كانت تزلق في الدماء، وكان جملة من قتل من المسلمين نحوا من عشرين ألفا، ومن التتار أضعاف ذلك، ثم تحاجز الفريقان، وولى كل منهم إلى بلاده، ولجأ خوارزم شاه وأصحابه إلى بخارى وسمرقند، فحصنها وبالغ في كثرة من ترك فيها من المقاتلة، ورجع إلى بلاده ليجهز الجيوش الكثيرة، فقصدت التتار بخارى وبها عشرون ألف مقاتل فحاصرها جنكيز خان ثلاثة أيام، فطلب منه أهلها الأمان فأمنهم ودخلها، فأحسن السيرة فيهم مكرا وخديعة، وامتنعت عليه القلعة فحاصرها، واستعمل أهل البلد في طم خندقها، وكانت التتار يأتون بالمناجر والربعات فيطرحونها في الخندق يطمونه بها، ففتحوها قسرا في عشرة أيام، فقتل من كان بها، ثم عاد إلى البلد فاصطفى أموال تجارها وأحلها لجنده، فقتلوا من أهلها خلقا لا يعلمهم إلا الله عز وجل، وأسروا الذرية والنساء، وفعلوا معهن الفواحش بحضرة أهليهن، فمن الناس من قاتل دون حريمه حتى قتل، ومنهم من أسر فعذب بأنواع العذاب، وكثر البكاء والضجيج بالبلد من النساء والأطفال والرجال، ثم ألقت التتار النار في دور بخارى

ومدارسها ومساجدها، فاحترقت حتى صارت بلاقع خاوية على عروشها، ثم كروا راجعين عنها قاصدين سمرقند، وكان من أمرهم ما سنذكره في السنة الآتية.

وفي مستهل هذه السنة خرب سور بيت المقدس عمره الله بذكره، أمر بذلك المعظم خوفا من استيلاء الفرنج عليه بعد مشورة من أشار بذلك، فإن الفرنج إذا تمكنوا من ذلك جعلوه وسيلة إلى أخذ الشام جميعه، فشرع في تخريب السور في أول يوم من المحرم، فهرب منه أهله خوفا من الفرنج أن يهجموا عليهم ليلا أو نهاراً، وتركوا أموالهم وأثاثهم، وتمزقوا في البلاد كل ممزق، حتى قيل: إنه بيع القنطار من الزيت بعشرة دراهم، والرطل النحاس بنصف درهم، وضج الناس، وابتهلوا إلى الله عند الصخرة وفي الأقصى وهي أيضاً فعلة شنعاء من المعظم، مع ما أظهر من الفواحش في العام الماضي، فقال بعضهم يهجو المعظم بذلك:

في رجب حلل المحرم وأخرب القدس في المحرم

وفيها استحوذت الفرنج على مدينة دمياط، ودخلوها بالأمان، فغدروا بأهلها، وقتلوا رجالها وسبوا نساءها وأطفالها، وفجروا بالنساء، وبعثوا بمنبر الجامع والربعات ورؤوس القتلى إلى الجزائر، وجعلوا الجامع كنيسة ﴿ولو شاء ربُّك ما فعلوه﴾ [الأنعام: ١١٢].

وفيها غضب المعظم على القاضي زكي الدين بن محيي الدين بن الزكي، وسببه أن عمته ست الشام بنت أيوب مرضت في دارها التي جعلتها بعدها مدرسة، فأرسلت إلى القاضي لتوصي إليه، فذهب إليها بشهود معه، فكتب الوصية كما قالت، فقال المعظم: يذهب إلى عمتي بدون إذني، ويسمع هو والشهود كلامها؟ واتفق أن القاضي طلب من جانبي العزيزية حسابها، وضربه بين يديه بالمقارع، وكان المعظم يبغض هذا القاضي من أيام أبيه العادل، فعند ذلك أرسل المعظم إلى القاضي ببقجة فيها قباء وكلوتة، القباء أبيض والكلوتة صفراء، وقيل: بل كانا حمراوين مدرنين، وحلف الرسول عن السلطان ليلبسنهما ويحكم بين الخصوم فيهما، وكان من لطف الله أن جاءته الرسالة بهذا وهو في دهليز داره التي بباب البريد، وهو منتصب للحكم، فلم يستطع إلا أن يلبسهما وحكم فيهما، ثم دخل داره واستقبل مرض موته، وكانت وفاته في صفر من السنة الآتية بعدها، وكان الشرف بن عنين الزرعي الشاعر قد أظهر النسك والتعبد، ويقال: إنه اعتكف بالجامع أيضا، فأرسل إليه المعظم بخمر ونرد ليشتغل بهما، فكتب إليه ابن عنين:

يا أيها الملك المعظم سنة أحدثتها تبقى على الآباد
تجري الملوك على طريقك بعدها خلع القضاة وخفة الزهاد

وهذا من أقبح ما يكون أيضاً.

وقد كان نواب ابن الزكي أربعة: شمس الدين بن الشيرازي إمام مشهد علي، كان يحكم بالمشهد بالشباك، وربما برز إلى طرف الرواق تجاه البلاطة السوداء، وشمس الدين بن سني الدولة، كان يحكم في الشباك الذي في الكلاسة تجاه تربة صلاح الدين عند باب الغزالية، وجمال الدين المصري، وكيل بيت المال، كان يحكم في الشباك الكمالي بمشهد عثمان، وشرف الدين الموصلي الحنفي كان يحكم بالمدرسة الطرخانية بجيرون والله تعالى أعلم.

وممن توفي فيها من الأعيان

ست الشام: واقفة المدرستين البرانية والجوانية، الست الجليلة المصونة خاتون

■ **ست الشام بنت أيوب بن شادي**، أخت الملوك وعمة أولادهم، وأم الملوك، كان لها من الملوك المحارم خمسة وثلاثون ملكا، منهم شقيقها المعظم توران شاه ابن أيوب صاحب اليمن،وهو مدفون عندها في القبر القبلي من الثلاثة، وفي الأوسط منها زوجها وابن عمها ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه بن شاذي صاحب حمص، وكانت قد تزوجته بعد أبي ابنها حسام الدين محمد بن عمر بن لاجين، وهي وابنها حسام الدين محمد بن عمر في القبر الثالث، وهو الذي يلي مكان الدرس، ويقال للتربة والمدرسة الحسامية نسبة إلى ابنها هذا حسام الدين عمر بن لاجين، وكان من أكابر العلماء عند خاله صلاح الدين، وكانت ست الشام من أكثر النساء صدقة، وإحسانا إلى الفقراء والمحاويج، وكانت تعمل في كل سنة في دارها بألوف من الذهب أشربة، وأدوية، وعقاقير، وغير ذلك، وتفرقه على الناس.

وكانت وفاتها يوم الجمعة آخر النهار، السادس عشر من ذي القعدة من هذه السنة في دارها التي جعلتها مدرسة، وهي عند المارستان، وهي الشامية الجوانية، ونقلت منها إلى تربتها بالشامية البرانية، وكانت جنازتها حافلة رحمها الله.

أبو البقاء صاحب الإعراب واللباب: عبد الله بن الحسين بن عبد الله، الشيخ أبو البقاء

■ **العكبري، الضرير النحوي الحنبلي**، صاحب «إعراب القرآن العزيز»، وكتاب «اللباب» في النحو، وله حواش على المقامات، ومفصل الزمخشري وديوان المتنبي وغير ذلك، وله في الحساب وغيره.

وكان صالحا دينا، مات وقد قارب الثمانين رحمه الله.

وكان إماما في اللغة والحساب والنحو، فقيها مناظرا، عارفا بالأصلين والفقه.

وحكى القاضي ابن خلكان عنه أنه ذكر في شرح المقامات أن عنقاء مُغرباً كانت تأتي إلى جبل شاهق عند أصحاب الرس، فربما اختطفت بعض أولادهم فشكوها إلى نبيهم حنظلة بن صفوان فدعا عليها فهلكت.

قال: وكان وجهها كوجه الإنسان، وفيها شبه من كل طائر.

وذكر الزمخشري في كتابه ربيع الأبرار أنها كانت في زمن موسى لها أربعة أجنحة من كل جانب، ووجه كوجه الإنسان، وفيها شبه كثير من سائر الحيوان، وأنها تأخرت إلى زمن خالد بن سنان العبسي الذي كان في الفترة فدعا عليها فهلكت والله أعلم.

وذكر ابن خلكان أن المعز الفاطمي جيء إليه بطائر غريب الشكل جداً من الصعيد، يقال له عنقاء مغرب.

قلت: وكل واحد من خالد بن سنان وحنظلة بن صفوان كان في زمن الفترة، وكان صالحا ولم يكن نبيا لقول رسول الله ﷺ: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم لأنه ليس بيني وبينه نبي» [خ(٣٤٤٢)] وقد تقدم ذلك.

■ **(علي بن القاسم بن علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي)**.

الحافظ عماد الدين أبو القاسم: علي بن الحافظ بهاء الدين أبي محمد القاسم ابن الحافظ الكبير أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن

عساكر الدمشقي، سمع الكثير، ورحل فمات ببغداد في هذه السنة، ومن لطيف شعره قوله في المروحة:

ومروحة تروح كل هم ... ثلاثة أشهر لابد منها
حزيران وتموز وآب ... وفي أيلول يغني اللّه عنها

■ ابن الدوامي الشاعر: وقد أورد له ابن الساعي جملة صالحة من شعره.

■ سعيد بن الرزاز وكان أحد المعدلين ببغداد، وسمع «البخاري» من أبي الوقت.

وأبو سعيد

■ محمد بن محمود بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن المروزي الأصل، الهمذاني المولد، البغدادي المنشأ والوفاة، كان حسن الشكل، كامل الأوصاف، له خط حسن، ويعرف فنونا كثيرة من العلوم، شافعي المذهب، يتكلم في مسائل الخلاف، حسن الأخلاق، ومن شعره قوله:

أرى قسم الأرزاق أعجب ... لذي دعة مُسْر ومُكد به الكدُّ
وأحمقُ ذو مال وأحمق معدم ... وعقل بلا حظٍّ وعقل لهُ جدُّ
يعم الغني والفقر ذا الجهل والحجا ... وللّه من قبل الأمور ومن بعدُ

أبو زكريا

■ يحيى بن القاسم بن الفرج بن درع بن الخضر الشافعي، شيخ تاج الدين التكريتي قاضيها، ثم درس بنظامية بغداد، وكان متقنا لعلوم كثيرة منها التفسير، والفقه، والأدب، والنحو، واللغة، وله المصنفات في ذلك كله، وجمع لنفسه تاريخاً حسناً، ومن شعره قوله:

لا بد للمرء من ضيق ومن سعة ... ومن سرورٍ يوافيه ومن حزن
واللّه يطلب منه شكر نعمته ... ما دام فيها ويغني الصبر في المحن
فكن مع اللّه في الحالين معتقا ... فرضيك هذين في سرٍ وفي علن
فما على شدة يبقي الزمان فكن ... جلداً ولا نعمة تبقي على الزمن

ومن ذلك قوله:

لو كان قاضي الهوى علي ولي ... ما جار في الحكم من علي ولي
يا يوسفي الجمال عبدك لم ... تبق له حيلةٌ من الحيل
إن كان قد القميص من دبرٍ ... ففيك قد الفؤادُ من قبل

صاحب الجواهر: الشيخ الإمام العلامة جمال الدين أبو محمد

■ عبد اللّه بن نجم بن شاس بن نزار بن عشائر بن عبد اللّه بن محمد بن شاس، الجذامي السعدي المالكي الفقيه، مصنف كتاب الجواهر الثمينة في مذهب عالم المدينة، وهو من أكثر الكتب فوائد في الفروع، رتبه على طريقة الوجيز للغزالي.

قال ابن خلكان: وفيه دلالة على غزارة علمه وفضله، والطائفة المالكية بمصر عاكفة عليه، لحسنه وكثرة فوائده وكان مدرساً بمصر، ومات بدمياط رحمه اللّه، واللّه سبحانه أعلم.

ثم دخلت سنة سبع عشرة وستمائة

في هذه السنة عم البلاء، وعظم العزاء بجنكيز خان، المسمى بتموجين لعنه اللّه تعالى، ومن معه من التتار قبحهم اللّه أجمعين، واستفحل أمرهم، وأشتد إفسادهم من أقصى بلاد الصين إلى أن وصلوا بلاد العراق وما حولها، حتى انتهوا إلى إربل وأعمالها، فملكوا في سنة واحدة وهي هذه السنة سائر الممالك إلا العراق، والجزيرة، والشام، ومصر، وقهروا جميع الطوائف التي بتلك النواحي الخوارزمية، والقفجاق والكرج واللان والخزر وغيرهم، وقتلوا في هذه السنة من طوائف المسلمين وغيرهم في بلدان متعددة كبار وصغار ما لا يحد ولا يوصف.

وبالجملة فلم يدخلوا بلدا إلا قتلوا جميع من فيه من المقاتلة والرجال، وكثيراً من النساء والأطفال، وأتلفوا ما فيه بالنهب إن احتاجوا إليه، وبالحريق إن لم يحتاجوا إليه، حتى إنهم كانوا يجمعون الحرير الكثير الذي يعجزون عن حمله فيطلقون فيه النار فيُحرق وهم ينظرون إليه، ويخربون المنازل، وما عجزوا عن تخريبه أحرقوه، وأكثر ما يحرقون المساجد والجوامع، وكانوا يأخذون الأسارى من المسلمين فيقاتلون بهم ويحاصرون بهم، وإن لم ينصحوا في القتال قتلوهم.

وقد بسط ابن الأثير في كامله [٢/٣٥٨-٣٩٨] خبرهم في هذه السنة بسطا حسنا مفصلا، وقدم على ذلك كلاماً هائلا في تعظيم هذا الخطب العجيب.

قال فنقول: هذا فصل يتضمن ذكر الحادثة العظمى والمصيبة الكبرى، التي عقمت الليالي والأيام عن مثلها، عمت الخلائق وخصت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم منذ خلق اللّه آدم وإلى الآن لم يبتلوا بمثلها لكان صادقا، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا يدانيها، ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث، ما فعل بخت نصر ببني إسرائيل من القتل وتخريب بيت المقدس، وما البيت المقدس بالنسبة إلى ما خرب هؤلاء الملاعين من البلاد التي كل مدينة منها أضعاف البيت المقدس، وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قتلوا، فإن أهل مدينة واحدة ممن قتلوا أكثر من بني إسرائيل، ولعل الخلائق لا يرون مثل هذه الحادثة إلى أن ينقرض العالم، وتفنى الدنيا، إلا يأجوج ومأجوج، وأما الدجال فإنه يبقي على من اتبعه ويهلك من خالفه، وهؤلاء لم يبقوا على أحد، بل قتلوا الرجال والنساء والأطفال، وشقوا بطون الحوامل وقتلوا الأجنة، فإنا للّه وإنا إليه راجعون، ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم، لهذه الحادثة التي استطار شررها، وعم ضررها، وسارت في البلاد كالسحاب استدبرته الريح، فإن قوما خرجوا من أطراف الصين فقصدوا بلاد تركستان مثل كاشغر وبلاساغون، ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر مثل سمرقند وبخارى وغيرهما، فيملكونها ويفعلون بأهلها ما نذكره، ثم تعبر طائفة منهم إلى خراسان، فيفرغون منها ملكا وتخريبا وقتلا ونهبا، ثم يجاوزونها إلى الري، وهمذان، وبلد الجبل، وما فيه من البلاد إلى حد العراق، ثم يقصدون بلاد أذربيجان، وأرّان ويخربونها، ويقتلون أكثر أهلها، ولم ينج منهم إلا الشريد النادر في أقل من سنة، هذا ما لم يسمع بمثله.

ثم ساروا إلى دربند شروان فملكوا مدنه، ولم يسلم غير قلعته التي بها ملكهم، وعبروا عندها إلى بلد اللان واللكز، ومن في ذلك الصقع من الأمم المختلفة، فأوسعوهم قتلا ونهبا وتخريباً، ثم قصدوا بلاد قفجاق وهم من أكثر الترك عددا فقتلوا كل من وقف لهم، وهرب الباقون إلى الغياض وملكوا عليهم بلادهم، وسارت طائفة أخري إلى غزنة وأعمالها وما يجاورها من بلاد الهند وسجستان وكرمان ففعلوا فيها مثل أفعال هؤلاء وأشد.

هذا ما لم يطرق الأسماع مثله، فإن الإسكندر الذي اتفق المؤرخون على أنه ملك الدنيا لم يملكها في سنة واحدة، إنما ملكها في نحو عشر سنين، ولم يقتل أحدا بل رضي من الناس بالطاعة، وهؤلاء قد ملكوا أكثر المعمور من الأرض وأطيبه وأحسنه عمارة، وأكثره أهلا وأعدلهم أخلاقا وسيرة، في نحو سنة، ولم يتفق لأحد من أهل البلاد التي لم يطرقوها بقاء إلا وهو خائف مترقب وصولهم، وهم مع ذلك يسجدون للشمس إذا طلعت، ولا يحرمون شيئا، ويأكلون ما وجدوه من الحيوانات والميتات لعنهم الله تعالى.

قال: وإنما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع، لأن السلطان خوارزم شاه كان قد قتل الملوك من سائر الممالك واستقلّ بالأمور، فلما انهزم منهم في العام الماضي وضعف عنهم ساقوا وراءه، فهرب فلا يدرى أين ذهب، وهلك في بعض جزائر البحر، خلت البلاد ولم يبق لها من يحميها، ليقضي الله أمرا كان مفعولا، وإلى الله ترجع الأمور.

ثم شرع في تفصيل ما ذكره مجملا، فذكر أولا ما قدمنا ذكره في العام الماضي من بعث جنكيزخان أولئك التجار بمال له ليأتونه بثمنه كسوة ولباسا، وأخذ خوارزم شاه تلك الأموال فحنق عليه جنكيزخان، وأرسل يهدده، فسار إليه خوارزم شاه بنفسه وجنوده، فوجد التتار مشغولين بقتال كشلي خان، فنهب أثقالهم ونساءهم وأطفالهم، فرجعوا وقد انتصروا على عدوهم، وازدادوا حنقا وغيظا، فتواقعوا هم وإياه وابن جنكيزخان ثلاثة أيام، فقتل من الفريقين خلق كثير،ثم تحاجزوا، ورجع خوارزم شاه إلى أطراف بلاده فحصنها، ثم كر راجعا إلى مقره ومملكته بمدينة خوارزم شاه، فأقبل جنكزخان فحصر بخارى كما ذكرنا، فافتتحها صلحا، وغدر بأهلها حتى افتتح قلعتها قهرا وقتل الجميع، وأخذ الأموال،وسبى النساء والأطفال، وخرب الدور والمحال، وقد كان بها عشرون ألف مقاتل، فلم يغن عنهم شيئا.

ثم سار إلى سمرقند فحاصرها في أول المحرم من هذه السنة، وبها خمسون ألف مقاتل من الجند فنكلوا، وبرز إليهم سبعون ألفاً من العامة، فقتل الجميع في ساعة واحدة، وألقى إليه الخمسون ألف السلم، فسلبهم سلاحهم وما يمتنعون به، وقتلهم في ذلك اليوم، واستباح البلد، فقتل الجميع، وأخذ الأموال، وسبي الذرية، وحرقه وتركه بلاقع، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وأقام لعنه الله هنالك وأرسل السرايا إلى البلدان فبعث سرية إلى بلاد خراسان، وتسميها التتار المعرّبة، وأرسل أخرى وراء خوارزم شاه، وكانوا عشرين ألفا قال اطلبوه فأدركوه ولو تعلق بالسماء، فساروا وراء فأدركوه، وبينهم وبينه نهر جيحون وهو آمن بسببه، فلم يجدوا سفنا فعملوا لهم أحواضا يحملون عليها الأسلحة، ويرسل أحدهم فرسه ويأخذ بذنبها فتجره الفرس بالماء وهو يجر الحوض الذي فيه سلاحه، حتى صاروا كلهم في الجانب الآخر، فلم يشعر بهم خوارزم شاه إلا وقد خالطوه، فهرب منهم إلى نيسابور، ثم منها إلى غيرها وهم في أثره لا يمهلونه يجمع لهم، فصار كلما أتى بلداً ليجتمع فيه عساكره له يدركونه فيهرب منهم، حتى ركب في بحر طبرستان وسار إلى قلعة في جزيرة فيه فكانت فيها وفاته، وقيل إنه لا يعرف بعد ركوبه في البحر ما كان من أمره، بل ذهب فلا يدرى أين ذهب ولا كيف سلك، ولا إلى أي مفر هرب، وملكت التتار حواصله، فوجدوا في خزانته عشرة آلاف ألف دينار، وألف حمل من الأطلس وغيره وعشرين ألف فرس وبغل، ومن الغلمان والجواري والخيام شيئا كثيرا، وكان له عشرة آلاف مملوك، كل واحد مثل ملك، فتمزق ذلك كله في أقل من سنة.

وقد كان خوارزم شاه فقيها حنفيا فاضلا، له مشاركات في فنون من العلم، يفهم جيدا، وملك بلادا متسعة، وممالك متعددة، إحدى وعشرين سنة وشهورا، ولم يكن بعد ملوك بني سلجوق أكبر حرمة، ولا أعظم ملكا منه، لأنه إنما كانت همته في الملك لا في اللذات والشهوات، ولذلك قهر المملوك بتلك الأراضي، وأحل بالخطا بأساً شديدا، حتى لم يبق ببلاد خراسان وما وراء النهر وكذلك عراق العجم وغيرها من الممالك سلطان سواه، وجميع البلاد تحت أيدي نوابه.

ثم ساروا إلى مازندران وقلاعها من أمنع القلاع، بحيث إن المسلمين لم يفتحوها إلا في سنة تسعين في أيام سليمان بن عبد الملك، ففتحها هؤلاء في أيسر مدة، ونهبوا ما فيها، وقتلوا أهاليها كلهم، وسبوا وأحرقوا، ثم ترحلوا عنها نحو الري، فوجدوا في الطريق أم خوارزم شاه ومعها أموال عظيمة جدا، فأخذوها وفيها كل غريب ونفيس مما لم يشاهد مثله من الجواهر وغيرها.

ثم قصدوا الري، فدخلوها على حين غفلة من أهلها، فقتلوهم وسبوا وأسروا، ثم ساروا إلى همذان فملكوها، ثم إلى زنجان فقتلوا وسبوا، ثم قصدوا قزوين فنهبوها وقتلوا من أهلها نحواً من أربعين ألفا، ثم تيمموا بلاد أذربيجان، فصالحهم ملكها أزبك بن البهلوان على مال حمله إليهم، لشغله بما هو فيه من السكر وارتكاب السيئات والانهماك على الشهوات، فتركوه وساروا إلى موقان فقاتلهم الكرج في عشرة آلاف مقاتل، فلم يقفوا بين أيديهم طرفة عين حتى انهزمت الكرج وقتلت التتار منهم خلقاً كثيراً، ثم قصدوا تفليس وهي أكبر مدن الكرج واجتمعت عند ذلك الكرج، فأقبلوا إليهم بحدهم وحديدهم، فكسرتهم التتار وقعة ثانية أقبح هزيمة وأشنعها.

وههنا قال ابن الأثير [الكامل: ٣٧٥/١٢]: ولقد جرى لهؤلاء التتر ما لم يسمع بمثله من قديم الزمان وحديثه: طائفة تخرج من حدود الصين لا تنقضي عليهم سنة حتى يصل بعضهم إلى حدود بلاد أرمينية من هذه الناحية، ويجاوزون العراق من ناحية همذان، وتالله لا أشك أن من يجيء بعدنا إذا بعد العهد ويرى هذه الحادثة مسطورة ينكرها ويستبعدها، والحق بيده، فمتى استبعد ذلك فلينظر أننا سطرنا نحن وكل من جمع التاريخ في أزماننا هذه في وقت كل من فيه يعلم هذه الحادثة، قد استوى في معرفتها العالم والجاهل لشهرتها، يسر الله للمسلمين والإسلام من يحفظهم ويحوطهم، فلقد دفعوا من العدو إلى أمر عظيم، ومن الملوك المسلمين إلى من لا تتعدى همته بطنه وفرجه، وقد عدم سلطان المسلمين خوارزم شاه.

قال: وانقضت هذه السنة وهم في بلاد الكرج، فلما رأوا منهم ممانعة ومقاتلة يطول عليهم بها المطال عدلوا إلى غيرهم، وكذلك كانت عادتهم فساروا إلى تبريز، فصالحهم أهلها بمال.

قال: ثم ساروا إلى مراغة فحصروها، ونصبوا عليها المجانيق، وتترسوا بالأسارى من المسلمين، وعلي البلد امرأة ولن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة ففتحوا البلد بعد أيام، وقتلوا من أهله خلقا لا يعلم عدتهم إلا الله عز وجل، وغنموا منه شيئا كثيرا، وسبوا وأسروا على عادتهم لعنهم الله لعنة تدخلهم نار جهنم، وقد كان الناس يخافون منهم خوفا عظيما جداً، حتى إنه دخل رجل منهم إلى درب من هذه البلد وبه مائة رجل، لم يستطع واحد منهم أن يتقدم إليه، وما زال يقتلهم واحداً بعد واحد حتى قتل الجميع، ولم يرفع منهم أحد يده إليه، ونهب ذلك الدرب وحده.

ودخلت امرأة منهم في زي رجل بيتا فقتلت كل من في ذلك البيت

وحدها، ثم استشعر أسير معها أنها امرأة فقتلها لعنها الله.

ثم قصدوا مدينة إربل فضاق المسلمون لذلك ذرعا، وقال أهل تلك النواحي: هذا أمر عصيب. وكتب الخليفة إلى أهل الموصل والملك الأشرف صاحب الجزيرة يقول: إني قد جهزت عسكرا فكونوا معه لقتال هؤلاء التتار، فأرسل الأشرف يعتذر إلى الخليفة بأنه متوجه نحو أخيه الكامل إلى الديار المصرية، بسبب ما قد دهم المسلمين هناك من الفرنج، وأخذهم دمياط الذي قد أشرفوا بأخذها على أخذ الديار المصرية قاطبة، وكان أخوه المعظم قد قدم عليه إلى حران يستنجده لأخيهما الكامل ليتحاجزوا الفرنج بدمياط، وهو على أهبة المسير إلى الديار المصرية، فكتب الخليفة إلى مظفر الدين صاحب إربل ليكون هو المقدم على العساكر التي يبعثها الخليفة وهي عشرة آلاف مقاتل، فلم يقدم عليه منهم غير ثمانمائة فارس، ثم تفرقوا قبل أن يجتمعوا، فإنا لله وإنا إليه راجعون ولكن الله سلم بأن صرف همة التتار إلى ناحية همذان، فصالحهم أهلها، وترك التتار عندهم شحنة، ثم اتفقوا على قتل شحنتهم، فرجعوا إليهم فحاصروهم حتى فتحوها قسراً، وقتلوا أهلها عن آخرهم، ثم ساروا إلى أذربيجان، ففتحوا أردبيل ثم تبريز، ثم إلى بيلقان فقتلوا من أهلها خلقا كثيرا وجما غفيرا، وحرقوها، وكانوا يفجرون بالنساء، ثم يقتلونهن ويشقون بطونهن عن الأجنة.

ثم عادوا إلى بلاد الكرج، وقد استعدت لهم الكرج فاقتتلوا معهم فكسروهم أيضاً كسرة فظيعة، ثم فتحوا بلدانا كثيرة يقتلون أهلها، ويسبون نساءها، ويأسرون من الرجال ما يقاتلون بهم الحصون، يجعلونهم بين أيديهم ترساً يتقون بهم الرمي وغيره، ومن سلم منهم قتلوه بعد انقضاء الحرب، ثم ساروا إلى بلاد اللان والقفجاق فاقتتلوا معهم قتالا عظيما، فكسروهم وقصدوا أكبر مدائن القفجاق، وهي مدينة سوداق وفيها من الأمتعة والثياب والتجائر من البرطاسي والقندز والسنجاب شيء كثير جدا، ولجأت سوداق إلى بلاد الروس، وكانوا نصارى، فاتفقوا معهم على قتال التتار، فالتقوا معهم، فكسرتهم التتار كسرة فظيعة منكرة جدا.

ثم ساروا نحو بلغار في حدود العشرين وستمائة، ففرغوا من ذلك كله، ورجعوا نحو ملكهم جنكيزخان لعنه الله وإياهم.

هذا ما فعلته هذه السرية المغرِّبة، وكان جنكيزخان قد أرسل سرية في هذه السنة إلى ترمذ فأخذتها وأخرى إلى فرغانة فملكوها، وجهز جيشاً آخر نحو خراسان فحاصروا بلخ فصالحهم أهلها، وكذلك صالحوا مدنا كثيرة أخرى، حتى انتهوا إلى الطالقان فأعجزتهم قلعتها، وكانت حصينة، فحاصروها ستة أشهر حتى عجزوا، فكتبوا إلى جنكيزخان فقدم بنفسه فحاصرها أربعة أشهر أخرى حتى فتحها قهرا، ثم قتل كل من فيها وكل من في البلد بكماله من الخاصة والعامة.

ثم قصدوا مدينة مرو مع جنكيزخان، فقد عسكر بظاهرها نحو مائتي ألف مقاتل من العرب وغيرهم، فاقتتلوا معه قتالا عظيما حتى انكسر المسلمون، فإنا لله وإنا إليه راجعون، ثم حصروا البلد خمسة أيام، واستنزلوا نائبها خديعة، ثم غدروا به وبأهل البلد، فقتلوهم وغنموهم وسلبوهم، وعاقبوهم بأنواع العذاب، حتى إنهم قتلوا في يوم واحد سبعمائة ألف إنسان، ثم ساروا إلى نيسابور ففعلوا فيها ما فعلوا بأهل مرو، ثم إلى طوس فقتلوا وخربوا مشهد علي بن موسى والرشيد فتركوه خرابا، ثم ساروا هَراة فقتلوا خلقاً واستنابوا عليها، ثم ساروا إلى غزنة، فقاتلهم جلال الدين بن خوارزم شاه، فكسرهم فعادوا إلى هراة، فإذا أهلها قد نقضوا فقتلوهم عن آخرهم، ثم عادوا إلى ملكهم جنكيزخان لعنه الله وإياهم، وأرسل جنكيزخان طائفة أخري إلى مدينة خوارزم فحاصروها، حتى فتحوا البلد قهرا، فقتلوا من فيها قتلا ذريعاً، ونهبوها وسبوا أهلها، وأرسلوا الجسر الذي يمنع ماء جيحون عنها، فغرقت دورها، وهلك جميع أهلها.

ثم عادوا إلى جنكيزخان وهو مخيم على الطالقان، فجهز منهم طائفة إلى غزنة، فاقتتل معهم جلال الدين بن خوارزم شاه فكسرهم جلال الدين كسرة عظيمة، واستنقذ منهم خلقا من أسارى المسلمين، ثم كتب إلى جنكيزخان يطلب منه أن يبرز بنفسه لقتاله فقصده جنكيزخان فتواجها، وقد تفرق على جلال الدين بعض جيشه ولم يبق بد من القتال، فاقتتلوا ثلاثة أيام لم يعهد قبلها مثلها من قتالهم، ثم ضعفت أصحاب السلطان جلال الدين فذهبوا فركبوا في بحر الهند، فسارت التتار إلى غزنة فأخذوها بلا كلفة ولا ممانعة، كل هذا أو أكثره وقع في هذه السنة.

وفي هذه السنة أيضا ترك الأشرف موسى بن العادل لأخيه شهاب الدين غازي ملك خلاط وميافارقين وبلاد أرمينية، وحانى واعتاض عن ذلك بالرها وسروج، وذلك لاشتغاله عن حفظ تلك النواحي بمساعدة أخيه الكامل ونصرته على الفرنج لعنهم الله تعالى.

وفي المحرم منها هبت رياح ببغداد، وجاءت بروق وسمعت رعود شديدة، وسقطت صاعقة بالجانب الغربي على المنارة المجاورة لغزو معين فثلمتها، ثم أصلحت، وغارت الصاعقة في الأرض.

وفي هذه السنة نصب محراب الحنابلة في الرواق الثالث الغربي من جامع دمشق، بعد ممانعة من بعض الناس لهم، ولكن ساعدهم بعض الأمراء في نصبه لهم، وهو الأمير ركن الدين المعظمي، وصلي فيه الشيخ موفق الدين بن قدامة.

قلت: ثم رفع في حدود سنة ثلاثين وسبعمائة وعوضوا عنه بالمحراب الغربي عند باب الزيارة، كما عوض الحنفية عن محرابهم الذي كان في الجانب الغربي من الجامع بالمحراب المجدد لهم شرقي باب الزيارة، حين جدد الحائط الذي هو فيه في الأيام التنكزية، على يدي ناظر الجامع تقي الدين بن مراجل، أثابه الله تعالى، كما سيأتي بيانه في موضعه إن شاء الله تعالى.

وفيها قتل صاحب سنجار أخاه، فملكها مستقلا بها الملك الأشرف بن العادل.

وفيها نافق الأمير عماد الدين بن المشطوب على الملك الأشرف وكان قد آواه وحفظه من أذى أخيه الكامل له حين أراد أن يبايع للفائز، ثم إنه سعى في الأرض فساداً في بلاد الجزيرة، فسجنه الأشرف حتى مات كمدا وذلا وعُرياً.

وفيها أوقع الكامل بالفرنج الذين على دمياط بأساً شديدا، فقتل منهم عشرة آلاف، وأخذ منهم خيولهم وأموالهم ولله الحمد.

وفيها عزل المعظم المعتمد مبارز الدين إبراهيم عن ولاية دمشق وولاها للعزيز خليل، ولما خرج الحاج إلى مكة شرفها الله تعالى كان أميرهم المعتمد، فحصل به خير كثير، وذلك أنه كف عبيد مكة عن نهب الحاج، بعد قتلهم أمير حاج العراقين آقباش الناصري، وكان من أكبر الأمراء عند الخليفة الناصر وأخصهم عنده، وذلك لأنه قدم معه بخلع للأمير حسن بن أبي عزيز قتادة ابن إدريس بن مطاعن ابن عبد الكريم العلوي الحسني الزيدي بولايته لإمرة مكة بعد أبيه، وكانت وفاته في جمادى الأولى من هذه السنة، فنازع في ذلك راجح وهو أكبر أولاد قتادة، وقال لا يتأمر عليها غيري، فوقعت فتنة، أفضى الحال إلى قتل آقباش غلطاً، وقد كان قتادة من أكابر الأشراف الحسنيين الزيديين وكان عادلا منصفا منعما، نقمة على

عبيد مكة والمفسدين بها، ثم عكس هذا السير فظلم وجدد المكوس، ونهب الحاج غير مرة، فسلط الله عليه ولده حسنا فقتله وقتل عمه وأخاه أيضاً، فلهذا لم يهمل الله حسناً أيضاً، بل سلبه الملك وشرده في البلاد، وقيل: بل قتل كما ذكرنا، وكان قتادة شيخاً طويلا مهيبا لا يخاف من أحد من الخلفاء والملوك، ويرى أنه أحق بالأمر من كل أحد، وكان الخليفة يود لو حضر عنده ليكرمه، وكان يأبى من ذلك ويمتنع عنه أشد الامتناع، ولم يفد إلى أحد قط، ولا ذل لخليفة ولا ملك، وكتب إليه الخليفة مرة يستدعيه فكتب إليه:

ولي كفٌ ضرغام أذل ببطشها ... وأشري بها بين الورى وأبيعُ

وكلُ ملوكُ الأرضِ تلثمُ ظَهْرَها ... وفي بطنها للمجدبينَ ربيع

أأجعلها تحت الرحي ثم أبتغي ... خلاصاً لها إني إذا لرقيع

وما أنا إلا المسكُ في كل بقعة ... يضوع وأما عندكم فيضيع

وقد بلغ قتادة من السنين سبعين سنة، وقد ذكر ابن الأثير وفاته في سنة ثماني عشرة فالله أعلم.

وممن توفي فيها من الأعيان

الملك

■ الفائز: غياث الدين إبراهيم بن العادل، كان قد انتظم له الأمر في الملك بعد أبيه على الديار المصرية، على يدي الأمير عماد الدين بن المشطوب، لولا أن الكامل تدارك ذلك سريعا، ثم أرسله أخوه في هذه السنة إلى أخيهما الأشرف موسى، يستحثه في سرعة المسير إليهم بسبب الفرنج، فمات بين سنجار والموصل، وقد ذكر أنه سم فرد إلى سنجار فدفن بها، رحمه الله تعالى.

شيخ الشيوخ صدر الدين: أبو الحسن محمد بن شيخ الشيوخ عماد الدين عمر

■ ابن حمويه الجويني من بيت رياسة وإمرة عند بني أيوب، وقد كان صدر الدين هذا فقيهاً فاضلا، درس بتربة الشافعي بمصر، وبمشهد الحسين وولي مشيخه سعيد السعداء والنظر فيها، وكانت له حرمة وافرة عند الملوك، أرسله الكامل إلى الخليفة يستنصره على الفرنج فمات بالموصل بالإسهال، ودفن بها عند قضيب البان عن ثلاث وسبعين سنة.

■ (محمد بن عمر بن شاهنشاة بن أيوب).

صاحب حماة: الملك المنصور محمد بن الملك المظفر تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب، وكان فاضلا له تاريخ في عشر مجلدات سماه المضمار، وكان شجاعاً فارساً، فقام بالملك بعده ولده الناصر قليج أرسلان، ثم عزله عنها الكامل وحبسه مات رحمه الله تعالى وولى أخاه المظفر بن المنصور.

صاحب آمد: الملك الصالح ناصر الدين

■ محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن أرتق، وكان شجاعاً محباً للعلماء، وكان مصاحباً للأشرف موسى بن العادل يجيء إلى خدمته مراراً، وملك بعده ولده الملك المسعود، وكان بخيلا فاسقاً، فأخذ الكامل آمد وحبسه بمصر ثم أطلقه فأخذ أمواله وسار إلى التتار، فأخذته منه.

الشيخ عبد الله

■ اليونيني: الملقب أسد الشام رحمه الله ورضي عنه من قرية ببعلبك يقال لها يونين، وكانت له زاوية يقصد فيها للزيارة، وكان من الصالحين الكبار المشهورين بالعبادة والرياضة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، له همة عالية في الزهد والورع، بحيث إنه كان لا يقتني شيئاً ولا يملك مالا ولا ثياباً، بل يلبس عاريَّة ولا يتجاوز قميصاً في الصيف وفروة فوقه في الشتاء، وعلى رأسه قبعاً من جلود المعز، شعره إلى ظاهر، وكان لا ينقطع عن غزاة من الغزوات، ويرمي عن قوس زنته ثمانون رطلا، وكان يجاور في بعض الأحيان بجبل لبنان، ويأتي في الشتاء إلى عيون الفاسريا في سفح الجبل المطل على قرية دومة شرقي دمشق، لأجل سخونة الماء، فيقصده الناس للزيارة هناك، ويجيء تارة إلى دمشق فينزل بسفح قاسيون عند المقادسة وكانت له أحوال ومكاشفات صالحة، وكان يقال له أسد الشام.

حكى الشيخ أبو المظفر سبط ابن الجوزي [مرآن الزمان: ٦١٣/٨] عن القاضي جمال الدين يعقوب الحاكم بكرك البقاع أنه شاهد مرة الشيخ عبد الله وهو يتوضأ من نَوْرا عند الجسر الأبيض إذ مر نصراني ومعه حمل بغل خمراً فعثرت الدابة عند الجسر فسقط الحمل فرأى الشيخ وقد فرغ من وضوئه ولا يعرفه، واستعان به على رفع الحمل فاستدعاني الشيخ فقال: تعال يا فقيه، فتساعدنا على تحميل ذلك الحمل على الدابة وذهب النصراني فتعجبت من ذلك وتبعت الحمل وأنا ذاهب إلى المدينة، فانتهى به إلى العُقيبة فأورده إلى الخمار بها فإذا خل فقال له الخمار: ويحك هذا خل، فقال النصراني: أنا والله أعرف من أين أُتيت، ثم ربط الدابة في خان ورجع إلى الصالحية فسأل عن الشيخ فعرفه فجاء إليه فأسلم على يديه.

وله أحوال وكرامات كثيرة جداً، وكان لا يقوم لأحد دخل عليه ويقول: إنما يقوم الناس لرب العالمين.

وكان الأمجد إذا دخل عليه جلس بين يديه فيقول له: يا مُجَيْد فعلت كذا وكذا ويأمره بما يأمره وينهاه عما ينهاه عنه، وهو يمتثل جميع ما يقوله له، وما ذاك إلا لصدقه في زهده وورعه وطريقه، وكان يقبل الفتوح، وكان لا يدخر منه شيئاً لغد، وإذا اشتد جوعه أخذ من ورق اللوز ففركه واستفه ويشرب فوقه الماء البارد رحمه الله تعالى وأكر م مثواه.

وذكروا أنه كان يحج في بعض السنين في الهوء، وقد وقع هذا لطائفة كبيرة من الزهاد وصالحي العباد، ولم يبلغنا هذا عن أحد من أكابر العلماء، وأول من يذكر عنه هذا حبيب العجمي، وكان من أصحاب الحسن البصري، ثم من بعده من الصالحين رحمة الله تعالى عليهم أجمعين.

فلما كان يوم جمعة من عشر ذي الحجة من هذه السنة صلى الشيخ عبد الله اليونيني صلاة الجمعة بجامع بعلبك، وكان قد دخل الحمام يومئذ قبل الصلاة وهو سَوِيٌّ صحيح، فلما انصرف من الصلاة قال للشيخ داود المؤذن، وكان يغسل الموتى: انظر كيف تكون غداً، ثم صعد الشيخ إلى زاويته فبات يذكر الله تعالى تلك الليلة ويتذكر أصحابه، ومن أحسن إليه ولو بأدنى شيء ويدعو لهم، فلما دخل وقت الصبح صلى بأصحابه ثم استند يذكر الله وفي يده سبحته، فمات وهو كذلك جالس لم يسقط، ولم تسقط السبحة من يده، فلما انتهى الخبر إلى الملك الأمجد صاحب بعلبك جاء إليه فعاينه كذلك فقال لو بنينا عليه بنيانا هكذا يشاهد الناس منه آية، فقيل له: ليس هذا من السنة، فنحي وغُسِّل وكفن وصلي عليه ودفن تحت اللوزة التي كان يجلس تحتها يذكر الله تعالى، رحمه الله ونور ضريحه.

وكانت وفاته يوم السبت وقد جاوز ثمانين سنة رحمه الله وأكرم مثواه، وكان الشيخ محمد الفقيه اليونيني من جملة تلاميذه، وممن يلوذ به وهو جد هؤلاء المشايخ بمدينة بعلبك.

أبو عبد الله

■ الحسين بن محمد بن أبي بكر: المجلي الموصلي، ويعرف بابن الجهني،

شاب فاضل ولي كتابة الإنشاء لبدر الدين لؤلؤ زعيم الموصل، ومن شعره:

نفسي فداء الدين فكرت فيه وقد ... غدوت أغرق في بحر من العجب
يبدو بليل على صبح على قمر ... على قضيب على وهم على كثب

ثم دخلت سنة ثمان عشرة وستمائة

فيها استولت التتار على كثير من البلدان كمراغة وهمذان وأردبيل وتبريز وكنجة، وقتلوا أهاليها ونهبوا ما فيها، وأستأسروا ذراريها، واقتربوا من بغداد، فانزعج الخليفة لذلك، وحصن بغداد، واستخدم الأجناد، وقنت الناس في الصلوات والأوراد.

وفيها قهروا الكرج واللان، ثم قاتلوا القفجاق فكسروهم، وكذلك الروس، وينهبون ما قدروا عليه، ثم قاتلوهم وسبوا نساءهم وذراريهم.

وفيها سار المعظم إلى أخيه الأشرف، فاستعطفه علي أخيه الكامل، وكان في نفسه موجدة عليه فأزالها، وسارا جميعاً نحو الديار المصرية، لمعاونة الكامل علي الفرنج الذين قد أخذوا ثغر دمياط، واستحكم أمرهم هنالك من سنة أربع عشرة، وعرض عليهم في بعض الأوقات أن يرد إليهم بيت المقدس، وجميع ما كان صلاح الدين فتحه من بلاد الساحل ويتركوا دمياط، فامتنعوا من ذلك ولم يفعلوا، فقدر الله تعالى أنهم ضاقت عليهم الأقوات، فقدم عليهم مراكب فيها ميرة لهم، فأخذها الأسطول البحري، وأرسلت المياه على أراضي دمياط من كل ناحية، فلم يمكنهم بعد ذلك أن يتصرفوا في أنفسهم، وحصرهم المسلمون من الجهة الأخرى حتى اضطروهم إلى أضيق الأماكن، فعند ذلك أنابوا إلى المصالحة بلا معاوضة، فجاء مقدموهم إليه وعنده أخواه المعظم عيسى وموسى الأشرف، وكانا قائمين بين يديه، وكان يوما مشهودا، وأمراً محموداً فوقع الصلح على ما أراد الكامل محمد بيض الله وجهه، وملوك الفرنج والعساكر كلها واقفة بين يديه، ومد سماطا عظيما، فاجتمع عليه المؤمن والكافر، والبر والفاجر، وقام راجح الحلي الشاعر فأنشد:

هنيئاً فإن السعد راحَ مخلداً ... وقد أنجز الرحمن بالنصر موعدا
حبانا إله الخلق فتحاً بدا لنا ... مبينا وإنعاما وعزا مؤبدا
تهلل وجه الدهر بعد قطوبه ... وأصبح وجه الشرك بالظلم أسوداً
ولما طغى البحر الخضم بأهله الط ... غاة وأضحى بالمراكب مزبدا
أقام لهذا الدين من سل عزمه ... صقيلا كما سل الحسام مجردا
فلم ينج إلا كل شلو مجدل ... ثوى منهم أو تراه مقيدا
ونادى لسان الكون في الأرض رافعاً ... عقيرته في الخافقين ومنشدا
أعبَّادَ عيسى إن عيسى وحزبه ... وموسى جميعا يخدمون محمداً

قال أبو شامة: وبلغني أنه أشار عند ذلك إلى المعظم عيسى، والأشرف موسى، والكامل محمد قال: وهذا من أحسن شيء اتفق. وكان ذلك يوم الأربعاء تاسع عشر رجب من هذه السنة، وتراجعت الفرنج إلى عكا وغيرها من البلدان، ورجع المعظم إلى الشام، واصطلح الأشرف والكامل على أخيهما المعظم.

وفيها ولى الملك المعظم قضاء دمشق لجمال الدين المصري، الذي كان وكيل بيت المال بها، وكان فاضلا بارعا، يجلس في كل يوم جمعة قبل الصلاة بالعادلية بعد فراغها لإثبات المحاضر، ويحضر عنده في المدرسة جميع الشهود من كل المراكز، حتى يتيسر على الناس إثبات كتبهم في الساعة الواحدة، جزاه الله خيراً.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **ياقوت الكاتب الموصلي**: رحمه الله، أمين الدين المشهور بطريقة ابن البواب.

قال ابن الأثير: لم يكن في زمانه من يقاربه في خطّه، وكانت لديه فضائل جمة، والناس متفقون على الثناء عليه، وكان نعم الرجل، وقد قال فيه نجيب الدين الواسطي قصيدة يمدحه بها:

جامعٌ شارد العلوم ولولا ... ه لكانت أم الفضائل ثكلى
ذو يراع تخافُ زُبْيَتُهُ الأس ... دُ، وتعنو لهُ الكتائبُ ذلا
وإذا افتر ثغرهُ عن سوادٍ ... في بياضٍ فالبيض والسُمر خجلى
أنت بدر والكاتب ابن هلال ... كأبيه لا فخر فيمن تولى
إن يكن أولى فإنك بالتفض ... يل أولى فقد سبقت وصلى

■ **جلال الدين الحسن**: من أولاد الحسن بن الصباح مقدم الإسماعيلية، وكان قد أظهر في قومه شعائر الإسلام، وحفظ الحدود والمحرمات، والقيام بالزواجر الشرعية.

الشيخ الصالح شهاب الدين

■ **محمد بن خلف بن راجح المقدسي الحنبلي، الزاهد العابد الناسك**، كان يقرأ على الناس يوم الجمعة الحديث النبوي، وهو جالس على أسفل منبر الخطابة بالجامع المظفري، وقد سمع الحديث الكثير، ورحل وحفظ مقامات الحريري في خمسين ليلة، وكانت له فنون كثيرة، وكان ظريفا مطبوعا رحمه الله.

والخطيب موفق الدين أبو عبد الله

■ **عمر بن يوسف بن يحيى بن عمر بن كامل المقدسي**، خطيب بيت الآبار، وقد ناب بدمشق عن الخطيب جمال الدين الدولعي، حين سار في الرسلية إلى خوارزم شاه، حتى عاد.

المحدث البارع تقي الدين أبو طاهر

■ **إسماعيل بن عبد الله بن عبد المحسن بن الأنماطي**، قرأ الحديث ورحل وكتبه، وكان حسن الخط، متقنا في علوم الحديث، حافظا له، وكان الشيخ تقي الدين بن الصلاح يثني عليه ويمدحه، وكانت له كتب بالبيت الغربي من الكلاسة، الذي كان للملك المحسن بن صلاح الدين، ثم أخذ من ابن الأنماطي، وسلم إلى الشيخ عبد الصمد الدكاني، واستمر بيد أصحابه بعد ذلك، وكانت وفاته بدمشق، ودفن بمقابر الصوفية، وصلى عليه بالجامع الشيخ موفق الدين، وبباب النصر الشيخ فخر الدين بن عساكر، وبالمقبرة قاضي القضاة جمال الدين المصري، رحمه الله تعالى.

أبو الغيث

■ **شعيب بن أبي طاهر بن كليب بن مقبل الضرير**، الفقيه الشافعي، أقام ببغداد إلى أن توفي، وكانت لديه فضائل، وله رسائل، ومن شعره قوله:

إذا كنتمُ للناس أهل سياسةٍ ... فسوسوا كرام الناس بالجود والبذل
وسوسوا لئام الناس بالذل يصلحوا ... عليه، فإن الذل أصلح للنذل

أبو العز

■ **مشرّف بن علي بن أبي جعفر بن كامل الخالصي**، المقرئ الضرير، الفقيه الشافعي، تفقه بالنظامية، وسمع الحديث ورواه، وأنشد عن الحسن بن عمرو الحلبي:

تمثلتُمُ لي والديارُ بعيدةٌ فخيلَ لي أن الفؤاد لكم معنى
وناجاكمُ قلبي على البعد بيننا فأوحشتم لفظاً وآنستم معنى

أبو سليمان

■ **داود بن إبراهيم الجيلي**، أحد المعيدين بالمدرسة النظامية، ومما أنشده:

أيا جامعا أمسك عنانك مقصراً فإن مطايا الدهر تكبو وتقصرُ
ستقرعُ سنا أو تعضُّ ندامةً إذا خان الزمان وتبصرُ
ويلقاك رشدٌ بعد غيك واعظٌ ولكنه يلقاك والأمر مدبرُ

أبو المظفر

■ **عبد الودود بن محمود بن المبارك بن علي بن المبارك بن الحسن** الواسطي الأصل، البغدادي الدار والمولد، كمال الدين المعروف والده بالمجبر، تفقه على أبيه، وقرأ عليه علم الكلام، ودرس بمدرسته عند باب الأزج، ووكله الخليفة الناصر، واشتهر بالديانة والأمانة، وباشر مناصب كباراً، وحج مراراً عديدة، وكان متواضعاً، حسن الأخلاق وكان يقول:

وما تركت ستٌّ وستون حجة لنا حجةٌ أن تركب اللّهو مركبا

وكان ينشد:

العلمُ يأتي كل ذي خف ض ويأبي كل آبي
كالماءِ ينزلُ في الوها د وليس يصعد في الروابي

ثم دخلت سنة تسع عشرة وستمائة

فيها نقل تابوت العادل من القلعة إلى تربته العادلية الكبيرة، فصلي عليه أولا تحت النسر بالجامع الأموي، ثم جاؤوا به إلى التربة المذكورة فدفن فيها، ولم تكن المدرسة كملت بعد، وقد تكامل بناؤها في السنة الآتية أيضا. وذكر الدرس بها القاضي جمال الدين المصري، وحضر عنده السلطان المعظم فجلس في الصدر، وعن شماله القاضي، وعن يمينه جمال الدين الحصيري شيخ الحنفية، وكان في المجلس الشيخ تقي الدين بن الصلاح إمام السلطان، والشيخ سيف الدين الآمدي إلى جانب المدرس، وإلى جانبه شمس الدين بن سَنِيِّ الدولة، ويليه النجم خليل قاضي العسكر، وتحت الحصيري شمس الدين بن الشيرازي، وتحته محيي الدين بن الزكي، وفيه خلق من الأعيان والأكابر، وفيهم فخر الدين بن عساكر.

وفيها أرسل الملك المعظم الصدر البكري محتسب دمشق إلى جلال الدين بن خوارزم شاه يستعينه علي أخويه الكامل والأشرف اللذين قد تمالآ عليه فأجابه إلى ذلك بالسمع والطاعة، ولما عاد البكري أضاف إليه مشيخة الشيوخ.

وحج في هذه السنة الملك المسعود أقسيس بن الكامل صاحب اليمن، فبدت منه أفعال ناقصة بالحرم الشريف، من سكر ورشق حمام المسجد بالبندق من أعلى قبة زمزم، وكان إذا نام في دار الإمارة يضرب الطائفون بالمسعى بأطراف السيوف لئلا يشوشوا عليه وهو نَومٌ سَكِرٌ قبحه اللّه، ولكن كان مع هذا كله مهيباً محترماً، والبلاد به آمنة مطمئنة، وقد كاد يرفع سنجق أبيه يوم عرفة على سنجق الخليفة، فيجري بسبب ذلك فتنة عظيمة، وما مكن من طلوعه وصعوده إلى الجبل إلا في آخر النهار بعد جهد جهيد.

وفيها كان بالشام جراد كثير أكل الزرع والثمار والأشجار.

وفيها وقعت حروب كثيرة بين القفجاق والكرج، وقتال كثير بسبب ضيق بلاد القفجاق عليهم.

وفيها ولي قضاء القضاة ببغداد أبو عبد اللّه محمد بن فضلان، ولبس الخلعة في دار نائب الوزارة مؤيد الدين محمد بن محمد القُمّي بحضرة الأعيان والكبراء، وقرئ تقليده بحضرتهم، وساقه ابن الساعي بحروفه.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **عبد القادر بن داود: أبو محمد الواسطي**، الفقيه الشافعي، الملقب بالمحب، استقل بالنظامية دهراً، واشتغل بها، وكان فاضلا، دينا صالحاً، ومما أنشده من الشعر:

الفرقدان كلاهما شهدا له والبدرُ ليلة تمه بشهاده
دنفٌ إذا اعتبق الظلام تضرمت نارُ الجوى في صدره وفؤاده
فجرت مدامع جفنه في خده مثل المسيل يسيلُ من أطواده
شوقاً إلى مضنيه لم أر هكذا مشتاق مضنى جسمه بعباده
ليت الذي أضناه سحر جفونه قبل الممات يكون من عواده

أبو طالب

■ **يحيى بن علي: اليعقوبي الفقيه الشافعي**، أحد المعيدين ببغداد، كان شيخا مليح الشيبة، جميل الوجه، كان يلي بعض الأوقاف، ومما أنشده لبعض الفضلاء:

لحمل تهامةٍ وجبال أحدٍ وماءُ البحر ينقل بالزبيلِ
ونقلُ الصخر فوق الظهر يوماً لأهون من مجالسة الثقيلِ

ولبعضهم أيضاً، وهو مما أنشده المذكور:

وإذا مضى للمرء من أعوامه خمسون وهو إلى التقى لا يجنحُ
عكفت عليه المخزياتُ بقولها حالفتنا، فأقمْ كذا لا تبرحُ
وإذا رأى الشيطان غرة وجهه حيأ، وقال فديت من لا يفلحُ

اتفق أنه طولب بشيء من المال فلم يقدر عليه، فاستعمل شيئاً من الأفيون المصري، فمات من يومه ودفن بالوردية.

وفيها توفي

■ **قطب الدين بن العادل**: بالفيوم ونقل إلى القاهرة.

وفيها توفي إمام الحنابلة بمكة.

الشيخ

■ **نصر بن أبي الفرج: المعروف بابن الحصري**، جاور بمكة مدة لم يسافر، ثم ساقته المنية إلى اليمن، فمات بها في هذه السنة، وقد سمع الحديث من جماعة من المشايخ.

وفيها في ربيع الأول توفي بدمشق الشهاب

■ **عبد الكريم بن نجم بن الحنبلي**، أخو البهاء والناصح، وكان فقيها مناظراً، بصيراً بالمحاكمات، وهو الذي أخرج مسجد الوزير من يد الشيخ علم الدين السخاوي، رحمه اللّه تعالى بمنه وكرمه.

ثم دخلت سنة عشرين وستمائة

فيها عاد الأشرف موسى بن العادل من عند أخيه الكامل صاحب مصر إلى الشام، فتلقاه أخوه المعظم وقد فهم أنهما تمالآ عليه، فبات ليلة بدمشق، وسار من آخر الليل ولم يشعر أخوه بذلك، فسار إلى بلاده، فوجد أخاه الشهاب غازي الذي استنابه على خلاط وميافارقين وقد قويَ رأسه، وكاتبه المعظم صاحب إربل، وحسنوا له مخالفة الأشرف، فكتب إليه الأشرف ينهاه عن ذلك فلم يقبل، فجمع له العساكر لقتاله.

وفيها سار أقسيس الملك المسعود صاحب اليمن ابن الكامل من اليمن إلى مكة شرفها الله تعالى، فقاتله حسن بن قتادة ببطن مكة بين الصفا والمروة، فهزمه أقسيس وشرده، واستقل بملك مكة مع اليمن، وجرت أمور فظيعة، وتشرد حسن بن قتادة قاتل أبيه وعمه وأخيه في تلك الشعاب والأودية.

ومن توفي فيها من الأعيان

الشيخ الإمام موفق الدين:

■ ابن قدامة المقدسي مصنف المغني في الفقه عبد الله بن أحمد بن محمد بن قدامة الشيخ موفق الدين أبو محمد المقدسي إمام عالم بارع. لم يكن في عصره، بل ولا قبل دهره بمدة أفقه منه، ولد بجماعيل، في شعبان سنة إحدى وأربعين وخمسمائة، وقدم مع أهله إلى دمشق في سنة إحدى وخمسين، وقرأ القرآن، وسمع الحديث الكثير، ورحل مرتين إلى العراق، إحداهما في سنة إحدى وستين مع ابن خالته الحافظ عبد الغني، والأخرى سنة سبع وستين، وحج في سنة ثلاث وسبعين، تفقه ببغداد على مذهب الإمام أحمد، وبرع وأفتى، وناظر وتبحر في فنون كثيرة، مع زهد وعبادة، وورع وتواضع، وحسن أخلاق، وجود وحياء، وحسن سمت، ونور وبهاء، وكثرة تلاوة، وصلاة وصيام وقيام، وطريقة حسنة، واتباع للسلف الصالح، وكانت له أحوال ومكاشفات، وقد قال الشافعي رحمه الله تعالى: إن لم يكن العلماء العاقلون أولياء الله فلا أعلم لله وليّاً.

وكان يؤم الناس للصلاة في محراب الحنابلة هو والشيخ العماد، فلما توفي العماد استقل هو بالوظيفة، فإن غاب صلى عنه أبو سليمان عبد الرحمن بن الحافظ عبد الغني، وكان يتنفّل بين العشاءين بالقرب من محرابه، فإذا صلى العشاء انصرف إلى منزله بدرب الدولعي بالرصيف، وأخذ معه من الفقراء من تيسر يأكلون معه من طعامه، وكان منزله الأصلي بقاسيون، فينصرف في بعض الليالي بعد العشاء إلى الجبل، فاتفق في بعض الليالي أن خطف رجل عمامته، وكان فيها كاغد فيه رمل، فقال له الشيخ: خذ الكاغد وألق العمامة، فظن الرجل أن في الكاغد مالاً، فأخذه وألقى العامة، فأخذه وألقى العمامة فأخذها الموقف ثم ذهب. وهذا يدل على ذكاء مفرط، واستحضار حسن في الساعة الراهنة، حتى خلص عمامته من يده بتلطف.

وله مصنفات عديدة مشهورة، منها المغني في شرح مختصر الخرقي في عشرة مجلدات، و «الكافي» في أربعة مجلدات، والمقنع للحفظ، والروضة في أصول الفقه، وغير ذلك من التصانيف المفيدة.

وكانت وفاته في يوم عيد الفطر في هذه السنة، وقد بلغ الثمانين، وكان يوم سبت، وحضر جنازته خلق كثير، ودفن بتربته المشهورة، ورؤيت له منامات صالحة رحمه الله تعالى، وكان له أولاد ذكور وإناث، فماتوا في حياته، ولم يعقب منهم سوى ابنه عيسى ولدين، ثم ماتا وانقطع نسله، قال أبو المظفر السبط:

نقلت من خط الشيخ موفق الدين رحمه الله تعالى:

لا تجلسنْ بباب من ... يأبى عليك دخول داره
وتقول حاجاتي إليـ ... ـه يعوقها إن لم أداره
واتركه واقصد ربها ... تُقضى وربُّ الدار كارهْ

ومما أنشده الشيخ موفق الدين لنفسه رحمه الله تعالى ورضي عنه قوله:

أبعد بياض الشعر أعمر مسكناً ... سوى القبر، إني إن فعلت لأحمق
يخبرني شيبي بأني ميت ... وشيكا، فينعاني إليَّ ويصدق
يخرق عمري كل يوم وليلة ... فهل أستطيع رقع ما يتخرق
كأني بجسمي فوق نعشي ممدداً ... فمن ساكت أو معول يتحرق
إذا سئلوا عني أجابوا وعولوا ... وأدمعهم تنهل هذا الموفق
وغيبت في صدع من الأرض ضيق ... وأودعت لحدا فوقه الصخر مطبق
ويحثو علي الترب أوثق صاحب ... ويسلمني للقبر من هو مشفق
فيا رب كن لي مؤنساً يوم وحشتي ... فإني بما أنزلته لمصدق
وما ضرني أني إلى الله صائر ... ومن هو من أهلي أبر وأرفق

فخر الدين ابن عساكر

■ عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة الله بن عساكر: فخر الدين أبو منصور الدمشقي، شيخ الشافعية بها، وأمه اسمها أسماء بنت محمد بن الحسن بن طاهر القريشية، المعروف والدها بأبي البركات بن الراني، وهو الذي جدد مسجد القدم في سنة سبع عشرة وخمسمائة، وبه قبره وقبرها، ودفن هناك طائفة كبيرة من العلماء، وهي أخت آمنة والدة القاضي محيي الدين محمد بن علي بن الزكي.

اشتغل الشيخ فخر الدين من صغره بالعلم الشريف، على شيخه قطب الدين مسعود النيسابوري، فتزوج بابنته، ودرس مكانه بالجاروخية، وبها كان يسكن في إحدى القاعتين اللتين أنشأهما، وبها توفي غربي الإيوان، ثم تولى تدريس الصلاحية الناصرية بالقدس الشريف، ثم ولاه العادل تدريس التقوية، وكان عنده أعيان الفضلاء ثم تفرغ فلزم المجاورة في الجامع في البيت الصغير إلى جانب محراب الصحابة، يخلو فيه للعبادة والمطالعة والفتاوى، وكانت الفتاوى تفد إليه من الأقطار، وكان كثير الذكر، حسن السمت، وكان يجلس تحت قبة النسر، في كل اثنين وخميس مكان عمه، لإسماع الحديث بعد العصر، فيقرأ عليه دلائل النبوة وغيره، وكان يحضر مشيخة دار الحديث النورية، ومشهد ابن عروة أول ما فتح، وقد استدعاه الملك العادل بعد ما عزل قاضيه زكي الدين فأجلسه إلى جانبه وقت السماط، وسأل منه أن يلي القضاء بدمشق، فقال: حتى أستخير الله تعالى، ثم امتنع من ذلك، فشق على السلطان امتناعه، وهمَّ أن يؤذيه فقيل له: احمد الله الذي فيه مثل هذا.

ولما توفي العادل وأعاد ابنه المعظم الخمور أنكر عليه الشيخ فخر الدين، فبقي في نفسه منه، فانتزع منه تدريس الصلاحية التي بالقدس وتدريس التقوية، ولم يبق معه سوى الجاروخية، ودار الحديث النورية، ومشهد ابن عروة.

وكانت وفاته يوم الأربعاء بعد العصر، عاشر رجب من هذه السنة، وله خمس وستون سنة، وصلى عليه بالجامع، وكان يوماً مشهوداً، وحملت جنازته إلى مقابر الصوفية فدفن في أولها، قريباً من قبر شيخه قطب الدين مسعود بن عروة.

شرف الدين

■ **محمد بن عروة الموصلي**: المنسوب إليه مشهد ابن عروة ويقول الناس مشهد عروة بالجامع الأموي، لأنه أول من فتحه، وقد كان مشحوناً بالحواصل الجامعية، وبنى فيه البركة، ووقف فيه على الحديث درساً، ووقف خزائن كتب فيه، وكان مقيما بالقدس الشريف، ولكنه كان من خواص أصحاب الملك المعظم، فانتقل إلى دمشق حين خرب سور بيت المقدس إلى أن توفي بها، وقبره عند قباب أتابك طغتكين قبلي المصلى رحمه الله تعالى.

الشيخ أبو الحسن

■ **الروزبهاري**: دفن بالمكان المنسوب إليه بين السورين عند باب الفراديس.

الشيخ

■ **عبد الرحمن اليمني**: كان مقيما بالمنارة الشرقية، كان صالحا زاهداً ورعا، ودفن بمقابر الصوفية.

الرئيس عز الدين

■ **المظفر بن أسعد بن حمزة التميمي بن القلانسي**، أحد رؤساء دمشق وكبرائها، وجده أبو يعلى حمزة له تاريخ، ذيل به على ابن عساكر، وقد سمع عز الدين هذا الحديث من الحافظ أبي القاسم ابن عساكر وغيره، ولزم مجالسة الكندي وانتفع به.

الأمير الكبير أحد حجاب الخليفة

■ **محمد بن سليمان بن قتلمش بن تركانشاه أبو منصور السمرقندي**، وكان من أولاد الأمراء، وولي حاجب الحجاب بالديوان العزيز الخليفتي، وكان يكتب جيدا جدًّا، وله معرفة حسنة بعلوم كثيرة، منها: الأدب، وعلوم الرياضة، وعمر دهرا، وله حظ من نظم الشعر الحسن، ومن شعره قوله:

سئمت تكاليف هذي الحياة ... وكد الصباح بها والمساء
وقد كنت كالطفل في عقله ... قليل الصواب كثير الهراء
أنام إذا كنت في مجلس ... وأسهر عند دخول الغناء
وقصر خطوي قيد المشيب ... وطال عليَّ ما عناني عناء
وغودرت كالفرخ في عشه ... وخلفت حلمي وراء وراء
وما جر ذلك غير البقاء ... فكيف ترى فعلَ سُوء البقاء

وله أيضاً، وهو من شعره الحسن رحمه الله:

إلهي يا كثير العفو غفرا ... لما أسلفت في زمن الشباب
فقد سودت في الآثام وجها ... ذليلا خاضعا لك في التراب
فبيضه بحسن العفو عني ... وسامحني وخفف من حسابي

ولما توفي صلي عليه بالنظامية، ودفن بالشونيزية، ورآه بعضهم في المنام فقال ما فعل بك ربك؟ فقال:

تحاشيت اللقاء لسوء فعلي ... وخوفا في المعاد من الندامه
فلما أن قدمت على إلهي ... وحاقق في الحساب على قلامه
وكان العدل أن أصلى جحيما ... تعطف بالمكارم والكرامه
وناداني لسان العفو منه ... ألا يا عبد تهنيك السلامه

أبو علي

■ **الحسن بن أبي المحاسن**: زهرة بن الحسن بن زهرة العلوي الحسيني الحلبي، نقيب الأشراف بها، كان لديه فضل وعلم بالأدب والعربية وعلم بأخبار الناس والتواريخ والسير والحديث، ضابطا حافظا للقرآن المجيد، وله شعر جيد فمنه قوله:

لقد رأيت المعشوق وهو من الهَجْـ ... ـرِ بحال تنبو النواظر عنه
أثر الدهر فيه آثار سوء ... وأدالت يد الحوادث منه
عاد مستبذلاً ومستبدلا عزا ... بذل كأنه لم يصنه

أبو علي

■ **يحيى بن محمد بن علي بن المبارك بن الجلاجلي** من أبناء التجار، سمع الحديث، وكان جميل الهيئة يسكن بدار الخلافة، وكان عنده علم وله شعر حسن، فمنه قوله:

خير إخوانك المشارك في المر ... وأين الشريك في المر أينا
الذي إن شهدت سرك في القوم ... وإن غبت كان أذنا وعينا
مثل سرّ العِقْيان إن مسه النا ... ر جلاه الجلاءُ فازداد زينا
وأخو السوء إن يغب عنك يشناك ... وإن يحتضر يكن ذاك شينا
جيبه غير ناصح ومناه ... أن يصب الخليل إفكاً ومينا
فاخش منه ولا تلهف عليه ... إن غرما له كنقدك دينا

ثم دخلت سنة إحدى وعشرين وستمائة

فيها وصلت سرية من جهة جنكيزخان غير الأولتين إلى الري، وكانت قد عمرت قليلا، فقتلوا أهلها أيضاً، ثم ساروا إلى ساوه، ثم إلى قم وقاشان، ولم تكونا طرقتا إلا هذه المرة، ففعلوا بها مثل ما تقدم من القتل والسبي، ثم ساروا إلى همذان فقتلوا أيضاً وسبوا، ثم ساروا إلى خلف الخوارزمية إلى أذربيجان، فكسروهم وقتلوا منهم خلقا كثيرا، فهربوا منهم إلى تبريز فلحقوهم، وكتبوا إلى ابن البهلوان: إن كنت مصالحا لنا فابعث لنا بالخوارزمية وإلا فأنت مثلهم، فقتل منهم خلقا وأرسل برؤوسهم إليهم، مع تحف وهدايا كثيرة،هذا كله وإنما كانت هذه السرية ثلاثة آلاف، والخوارزمية وأصحاب البهلوان أضعاف أضعافهم، ولكن الله تعالى ألقى عليهم الخذلان والفشل، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفيها ملك غياث الدين بن خوارزم شاه بلاد فارس مع ما في يده من مملكة أصفهان وهمذان.

وفيها استعاد الملك الأشرف مدينة خلاط من أخيه شهاب الدين غازي، وكان قد جعلها إليه مع جميع بلاد أرمينية، وميافارقين وحاني، وجبل جور، وجعله ولي عهده من بعده، فلما عصى عليه وتشعب دماغه بما كتب إليه المعظم من تحسينه له مخالفته، فركب إليه وحاصره بخلاط فسلمت إليه، وامتنع أخوه في القلعة، فلما كان الليل نزل إلى أخيه معتذراً فقبل عذره، ولم يعاقبه، بل أقره على ميافارقين وحدها، وكان صاحب إربل والمعظم متفقين مع الشهاب غازي على الأشرف، فكتب الكامل إلى أخيه

المعظم يتهدده لئن ساعد على الأشرف ليأخذنّ بلاده، وكان بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل مع الأشرف، فركب إليه صاحب إربل فحاصره بسبب قلعة جنده، لأنه أرسلهم إلى الأشرف حين نازل خلاط، فلما انفصلت الأمور على ما ذكرنا ندم صاحب إربل، والمعظم بدمشق أيضا.

وفيها أرسل المعظم ولده الناصر داود إلى صاحب إربل يقويه على مخالفة الأشرف، وأرسل صوفيا من السميساطية يقال له الملق إلى جلال الدين بن خوارزم شاه - وكان قد أخذ أذربيجان في هذه السنة وقوي جأشه - يتفق معه على أخيه الأشرف، فوعده النصر والرفادة،

وفيها قدم الملك المسعود أقسيس ملك اليمن على أبيه الكامل بالديار المصرية، ومعه شيء كثير من الهدايا والتحف، من ذلك مائتا خادم، وثلاثة أفيلة هائلة، وأحمال عود وند ومسك وعنبر، وخرج أبوه الكامل لتلقيه، ومن نية أقسيس أن ينزع الشام من يد عمه المعظم.

وفيها كمل عمارة دار الحديث الكاملية بمصر، وولى مشيختها الحافظ أبو الخطاب بن دحية الكلبي، وكان مكثاراً كثير الفنون، وعنده فوائد وغرائب وعجائب، رحمه الله.

وممن توفي فيها من الأعيان

■ **أحمد بن محمد بن علي القادسي، الضرير الحنبلي**، والد صاحب الذيل على تاريخ ابن الجوزي، وكان القادسي هذا يلازم حضور مجلس الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي، ويزهره لما يسمعه من الغرائب ويقول: والله إن ذا مليح، فاستقرض منه الشيخ مرة عشرة دنانير فلم يعطه، وصار يحضر ولا يتكلم، فقال الشيخ مرة: هذا القادسي لا يقرضنا شيئا ولا يقول والله إن ذا مليح؟ رحمهم الله تعالى.

وقد طلب القادسي مرة إلى دار المستضيء ليصلي بالخليفة التراويح فقيل له والخليفة يسمع: ما مذهبك؟ فقال: حنبلي، فقال له: لا تصل بدار الخلافة وأنت حنبلي، فقال: أنا حنبلي ولا أصلي بكم، فقال الخليفة: اتركوه لا يصلي بنا إلا هو فصلى بهم.

أبو الكرم

■ **المظفر بن المبارك بن أحمد بن محمد البغدادي الحنفي** شيخ مشهد أبي حنيفة وغيره، ولي الحسبة بالجانب الغربي من بغداد، وكان فاضلا دينا شاعرا، ومن شعره:

فصن بجميل الصبر نفسك واغتنم ... شريف المزايا لا يفتك ثوابها
تعش سالما والقول فيك مهذب ... كريما وقد هانت عليك صعابها
وتندرج الأيام والكل ذاهب ... يمرُّ ويفنى عذبها وعذابها
فما الدهر إلا مر يوم وليلة ... وما العمر إلا طيها ونعابها
وما الحزم إلا في إخاء عزيمة ... فنيل المعالي صفوها ولبابها
ودع عنك إلمام الأماني فإنه ... سيسفر يوما غيها وصوابها

■ **محمد بن أبي الفرج بن معالي بن بركة**: الشيخ فخر الدين أبو المعالي الموصلي، قدم بغداد، واشتغل بالنظامية وأعاد بها، وكانت له معرفة بالقراءات، وصنف كتابا في مخارج الحروف، وأسند الحديث، وله شعر لطيف.

أبو بكر

■ **ابن حلبة الموازيني البغدادي**: كان فردا في علم الهندسة، وصناعة الموازين، يخترع أشياء غريبة عجيبة، من ذلك أنه ثقب حبة خشخاش سبعة ثقوب، وجعل في كل ثقب شعرة، وكانت له حظوة عند الدولة.

■ **أحمد بن جعفر بن أحمد بن محمد أبو العباس الدُّيثي** البيع الواسطي، شيخ أديب فاضل، له نظم ونثر، عارف بالأخبار والسير، وعنده كتب جيدة كثيرة، وله شرح قصيدة لأبي العلاء المعري في ثلاثة مجلدات، وقد أورد له ابن الساعي شعرا حسنا، فصيحا حلوا لذيذا في السمع، لطيفا في القلب.

ثم دخلت سنة ثنتين وعشرين وستمائة

فيها عاثت الخوارزمية حين قدموا مع جلال الدين بن خوارزم شاه من بلاد غزنة مقهورين من التتار إلى بلاد خوزستان ونواحي العراق، فأفسدوا فيه، وحاصروا مدنه، ونهبوا قراه.

وفيها استحوذ جلال الدين بن خوارزم شاه على بلاد أذربيجان، وكثيرا من بلاد الكرج، وكسر الكرج وهم في سبعين ألف مقاتل، فقتل منهم عشرين ألفا من المقاتلة، واستفحل أمره جدا، وعظم شأنه، وفتح تفليس فقتل منها ثلاثين ألفا.

وزعم أبو شامة أنه قتل من الكرج سبعين ألفا في المعركة، وقتل من تفليس تمام المائة ألف.

وقد اشتغل بهذه الغزوة عن قصد بغداد، وذلك أنه لما حاصر دقوقا سبه أهلها، ففتحها قهراً، وقتل من أهلها خلقا كثيرا، وخرب سورها، وعزم على قصد الخليفة ببغداد، لأنه فيما زعم عمل على أبيه حتى هلك، واستولت التتار على البلاد، وكتب إلى المعظم بن العادل يستدعيه لقتال الخليفة ويحرضه على ذلك، فامتنع المعظم من ذلك، ولما علم الخليفة بقصد جلال الدين بن خوارزم شاه بغداد أزعج لذلك، وحصن بغداد واستخدم الجيوش والأجناد، وأنفق في الناس ألف ألف دينار، وكان جلال الدين قد بعث جيشاً إلى الكرج، فبعثوا إليه أن أدركنا قبل أن نهلك عن آخرنا، وبغداد ما تفوت، فسار إليهم وكان من أمره ما ذكرنا.

وفيها كان غلاء شديد بالعراق والشام، بسبب قلة الأمطار، وانتشار الجراد، ثم أعقب ذلك فناء كثير بالعراق والشام أيضاً، فمات بسببه خلق كثير في البلدان، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفاة الخليفة الناصر لدين الله وخلافة ابنه الظاهر

لما كان يوم الأحد آخر يوم من شهر رمضان المعظم من هذه السنة، توفي الخليفة الناصر لدين الله أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله أبي محمد الحسين بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله أبي عبد العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله بن الذخيرة محمد بن القائم بأمر الله أبي جعفر عبد الله بن القادر بالله أبي العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر بالله، أبي الفضل جعفر بن المعتضد بالله، أبي العباس أحمد بن الموفق، أبي أحمد بن محمد المتوكل على الله جعفر بن المعتصم بالله، أبي إسحاق محمد بن هارون الرشيد بن المهدي محمد بن عبد الله أبي جعفر المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الهاشمي العباسي، أمير المؤمنين.